أبو بكر الخوارزمي

حياته وأدبه



محمود صالح الضمور



www.dardjlah.com

أبو بكر الخوارزمي

حياته وأدبه

أبو بكر الخوارزمي

حياته وأدبه

شعره: جمع وتحقيق

محمود صالح الضمور

الطبعة الأولى

2016



رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (1410/ 4/ 2015)

928.1

الضمور، محمود صالح

أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه/ محمود صالح الضمور.- عمان: دار دجلة للنشر والتوزيع، 2015.

(ص)

ر.أ: (2015/4/1410)

الواصفات: /الشعراء العرب// التراجم/

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.

2016



دار دجلة

ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان- شارع الملك حسين- مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171- الأردن

E-mail: dardjlah@ yahoo.com

www.dardjlah.com

ISBN: 9957-71-501-4

الفهـرست

الفصل الثالث: شعره

الفصل الرابع: نثره

المقدمــة

عني كثير من الدراسـات التاريخيـة الأدبيـة بتقسـيم الأدب إلى عصـور وأقـاليم وتيارات. ولكل من هذه التقسيمات ميزات وخصائص لها قيمتها.

غير أن دراسة الأدب على هذا النحـو- رغـم أهميتهـا- لا تغنـى عـن دراسـة الشخصيات الأدبية ذلك أن التعميم في الدراسات يجعـل أمـر التـدقيق في الخصـائص الفنية والأسلوبية، والنتاجات الفكرية والأدبية للشخصيات الأدبية مسألة ثانوية، إذ أن الاهتمام يكون منصباً على التماس الظواهر والخصـائص العامـة الـتي تميـز طائفـة أو اتجاهاً.

وتأتي أهمية دراسة الشخصيات الأدبية من المنطلقات الآتية:

1- أن الأدب نتاج اجتماعي يتأثر بالواقع الحضاري سلباً أو إيجاباً لكنه إلى ذلك شديد الارتباط بحياة الأديب، وظروفه النفسـية والتربويـة والاجتماعيـة. وهـذا يعـني أن دراسة الأدب، ومعرفة الاتجاهات والعوامل المؤثرة فيه لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار حياة الأديب وظروفه والعوامل المؤثرة في شخصيته واتجاهاته.

2- أن كتابة التاريخ الأدبي لأمتنا العربيـة، وبعـث تراثهـا يقتضـيان البحـث في حيـاة أدبائنا وتقصي نتاجاتهم، ولم أشتاتها وتصحيح المعلومات التي لا تسـتند إلى أسـس علمية صحيحة، ولا تخضع لأساليب البحث الأدبي، ولا شك أن هذا اللون مـن البحوث يشكل سنداً للدراسات الأخرى التي اشرنا إليها.

وقد وجدت في أبـي بكـر الخـوارزمي شخصـية جـديرة بالدراسـة لم تلـق مـن الاهتمام ما يوازي مكانتها الأدبية في النثر والشعر والتأليف. ومما شجعني على دراسته أن أحداً لم يخصه بدراسة منفصلة من قبل، وأن أغلب ما كتب عنه لا يعدو وأن يكون نتفا قصيرة مكرورة تتناول جوانب من حياته، وعلاقته بالصـاحب بـن عبـاد، وبـديع الزمان الهمذاني وشيئاً من أدبه، ولم يخرج عن ذلك إلا قلـيلاً مـا كتبـه الـدكتور زكـي

مبارك عن خصائص فنه النثرى في كتابه "النثر الفني في القرن الرابع الهجري" وما كتبته الآنسة هند حسين في رسالتها الجامعية الموسومة "الأدب في إقليم خوارزم".

وقد آثرت أن لا أقدم لهذا البحث بدراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية كما درجت على ذلك كثير من البحوث، فقد أغنتني عنه الدراسات المطولة المستوفية التي كتبت عن القرن الرابع ومنها كتاب آدم متز "الحضارت الإسلامية في القرن الرابع الهجري".

ثم أن الخوارزمي شخصية جوالة لم تعرف الاستقرار، فقد طوف في بلاد فارس والعراق والشام. وليس لنا أن ننسبه إلى بيئة معينة، وظروف سياسية واجتماعية محددة.

وهذا يعني أن شخصية الخوارزمي كانت وليدة الثقافة العربية الإسلامية بغير ما حدود أو قيود.

لقد توصلت إلى قناعة بدراسة هذه الشخصية الأدبية، وزاد إصراري حين عرفت أن بروكلمان يذكر له ديوان شعر مخطوطاً وأن له ديواناً قد طبع في القاهرة سنة 1903 في الوقت الذي كانت جميع المراجع الأخرى تنص على فقدان ديوانه.

وطفقت أبحث عن نسخة من الديوان المطبوع، ففتشت المكتبات العامة، وكثيراً من المكتبات الخاصة في بغداد، وبقية مدن العراق. ثم بحثت في فهارس المطبوعات وفهارس المكتبات العربية، فلم أجد له أثراً، وتوجهت إلى القاهرة علني أجد نسخة منه في مكتباتها العامة أو التجارية أو الخاصة، ولكن جهودي ذهبت أدراج الرياح. ولم أحصل إلا على نسخة مصورة من كتاب "الأمثال المولدة" وهو الذي اثبت- فيما بعد- نسبته إلى أبي بكر الخوارزمي، غير أن تلك المصورة كانت من السوء بحيث لا تتحقق منها الفائدة، وهو ما اضطرني إلى السفر إلى تركيا للإطلاع على المخطوطات، واستكمال النقص في المصورة حيث أن تصوير المخطوطات في تركيا- مسألة- للأسف- لا تتحقق.

وقد فتشت عن ديوان الخوارزمي مطبوعاً أو مخطوطاً في مكتبات استانبول ودمشق وبيروت وتيقنت أن بروكلمان قد وهم، وأنه ربما قصد بالديوان المطبوع ديوان بديع الزمان الهمذاني الذي طبع في القاهرة سنة 1903.

ونشطت في الحصول على نسخة مصورة للديوان المخطوط فكتبت إلى معهد المخطوطات البريطاني عن طريق المعهد البريطاني في بغداد، وجاء اعتذارهم عن التصوير من غير ما مسوغ وأعدت الكرة مرات ومرات، واستعنت بالمكتبة المركزية لجامعة بغداد، وكاتبت أصدقائي في بريطانيا فما كان تحت ذلك من طائل.

وسافرت إلى بريطانيا وتبين لي أن الديوان المخطوط ليس لأبي بكر الخوارزمي وأن صاحب الديوان شاعر من القرن العاشر الهجري، وأن هناك تشابهاً كبيراً في الأسماء، وقد أوقع هذا التشابه مفهرس المكتبة في الخطأ، فنسب الديوان إلى أبي بكر الخوارزمي.

ويبدو أن سوء الطالع الذي رافق مسألة الحصول على آثار الخوارزمي لم يبسط رداءه على مخطوطة شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للخوارزمي، فقد حصلت على نسخة مصورة عنها من مكتبة (Chester Peaty) في دبلن في وقت قصير نسبياً.

يتألف هذه البحث من مقدمة وأربعة فصول:

تناولت في الفصل الأول منه سيرة الخورازمي منذ ولادته إلى وفاته، مفصلاً الحديث في علاقاته الاجتماعية والأدبية التي تركت أثرها في حياتنا الأدبية.

ودرست في الفصل الثاني شخصيته من حيث أخلاقه، ومعتقداته السياسية، ونظرته الاجتماعية، وتحدثت عن مصادر ثقافته وأثره في تلاميذه، ثم فصلت القول في مؤلفاته، فأثبت في هذا المجال أن طائفة مما نسب إليه من المؤلفات لم تكن من تأليفه، وأثبت نسبة عدد آخر من المؤلفات إليه.

وتناولت في الفصل الثالث شعره بالدراسة ففصلت القول في اتجاهه الشعري

والعوامل المؤثرة في شاعريته، وبينت موقعه بين شعراء عصره، ثم درست أغرض شعره، وخصائصه الفنية والأسلوبية.

وخصصت الفصل الرابع لدراسة نثره، فبينت مكانته في النثر، وحددت اتجاهه ثم درست أغراضه في رسائله وخصائصها الفنية والأسلوبية.

وختمت البحث بخلاصة تحدثت فيها عن أبرز النتائج التي توصلت إليها.

كما تضمنت الرسالة ملحقاً حققت فيه شعر الخوارزمي الذي استطعت جمعه من المصادر المختلفة، فوفرت بذلك مرجعاً لإشعاره، بعد أن فقد أثر ديوانه.

وبعد: فقد منحت هذا البحث كثيراً من الجهد والوقت وحسبي أن في ذلك خدمة للمكتبة العربية وإسهاما متواضعاً في بعث تراثنا القومي الماجد.

والله الموفق بعد ذلك

المؤلف

محمود صالح الضمور

الفصل الأول

حياتــه

أبو بكر الخوارزمي

اسمه ولقبه:

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الطبري، ولا نعرف شيئاً من والده، ولا عن أسرته التي ينتمي إليها سوى ما ذكره في إحدى رسائله من أن والده قد خلّف عليه ما لو خلّفه على أهل بلد لكفاهم، ولو فرقه على فقراء الدنيا لأغناهم[1].

لقب القدماء أبا بكر بالخوازمي والطبري و(الطبرخزى)[2]، و(الطبرخزمي)[3] والطبرخي)[4] وهي ألقاب مأخوذة من لفظتي طبرستان وخوارزم اللتين ينتمي إليهما، حتى اشتهر بها،

ولد أبو بكر الخوارزمي سنة 323[5]هـ، أما مكان ولادته فقد اختلف فيه فهو يقول[6]:

بآمل مولدي وبنو جرير ... فأخوالي ويحكي المرء خاله

وآمل هذه أكبر مدينة بطبرستان في السهل[7]. ويقول في أحدى رسائله[8]:

فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً، وتخاتلني سرا، حتى خرجت منها أعرى من حية، وأكسى من بصلة... وجرى علي في مسقط رأسي، ومجمع أسرتي

---

(1) رسائل الخوارزمي/ 186.

(2) اليتيمة/ 4: 204.

(3) الأنساب المتفقة/ 97.

(4) شذرات الذهب 3/ 105.

(5) اليتيمة 4: 209.

(6) معجم البلدان/ 1: 57.

(7) معجم البلدان 1/ 68.

(8) الرسائل/ 186.

ومقطع سرتي من الغرم الثقيل ما كان من الثقل أثقل... على أني حيث كنت تاج على خوارزم معقودٌ.

ويقول الثعالبي[1]: بأن مولده ونشأته في خوارزم.

والمرجح عندي أنه ولد بمدينة آمل بطبرستان، وانتقل بعدها مع والده إلى خوارزم التي نشأ وترعرع فيها، فهي عشه الذي فيه درج، وبيته الذي منه خرج[2].

أما أصله فأعجمي، ذلك أنه، يقول[3]: وتذممت من أن أعارض بلسان خوارزمي وعقل طبري، وخاطر أعجمي من لسانه عربي، وعقله قرشي، ونشؤه مكيٌ، يقصد عمر بن أبي ربيعة المخزومي، ويذكر في رسالة أخرى بأنه ليس عربياً فيقول[4]: "وأنا المعيدي، وأن لم يكن لي في العرب نسب، ولا بيني وبين معد قرابة ولا نسبٌ" ومع أن كلمة العجم تطلق على غير العرب من الشعوب، فإن المرجح أنه من أصل فارسي وإن لم أجد نصاً يدعم ذلك.

ولقد اختلفت المصادر في: تحديد أصله تبعاً للإقليم:

فصاحب اليتيمة يقول[5]: (أصله من طبرستان، ومولده ومنشؤه بخوارزم، وكان يتسمى بالطبري ويعرف بالخوارزمي، ويلقب بالطبرخزي".

ويقول ابن القيسراني"[6] وأبو بكر الخوارزمي طبرى الأب من آمل طبرستان خوارزمي الأم، فنسب إلى البلدين جميعاً... وليس من طبرية الشام، غير أنه أقام بالشام مدة بحلب ونواحيها"، ويذكر أنه لم ير أحداً ينسب إلى بلدة طبرية الشام إلا ما أخبره به

---

(1) اليتيمة 4/ 204.

(2) الرسائل/ 186.

(3) الرسائل: 49.

(4) الرسائل: 125.

(5) اليتيمة/ 4/ 402.

(6) الانساب المتفقة/ 96.

محمد بن جعفر بن أحمد بن الحسين السراج ببغداد: قال: أنشدنا أبو عبد الله الحسين بن علي بن ماكولا لأبي بكر الخوارزمي الطبري من طبرية الشام[1].

بينما يرى السمعاني[2] أنه من أصل خوارزمي، وأنه إنما قيل له (الطبري) لأنه ابن أخت محمد بن جرير بن يزيد الطبري، وأنه إنما ينسب إليه عرضاً.

ويقول ياقوت الحموي[3] بأنه أصله من آمل أي أنه من طبرستان.

وينقل ابن خلكان عن السمعاني رأيا آخر يخالف ما ذكرته فيقول[4] أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور، ويقال له الطبرخزي أيضاً لأن أباه من خوارزم، وأمه من طبرستان فركب له من الاسمين نسبة، كذا ذكره السمعاني، وهو ابن أخت أبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ.

ويقول أبن العماد الحنبلي[5] في حوادث سنة 383 وفيها (توفي) أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر المشهور، يقال له (الطبرخي) لأن أباه كان من خورازم، وأمه من طبرستان، فركب له من الأسمين نسبة.

وهكذا تتوضح لنا صورة الخلاف في أصل والده، وأصل أمه والمرجح عندي أنه من أصل طبري، أي أن والده من طبرستان وأنه ولد في بلدة آمل التي هي أكبر مدنها، ثم ارتحل مع والده إلى خوارزم، حيث نشأ وترعرع، وأن والدته من طبرستان أيضاً وأنها أخت محمد بن جرير الطبري، ولكنه ليس صاحب التاريخ والتفسير، ولعل الدلائل التي سأسوقها تؤيد هذا الرأي:

---

(1) الأنساب المتفقة 96.

(2) الأنساب المتفقة 5/ 213.

(3) معجم البلدان 1/ 57.

(4) وفيات الأعيان 4/ 400-401.

(5) شذرات الذهب 3/ 105.

1) أن أبا بكر الخوارزمي يسمي نفسه بالطبري في غير موضع من رسائله: يقول في إحداها[1] "ثم تصدقت بعد ذلك بعدد نخيل البصرة وآجر الكوفة... ونحن محمد بن العباس الطبري......" ويسمى نفسه تارة أخرى بأبي بكر الخوارزمي الطبري[2] ويسمي نفسه بأبي بكر الخوارزمي في موضع آخر[3] والمعروف أن العرب والعجم، ومعظم شعوب العالم ترجع في أنسابها إلى آبائها، ولا تتسمى بأنساب الأمهات.

2) إن لقب (الخوارزمي) إنما عرف به لأنه نشأ ودرج في إقليم خوارزم، وهذه مسألة لا تحتاج إلى دليل، فكثير من العلماء والأدباء قد تسموا بأسماء المدن التي عاشوا فيها فغلبت شهرتها عليهم.

3) أن لقب الطبرخزي أو الطبرخزمي الذي أطلق عليه قد أوقع الكثيرين في الخطأ حين حاولوا رده إلى أصوله، فادعى بعضهم أنه لقب بذلك لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان وقال غيرهم لأن أمه من خوارزم، وأباه من طبرستان، ولعل غلبة شهرة الخوارزمي عليه هي التي أوقعتهم في الخطأ، فتصوروا أنه من أصل خوارزمي.

ولقد درجت معظم المصادر[4] على القول بأنه ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ. وليس هذا بصحيح، ذلك أن وهما قد وقع بسبب الشهرة. ولم يتنبه هؤلاء إلى أن هنالك أكثر من ثلاثة أشخاص[5] اشتركوا في الاسم والكنية واللقب. وكلهم يدعى بأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، واشتهر منهما اثنان: هما:

---

(1) الرسائل/ 34.

(2) الرسائل/ 41.

(3) المصدر السابق/ 87.

(4) انظر معجم البلدان 1/ 57، الإنساب للسمعاني 5/ 213، وفيات الأعيان 4/ 192 وتابعهم المتأخرون.

(5) أورد الخونساري أسماء عدد منهم، في كتابه روضات الجنات 7/ 292 معجم المؤلفين 9/ 147.

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، صاحب التاريخ المشهور والتفسير الكبير، وهو رجل عامي المذهب ولد سنة 224 وتوفي سنة 310 هـ[1].

أما الثاني فهو: أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري الآملي، صاحب كتابي دلائل الإمامة، والمسترشد في الإمامة، وهو شيعي المذهب ولا يعرف تاريخ ولادته أو وفاته.

ولعل ما أورده الخوانساري في كتابه روضات الجنات نقلاً عن كتاب مقامع الفضل لابن المروج البهبهاني، أقرب إلى الصحة مما ذهب إليه غيره: يقول[2] في جواب من سأله عن المراد بمحمد بن جرير الطبري، المتكرر في كتب أصحابنا ما يكون صورته: محمد بن جرير الطبري رجلان، أحدهما: ابن جرير بن غالب الطبري، الذي هو شافعي المذهب، ومدحه النووي الشافعي في كتاب تهذيب الأسماء، وهو صاحب التاريخ والتفسير المشهورين، والآخر: محمد بن جرير بن رستم الطبري صاحب كتاب المسترشد، وكتاب الإيضاح، ولا شبهة في كونه من الشيعة، وهو الذي قال ابن أخته أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي:

بآملَ مولدي وبنو جريرٍ ... فأخوالي ويحكي المرءُ خالهْ
فها أنا رافضيٌّ عن تُراثٍ ... وغيري رافضيٌّ عن كَلالَةَ

وقد اشتبه الأمر على صاحب معجم البلدان، حيث كذب الخوارزمي فيما نسبه إلى خاله، ويعلق الخوانساري قائلاً: والظاهر أن الاشتباه من صاحب المعجم، إنما هو من جهة زعمه الخوارزمي المذكور ابن أخت طبريهم المؤرخ المشهور، وأنت إذا تأملت

---

(1) ورد في بعضها (محمد بن جرير بن كثير، وفي بعضها غالب) ترجمته في وفيات الأعيان 4/ 192، الأنساب المتفقة 95-96 اللباب في تهذيب الإنساب ابن الأثير، الفهرست للطوسي/ 185 نزهة الجليس/ 365.

(2) روضات الجنات/ 7/ 292 – 294.

في كتب رجال الشيعة، وفي تقدم طبقة هذا الطبري على الخوارزمي قريباً من مائة سنة، علمت أن أبا بكر المذكور لم يكن ابن أخته، وأن ما ذكره ابن خلكان أيضاً لمنافاة هذا الكلام منه مع ذكره في تاريخ وفاة الخوارزمي، وعليه فلا اشتباه في تكذيب من خال الرجل خاله، ثم كذب من نسب إليه الرفض وأحاله، وحق ما ذكره صاحب المقامع من كونه ابن أخت طبرينا المحدث الإمامي، لأنه متأخر عن سميه الأول بما يوافق خاليته للثاني".

أسفاره وصلاته:

أ- في العراق:

"فارق الخوارزمي وطنه، وهو قوي المعرفة، قويم الأدب، نافذ القريحة حسن الشعر"[1]، ويبدو أنه قد تلمذ على شيوخ الأدب والفقه الذين عاشوا في خوارزم، غير أن المصادر لم تذكر أحداً من أولئك الذين درس عليهم، وأخذ عنهم.

أما الأسباب التي دعته إلى مفارقة وطنه فتعود إلى ما أصاب أسرته من نوائب ومصائب، أوصلتهم على درجة الفاقة والعوز، فلم يكن أمامه غير الارتحال، طلباً للحياة الكريمة، فهو يقول في إحدى رسائله[2] "فما زالت صروف الدهر بخوارزم تقاتلني جهراً، وتخاتلني سرا، حتى خرجت منها أعرى من حيَّة، بعد ما كنت أكسى من بصلة، وأفقر من الحجر بعد ما كنت أغنى من الكعبة، وأعطل من المُحْرِم بعدما كنت أحلى من الشمسة، قد كسرت كسر الجوز، وقشرت قشر اللوز، وجرى علي في مسقط رأسي، ومجمع أسرتي من الغرم الثقيل ما كان من الثقل أثقل، ومن الذل الطويل أطول، ومر على رأسي ما لو مرّ على رأس الشاب لشاب، ولو نزل بالحديد لذاب".

---

(1) اليتيمة 4/ 204.

(2) الرسائل/ 186.

ولعل أسباب هذه النكبات والمصائب يعود إلى عوامل سياسية ومذهبية وإلى ما أصاب البلاد من قحط وجدب.

أما العامل الثاني فطلب العلم، وبحث عن مصادره وموارده بعد أن ارتوى من نبع خوارزم فلم يزل يتقلب في البلاد، ويدخل كور العراق والشام، ويأخذ من العلماء ويقتبس من الشعراء ويستفيد من الفضلاء حتى تخرج وخرج فرد الدهر في الأدب والشعر[1].

ولا نعرف بالضبط السنة التي غادر فيها موطنه، غير أننا نستطيع القول بأنه وصل إلى بغدد قبل عام 341، ولم يبلغ بعد الثامنة عشرة من عمره، يدلنا على ذلك أنه روى الحديث عن إسماعيل بن محمد الصفار الذي كان إماماً في اللغة والأنساب، والذي توفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة للهجرة[2].

اتصل الخوارزمي بأدباء بغداد وشعرائها وعلمائها. فأخذ الحديث واللغة والأنساب عن الصفار، ودرس علوم القرآن والنحو والشعر، وأيام الناس على أحمد إبن كامل بن خلف[3].

ولم تذكر لنا المصادر أنه اتصل بالخليفة أو أي من وزرائه ولكننا لا نستبعد أن يكون قد دخل مجالسهم أو حاول الاتصال بهم وأخذ عطاياهم. ولعل صغر سنه ورقة عوده في الشعر والأدب- آنذاك- قد حالت دون ذلك.

وفي رسائله ومؤلفاته ما يشير إلى وجوده في العراق ففي رسالة بعث بها إلى أبي

---

(1) اليتيمة 4/ 204.

(2) اللباب في تهذيب الأنساب 2/ 273، الأنساب/ السمعاني 5/ 214، بغية الوعاة/ 51 ترجمته في تاريخ بغداد 6/ 303 وهو إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن صالح بن عبد الرحمن، أبو علي الصفار النحوي صاحب البرد، وكان متعصباً للسنة توفي سنة 341.

(3) اللباب 2/ 273، الأنساب 5/ 214 وهو أحمد بن كامل بن خلف بن منصور بن كعب بن يزيد ترجمته في تاريخ بغداد (4/ 357).

الفرج خليفة الوزير بنيسابور يقول فيها[1]: فكيف لا أشكر قوماً أفادوني عقلاً، وإن لم يفيدوني نيلا، وزادوني أدبا، وإن لم يزيدوني نشباً. وعهدي وأنا بالعراق مفيد، فأصبحت وأنا بخراسان مستفيد.

على أن المقام لم يطل به في بلاد العراق التي جاب أطرافها، ووصف نهر الأبلة[2] فعبر عن حبه لها بحسده لأهلها. يقول[3] معارضاً قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

يا أهلَ بابلَ ما نفسْتُ عليكُمُ ... من عيشكُم إلا ثلاث خصالِ

ماء الفراتِ وطيب ظل بارد ... وسماع محسنتين لابن هلالِ

فيقول: هلاّ حسد أهل العراق على المتصرفين أو الرافدين. أو على الرطب السّابري، والتين الوزيري، والعنب الرازقي، أو على فرضتهم من ماء الساج والعاج وطرازهم بنوع الخز والديباج، بل هلاّ حسدهم على أن فيهم مشهد أمير المؤمنين سيد الأوصياء، ومشهد الحسين سيد الشهداء وهلاّ حسدهم على أن أرضهم واسطة العمارة في خط الاعتدال بين الجنوب والشمال، وهلا حسدهم على أن الرأي كوفي والاعتزال بصري، والخط أنباري، والحساب سوادي، والتشيع عراقيٌ وهلاّ حسدهم على قراء الكوفة، وعباد البصرة، وإبدال الأبلة، وعلى من هاجر إليهم من الصحابة، ونبغ فيهم من التابعين وأبدال الأمة.

ولعل في هذا ما يدل على سعة إطلاعه، وتعلقه بهذه الأرض فصادفت منه قلباً رحيباً، وامتزجت بما يحسُّ به من ولاء وحب لآل البيت.

---

(1) الرسائل/ 126.

(2) ثمار القلوب/ 526.

(3) الرسائل/ 48- 49.

في بلاد الشام:

غادر الخوارزمي أرض العراق محتقبا آماله إلى حيث بلاط سيف الدولة الحمداني الذي كان يعج بالفضلاء والأدباء والعلماء، فيحتفى بهم، وترتفع منزلتهم، وتنثر عليهم الأموال والهدايا، فيتسابقون إلى المعالي ويتنافسون في الوصول إلى الجاه والسلطان، وقد يسمو بهم الخيال، فيهرعون إلى ارتقاء المجد بطلب الإمارة والولاية، حتى إذا عز منالها طاروا إلى غيرها مسرعين، لا تقف في وجوهم الصعاب. ذلك هو شأن الخوارزمي، وأن لم يطلب ولاية ولا طمع بها، ولكنه طمع في الوصول إلى مقربة الأمير العلوي، الذي يقرّب آل البيت ومن والاهم، يحفظ لهم الود، ويصون لهم العهد.

وكان أبو بكر الخوارزمي في ريعان عمره، وعنفوان أمره، قد دوّخ بلاد الشام فحصل من حضرة سيف الدولة بحلب في مجمع الرواة والشعراء، ومطرح الغرباء الفضلاء فأقام ما أقام بها مع أبي عبد الله بن خالويه، وأبي الحسن الشمشاطي[1] وغيرهما من أئمة الأدباء، وأبي الطيب المتنبي، وأبي الحسن النامي، وغيرهما من فحول الشعراء بين علم يدرسه، وأدب يقتبسه، ومحاسن ألفاظ يستفيدها وشوارد أشعار يصيدهما، وانقلب عنها، وهو أحد أفراد الدهر، وأمراء النظم والنثر، وكان يقول: ما فتق قلبي وشحذ فهمي، وصقل ذهني، وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب ورداء الحداثة قشيب[2].

تأثر الخوارزمي تأثراً بالغاً بالحياة الأدبية في بلاد الشام فدرس اللغة وفقهها على

---

(1) هو علي بن محمد الشمشاطي العدوى (أبو الحسن) أديب شاعر، من آثاره أخبار ابي تمام والمختار من شعره شرح الحماسة (ترجم له صاحب معجم المؤلفين 7/ 203) وذكر مصادر دراسته.

(2) اليتمية 1/ 26.

ابن خالويه[1] واتصل بأبي الطيب المتنبي وحضر مجلسه، وأخذ عنه وتأثر به، ولعل أبلغ مظهر لهذا التأثر هو ذلك الاهتمام الذي أبداه الخوارزمي بشعر أبي الطيب، فما فتئ يأخذ من معانيه، ويستشهد بأبياته حيناً، وينسج على منوالها، ويعارضها حين يجد إلى ذلك سبيلاً حتى إذا استوى عوده، واشتد ساعده قام بشرح ديوانه، ليكشف لنا عما فيه من جوانب الحسن والإبداع ومواطن الضعف والهزال. وسنعود في فصل قادم للحديث عن علاقته بأبي الطيب المتنبي وموقفه منه، وسنتحدث بالتفصيل عن شرحه لديوان المتنبي عند التعرض لمؤلفاته.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه البيئة قد تركت آثاراً واضحة في مسيرة حياته الأدبية، عكست نفسها على تلامذته، الذين يعد أبو منصور الثعالبي واحداً من أبرزهم، ففضل شعراء الشام على غيرهم، حين صنف كتابه "يتيمة الدهر" ووضعهم في المقدمة ولعله هو الذي أوحى إليه بأهمية دراسة الشعر حسب الأقاليم. ولقد اعتمد الثعالبي في تدوين أشعار كثير من الشعراء على ما سمعه من الخوارزمي، أو أقرأه إياه، أو وجده في إحدى تعليقاته أو سجله في دفتر من دفاتره، فهو مصدر من مصادر اليتيمة، بل مصدر الثعالبي التي استقى من نبعها واعتمد عليها.

وقد حضر الخوارزمي مجلس سيف الدولة، وسمع ما يدور فيه، وافاد من مجلسه يقول الثعالبي[2] "سمعت الطبرى[3] يقول كنت يوماً بين يدي سيف الدولة بحلب، فدخل عليه ابن عم له، فاستبطأه الأمير، وقال له: أين كنت اليوم وبم اشتغلت؟ فقال: أيد الله مولانا: حلقت رأسي، وأصلحت شعري، وقلمت أظفاري، فقال له لو قلت: أخذت من أطرافي كان أوجز وأبلغ وأحسن".

ولقد وجد الخوارزمي لديهم فناء رحيباً ورفداً خصيباً فما أخر عن رتبة، ولا

---

(1) فقه اللغة/ الثعالبي ينقل فيه عن الخوارزمي عن ابن خالويه.

(2) الكناية والتعريض/ 54.

(3) يعني ابا بكر الخوارزمي.

خلّف عن الغاية في موطني رغبة أو رهبة. ومعه إذ ذاك سكر الشباب وذل الاغـتراب، والقوم قد باينوه النسبة وفارقوه التربة[1].

حضر الخوارزمي مجلس أبي الطيب المتنبي في حلب، وينقل الثعالبي عنه قولـه[2] "حضرت عنده يوماً بحلب، وقد احضر مالاً من صلات سيف الدولة، صب بـين يديـه على حصير قد افترشه، ووزن وأعيد في كيس، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلـك المال، قد تخللت خلل الحصير، فأكب عليها بمجامعه ينقرهـا، ويعـالج اسـتنقاذها منـه ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى إذا توصل إلى إظهـار بعضـها تمثـل ببيـت قـيس بـن الخطيم:

تبدّتْ لنـا كالشـمس تحـت غمامـةٍ ... بَـدا حاجـبٌ منهـا وضَـنّتْ بحاجـبِ

ثم استخرجها، وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس، وقال: إنها تحضر المائدة".

ولكننا- على أي حال- لا نعرف مقدار المدة التي قضاها في بلاط سيف الدولة ويبدو أنه قد فارق حضرته اضطراراً، وربما يعود ذلك إلى الحروب الطاحنة التي كانت تدور بين سيف الدولة، وبين الروم، والتي تمكن الـروم في بعضـها مـن احـتلال قلعـة حلب والسيطرة عليها، هذا عدا عما كان يحسه من حنين إلى أهله ووطنه.

ورغم أنه لم يترك لنا أشعاراً ونصوصاً أدبية في مدح سيف الدولة أو غـيره مـن الأمراء الحمدانيين، ولم تصل إلينا رسائله التي كتبها في هذه الحقبة. والـتي اعتقـد أنهـا ضاعت[3].

لقد ظل يذكر تلك الأيام بلسان المتشوق المتلهف يقول في رسالة إلى أبـي محمـد العلوي[4].

---

(1) الرسائل/ 31.

(2) اليتيمة 1/ 135- 136.

(3) ثمار القلوب/ 82.

(4) الرسائل/ 177.

"... وقد رأيت بهذه الحضرة أقواماً كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصبا عذب، وعود الشباب رطب، وذكرت بهم مآرب هنالك وأياماً سلبتها سلبا، ونزعت من يدي غصبا، ودهراً كأني أقطعه وثبا، فلما رأيتهم قد هاجروا إلى هذه الحضرة، وجعلوها من بين الدنيا هجرة، علمت أن الكرم يتوارث بين الكرام وأنه انحدر من إصفهان إلى الشام، وأن العلم والأدب يتيمان ليس عليهما غيره وصي، وأن المروءة والسيادة أيّمانِ ليس عليهما غيره وصي، وأن المغرب لسيف الدولة- رحمه الله- والمشرق لحضرة الوزير أيده الله... فأما آل أبي طالب فإنهم ينزلون منه على سيف التشيع وسنانه، وعلى يد الحق ولسانه، وما ضرهم مع عطائه أن لا ترد عليهم فدك وخيبر غيرةً منه على الشرف أن لا يصان عن الابتذال رحله، وأن لا يحفظ فيه وله أهله، ذهاباً بنفسه عن إتباع الأنام، وتقليد الأيام في إهانة الكرام.

إن الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللئيمة للئام نصور

فسيف الدولة عنده- منبع الكرم، ومنهل العلم، فمن بحوره تتدفق الأنهار فتستقي منها ضياع غيره، وهو ناصر للشيعة شفيق عليهم رفيق بهم حتى لقد صار هذا الأمر لازمة من لوازمه.

في بخارى- علاقته بأبي علي البلعمي:

عاد الخوارزمي من رحلته إلى الشام بعد أن تزود منها خير الزاد، متجهاً إلى بلاده التي ارتوى من نبعها صغيراً، فدخل العراق، ليتوقف فيها قليلاً ويجمع حوله عدداً من التلاميذ، يأخذون عنه الأدب، ويدرسون عليه النحو واللغة، ولعل هذا ما قصده حين قال[1]: "وعهدي وأنا بالعراق مفيد" ولا يعقل أن يكون مفيداً حين دخلها أول مرة، لأن سنه لا تؤهله لمثل هذه الإفادة.

(1) الرسائل/ 126.

توجه الخوارزمي إلى بخارى[1]، وهي مدينة من أعظم مدن ما وراء النهر وكانت قاعدة ملك السامانية، فصحب فيها أبا علي البلعمي[2] وهو واحد من وزراء السامانيين، ولعله ابن أبي الفضل البلعمي الذي كان وزيراً لإسماعيل بن أحمد أمير خرسان[3]. وقد كان أبو علي وزيراً للأمير منصور الأول بن نوح، يدلنا على هذا أنه أمر بترجمة كتاب تاريخ الطبري إلى الفارسية سنة 963م[4].

ولعل من الضروري أن نشير إلى أن هذه العلاقة تصور طبيعة العلاقة بين الوزراء وأرباب السياسة وبين الشعراء والكتاب، الذين ذاقوا مرارة الحرمان، وضروب التشرد والهوان، وتعرضوا إلى الحبس والمصادرة، لا ينفعهم في ذلك ما قدموه من مدح، ولا يصونهم عذر يدرأون به عن أنفسهم سخط السلطان ونقمته، حتى لو بلغ العذر درجة التوسل والاستعطاف، فلا يجد الشاعر حينئذ بديلاً من الدفاع عن كرامته المهدورة وحقوقه المهضومة، وليس له من سلاح غير آلته التي بها اشتهر، فينبرى للسلطان منابزاً ومنافراً ويستبدل جلابيب العز والرفعة التي كساها السلطان برث الثياب وقبيح الجواب.

ولعل بداية الصلة بينهما لم تكن على غير عادة الشعراء والأدباء في الوفود على بلاط السلاطين والوزراء لأخذ صلاتهم وعطاياهم على قصائد المدح التي يدبجونها بعواطف لا تخلو من زيف، ومعان لا تخلو من ابتذال، لا يخفف من غلوائها غير تلك الصياغة الجميلة التي تؤطر معانيهم، فتداعب في نفوس الممدوحين أوتاراً، وتثير فيها لواعج الشوق التي طفت عليها صورة العظمة والكبرياء المصطنعة فتزول الفوارق ما بين الشاعر والسلطان.

---

(1) معجم البلدان 1/ 253.

(2) اليتيمة 4/ 202.

(3) الأنساب/ السمعاني 2/ 314.

(4) دائرة المعارف الإسلامية 11/ 82/ 15/ 96.

ذلك أمر الخوارزمي الذي أنساه سلطان الأدب هيبة السلطان وأقامته طول العشرة بهم مقام النظراء والأخوان[1]. لكن البلعمي الذي طبع على السلطان لا يريد الآخرين إلا دمى مستعبدة، فأنكر على الشيخ عزوف نفسه عن مواقف البذلة، وصعوبة جانبه على من جره إلى مظنة الهوان والذلة[2] سرعان ما قلب له ظهر المجن حين قرع الوشاة صفاة حلمه. يقول الخوارزمي في رسالة كتب بها إليه[3]:

ذكر الشيخ أنني تنقلت بعرضه المصون، وتمندلت[4] بقدره المكنون المخزون، وقد كنت أحسب الشيخ أمنع على السعاة من أن يقرعوا صفاة حلمه، ويخترقوا بأباطيلهم طريق عزمه وحزمه، ولقد هدم علي الوشاة حصناً كنت أعددته، وحلّوا عقدا وثيقاً كنت عقدته، وسلبوني علقا نفيسا اشتريته بنفسي لا بمالي، وحاربوني بعدة كنت أحسبها أنها لي، وكنت أرى البعيد بها قريباً مني، وأسري في الظلماء بضوء رضاه عني.

فمَن لي بالعينِ التي كنتَ مرةً　　إليَّ بها في سالفِ الدهرِ تنظرُ

ولم يجد الخوارزمي بدًّا من الفرار من وجهه بعد أن أنفذت الأيام فيه سهمها ونال من خشونة يده ما نال، ولكنه ظل وفياً له، حافظاً لعهده يكاتبه مستعطفاً حيناً، متشامخاً حيناً آخر، فهو يقول[5]:

أنتهت بي المحنة بعد فراق الشيخ على غاية ليس بينها وبين الموت حجاز، ولا وراءها للبلاد مجاز، حتى لقد ركبت غير دابتي، وأكلت غير نفقتي، ونزلت بيتاً بكراً، وأكلت خبزاً بسرا، وحرمت العيني وشربت الزبيبي، ولبست الصوف في الصيف،

---

(1) الرسائل/ 30.

(2) الرسائل/ 95.

(3) الرسائل/ 30.

(4) تمندلت: تمسحت به.

(5) الرسائل/ 31.

والبردي في الخريف وكوتبت مواجهة، وخوطبت بالكاف مشافهة، وأجلست في صف النعال، أعني أخريات الرجال، وناظرني من كان يدرس عليَّ، وخالفني من كان يختلف إلي....'

إلى أن يقول: 'وقد علم الشيخ أني مذ كنت لم يسم خدي عذار الهوان، ولم يوضع على رقبتي نير التبذل والامتهان، ولم تطرق الأيام حريم عرضي فتنهكه، ولا نالت ستر صيانتي فتهتكه، ولا ماء وجهي فتسفكه 'ورغم الوعود البراقة التي قطعها البلعمي للخوارزمي، فإنه لم يستحب لداعي القول دون أن يسبقه داعي الفعل' ذلك أنا قد تفارقنا على حالة، فإن كنا عليها، والتقينا فيها، فآخر التلاق أول الفراق ولا يربح من هذا اللقاء غير تخريج فراق جديد، وتولد حزن جديد.'[1]

ولكن هذا الاستعطاف والتوسل لم يجديا نفعاً، فظل خائفاً يتوجس إلى أن بلغ السَّيل الزبى، فهجاه قائلاً: [2]

إن ذا البلعميَّ والعين غينٌ	وهو عارٌ على الزمانِ وشينُ
إن يكن جاهلاً بخفِّيْ حُنين	فهو الخُفُّ والزمانُ حُنينُ

علاقته بأبي نصر الميكالي:

اتصل الخوارزمي بعد ذلك بالأمير أبي نصر احمد بن علي الميكالي، الذي كان في نيسابور، وهو من أسرة عرفت بالأدب والفضل، يقول عنهم الثعالبي: [3]

'وما ظنك بقوم مدحهم البحتري، وخدمهم الدريدى، وألف لهم كتاب الجمهرة وسير فيهم المقصورة التي لا يليها الجديدان وانخرط في سلكهم أبو بكر الخوارزمي

(1) الرسائل31.

(2) اليتيمة 4/ 404.

(3) نفس المصدر 4/ 454.

وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر وقال عنه العتبي[1] من رعايا السلطان بنيسابور أحمد بن علي الميكالي وهو صنيعة السلطان، وشيخ مملكته، وجمال جملته فضلاً موفوراً وأدباً مشهوراً، وعزا معقودا ومالا ممدوداً ورأياً كالأرى مشارا..الخ.

انعقدت الصلة بين الخوارزمي والأمير، فحل كل منهم عقدة الجهامة عن وجهه لصاحبه، فما هي إلا أيام وتدر أخلاف الأمير نوالا كما درت اخلاف الخوارزمي شعراً، وشتان بين ما هو باق، وما هو فان، فلقد أبقى الخوارزمي ذكرهم، وانمحت أثار النعمى بفناء أجسادهم. يقول الخوارزمي في مدحهم[2].

نجـرّ ذيـول الفخـر حتـى كأننـا	لعزّتنـا في آل ميكـال ننتمـي
هُـمُ شـحمة الـدنيا فـإن نتعـدّهم	إلى غيرهم نحصلْ على الفرثِ والدّمِ
سقى اللهُ ذاك الروضِ جوداً كجـودهم	وصـيرّ آجـالَ العُـداةِ إلـيهمُ
وأبقـى أبـا نصـر ليربـي علـيهم	سـنين كمـا أربـى بنيـن علـيهمِ
وعـاشَ إلى أن يـتركَ النـاسُ مدحـهُ	(ومن ذا الذي يرجـو إيـابَ المُثلَّم)

وما كان كرم الأمير مقصوراً عليه، وهو الذي طار صيته في الأفاق فتقاطر الناس عليه من كل حدب وصوب طلباً لنواله، فإذا بحجابه وقد امتلأت نفوسهم بهجة وسروراً لما يحسونه من فرح الأمير وغبطته بقدوم الناس يقول الخوارزمي[3]:

تلـكَ الـديارُ فريسـةُ الأحقـابِ	صـنعتْ بعـيني صـنع سـاكنها بـي
وإلى الأمـيرِ ابـن الأمـير تواهقـت[4]	رزحى[5] الركاب برازحـي الرُكّـابِ

---

(1) تاريخ العتبي 2:37.

(2) اليتيمة 4/ 220.

(3) العتبي: 2/ 20 – 40–42.

(4) تواهقت: المواهقة في السير: المواظبة ومد الأعناق.

(5) رزحي: جمع رازح: والرازح والمرزاح من الإبل الشديد الهزال. وقصد أنها هزلت لطول السفر.

لبسوا الدُّجى لبس الغراب لريشِهِ   وغدوا لحاجتهم غُدُوَّ غُرابِ

والفجرُ يطرفُ والظَّلامُ كأنَّهُ   فضلاتُ عتبٍ في خلالِ عِتابِ

طلبوا امرءاً أفعالُه محسوبةٌ   ونوالُهُ فوضى بغيرِ حسابِ

غدت المدائحُ وهي أسماءٌ لَهُ   ولغيرِهِ أصبحن كالالقابِ

والمكرماتُ كثيرةُ الخُطّابِ   إلا أنّها تأبى على الخُطّابِ

متبسمٌ الحُجّابِ مكتئبُ العدى   مثري النديم مُجازف[1] الحُسّابِ

شيمٌ أرقُّ من الهوى وألذُّ من   خطأ العدوّ رددتهُ بصوابِ

وعزائمٌ لو كنَّ يوماً أسهماً   لنفذن في الأيامِ غير نوابي

ويقول في مدح آل ميكال[2] من رسالة بعث بها إلى أبي نصر يشكره على اصطناع فقيه من تلامذته .. وما أعرف أهل بيت أحسن لموضع الصنائع ارتياداً وأجود لأهلها انتقادا، وأصوب لها إصداراً وإيراداً من أهل بيت الشيخ أبقى الله تعالى مشايخهم وشبابهم، وجمّل بهم مكانهم وزمانهم، والشيخ بحمد الله تعالى على سبيلهم نهج، وعلى منوالهم نسج.. ولله تعالى بقايا من عباده في بلاده، خلقهم ليعيش بهم العاسر، ويشد بأزرهم الفاقر ويحيي بحياتهم المعالي والمآثر، فهم ملح الأرض إذا فسدت، وعمارة الدنيا إذا خربت، ومعرض الأيام والليالي إذا حشدت....

ويروى لنا الثعالبي أن أبا بكر توجه بعد ذلك إلى سجستان وتمكن من واليها أبي الحسين طاهر بن محمد، ومدحه وأخذ صلته ثم هجاه وأوحشه حتى أطال سجنه[3].

---

(1) الجزف: أخذ الشيء مجازفة وجزافا، فارسي معرب: الجزافة: بيعك الشيء واشتراكاؤكه بلا وزن ولا كيل.

(2) الرسائل/ 119 – 120.

(3) اليتيمة 4/ 205.

ويبدو أن خطأ قد وقع في اسم هذا الوالي، وربما كان المقصود هو طاهر بن الحسين الذي ولي سجستان لخلف بن أحمد، واستخلفه على أعماله حين توجه للحج سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فطمع في الملك وعصى على خلف لما عاد من الحج، فاستنصر خلف الأمير منصور بن نوح وسأله معونته، ورده إلى ملكه، وأنجده وجهز له العسكر[1]. واستمر الخلاف بينهما حيث غلبه طاهر عليها مرة أخرى، ثم رده على أعقابه مرة أخرى، وظل خلف بن أحمد يحكمها حتى عام 393هـ، حين استولى عليها يمين الدولة. ولم أجد والياً بهذا الاسم حكم سجستان في تلك الحقبة. وقد تابع الثعالبي المتأخرون حين أخذوا عنه، ومع أننا لا نعلم طبيعة الصلة التي نشأت بينهما، والأسباب التي دفعت بالخوارزمي إلى هجائه، فإننا لا نستبعد أن يكون الحبس نتيجة موقف سياسي التزم. به الخوارزمي مع خلف بن أحمد حين شب الصراع بينهما، ذلك أن رسائل الخوارزمي قد حوت رسالة منه إلى خلف بن أحمد رداً على رسالة تعزية كان قد بعث بها خلف إليه[2]. مما يشير إلى طبيعة العلاقة بين الخوارزمي والأمير، ولا نعرف طول المدة التي قضاها في السجن، حيث ترددت فيه صيحات الاستغاثة، وكان ما زال قريب العهد بآل ميكال، فكتب إلى أبي نصر قصيدة يستصرخه فيها، ويصور ما آل إليه من ذل، وما حل به من مصائب على يد طاهر، ذاكراً أيامه السابقة برفقتهم، عاضاً على أصابع الندم على فراقهم، يقول[3]:

كتابي أبا نصر إليك وحالتي	كحال فريس في مخالب ضيغمِ
أرقُّ من الشكوى وأدجى من النّوى	وأضعف من قلب المُحبِ المتيَّمِ
غدوتُ أخا جوعٍ ولستُ بصائمٍ	ورحتُ أخا عُري ولستُ بمحْرِمِ

(1) الكامل في التاريخ 8/ 563- 564.

(2) الرسائل/ 92.

(3) اليتيمة 4/ 205.

وقعتُ بفخِّ الخوفِ في يدِ طاهرٍ ... وقوعِ سليكٍ في حبائلِ خثعمِ

وما كنتُ في تركيكَ إلا كتاركٍ ... يقيناً وراضٍ بعده بالتوهمِ

وقاطنِ أرضِ الشركِ يطلبُ توبةً ... ويخرُجُ من أرضِ الحطيمِ وزمزمِ

وذي علّةٍ يأتي عليلاً ليشتفي ... بها وهو جارٌ للمسيحِ ابنِ مريمِ

وراوي كلامٍ مقتفٍ إثرَ باقلٍ ... ويترك قساً خائباً وابنَ أهتمِ

ويستمر في لوم نفسه وتقريعها على ما ارتكبه من جرم بحق نفسه حين فارق هؤلاء القوم وهم الذين ألبسوه لباس العز، ويسخر مما رمي به من تدبير للمكائد، فيقول[1]:

لبستُ ثيابَ العزِّ حتى تمزّقتْ ... جوانبُها بين الجوى والتّندمِ

أظلُّ إذا عاتبتُ نفسي مُنشداً ... (فهلاّ تلا حاميمَ قبلَ التقدّمِ)

وأنشدُ في ذكري لداركَ باكياً ... (ألا أنعم صباحاً أيها الربعُ واسلمِ)

ولم أر قبلي من يُحاربُ بختَهُ ... ويشكو إلى البؤسِ افتقادَ التنعُّمِ

وقد كان رأساً للتدابيرِ بلعمٌ ... وقد صرتُ في الدنيا خليفةَ بلعمِ

وقد عاشَ بعدَ الخُلدِ في الأرضِ آدمٌ ... فإن شئتَ فاعذرني فإنّي ابنُ آدمِ

يقول الثعالبي[2]: أن الله قد جعل له من الحبس مخرجاً، فنهض إلى طبرستان، وكانت حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شار، وبنو شار هؤلاء كانوا ملوك غرشستان[3]، والظاهر أنهم رغّبوه في الوفود عليهم، ولم يكرموا مثواه، فصب عليهم

---

(1) المصدر السابق 4/ 205– 206.

(2) يتيمة الدهر: 4: 207.

(3) غرشستان: ولاية هراة غربيها والغور شرقيها ومرو الروذ عن شماليها، وغزنة عن جنوبها، قال البشاري هي غرج الشار وتفسيره جبل الملوك وملوكها إلى اليوم يخاطبون بالشار.

حم غضبه، يقرعهم تارة، ويسخر بهم أخرى، فيقول[1]:

ألا أبلـــغ بـــني شـــار كلامـــي ... ومـــن لم يلقهُـــمُ فهـــو السـعيدُ

عـــلاَم ابتعـــتُمُ فرســـاً عتيقـــاً ... ولـــيس لـــديْكم علـــفٌ عتيـــدٌ

وفـــيم حبســـتمُ في البيـــتِ بـــازاً ... يحـــيصُ الطَّـــيرُ عنـــه أو يحيـــد

فـــلا قربتمـــوهُ فَعُلْتُمـــوه ... ولا خليـــتم عنـــه يصـــيد

ويقول من أخرى بأسلوب مشبع بالسخرية[2]:

للهِ في كـــلٍّ مـــا قضـــاهُ ... لطـــائفٌ تحتَهـــا بـــدائِعْ

ســـبحانَ مـــن يطعُـــم ابـــن شـــارٍ ... ويتْـــركُ الكلـــبَ جـــائِعْ

في بلاط الصاحب بن عباد:

استمر الخوارزمي يتنقّل بين الأقاليم يمدح الولاة، ويأخذ عطاياهم، فعرج على طبرستان، وارتد عنها، وقد خابت آماله بولاتها ثم اتجه بعد ذلك إلى نيسابور وأقام بها إلى أن وفق التوفيق كله بقصد الصاحب بن عباد الذي كان وزيراً لمؤيد الدولة، ثم لفخر الدولة.

ويورد ابن خلكان روايتين مختلفتين عن اللقاء الأول بين الخوارزمي والصاحب واحدة في ترجمة الخوارزمي يقول فيها[3]:

.. ويحكى أنه قصد حضرة الصاحب بن عباد، وهو بارَّجان، فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب: بالباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب وأعلمه فقال الصاحب: قل له قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي من الأدباء

(1) اليتيمة: 4/ 207.

(2) اليتيمة 4/ 206

(3) وفيات الأعيان 4/ 401، وانظر الكنى والالقاب 1/ 22، وشذرات الذهب 3/ 105.

إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بـذلك، فقال له أبو بكر: ارجع إليه، وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء،؟ فدخل الحاجب، فأعاد عليه ما قال، فقـال الصـاحب: هـذا يريـد أن يكـون أبـا بكـر الخوارزمي فأذن له في الدخول، فدخل عليه، وانبسط له".

أما الرواية الثانية التي أوردهافي ترجمة الصاحب بن عباد، فيقول فيها[1]:

"ودخل أبو بكر الخـوارزمي علـى الصـاحب في أول لقائـه إيـاه، فـارتفع علـى الحاضرين في مجلسه من العلماء والأدباء، والجماعة لا تعرفه، فتساءلوا عنه وغاظهم ما رأوا منه، وقال أحدهم: من ذا الكلب؟ قولاً سمعه أبو بكر فالتفت إليه وقال: الكلب من لا يعرف للكلب مائة اسم، ويحفظ في مدحه مائة مقطوعة، وفي ذمة مثلـها. فقـال الصاحب: فأنت أبو بكر الخوارزمي قال نعم: عبدك، فقال له حق لك، وقدمه وقربه".

وليس من شك في أن الرواية الأولى مبالغ فيها، وليس لنا أن نصدق بوجود هذا القدر من شعر النساء، ولكنها- على أية حال تشعر بما اشتهر به الخوارزمي من حفظ للشعر العربي، ورواية له، كونت جانباً مهماً من مخزونـه الفكـري والأدبـي، زد علـى ذلك ما عرف به من شهرة في الأدب ورفعة في المكانة، تكونتا بفعل شخصيته الفـذة، التي تترفع عن العامة وتقترب من الخاصة، فكانت سبباً في معرفة الصاحب لـه، وهـو الوزير الشاعر الأديب، الذي احتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، ما يربو عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم[2].

أما الرواية الثانية- وهي محرّفة عن رواية السمعاني- فلا تكاد تثبـت للأسـباب الآتية:

1- أن هذه الحادثة وردت في ترجمة أبي العلاء المعري حـين دخـل علـى أبـي القاسـم

---

(1) وفيات الأعيان 1/ 413.

(2) اليتيمة 3/ 193.

المرتضى، فعثر برجل، وقد أوردها السيوطي في كتابه "بغية الوعاة صحيفة 126، وهي اقرب إلى الصحة، وذلك أن أبا العلاء رجل ضرير، وقد يعثر أثناء المسير، ولا غرابة أن يكون الرد على تلك الشاكلة.

2- ما حوته من تناقض: ذلك أنه لا يعقل أن يدخل الخوارزمي مجلس الصاحب، ويرتفع على الحاضرين من العلماء والأدباء، دون أن يأذن الصاحب له بالدخول، ولو كان أذن له لما قال: فأنت أبو بكر الخوارزمي"

3- ما تحويه الرواية من مبالغة شديدة، كان الهدف منها بيان قوة حافظته ومثل هذه المبالغات تتردد كثيراً في كتبنا الأدبية والتاريخية، تلحق بأولئك الذين طار صيتهم، وارتفع شأنهم، وامتازوا بقوة الذاكرة، وإتقاد الذكاء، ولعل ما نسب إلى بديع الزمان من أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها من وأولها إلى آخرها، لا يخرم حرفاً، ولا يخل بمعنى، وأنه كان ينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه، ولم يره نظرة واحدة خفيفة، ثم يهذها عن ظهر قلب هذا[1]... إلى غير ذلك- ليس إلا نوعاً من هذه المبالغات.

ويبدو أن هذا اللقاء قد حصل حين كان الصاحب كاتباً لمؤيد الدولة باصبهان، وأن هذه العلاقة قد نمت مع الأيام "فسعد جده بخدمته ومداخلته والحصول في جملة ندمائه المختصين به، فلم يخل من ظل إحسانه ووابله، وغامر انعامه وقابله"[2] وبقي الخوارزمي مخلصاً لابن عباد الذي ولي الوزارة لفخر الدولة بعد ذلك.

ومما يلفت النظر أن هذه الصلة المتينة لم تذب شخصية الخوارزمي فحافظ على علاقاته بأشد خصوم آل بويه، ولم تمنعه من إظهار وجهة نظره، فصرح بها غير خائف ولا هياب في عصر مليء بالتقلبات السياسية التي لا تستند إلى جذور فكرية

---

(1) اليتيمة 4/ 256.

(2) اليتيمة 4/ 207.

واجتماعية واضحة بقدر ما كان صراع مصالح آنية بهدف إلى السيطرة على الأمصار لجمع الثروات، والتمتع بالخيرات. ومن المعروف أن الأمير قابوس بن وشمكير كان من ألد أعداء آل بويه، وكان يتنازع وإياهم السيطرة على جرجان واصفهان وبلاد الجبل وتحالف مع فخر الدولة البويهي عندما خرج على أخويه عضد الدولة ومؤيد الدولة، بعد وفاة والدهم ركن الدولة، ومع هذا فقد ترك الخوارزمي أشعاراً يعبر فيها عن حبه وتقديره لهذا الأمير، ويمدحه ويزرى بخصومه، ويعاتب الدهر لأن هناك بلاداً يُخطب فيها على المنابر لغيره، فيقول[1]:

شموسٌ لهنَّ الخدرُ والبدرُ مغربٌ	فطالُعها بالبين والهجر غاربُ
ولكنَّما شمسُ المعالي خلافُها	مشارقُة ليستْ لهنَّ مغاربُ
فما لقَّبوه الشَّمس إلا وقد رووا	(بأنك شمسٌ والملوكُ كواكبُ)
أقول لزوار الأمير ترحَّلوا	فمن زارهُ من راجل فهو راكبُ
وإن زاره الفُرسانُ كنتُ كفيلهمُ	(بأن يرجعوا والخيلُ فيهم جنائبُ)
إذا رجعوا عن بابه فنشيدهم:	(وإن سكتوا أثنت عليه الحقائبُ)
ألا أبلغوا عني الأمير رسالة	تدل على أني على الدهر عاتبُ
إلى كم يحلُّ المرءُ مثُلك بلدة	بها منبر فيها لغيرك خاطبُ
لقد هان من أمسى ببلدة غيره	(وقد ذلَّ من بالت عليه الثَّعالبُ)

ولكنه لا يستسلم للعتاب، فيرفع عقيرته بصيحة الدعاء إلى الحرب، وقضاء حق السيف من الأعداء، مذكراً إياه بأمجاد أسلافه الذين ركزوا دعائم السلطان، ويضيف[2]:

---

(1) اليتيمة 4/ 221، تاريخ العتبي 1: 407.

(2) المصدران السابقان.

وأنت أبنُ عمٍّ السَّيف بل أنتَ عَمُّهُ ... وكيف تخافُ الأقربينَ الأقاربُ

أليس أبوكُم وشمكيرٌ وجدُّه ... زيارٌ ومرداويجُ عمٌّ مناسبُ

تحرّك بنا إما لواءٌ ومنبرٌ ... وإما حسام كالعقيقية قاضبُ

لكن هذه الوقفة الشجاعة تتبدل بعد حين، فيقف الخوارزمي إلى جانب الصاحب ابن عباد حين توجه إلى جرجان لقتال الأمير قابوس بن وشمكير، ويعلن استعداده للمشاركة في الحرب إذا أذن له الوزير بذلك، وسيرى منه فارساً يصاول الشجعان كما سمع منه عالماً يفوق الأقران، فيخاطبه قائلاً[1]:

"قد شمرت أيد الله الوزير ذيل المحارب، ورفعت رجل الراكب، وفارقت خراسان عزماً، وإن كنت بها جسماً، وإذا ورد علي له أذن طفرت إلى عسكره طفرة تطوي المراحل وتأكل المناهل، بعد أن حصلت من العتاد والعدة، ومن الشوكة والشكة، ما ينظم شرائط أوس بن حجر الكندي ومزود بن ضرار التغلبي؟ قال أوس:

وإني أمرؤ أعددت للموت بعدما ... رأيت له نابا من الشر أعصلا

وقال مزرد:

وعندي للحرب العوانُ مهنَّدٌ

... فإن أذن لي الوزير في ورود عسكره المحفوف بجناح النصرة، المكنوف بجوانب الدولة والكرّة، رأى مني بحمد الله تعالى فارساً ملء العين، كما سمع مني عالماً ملء الأذن.

ولا يكتفي بالنصرة والمفاخرة، فيتعدى ذلك إلى وصفهم بالأعداء ويشمت بهم، ويسخر بهم وبآبائهم فيقول:[2]

"على أن العدو إذا ظللته تلك الراية المنصورة، يخطو خطوة أولها جرجان

(1) الرسائل/ 58.

(2) الرسائل/ 59.

وآخرها خراسان، تقبلا لأوليه، وجريا على وتيرة أبيه، فإنه أعقل مـن أن يقـذف أمـه ويخالف أباه، ومن خالف أباه فقد نفاه، سيهزم من رجل طالما هزم، وينهزم ابن رجـل طالما انهزم ومن أشبه أباه فما ظلم".

ولعلي لا أخطئ في تفسير هذا التلون في السلوك إذا قلت أنه يعود إلى مـا كـان بينهما من صلة توثقت حين فتح قابوس صـدره للخـوارزمي، وبسـط يـده، حتـى إذا قبضها وانصرف عنه بشواغل الحرب، ومساجلة الخصوم، وهـى حبـل المودة بينهمـا وانقطع. ويعزز رأينا ما كتب به إلى وزير قابوس بن وشمكير معاتباً على الجفاء الـذي لحقه، منكراً عليه معاملته إياه كسائر الأخوان، وهو الرجل الذي يترفـع عـن العامـة، ويقترب من الخاصة فيقول[1]:

(وكـــل ولايـــةٍ لا بـــدَّ يومـــاً   مغيّـرةَ الصَّـديقِ علـى الصَّـديقِ

لقد كنت انتظر مصداق هذا البيت من سيدي حتى حقق الله تعالى ظـني، ولـو أكذبه كان أحب إلي، وأوقع لدي... فإن كان سيدي عمّ بهذا الجفاء إخوانه، فخلطـني بهم وجعلني واحداً منهم، لقد أخلف ثقتي بانفرادي عن صحبه، وأخلف ظني بناحيتي من قلبه، وكنت أحسب أنه يخصني بينهم بفضل المقة، كما خصصته من بيـنهم بفضـل الثقة. وإن كان وصلهم وقطعني دونهم، لقد عكس حكـم الرجـاء وغـرس الجفـاء في منبت الوفاء، وأساء الترتيب بين الأصدقاء وما أدري له في واحد الفعلين عذراً".

ومع ذلك فإننا لا نستبعد تاثير البويهين ووزيرهم ابن عباد في هذا التغير.

ولكننا لا نخفي دهشتنا من موقف آخر للخوارزمي يدل علـى شـجاعته وشـدة عارضته في إظهار مشاعره وأحاسيسه التي لا تتفق ومشاعر الساسة والحكام، ذلك هو موقفه من أبي الفتح بن العميد الذي سملت عيناه، وقطع أنفه، ثم قتل بعد أيام بـأمر

---

(1) الكامل في التاريخ 8/ 675.

من مؤيد الدولة ليحل مكانه الصاحب بن عباد[1] فيرثي أبا الفتح بقصيدة يعدد فيها مناقبه ويبين حزنه ولوعته، ويلوم الدهر على فعلته، وليس الدهر عنده إلا أولئك الساسة الذين جبلوا على الغدر، وتربوا في أحضان الخديعة لا يردعهم خلق، ولا يؤنبهم ضمير، فالزمان بالسلطان، والزمان بالإمكان[2] والسلطان متصرف على حكم حاشيته وبطانته يقول في رثائه:

يـا دهـرُ إنّـك بالرجـال بصـير	فلطالمـا تجتـاحهم وتـبيرُ
يـا دهـر غـيري مـن خـدعت بباطـلٍ	وابـن العميـد مغيّـبٌ مقبـورُ
الآن نادتنـا التجـارب طلّقـوا	دنيـاكُمُ إنَّ السـرور غـرورُ
يـا دهـر ظـلّ لمخلبيـك فريسـةً	رجـلٌ لعمـري لـو علمـت كـبيرُ
رجـلٌ لـو أن الكفـر يحسـن بعـده	هُجـيَ القضـاء وأنـبٌ المقـدورُ
أشـكو إليـك الـنفس وهـي كئيبـةٌ	وأذمُّ فيـك الـدمع وهـو غزيـرُ
وأقـول للعـين الغزيـر بكاؤهـا	خطـبٌ لعمـري لـو عميـتِ يسـيرُ
قـد مـتُّ بعـدك ميتـةً مسـتورة	قـد سـاقها لـي موتـك المشـهورُ
ودفنـتُ في قـبرُ الهمـوم وضـمني	كفنـان ضـيقُ الصّـدر والـتفكيرُ
ضحكت أليك الحُورُ ضحكك كلّما	وافـاكَ ضـيفٌ أو أتـاك فقـيرُ

لكن قصيدة الرثاء هذه بما اشتملت عليه من عواطف لاهبة، لم تمنعه ثم تفحص الأمر ليردّ أسباب المحنة إلى جذورها معطياً كل ذي حق حقه، مقدراً للصاحب مكارم أخلاقه، فيقول في رسالة بعث بها إلى بندار نيسابور، لما رجعت الوزارة إلى ابن عباد، وعفا عن ندماء ابن العميد:

---

(1) الأمثال المولدة/ للخوارزمي/ 3- ب.

(2) اليتيمة 4/ 226- 227.

"وجدت فلاناً وفلاناً ندماء ابن العميد رحمه الله، وقد ألبسهم الخذلان ثيابه، ونفض عليهم الادبار ترابه، ونبذهم الإقبال وراء ظهره، ونظر إليهم الزمان بمؤخر عينه، فهم أرخص من التمر بكرمان، واضيع من الورد في حزيران، وأكسد من أبي بكر الخوارزمي بخرسان، وكذلك تكون مصارع البغي والعدوان، ولقد جلسوا على قارعة الأمصار، واعترضوا يد التحكم والاقتدار، واستهدفوا لسهام الأيام والأقدار، لولا أن أمورهم أفضت إلى رجل عليه من التوحيد والعدل مانع، ولديه من الحلم والحياء وسيلة وشافع، هذا وقد ولغوا في دمه ورتعوا في لحمه. وخبوا وأعنقوا في ذمه بل في شتمه، فلم يبقوا في القوس منزعاً، ولم يتركوا للصلح موضعاً. فلما دفع الإقبال ربقتهم إليه، وصارت حياتهم وموتهم في يديه أسبل عليهم ستر العفو والمغفرة..."

إلى أن يقول "... وما أذكر المتوفى رحمه الله إلا بخير، ولا أقابل نعمه إلا بشكر ولكني أحب لرئيس مثله أن يختار ندماءه، وأن يشترط على المحاسن جلساءه... فأما أن يكون الندماء يتقربون إلى الملوك بهتك الأسرار من الأستار، ويأكلون خبزهم بلحوم الأحرار، فذلك مما يضيق عنه مسلك الحرية.

إن موقفاً كهذا، يستحق التقدير والإعجاب، في عصر اضطربت فيه السياسة واختلط الحابل بالنابل، ولم يعد الأديب قادراً على تبني وجهة نظر يدافع عنها لأنه سيتحمل تبعة ذلك انتقاماً وحبساً وتشريداً. فما كل نصر دائم، ولا كل هزيمة ماحقه.

علاقته بالبويهيين:

لا نستطيع تحديد الفترة الزمنية التي اتصل فيها الخوارزمي بالبويهيين ولكنها كانت فترة مبكرة من حياته، فقد اتصل بركن الدولة الذي توفي عام 366 وفي رسالته إلى حاجب ركن الدولة بالري ما يدل على تقديرهم له، وإكرامهم إياه[1] كما أن في قصيدته التي نظمها في رثاء ركن الدولة ما يؤكد هذه الحقيقة، ذلك أن موت ركن

---

(1) الرسائل/ 76.

الدولة من وجهة نظره قد هدم ركن الخلافة، وزلزل جوانبها، وقد هزم فيه الموت رجلاً عظيماً إذ يقول[1]:

ألست ترى السيفَ كيفَ انثلمْ	وركنَ الخلافة كيفَ انهدمْ
طوى الحسن بن بويه الرّدى	أيدري الرّدى أيّ جيش هزمْ
طويل القناة قصير العدات	ذميم العداة حميد الشيمْ
فصيحُ الّلسان بديعُ البنان	رفيعُ السِّنانِ، سريعُ القلَمْ
يكيل الرجال بأقدارها	ويرعى البُيوتات رعي الحرمْ
جواد عليهم بخيل بهم	إذا ساء خصّ وإن سرَّ عمْ

وما أن توثقت علاقة أبي بكر بابن عباد حتى أوفده إلى حضرة عضد الدولة بشيراز الذي ولي الملك بعد والده ركن الدولة، مما كان سبباً لارتياشه ويساره فإنه وجد قبولاً حسناً، واستفاد منها مالاً كثيراً، ولما انقلب عنها إلى نيسابور استوطنها واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، ودرت عليه أخلاف الدنيا من الجهات، وحين عاود شيراز، ورد منها عللا بعد نهل، فأجرى له مع انصرافه رسماً يصل إليه في كل سنة بنيسابور، مع المال الذي كان يحمل من فارس إلى خرسان[2].

حافظ الخوارزمي على عهده لآل بويه، الذين بوأوه مكاناً مرموقاً، وفاضت نعمهم عليه، فافاض في مدحهم، وأكثر من الثناء عليهم، والاعتراف بالجميل لهم يقول فيهم[3]:

ألا حركا لي أبرويز بن هرمزٍ	وقولا له قُم تلق أعجوبةً قمِ
تطلّع إلى الدنيا لتعلم أنّ ما	ملكتَ من الدنيا بمقدار درهمِ

---

(1) اليتيمة/ 4/ 208.

(2) اليتيمة 4/ 207.

(3) اليتيمة 4/ 223، محاضرات الأدباء 1/ 159.

لعمـــرك لـــولا آل بويـــة لم يكـــن نهـــاري إلا مثـــل ليـــل المتـــيم[1]

هـــمُ جعلـــوني بـــين عبـــد وقينـــةٍ ودار ودنيـــار وثـــوبٍ ودرهـــم

وهـم تركـوا الأيـام تعجـبُ أن رأتْ سُـلوّي، ومـا أرقـى السـماء بسُـلّم

وهو لا يرى فيهم ملوكاً عظاماً فحسب، ولكنه يتلمس بهم ماضي الفرس المجيد وحضارتهم الغابرة، وعزهم المفقود، وملوكهم العظماء، الذين لـو تطلعـوا إلى الـدنيا لوجدوا أن ما ملكوه صغير بالإضافة إلى ما ملكه عضد الدولة، وأنهم لم يخسـروا بعـد عضد الدولة إلا ذلك الدين المستسمج، يقول[2]:

ختمت بك العجـم الملـوك وراجعـت بـك تـاج ملكهـم القـديم المـنهج

لم يفقـــدوا بـــك أردشـــير وإنمـــا فقـــدوا نقيصـــة دينـــه المستســـمج

ولم يستطع إخفاء مشاعره وأحاسيسه القومية المنبعثة من أعمـاق نفسـه فشـيراز أضحت قبلةً يتوجه بنفسه إليها وتشغله في صحوه ومنامه، لأن عضد الدولة أعـاد لهـا سطو بهرام وعمّر بها ملكه: يقول من قصيدة مدح بها عضد الدولة[3]:

متـــى أشـــق رواقَ الملـــك تلحظـــني عـــين امـــرئ بغيـــوب المجـــد عـــلاّم

متـــى أرى قمـــر الـــديوان مطلّعـــا في سـطو بهـرام بـل في ملـك بهـرام

متـــى أقبـــل فرشـــا لا يقبلـــه عـــاف فيفـرق بـين الـترب والسـام

مـــالي أبيـــت بشـــيراز وأصـــبح في داري فدت يقظـتي نـومي وأحلامـي

مـــا يطلـــب الحلـــم مـــن قلـــبي يقلبـــه عندي من السقم مـا يكفيـه أسـقامي

---

(1) اليتيمة/ 4/ 208.

(2) اليتيمة 4/ 407، خاص الخاص 291، الإعجاز والإيجاز/ 199 مع شيء مـن الاخـتلاف فيـه ومـا بعده من أبيات.

(3) اليتيمة/ 4/ 208.

أصبحت أشكر ليلا أشتكي غده — الليل عوني والأيام غُرّامي
والأرض تعلم أني سوف أمسحها — حتى أرى من يرى بالليل أوهامي

وكانت صلته بمؤيد الدولة، ونصر الدولة وطيدة ثابتة الأركان، وإن لم تصلنا الا قصائد قليلة في مدحهما، لكن هذا القليل قد أغنى عن الكثير، فخلد ذكرهما في شعره أحياء وأمواتاً، فأغاظ أقواما، حتى حنقوا عليه، ودبروا له المكائد، يقول من قصيدة في مدح مؤيد الدولة ذكر فيها افتتاحه قلعة من أبكار القلاع، واستنزال صاحبها المسمى كوشيار[1].

وكنت سماءً والعجاج سحائباً — وخيلك أبراجاً وجيشك أنجما
وأنزلت منها كوشيار وإنما — تقنصت من فوق المجرة ضيغما
عرفتك صياد الأسود ولم أكُن — عرفتك صياد الأسود من السما
خدمتكم يا آل بويةَ مدّةً — غدا بينها فرخ الوسائل قشعما

ولما رجعت الإمارة إلى فخر الدولة، بعد وفاة مؤيد الدولة، أنفله الخوارزمي قصيدة، رثى فيها مؤيد الدولة. وهنأه بالإمارة يقول فيها[2]:

رزئت أخا لو خير المجد في أخ — من الناس طهرا ما عداه ولا استثنى
وقد جاءت الدنيا إليك كما ترى — طفيلية قد جاوبت قبل أن تدعى
صبت بك عشقاً وهي معشوقةُ الورى — فقد أصبحتْ قيسا وعهدي بها ليلى
ولما رأت خُطاّبها تركتهم — ولم ترض إلا زوجها الأول الأولى
ولم تتساهل في الكفيّ ولم تقل — رضيُت إذا ما لم تكن إبل معزى
على أنها كانت جفتك تدللا — فخليتها حتى أتت تطلب الرجعى

---

(1) اليتيمة/ 4/ 225 وفي نهاية الأرب ثمانية أبيات أخرى منها 1:405.
(2) اليتيمة 4/ 227– 228، تاريخ العتبي 1/ 131 – 132.

لقد أعطى كل منهم لصاحبه عطاء جزلا، متن عرى المودة ووثقها، ويعود الفضل في هذا إلى الصاحب بن عباد، الذي أوفده إلى عضد الدولة، وقربه إلى مؤيد الدولة وفخر الدولة، وفي شعره ورسائله ما يدلنا على متانة الصلة التي كانت تجمعهما، فقد مدح الصاحب بقصائد كثيرة عدد فيها مناقبه، وبين مآثره فهو الذي نصر العدل والتوحيد، وأقام للأدب سوقاً وأكرم العلماء والأدباء، وخلصهم من غائلة الفاقة والعوز.

يقول في مدحه[1]:

ومن نصر التوحيد والعدل فِعلُه ... وأيقظَ نُوَّام المعالي شمائلُه

ومن ترك الأخيار يُنْشِدُ أهلُه ... (أجل أيها الربْعُ الذي خفّ آهلُهْ)

ويقول من أخرى[2]:

أخو كلماتٍ ما جلاها لسانُهُ ... على أحدٍ إلا غدا وهو خاطبُ

متى يروها أهلُ الصِّناعة يُنشدوا ... (عجائبُ حتى ليس فيها عجائبُ)

ويقول من غيرها[3]:

طلقتُ بعدك مدح الناس كلِّهمُ ... فإن أراجعْ فإنيْ محصنٌ زاني

وكيف أمدحُهم والمدحُ يفضحهُم ... إن المسَّبب للجاني هو الجاني

قومٌ تراهُم غضاباً حين تُنشدُهم ... (لكنهُ يشتهي مدحاً بمجّانِ)

ورابني غيظُهم في مدح غيرهمُ ... (وإنما الشِّعر معصوبٌ بعثمان)

ما كل غانية هندٌ كما زعموا ... وربَّما سبَّ كشحانٌ بكشحان

---

(1) اليتيمة 4/ 214.

(2) المصدر السابق 4/ 214.

(3) المصدر السابق 4/ 215.

فســوف يأتيــك مـــني كــل شــاردة — لهـا مـن الحسـن والإحسـان نسـجان

يقــول مـــن قرعــت يومـــا مســامعه — قــد عــنَّ حســانُ في تقــريظ غســان .

الوشــي مـــن أصــبهانٍ كـــان مُجتلبــاً — فــاليوم يُهــدى إليهــا مــن خُراســان

قــد قُلــتُ إذ قيــل إسماعيــلُ مُمتــدحٌ — لــه مــن النــاس بخــتٌ غــيرُ وســنان

(الناس أكـيسُ مـن أن يمـدحوا رجـلاً — حتــى يــروا عنــده آثــار إحســانِ)

ويبدو أن حدود العلاقة بينهما قد تعدت حدود العلاقة التقليدية بين السلطان والشاعر ولا أدل على ذلك مما كتب به الصاحب إلى الخوارزمي حين قال[1]:

أســـــعدك اللهُ بيـــــوم الفصْـــــح — وعشـــتَ مــا شــئتَ بيــومٍ سمــحِ

يـــا رأس مـــالي في الـــورى وربحـــي — وظَفَـــري ونُصـــرتي ونُجحـــي

شـــرباً ولا تصـــغ لأهـــل النُّصـــح — فـــالحزمُ أن تســـكر قبـــل تصـــحي

شرب النَّصارى في غداة الفصْحِ

وفي رسائله إلى الصاحب بن عباد ما يدل على عمق الثقة وتجاوز الحدود المشار إليها فأيادي ابن عباد جميلة لديه، وثياب عزه فضفاضة عليه، فلم يترك فرصة تفوته إلا وعبر فيها عن مشاعره وأحاسيسه تجاهه[2].

ولا يفوتنا أن نذكر أثر العامل المذهبي في هذا الالتقاء، ذلك أن الخوارزمي كـان يذهب مذهب الشيعة الغلاة- وهو ما سنتحدث عنه في فصـل قـادم- وكـان آل بويـه ينصرون مذهب التشيع، فلا غرابة والحالة هذه- أن ينتصر الخوارزمي لهم، ويؤازرهم، ويغض من سلطان خصومهم السامانيين الذين كانوا يعتنقون مذهب السنة:

(1) المصدر السابق 3/ 267.

(2) انظر رسائله 82/ 85، 157، 153.

يقول الثعالبي[1]... وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً، ويغض من سلطان خراسان. ولعل ما لقيه الخوارزمي على يد محمد بن إبراهيم بن سيمجور، قائد جيوش خراسان من سجن وتعذيب وتشريد، يعود في كثير منه إلى هذا العامل، ففي رسالته التي بعث بها إلى شيعة نيسابور لما قصدهم محمد بن إبراهيم والياً، ما يزيل كل لبس وما يوضح كل إبهام، فقد عرض فيها أحوال الشيعة، مذ شقوا طريقهم، وما لاقوه من عنت، وما تحملوه من مصائب واصفاً ابن سيمجور بأنه[2] "سلطان لا يتحامل إلا على العدل، ولا يميل إلا على جانب الفضل، ولا يبالي أن يمزق دينه إذا رفى دنياه، ولا يفكر في أن يقدم رضا الله إذا وجد رضاه".

ونحن لا نميل إلى ما أورده التوحيدي في كتابه "أخلاق الوزيرين عن طبيعة الصلة التي ربطت بين أبي بكر، وابن عباد وآل بويه: يقول التوحيدي[3]:

"وكان الخوارزمي من أفصح الناس، ما رأينا مثله في العجم، وإنما نوّله الصاحب ما نوله وخوله ما خوله، لأنه كان أذكاه عيناً على محمد بن إبراهيم صاحب الجيش بنيسابور واستملى فيه أخبار المشرق، وبهذا المعنى استدر له من ملك بغداد بواسطة ابن يوسف. وكان الظاهر أنه إنما يعطيه لأدبه، ويجيزه لشعره، ويصطفيه لفضله" ويعود إلى تأكيد الخبر مرة أخرى فيقول [4]:

".... وحدثني بذكو أبي بكر عينا بخراسان أبو الطيب النصراني، وكان علي السر عند مؤيد الدولة، وكان يعرف من مخازي ابن عباد عجائب".

ولعل فيما عرف عن التوحيدي من تزيد على الوزيرين من خلال الروايات والصور والأحاديث التي جمعها ونسقها في كتابه، ما يرجح جانب الشك في هاتين

(1) اليتيمة 4/ 208.

(2) الرسائل/ 130.

(3) أخلاق الوزيرين/ 108-109.

(4) المصدر السابق.

الروايتين وفي الروايات الأخرى التي أراد الاستشهاد بها على سوء معاملة الصاحب للخوارزمي وسوء أخلاق ابن عباد[1].

ومما يزيد في ضعف هذا الرأي ما تحدثنا به عن طبيعة العلاقة التي ربطت بينهما. وهي علاقة بنيت على المنفعة المتبادلة، ذلك أنه قد أفاض عليهم بالمدح، وأصاب أعداءهم بالقدح، وسل عليهم سيوف الكلم التي ما نبت، وأوقع فيهم هزائم لا تصدها البواتر. فهو وغيره من الشعراء والأدباء من أمضى أسلحة الدعاية والحرب النفسية.

ولا غرابة بعد هذا أن يكيلوا له الصاع صاعين، فيخرجوه من ذل الفاقة إلى عز الثروة، فإذا هو بين عبد وقينة، ودار ودينار وإذا به يدخل مجالسهم، ويخاطبهم ويراسلهم، ويجعلون له رسماً يصل إليه في نيسابور كل عام.

علاقته بمحمد بن إبراهيم- صاحب جيوش السامانيين:

استقر الخوارزمي في نيسابور، وامتلك بها ضياعاً وعقاراً، وكان اختياره لها لأنه أراد أن يأمن بها على ماله وولده بعد مماته، ولكي لا يخاف على روحه وعرضه[2] في حياته ولكنه أتي من مأمنه، ذلك أن محمد بن إبراهيم قائد جيوش السامانيين الذي استقر في نيسابور- لم يطق رؤية الخوارزمي فيها، وهو الرجل الذي أبان عن ميل واضح إلى آل بويه لما حبوه من نعم رفدت شخصيته الأدبية، فنال بها منزلة اجتماعية، كما أن ما بينهما من خلاف في المذهب قد وضحت صورته من خلال رسالة الخوارزمي إلى شيعة نيسابور. فكانت مهمة الوشاة- عقب كل ذلك، سهلة ميسورة، فيقبض عليه، ويسجن، ويتمكن من الهرب[3] فيفر على وجهه طلباً للنجاة تاركاً أهله

---

(1) أخلاق الوزيرين/ 107-109-375.

(2) الرسائل 126.

(3) الرسائل/ 130.

وضياعه وأمواله. ويلاحقه الخوف، ويكمن له في كل ناحية، فإذا هو مذهول مرعوب وها هو يحدثنا عن نفسه قائلا[1].

"ولقد نشبت بين أظفار الخوف، وعقلت بحبالةِ الحتف، فلا أنا لما ورائي آمن، ولا إلى ما أمامي آمل، وما كنت أحسب أني أنظر إلى قبري قبل انقضاء عمري، ولا أني أرى شخص ملك الموت في حياتي قبل أن يجيء وقت وفاتي.

وتضيق به السبل وهو يتلمس الأمل بالنجاة فيقول[2]:

"... إلى اين المهرب من الفلك الدوار، ومن القدر الجبار، ومن خطر الليل الذي هو مدركي، وأن خلت أن المتنآي عنه واسع، ومن المجيرُ من رجلٍ الأنامُ داخل تحت ملكه، والأيام منخرطة في سلكه".

وفي هراة- حيث قذفت به المحنة- لقي مأمنه، وعمرت بعد الخراب حالته[3]، وما أن نزلت السكينة على قلبه، وزال عنه الخوف حتى أظهر مشاعر السرور والفرح مختلطة بما عرف عنه من شموخ نفس وعزة جانب يقول في رسالة إلى تلميذ له[4].

"كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء، وبروز البدر من الظلماء وقد فارقتني المحنة، وهي مفارق لا يشتاق إليه، وودعتني وهي مودع لا يُبكى عليه والحمد لله تعالى على محنة يجليها، ونعمة ينيلها ويوليها..."

وقد بين الخوارزمي أسباب محنه ومآسيه حين خاطب عضد الدولة يقول[5]:

وغاظ مدحك أقواماً وفي يدهم لو طاوعوا الجود تقديمي وإحجامي

---

(1) الرسائل/ 99.

(2) الرسائل/ 65.

(3) الرسائل/ 107.

(4) الرسائل/ 98.

(5) اليتيمة 4/ 24.

ومـــا طعنـــت علـــى نهـــرٍ فأغضـــبهُ لكن ذكـرت عبـاب الزاخـر الطـامي
أكـــلُّ فاضـــلِ أقـــوامٍ شـــهدتُ لـــه يغتـــاظ مـــن ذكـــره مفضـــول أقـــوام

علاقته بالعتبي، وحسام الدين أبي العباس تاش:

ويبدو أن أبا بكر قد عاد إلى نيسابور عام 371 بعد عزل أبي الحسـن محمـد بـن إبراهيم عن قيادة جيوش خراسان، واستعمال حسام الدولة أبي العباس تـاش عوضـاً عنه، بأمر من أبي الحسن العتبي، الذي كان وزيراً للأمير نوح بن منصور السـاماني[1]، ولم يكن حظ الخوارزمي معه بأفضل منه مع محمد بن إبـراهيم، ذلـك أن أبـا الحسـن العتبي كتب إلى تاش في أخذه ومصـادرته وقطـع لسـانه، وإلى أبـي المظفـر الـرعيني في معناه، وكان يلي البندرة بنيسابور إذ ذاك، فتولى حبسه وتقييده وأخذ خطه بمائتي ألـف درهم، واستخرج بعض المال وأذن له في الرجوع إلى منزلـه مـع المـوكلين بـه ليحمـل الباقي، فاحتال عليهم يوما وشغلهم بالطعـام والشـراب وهـرب متنكـراً إلى حضـرة الصاحب بن عباد بجرجان[2].

ويرى الثعالبي أن سبب ذلك يعود إلى أنه كان يتعصـب لآل بويـه ويغـض مـن سلطان خراسان، ويطلق لسانه بما لا يقدر عليـه، إلى أن كانـت أيـام تـاش الحاجـب، ورجع من خراسان إلى نيسابور منهزماً، فشمت به، وجعل يقول: قبحاً له وللوزير أبي الحسين العتبي، فأبلغ العتبي أبياتاً منسوبة إلى الخوارزمي، في هجائه، ولم يكن قالها منها:

قـــل للـــوزير أزال الله دولتـــه جزيت صرفاً على قول ابن منصور[3]

ويبدو أن كثير بن أحمد[4] هو الذي دبر له حيلة الهروب، ذلك أنه قد سمـح لـه

---

(1) الكامل في التاريخ 9/ 10.

(2) اليتيمة 4/ 208.

(3) اليتيمة 208.

(4) لم أجد له ترجمة، كاتبه الخوارزمي انظر الرسائل 8 و60 و210.

بالخروج مع الموكلين لجلب المال، فيشغلهم بالطعام والشراب ويهرب، وكان بإمكان الموكلين استخراج ما يريدونه من الأموال وغيرها، من غير أن يؤثر وجوده في شيء فكيف، وقد شغلهم بالطعام والشراب.

يقول من رسالة بعث بها إليه: علمت أن الشيخ قصر عني المحنة وهي طويلة، وصرف عني ولاية النحوس، وهي بسيطة... فلعمري لئن كنت أشكر لمن وهب لي مالاً، أني لمن وهب لي روحي لأشكر، ولئن توفر علي أفضال من أغناني، فإن أفضال من استبقاني، ولو شاء أفناني أوفر، فقد جاد علي الملوك بالصلات وجاد عليّ ذلك الأمير بالحياة، فهنأه الله بهذا الشكر الغريب، وهذا الثناء العجيب، وذلك أني أشكر الملوك على أنهم أغنوني. وأشكره على أنه لم يفقرني، وأمدحهم لأنهم أحيوني وأمدحه لأنه لم يقتلني..."

اتجه الخوارزمي عند هربه إلى الري[1]، ثم إلى حضرة الصاحب بن عباد بجرجان ومن الرى بعث برسالتين إلى محمد العلوي، وإلى كثير بن أحمد، يبين لهما حالته بعد الهرب، وأسباب المحنة، ويدافع عن نفسه. يقول في رسالة إلى محمد العلوي[2]:

"أطال الله بقاء سيدنا، من بعض مطارح الغربة، ومساقط النكبة، فإنا فلٌّ من فلول هذا الزمان، لا بل فل من فلول هذا السلطان. والحمد لله على سلامة الروح والمهجة وإن كانت سلامة ضعيفة المنةّ، رقيقة الكسوة ثقيلة الحركة، قليلة البركة، ليس بينها وبين الهلاك إلا أقرب من خطوة وأسرع من لحظة".

وهو يرى أن نكبته كانت بسبب من سعاية سمعها الأمير، فاستقرت في صدره فيقول:

"... قد رأى السيد ما كان من العلانية، حين فوقت نحوي سهامها، ونشرت

---

(1) الرسائل/ 9.

(2) المصدر السابق/ 9.

لحربي أعلامها، وتسلحت على بالسعاية وهي سلاحها الذي به تقاتل، ويدها التي بها تطاول، والسعاية سلاح من لا سلاح له، والنميمة كيد من لا كيد له، وشر من الساعي من أنصت له، وشر من متاع السوء من قبله، فلما رأيت بيني وبين الموت حجاباً رقيقاً، وحجزا دقيقاً، ورأيت نفسي، وقد اكتنفها أربعة أشياء ما منها إلا وهو يقرب عليها مسافة الممات، ويقطع علائق الحياة: خصم فاجر وسلطان جائر، وبخت عاثر، وزمان غادر، آثرت الغربة على وطن معه أذى، واخترت الظمأ على شراب فيه قذى.... ويبين أسباب المصادرة والحبس وما حل به من نكبات فيقول:

"... وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان، وأسلف الشكر قبل الإحسان وقد كنت رأيت حاكماً يحجر على يتيم أو معتوه في وفره، ولم أر أميراً يحجر على كاتب في كتابه، أو على شاعر في شعره، وإنما الشكر أيد الله السيد- فرس جامح إذا منع من سننه قطع أرسانه، وأسلب عنانه، فشقي به سائسه، وهلك معه فارسه، والشعر ينقلب مع الجود حيث كان، ويرتاد المعروف والإحسان، وإنما هو ماء سارب بل سيل زاغب إذا سد عليه طريقه، خرق في الأرض خرقاً، وما أشبه من أكره الألسن على مدحه الا بمن أكره القلوب على محبته:

يحبُّ المديحَ أبو خالدٍ ويضجرُ من صلة المادحِ
كبكرٍ تُحبُّ لذيذ النّكاحِ وتفرقُ من صولة النّاكحِ

ويبدو أن كثير بن أحمد قد توسط له لدى العتبي، فكاتب الخوارزمي مبشراً بالعفو والصفح، فيلقاه الخوارزمي بكتاب مليء بالسخرية عن المواعيد التي لا يمكن أن يخدع ببريقها، وهو الذي عرف حقيقة الأمير، فيهاجم الأمير، ويعنفه بقسوة، ويدافع عن موقفه، ويرفض الإقرار بذنب لم يرتكبه ويهزأ من الطلب، فيقول:

لو علمت أني اسأم خدمة من ليس له أثر علي، وأصادر على نعمة لم تصل إلي، لفارقت دار الهوان، ولكان جناحي وافر الطيران... ذكر بأنه تلطف بالأمير حتى سلّ منه السخيمة، وحمله على أن اغتفر الجريمة وما عرفت لي جرماً يحتمل معذرة أو

ذنباً يستوجب مغفرة، فإن كان الأمير غفر لي ما سأجنيه من السيئات، فهلا شكرني على ما آتيه من الحسنات، وكيف استخار السلف فيما يتعلق بالعقوبة، ولم يستخره فيما يتعلق بالمثوبة فإن كان مراده أن أقر على نفسي بذنب ما أتيته، والتزم بشكر جميل ما أوتيته، فهذه صدقة قد سامنيها، والصدقة لا تحل من الفقراء إلى الأغنياء ولا يحسن قولها من الشعراء وإن كان يريد أن يتوسل بهذا إلى اجتناء ثمرات اللسان، ويجب أن يسير ذكره في أثناء هذه المعاني الحسان:

فالناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ... ما لم يروا عنده آثار إحسان

وإنما لساني خادم من خدم فؤادي، ومتصرف من متصرفي مرادي، فكيف يقتات علي بشكر غيره، وكيف يجود علي بما هو متصرف فيه لغيره. وإنما لسان الشاعر روضة لا تسلف الزهر حتى تستسلف المطر، ولا تضحك في وجه السماء حتى تستوفي حقها من الانداء، وإن كان الشيخ يرضى بعد هذا كله بظاهر اعتذاري، فلقد خرجت إليه من عهدة إضماري وأنا أقر بذنوب العالمين، حتى بذنب إبليس في الأولين، وحتى بذنب هاروت وماروت في المتقدمين، والتزام كل المعايب، حتى معايب بني أمية، ومعايب بغلة أبي دلامة وأقول: قد ادبني الليل والنهار- وثقفتني الأحوال والأطوار فأبصرت قصدي، وتبينت رشدي، فليلبسني الأمير برضاه عني ثوب العزة كما ألبسني بغضبه عليّ ثوب الذلّة وليجعلني عبداً أعوجٌ فقوِّم، وجهل فعلّم فلما عرف نفسه، وتلافى يومه بأمسه رد عليه مكانه، ورجع إليه زمانه فادعى أن النابغة ما اعتذر عني، ولم يفت لسانه إلا بضعة مني، وانتحل قول علي بن الجهم[1]:

ليس عندي وان تغضيت إلا ... طاعةٌ حرّةٌ وقلبٌ سليمُ

وانتظارُ الرِّضا فإن رضا السّا ... دات عفو، وعتبُهم تقويمُ

وهذه الأقوال تؤكد ما ذهبنا إليه من أن ميله للبويهين، وميله عن السامانيين،

---

(1) لم أجدهما في ديوانه- تحقيق خليل مردم بيك.

كان بسبب التكريم الذي لقيه عند البويهين وما لقي من عذاب وسجن وتشريد وهوان عند السامانين، وذلك ان البويهيين قد عرفوا بتكريمهم للأدباء والشعراء، فأقاموا للأدب سوقاً كما رفعوا مكانة العلم والعلماء، وهو أمر لم يبلغ السامانيون فيه مبلغهم كما أن نفس الخوارزمي الأبية، لم تكن لتشرى بالثمن البخس، وهو رجل الجلاد والنضال، فكيف بهم وقد صادروا أمواله؟ لقد دفعت ظروف هذه الحقبة السياسية على انتهاج سبل متطرفة في تحصيل الأموال وجمعها، فركنوا إلى مصادرة الأموال لا يصدهم عن ذلك صلة نسب أو موالاة، ذلك أنه ليس بين الموالاة والمبعادة عندهم إلا لفظة فدمة أو لقية بشعة[1]، وما أسهل مصادرة الأموال بعد هذا، وهو أمر لم يسلم منه الوزراء والمقربون، فكيف بهؤلاء وقد وجدوه مؤيداً لأعدائهم. وقد أفاضوا عليه فأغنوه، لا ريب أن عقولهم ستتفتق عن حيل للإيقاع به، وما أسهل الإيقاع بالشعراء والأدباء.

ويصور الخوارزمي ما آلت إليه حالته بعد هروبه إلى حضرة الصاحب بن عباد بقصيدة نحس فيها مقدار الحرقة والألم، ونتلمس ضيق نفسه بالظلم الذي حل به على يد السامانيين. فيكل أمرهم إلى الله ليثأر منهم فيقول مخاطباً الصاحب بن عباد[2]:

فإن ردّني دهري عليكَ طريدةً	فلا غَرو أن يسترجع القوسَ حاجبُ
هو الوكرُ طرنا منه والرّيش وافر	وعدنا إليه الآن والرّيش ذاهبُ

ويقول:

جزى الله عني أهل سامان ما أتوا	وفي الله للثأر المضيَّع طالبُ
هُمُ زوجوني الهمَّ بعد طلاقه	وذلك عرسٌ للمآتم جالب
هم أعطشوا زرعي فشمتُ سحائباً	غرائب لما أخلفتني القرائب

---

(1) الرسائل/ 97.

(2) اليتيمة 4/ 235.

فـألحوا لزرعـي بالحصـاد وأنضبوا	مياهـاً لهـا أيـدي سـواهم مـذانبُ
لحصـد أيـديكم ويـزرعُ غيركُـم	فـأنتم جـرادٌ والملـوكُ سـحائب
إذا طمـع السـلطان فيمـا كسبته	بشعري فالسلطان بالشعر كاسبُ
فـأنتم مـدحتم آل يويـة لا أنـا	وأمـدحُ مـن لفـظ اللّسـان حقائبُ

وينتقم لنفسه من خصومه، فيشمت بأبي العباس تاش، وفـائق الخاصـة، وهمـا من قادة جيوش السامانيين حين لحقت بهم هزيمة فيقول[1].

لـو أنـك قـد أبصـرت تاشـا وفائقـا	علـى ظهـر يخـت أدبـر الظّهـر رازمِ
وقـد كتـب الإدبـار في جبهتيهمـا	بإنشـاء مقمـور وتحريـر نـادمِ
(فـلا تـأمننَّ الـدهر حُـراً ظلمتـهُ	فـإن نمـت، فـأعلم انـهُ نـائم)

توجه الخوارزمي إلى بلاط الصاحب بن عباد متنكراً، فانجلت غمة الخطب عنـه وانتعش في ذلك الفناء الرحب، وعاود العادة المألوفة في المبار والاحبية[2]،

وتوضح لنا هذه العبارة ما كان عليه الرجل من رفعة في المكانة، وعلوفى الهمة، فيجمع حوله الأولياء والمقربين، ويبذل لهم العطاء، ويحيطهم بوافر البر وجميلـه، وهـي عادة مألوفة لديه من قبل كما تدل عبارة الثعالبي:

"واتفق قتل أبي الحسن العتبي، وقيام أبو الحسين المزني[3]، مقامه، وكان من اشد

---

(1) اليتيمة 4/ 216.

(2) اليتيمة 4/ 208.

(3) ترجم له الثعالبي في اليتيمة ترجمة قصيرة: وقال عنه "هو أشـهر بالشـرف والجـد وذكـره أسـير في الأدب والفضل من أن ينبه على محك في الوجاهة والسيادة والرئاسة والوزارة ولـه شـعر كـثير لم يعلق بحفظي منه إلا بيت واحد.." 4/ 246. وفي الكامل في التاريخ 9/ 27-28، تاريخ ابن خلدون 4/ 758 أن الأمير نوح قد استوز عبد الله بن عزيز (كما في ابن الأثير: و(ابن عزيز) كمـا في (ابـن خلدون) ويبدو أنهما قد وهما فقد جاء في ترجمة أبو طالب المأموني في اليتيمة 4/ 165 (ولما قـام =

الناس حباً للخوارزمي، فاستدعاه، وأكرم مورده ومصدره وكتب إلى نيسابور في رد ما أخذ منه عليه، ففُعل، وزادت حاله وثبت قدمه، ونظر إليه ولاة الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام، والإكرام والإعظام، فارتفع مقداره، وطاب عيشه[1]، وما أن أفرخ روعه، وانحلت عقدة البلاء عنه حتى فاضت نفسه بشرا، وامتلأت سعادة بعودة الاستقرار، ومزاولة الحياة، التي طالما قلبت له ظهر المجن، فإن هو حامد على أنه ابتلى ثم أبلى، ذلك أن محنته قد أدبرت، ونعمته قد أقبلت، قد ملك وليه، وهلك عدوه[2].

أسباب الخلاف بين الخوارزمي والصاحب:

تذكر المصادر[3] أن العلاقة قد ساءت بين الخوارزمي والصاحب في أواخر أيامه، وأن الخوارزمي هجاه بقوله:

لا تحمدنَّ ابنَ عبَّادٍ وإن هطلتْ	كفَّاهُ بالجود حتى أخجلَ الدِّيَمَا
فإنها خطراتٌ من وساوسه	يُعطي ويمنعُ لا بخلاً ولا كرمَا

وأن الصاحب بن عباد حين علم بموت أبي بكر أنكر عليه كفران النعم، وأنشد قائلا[4]:

أقول لركبٍ من خراسانَ مقبلٍ	أماتَ خوارزْميُّكم: قيل لي نعمْ
فقلت أكتبوا بالجصِّ من فوق قبرِهِ	الا لعنَ الرَّحمنُ من كفرِ النِّعمْ

=

أبو الحسن المزني مقام العتبي زاد المأموني إكراماً وإجلالاً ولما كانت أيام ابن عزيز وأيام الدامغاني.. جعل كل منهم يربي على الآخر.

(1) اليتيمة 4/ 208.

(2) الرسائل/ 109.

(3) انظر معجم الأدباء 2/ 13-31، اللباب في تهذيب الأنساب ابن الأثير 2/ 237، غرر الخصائص 2/ 36، الوافي بالوفيات 3/ 192 وفيات الأعيان 4/ 402-403.

(4) ديوان الصاحب/ 285 وفيه (جائيا).

ويذكر ابن خلكان[1] أنه قد وجد البيتين الأولين، منسوبين إلى أبي بكر الخوارزمي في الصاحب بن عباد في مجاميع جماعة من الأدباء ومذكراتهم، ويقول: ثم نظرت في كتاب معجم الشعراء، تأليف المرزباني فوجدت في ترجمة أبي القاسم الاعسر واسمه معاوية بن سفيان، وهو شاعر وراوية بغدادي، أحد غلمان الكسائي اتصل بالحسن بن سهل يؤدب أولاده، فعتب عليه في شيء فقال يهجوه:

لا تحمدَنْ حسناً بالجود إن مطرتْ كفَّاه غزراً ولا تذمه أن رزما

لكنَّها خطراتٌ من وساوسِهِ يُعطي ويَمْنَع لا بُخلاً ولا كرما[2]

ونحن لا نستبعد حصول أمر كهذا بين الخوارزمي والصاحب ذلك أن أخلاق العصر ما كانت لتنفر عن هذا الطبع، وهو العصر الذي شاعت فيه التقلبات السياسية، وعمّ فيه الاضطراب الاجتماعي، إذ طالما انقلب الصديق عدواً، والعدو صديقاً، وتسمع بفلان والياً يتحكم في رقاب الناس يسومهم الخسف، ويمنعهم النصف، فإذا هو بعد حين هارب يبحث عن مأمنه ويطلب العدل والنصفة ممن لا ذمار لهم، وهيهات أن يكون له مثل ذلك، هذا شأن ولاة الأمر الذين تفتحت عقولهم على نور الحضارة واستنشقت عبيرها، فكيف بالقوم الذي ضرب الفقر والجهل على عقولهم وأبصارهم، فإذا هم أدوات مسخرة بيد السلطان لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً وكيف بالشعراء والأدباء الذين ألجأتهم ظروف المجتمع إلى اقتفاء خطى الساسة والولاة.

ولعل ما عرف عن الصاحب من نزعة التعالي والتظاهر والتجبر ما كان سبباً في حدوث هذا الخلاف، ويعزز ذلك ما أورده أبو حيان التوحيدي على لسان الخوارزمي وغيره من الأدباء والمقربين للصاحب، وإن كان لا يخلو من تزيد وافتعال، وذلك أنه ما

(1) وفيات الأعيان 4/ 403.

(2) معجم الشعراء/ 395، وقبله، (فليس يمنع إبقاء على نشب ولا يدوم لفضل الحمد مغتنماً).

هنأ قط بنعمه، ولا أمتع بإحسانه، ولا ترك لـه يـدا بيضـاء عنـد أحـد ألا وكـرَّ عليهـا بالتسويد[1]، يقول التوحيدي[2]: قلت لأبي بكر الخوارزمي الشاعر، وكـان قـد خـبره كيف وجدت الصاحب، وقد أعطاك وأولاك، وقدمك وآثـرك وسـفر لـك إلى عضـد الدولة، وهو اليوم شاه الملوك، حتى ملأت عيابك تـبرا، وحقائبـك ثيابـاً، ورواحلـك زادا؟ فقال: دعني مما هنالك، والله إنه لخوار في المكارم، صبار على الملائم، زحـاف إلى المآثم سماع للنمائم، مقدام على العظائم يدعو إلى العدل والتوحيـد، ويـدعي الوعـد والتخليد، ويمسي وهو بور، ويصبح وما على وجهه من نور."

ويسوق أبو حيان حادثتين وقعتا بين الصـاحب، وأبـي بكـر حـاول أن يصـور فيهما أخلاق الصاحب، وسوء معاملته للعلماء والأدباء وهو الرجل المُشـامخ المترفـع عن جل علماء عصره وأدبائه وشعرائه. يقول أبو حيان[3]:

".. ولقد قلت للزعفراني: أرى الخوارزمي سيء الرأي في ابن عباد، مع ما يصل إليه منه، فما السبب؟ فقال: ابن عباد سيء السياسة لصنائعه، وذلك أنه يعطي الإنسان عطية ما، ثم يبلوه بجفاء يتمنى معه لقط النوى مـن السـكك، والمصـطنع الكـريم هـو الذي يكون اصطناعه بلسانه فوق اصطناعه بيده، وإني أحدثك بـبعض مـا عامـل بـه الخوارزمي ليصح لك القياس عليه، والتعجب منه.

"حضر الخوارزمي يوماً، وجرى حديث القافة[4]: فقـال دخـل محـرز[5] المـدلجي

---

(1) اخلاق الوزيرين/ 192.

(2) المصدر السابق/ 107- 108.

(3) أخلاق الوزيرين/ 110.

(4) القافة: معرفة الأثر.

(5) محرز، بالحاء والراء، ثم الزاى، وهما التصـحيف، ومجـزز بـالجيم وزائـين معجميـتين علـى وزن محدث، هو ابن الأعور بن جعدة الكناني المدلجي القائف كان إذا أسر أسيراً جزَّ ناصتيه وأطلقـه، فسمي مجززاً ترجمته في الإصابة (هامش أخلاق الوزيرين).

على رسول الله ﷺ، ونظر إلى أقدام أسامة وزيد، فقال: هذه أقدام بعضها من بعض وصحفَّ البائس كما يصحف العلماء فما دونهم، وكان ابن عباد على بركة فما زال يدور حول البركة، وهو يصفع الخوارزمي ويقول: محرز؟ بحياتي؟ إلى أن رعف الخوارزمي، فتنحى وخرج. فهذا وما داناه هو الذي كان يفسد ما يفعله من الخير والبر.

أما الحادثة الثانية، فهي أشد طرافة، وأكثر دلالة على سوء معاملة ابن عباد للأدباء والعلماء حين يشعر أنهم يتطاولون عليه، يقول أبو حيان[1] ... قال: ابن عباد لندمائه، ما أول قول الشاعر:

- وإن غداً لناظره قريبُ.

فقال الخوارزمي أوله: ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب.

وقال ابن الأعرابي تمامها لنصيح بن منظور الفقسي وهو:

إذا ما خلوْتَ، الدّهرَ يوْماً، فلا تَقُلْ	خلوتُ ولكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
فأحسنْ وأجمل ما استطعتَ فإنما	بقرضِك تُجزى والقُروض ضُروبُ
فلا تكُ مغروراً تعلَّلُ بالمُنى	وقُل إنما أدعى غداً فأُجيبُ
الم تر أنَّ اليوم أسرعُ ذاهب	وأنَّ غداً للناظرينَ قَريبُ
وأن المنايا تحت كل ثنيَّة	لهنَّ سهامٌ ما تزالُ تُصيبُ
ذهبن بإخوانِ الصفَّاء فأصبحت	لهنَّ علينا نوبةٌ ستنوب

فأقبل عليه بوجه كالح، وقال: أعرفك نذلاً جاهلاً مأبوناً باطلاً، إنما ترينا من نفسك أنك تحفظ وتحسن، التراب في فيك يا كلب، ومتى نبتَّ، ومن أبوك، وعمن أخذت، وإلى من اختلفت، بل اختلفت عليك أمور ....

(1) أخلاق الوزيرين.

ويستمر مقذعا اللفظ أشد الأقذاع إلى أن يقول: "مثلك يجترئ في مجلسنا ويقابل بوجهه وجهنا، والله لولا رعايتنا التي جرت بها عادتنا لعرفتنا، وعرفت نفسك".

ولا شك أن أسلوباً- كهذا- إن صح- لا يجلب غير العداوة، ولا يحقق إلا سوء الظن، ومع ذلك فإننا لم نجد في ما تبقى من شعر الخوارزمي غير هذين البيتين في هجاء الصاحب، ولو وجد غيرها لتناقلته كتب الأدب، كما أننا لم نعثر في رسائله التي بين أيدينا على نصوص نستدل بها ونتعرف من خلالها على وجود خلاف أو مهاجاة أما نسبة البيتين، فأغلب الظن عندي أنهما لأبي القاسم الأعمى وأن الخوارزمي تمثل بهما لهجاء الصاحب، وأنه عدل في البيت الأول بما يناسب غرضه، وترك البيت الثاني على حاله، وهذه نزعة بارزة في أسلوب الخوارزمي، فهو كثير ما يضمن شعره ونثره أشعار الأقدمين.

لقد عاش أبو بكر حياته متنقلاً بين الأمصار وأتصل بالملوك والوزراء وقادة الجيوش والأمراء، والقضاة، وأصحاب الدواوين ونال عطاياهم وهباتهم، ولم تسعفنا المصادر في تتبع رحلاته واتصالاته، لكن رسائله التي كان يبعث بها إليهم، توضح طبيعة العلاقة التي ربطته بهم، فهو بين شاكر لهم على ما آتوه من نعم وما أفاضوا عليه عطاء وبين عاتب عليهم، لائم لهم على إعانة الزمن عليه، وإلحاق المحن به، يقرعهم حين يأخذون منه خراجاً أو يمنعون عنه صلة، ولا يفوته أن يدبج رسائل التهنئة والتعزية في الأفراح والأتراح، والولاية والعزل، حتى إذا حلت به نازلة، أو أصابه وطب ترك لقلمه العنان في مخاطبة أصحاب الزمان باثاً لهم شجونه، منحيا باللائمة على الدهر الخؤون، الذي أقام لخصمه سوقاً نافقة، وسد على الكرام منافذ ما كانت لتسد.

ويبدو أن حياة الاستقرار التي أمضاها الخوارزمي بعد مقتل العتبي وعودته إلى نيسابور لم تكن لتمر دون أن يعكر صفوها. ذلك أنه اصطدم في أخريات حياته ببديع الزمان الهمذاني، وجرت بينهما مناظرات طويلة سجلها الهمذاني في رسائله ولم يمهل الزمن أبا بكر ليسجلها، واكتفى الآخرون بإبراز نتائجها مع ما فيها من تناقض، وحفظ لنا بعضهم شيئاً منها كما سجل الهمذاني.

مناظرة الخوارزمي والبديع:

بدأت أحداث هذه المناظرة حين قدم البديع إلى نيسابور عام 382 وحل ضيفاً على أبي بكر الخوارزمي بعد أن قدّم لمجيئه برسالة تودد واستعطاف[1]. شكا فيها حاله، وقد تعرض للسلب والنهب على يد جماعة من قطاع الطرق. أما أسباب اختيار الخوارزمي مضيفاً له، فلأنّ الغربة والأدب قد وحدت بينهما[2]، ولم يجد البديع من الإكرام ما كان يحتسب[3]، فوجه إلى الخوارزمي رسالة عاتبه[4] فيها وفخر بنفسه وبقومه، ورد عليه الخوارزمي برسالة مماثلة[5]، فأنكر عليه عتابه، وأدعى قيامه بالواجب، وأشاد بقومه، وما هم عليه من فضل ولم تخل رسالته من سخرية لاذعة[6].

وهدأت الحال قليلاً ولم يرق الأمر للوشاة الذين نقلوا إلى البديع أقوالا على لسان الخوارزمي، فكتب البديع رقعة أخرى[7]، عاتبه فيها عتاباً شديداً، ولوح بمقدرته الأدبية، ومال إلى التهديد والوعيد، فأخذ الخوارزمي يعرض بالبديع صراحة، واشتكى من أن البديع قد خاطبه مخاطبة مجحفة، وانه يؤثر العربدة.

فبعث إليه البديع بقصيدة كرر فيها عتابه وتهديده[8]، واتبعها بقصيدة أخرى[9] فيها سخرية واقذاع، فاستشاط الخوارزمي غضباً وتمنى لو أن رجلاً يجمع بينهما ثم أن

---

(1) رسائل البديع/ 128– 129.

(2) المصدر السابق/ 30.

(3) المصدر السابق/ 31.

(4) المصدر السابق/ 31/ 32.

(5) المصدر السابق 33– 34.

(6) المصدر السابق 35.

(7) رسائل البديع/ 35.

(8) مناظرة بديع الزمان لأبي بكر الخوارزمي (مخطوط)/ ورقة/ 5، ومن الملاحظ أن هذه القصيدة، والقصيدة الأخرى لم تردا في المناظرة كما جاء في رسائله وتقع هذه القصيدة في عشرين بيتاً.

(9) المصدر السابق/ ورقة6، وعدة أبياتها تسعة عشر بيتاً.

الخوارزمي جمع تلاميذه، وقصد البديع معاتباً، حيث كان يقيم في دار أبي الطيب الصعلوكي[1]، فتلقاه البديع بأسلوب الناصح الذي يعرض الصلح ويبطن العداوة، ويلوح بالسيف، وهو يبسط يده للسَّلام، ولم تكن طريقته خافية على الخوارزمي، كما قال البديع[2]:

وحتى ظنَّ أنَّ الغشَّ نُصْحي وخالفني كأنِّي قُلتُ هُجْرا

وعمل أحد الأشراف على الجمع بينهما في منزله[3]، فحضر البديع، وحضر الخوارزمي بعد تردد، وحضر جمع من وجوه نيسابور وقد بالغ البديع في الإساءة إلى الخوارزمي وأصحابه، وواجهه بأسلوب ساخر واتخذ الهجوم والتهكم وسيلة للدفاع، وعرض على الخوارزمي مناظرته في الأدب، وتناظرا في قول الشعر على البديهة[4].

فكان يقترح عليهما أن ينظما على غرار وزن وقافية بيت من الشعر[5]، وما أن ينتهي أحدهما من القول حتى يبدأ الآخر بنقد أبياته وتجريحها وبيان فسادها، والاستفسار عن معانيها، وما فيها من تناقض. وقد حوت مقطعاتهما كثيراً من معاني التحدي والسخرية والهجاء، ومال البديع إلى السباب والشتائم في معرض نقده لأبيات الخوارزمي. وادعى البديع أن الخوارزمي قد مال إلى السخف[6]، ولم يورد شيئاً منه، وكان رد البديع مقذعا، فاحشاً[7].

---

(1) سهل بن محمد سليمان الصعلوكي النيسابوري مفتي نيسابور. له ترجمة في وفيات الأعيان 2/ 284.

(2) رسائل البديع/ 39.

(3) المصدر السابق/ 39 ويدعى (بابي علي).

(4) تعني أنه ينظم كل منهما مباشرة، وكانا يكتبان مرة، وينظمان أخرى دون أن يكتبا.

(5) رسائل البديع/ 42- 50.

(6) المصدر السابق/ 48.

(7) المصدر السابق/ 49- 50.

ثم مال البديع إلى القوال[1]، فغنى أبياتاً ادعى الخوارزمي أنه يحفظها وأن البديع لا يحفظها، وقد حرف البديع الأبيات ليلمز بها الخوارزمي[2]، فيغضب الخوارزمي، ويتوعد البديع بالضرب، فيعاود البديع سبابه وشتائمه، وتنتهي الجولة الثانية، ويحسب البديع أنه قد حقق نصراً على الخوارزمي، ويسعى القوم بينهما بالصلح[3]، فيتصالحان ويعرض الخوارزمي على البديع الإقامة عنده، ويعتذر البديع عن القبول بالصوم، ثم يقبل ويقضي عنده يوماً في بيته.

وتبدأ الجولة الثالثة حين أرسل الخوارزمي رسولين إلى البديع يحملان رسالة منه يتهمه فيها بإشاعة خبر انتصاره على الخوارزمي، ويطلب أن يجتمعا في مجلس بعض الرؤساء ليتناظرا بمشهد الخاصة والعامة، وإلا فإن عليه أن يقر بعجزه[4].

ويرد البديع برسالة تحد وسخرية[5]، وزاد حنق الخوارزمي عليه.

واتفقت الآراء على أن يعقد المجلس في دار الشيخ أبي القاسم الوزير[6]، فكان البديع أول من حضر، وحضر السادة والقضاة والأدباء وأحضر كل منهم جماعته. وأخذ البديع يتقرب إلى السادة العلويين ويظهر تشيعه[7]، ويبرز مهاراته في الشعر والنظم قبل أن يحضر الخوارزمي، وما ان دخل الخوارزمي حتى تلقاه البديع وطلب إليه التنحي عن الصدر، وأن يجلسا وجهاً لوجه فوافقه الحاضرون، وطلب البديع من

---

(1) القوال: المغني.

(2) المصدر السابق/ 50- 51.

(3) المصدر السابق/ 53.

(4) رسائل البديع/ 54.

(5) المصدر السابق 54- 56.

(6) المصدر السابق/ 56.

(7) المصدر السابق/ 63.

الخوارزمي أن يختار موضوعاً للمناظرة، واختار الخوارزمي النحو[1]، وتهرب البـديع، بحجة ضيق الوقت، واشترط أن يسلم الخوارزمي له، سرعة البديهة وجـودة الرويـة، والقدرة على الحفظ، ونفاذ الترسل[2]، كي يجاريه في النحـو، واضـطر الخـوارزمي إلى التنازل، وادعى البديع أن الخوارزمي قد سلم له الحفظ ثـم تراجـع[3]، ثـم تنـاظرا في البديهة والترسل واللغة والعروض[4]، وادعى البديع الانتصار على الخوارزمي، وخـر الخوارزمي مغشياً عليه، فقام البديع إليه، وقدم اعتـذارا مشـوبا بالسـخرية[5]. ومـا أن انتقلا لتناول الطعام حتى عاود البديع هجومه على الخوارزمي، وأخذا يتنابزان بألفاظ مسجوعة وكلمات نابية متقاربة في حروفها[6]، وتنتهي المنـافرة ويخـرج البـديع مباهيـاً بانتصاره.

ولعل من التجوز تسمية ما دار بين البديع والخوارزمي منـاظرة أدبيـة، والحكـم عليها من خلال هذا المنظور، ذلـك أن المنـاظرة الأدبيـة لا بـد أن تسـمو إلى مستوى الأدب الرفيع، وأن تخرج عن إطار الابتذال السخيف، وعن السباب والشتائم والكلام المقذع الذي لا يمت إلى الأدب بصلة، ولقد أراد البديع أن يسجل لنفسه فخراً ونصراً، فأساء الاختيار، وحاول أن يبهـرج، فلـم يسـتطع بأسـلوبه المشـرق، وسـرده الجميـل للأحداث، وتصويره للمواقف أن يبعد مشاعر التقزز بسبب هذا النمط مـن السـلوك المخاتل المراوغ. وليس هذا الرأي جديداً، فقد ذهب البديع إلى ما هو قريب منه حـين

---

(1) انظر قصيدته في رثاء الحسين 58/ 61.

(2) رسائل البديع/ 65.

(3) المصدر السابق/ 67- 80.

(4) المصدر السابق/ 80.

(5) المصدر السابق/ 80.

(6) رسائل البديع/ 28- 29.

قال[1]: سأل السيد أمتع الله ببقائه إخوانه أن أملي جوامع ما جرى بيننا وبين أبي بكر الخوارزمي أعزه الله مناظرة مرّة، ومنافرة أخرى، وموادعة أولاً ومنازعة ثانياً.

لقد أراد البديع تصوير انتصاره على الخوارزمي في مجالات الأدب المختلفة ولكنه لم يستطع الاستشهاد إلا بمقطوعتين من الشعر الهزيل نسبهما إلى الخوارزمي[2]. وثلاث مقطوعات شعرية نسبهما لنفسه[3]، وثلاث مقطوعات أخرى له، اثنتان في عتاب الخوارزمي وهجائه[4]، والثالثة في رثاء الحسين[5]، مصانعة ومداهنة لمن حضر المجلس من العلويين، والمقطعات الثلاثة الأخيرة لا تقع في إطار المناظرة، فقد أعدها من قبل، وليس في كل ما أورده من شعره أو نسبه إلى الخوارزمي مما يمكن عده من جيد الشعر سواء في معانيه أو في صياغته ولا هو مما يمكن أن يفخر به شاعر. كما أن المقطوعتين النثريتين اللتين أوردهما في المناظرة[6]، لا تقتربان من الأسلوب النثري البارع الذي تحلت به كتاباتهما النثرية. ولم يكن موفقاً، رغم مباهاته في إيصال معنى مستقيم لقطعته النثرية في حال قراءتها من أولها ومن آخرها. ولا يكاد القارئ يخفي مشاعر النفور، لما فيها من ثقل يطمس المعاني، ويأتي على الجمال الفني.

لقد تضمنت الرسائل المتبادلة بينهما التي سبقت المناظرة[7]، معاني جميلة وظريفة، ودخلت في إطار الشخصية الأسلوبية لكن منهما، ولكن هذه الرسائل كانت في حقيقتها خارج نطاق المناظرة. ومع ذلك فليس للقارئ إلا أن يكبر طريقة

(1) المصدر السابق/ 28- 29.

(2) المصدر السابق/ 45- 68.

(3) المصدر السابق 43- 46- 70.

(4) مناظرة بديع الزمان لأبي بكر الخوارزمي ورقة 5، 6.

(5) رسائل البديع/ 58-61.

(6) رسائل البديع/ 71، 77.

(7) المصدر السابق/ 31، 33، 35.

الخوارزمي اللبقة المهذبة التي حاول فيها أن يجد من اندفاع البديع إلى مصاولته[1]، ولكن جهود الشيخ الوقور ذهبت أدراج الرياح أمام الخصم المدفوع بعوامل متعددة. وليس فيما أدعاه البديع من انتصاراته على الخوارزمي في الترسل واللغة والعروض والبديهة ما يمكن أن يقنع القارئ بصحتها، فقد اكتفى بحديث سريع منمق من غير أن يدخل في التفاصيل، ففي الترسل اعتقد أنه حقق انتصاراً حين طلب من الخوارزمي أن يقترح عليه أقصى ما لديه، ليقترح هو أربعمائة صنف في الترسل[2]، وقد وصم الخوارزمي تلك الأبواب البديعية بأنها "شعبذة"، أما اللغة فقد أدعى الانتصار فيها لأنه قرأ الفصل الذي طلب منه الخوارزمي قراءته من كتاب "غريب المصنف" ولأن الخوارزمي لم يستطع أن يقرأ باب المصادر من أخبار فصيح الكلام[3]، والمسألة لا تتعدى الحفظ، وكذلك الأمر بالنسبة للعروض الذي ذكر البديع أنه سرد منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها، ولأن الخوارزمي لم يفعل مثل ذلك[4]، وليس يخفى أن البديع قد تهرب من منازلة الخوارزمي في النحو بحجة ضيق الوقت، ونجح في إبعاد الخوارزمي عن هذا الميدان، ولم يحاول العودة إليه مرة أخرى كما ليس يخفى أن الجولة الأخيرة من المناظرة لم تكن أحسن حظاً مما قبلها، فقد غلب عليها الإسفاف في القول، والابتعاد عن الخلق الكريم في مجلس غاص بالعلماء والفضلاء، ومن يقرأ رسائل الخوارزمي لا يجد فيها ما يجده في رسائل البديع من ميل إلى السخف والإسفاف، والخروج عن الأدب في مهاجمة الخصوم، ولعل خير دليل على إسفافه تلك الرسالة التي بعث بها إلى الإمام أبي الطيب الصعلوكي، يرد فيها على كتاب للخوارزمي ادعى فيه الانتصار[5].

---

(1) اعني رسالته الأولى في الرد على عتاب البديع.

(2) رسائل البديع/ 74.

(3) رسائل البديع/ 79.

(4) المصدر السابق/ 80.

(5) المصدر السابق/ 194- 206.

أسباب المناظرة:

لقد عزا البديع أسباب ما جرى بينه وبين الخوارزمي إلى سوء استقبال الخوارزمي له حين ضافه في بيته، وهذا واضح في الرسالة التي بعث بها البديع إلى الخوارزمي حيث يقول[1]:

"الأستاذ أبو بكر، والله يطيل بقاءه، أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة[2]، في أطمار الغربة[3]، فاعمل في رتبته أنواع المصارفة[4]، وفي الاهتزاز له أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، واشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام عن التمام ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام.."

وقد ذهب إلى مثل ذلك في القصيدتين اللتين أرسل بهما إلى الخوارزمي حيث يقول[5]:

فلم أدر فيم جَفا ضيفَهُ ولم سكن البر من فوره

ويقول في الثانية:

ولا تقدم إلى الاضيا ف إلاسبل الخير

ولا تحفِزْ لَهُم بيراً تَقَعْ في هُوَّةِ البيرِ

ولا تفتك إلى الفتنة أسباب المقادير

وقد رد الخوارزمي على هذا الادعاء وفند أقوال البديع حيث يقول[6]: أما ما

---

(1) رسائل البديع/ 31-32.

(2) الآباط: جمع الابط والقلة: الفقر والحاجة.

(3) أطمار: جمع طمر وهو الثوب الخلق.

(4) المصارفة: أي صرفه بأي سبب لاحتقاره.

(5) مناظرة بديع الزمان لأبي بكر الخوارزمي/ ورقة 5.

(6) رسائل البديع/ 33.

شكاه سيدي ورئسي من مضايقتي إياه في القيام، فقد وفيته حقه- أيده الله - سلاماً وقياماً على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه إلا ابا البركات العلوي- أدام الله عزه.

وليس لنا أن نعتذر عن الخوارزمي، فربما لم يحسن استقبال ضيفه، الذي لم يكن له به سابق معرفة، وهذا ما دلت عليه رقعة البديع الأولى، التي أدعى فيها وجود صداقة بينهما[1]، ولو كان بينهما صداقة لما اضطر إلى الاستعطاف، ووصف حالته ولما عزا ما لقيه من استقبال على زي استغثه، ولباس استرثه[2].

كما أن الخوارزمي لم يكن بخيلاً أو شحيحاً، فلقد وصفه خصومه بأنه صاحب فضل وأدب[3] حين أخذوا عليه تقلب أحواله.

ويبدو أن هنالك أسباباً أخرى للمناظرة التي جرت بينهما نستطيع أن نلخصها بالأمور الآتية:

1- العامل المذهبي: فالخوارزمي من غلاة الشيعة[4]، وكان يجهر بمذهبه ويعتز به اعتزازاً شديداً، وكان يرى أن أصحاب المذاهب الأخرى، ولاسيما أهل السنة قد تسببوا في إيذاء الشيعة واغتصبوا حقوق العلويين[5]. فهم من أجل ذلك أهل بدعة وضلال. أما بديع الزمان فبالرغم من تظاهره بالتشيع وتقربه للسادة العلويين، فإنه كان سنياً غالياً، فقد وقف موقفاً عدائياً من الشيعة وحث على سحقهم ورد كيد الشيطان على عقبه. ووصف قم والكوفة بأنهما تربتان خبيثتان، وأن خبثهما إنما هو بسبب

---

(1) المصدر السابق/ 129 أعني قوله (فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق وخراسان لا بل ما بين عتبتي نيسابور وجرجان.

(2) المصدر السابق.

(3) يذكر الثعالبي أن الخوارزمي: عاود العادة المألوفة في المبار والأحبية.

(4) سنتحدث عن مذهبه بالتفصيل في الفصل القادم.

(5) انظر رسالته إلى شيعة نيسابور/ 130.

خبث نحلتهما، وحث على قطع دابر التشيع في هراة قبل أن يستفحل، وقد رمى الروافض بالإلحاد وتشفى بما أصابهم من خطوب ومصائب[1].

وقد تجلى الصراع المذهبي بينهما من خلال القصيدة التي كتبها البديع في هجاء الخوارزمي، فقد عرّض بمذهبه، وهاجم الخوارزمي بعنف ورماه بالإلحاد واستنكر موقفه من الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان، ومن عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ومال كعادته إلى السباب والشتائم، يقول في قصيدته[2]:

إن أميـــر المؤمنيـــن المرتضـــى ... وجعفر الصادق أو موسى الرضى

لـــو سمعـــوك بالخنـــا مُعَرِّضـــا ... مـا ادخـروا عنـك الحسـامَ المنتضـى

ويلـك لِـمْ تنـبحُ يـا كلـبُ القَمَـرْ ... مـا لـك يـا مأبـونُ تغتـاب عمـر

سـيدَ مـن صـام وحـجَّ واعتمـر ... صَـرِّحْ بإلحـادك لا تُمْـشِ الخَمَـر

يـا مَـنْ هجـا الصديـقَ والفاروقـا ... كيمـا يُقيـمَ عنـد قـومٍ سوقـا

إلى أن يقول:

كفـى مـن الغيبـة أدنـى شَمَّـهْ ... مـن استجاز القـدحَ فـي الأئمـه

ولـم يعظِّـمْ أمنـاء الأمـهْ ... فـلا تلومـوه ولومُـوا أمـهْ

مـا لـك يـا نـذل وللزكيّـه ... عائشـةَ الراضيـةِ المرضيّـه

يـا ساقـطَ الغيـرة والحميّـهْ ... ألـم تكُـن للمُصطفـى حظيّـه

ويبدو أن الخوارزمي قد استغل الخلاف المذهبي في صراعه مع البديع، يقول الحصري القيرواني[3]، وكان الخوارزمي يرميه ببغض علي رضوان الله عليه. ويشنع

---

(1) رسائل البديع/ 422-427.

(2) معجم الأدباء 1/ 114- 116 (والارجوزة طويلة تقع في أربعة وأربعين بيتاً).

(3) جمع الجواهر/ 255، وانظر ديوان البديع/ 8.

عليه بذلك، ويغري به الطالبيين، وقد أحس البديع بخطورة هذا الموقف ورد على الخوارزمي بقصيدة أظهر فيها محبته لآل أبي طالب وآل بيت النبي، وجاءت مصطلحاته خليطاً من مصطلحات المذهبين الشيعي والسني، فقد سمى علياً بالوصي، وهو مصطلح شيعي في حين أعلن ولاءه لجميع الصحابة، وخص من بينهم الصاحب وهو أبو بكر الصديق. يقول في قصيدته:

يقولون لي لا تُحب الوصيَّ	فقلت الثَّرى بفم الكاذبِ
أحبُّ النَّبيَّ وآل النَّبي	وأختصُّ آل أبي طالبِ
وأُعطي الصَّحابة حقَّ الولاءِ	وأجري على السُّنن الواجبِ
فإن كان نصباً ولاء الجميع	فإني كما زعموا ناصبي
وإن كان رفضاً ولاء الوصي	فلا برح الرفْضُ منْ جانبي
فللَّه أنتم وبهتانكم	ولله من عجب عاجبِ

إلى أن يقول:

أعزُّ النبيَّ وأصحابهُ	فما المرء إلاَّ مع الصَّاحبِ
أيرجو الشَّفاعة من سبَّهُمْ	بل المثلُ السُّوءُ للضَّاربِ

وفي ديوان البديع مقطوعة قصيرة قيل أن الخوارزمي قد انتحلها إغراء بالبديع يفخر فيها بيزيد بن معاوية وبني أمية، ويسخر من آل أبي طالب، يقول فيها[1]:

إمامي لا يُعادلهُ إمامُ	تواضع تحتَ رايته الأنامُ
يزيُد الخَيْرِ والسَّامي أبوهُ	أقاما الخلْقَ طُراً فاستقاموا
فمن يَكُ لائمي في حُبِّ رهطي	فإني في ولائي لا الأم
ومن يفخر بآل أبي تراب	فآلي من أمية والسلام

(1) ديوان بديع الزمان الهمذاني/ 77.

ومما يسند هذه الأقوال ما جاء في وصيته[1]، فقد أوصى بأن يتولى الصلاة عليه أصحاب الحديث وأهل السنة ولعل فيما أوردناه ما يقطع بكذب ادعائه بالتشيع، ولم تكن قصيدته في رثاء الحسين، ومدح السادة الأشراف إلا نوعاً من الملق ليكسب ودهم، وليقطع الطريق على الخوارزمي في استغلال هذا الأمر دونه، ولقد استطاع فعلاً أن يصرف بعضهم عن مؤازرة الخوارزمي. فهو يقول[2]:... ثم حضر السيد أبو الحسين، وهو ابن الرسالة والإمامة وعامر أرض الوحي والمحتبي بفناء النبوة، والضارب في الأدب بعرقه، وفي النطق بحذقه.... وجعل يضرب عن هذا الفاضل (يعني الخوارزمي) بسيفين لأمر كان قد مُوِّه عليه، وحديث كان شُبه لديه، وفطنت لذلك فقلت: أيها السيد أنا إذا سار غيري في التشيع برجلين طرت له بجناحين، وإذا مَتَّ سواي في موالاة أهل البيت بلمحة دالة، توسلت بغرة لائحة، فإن كنت أبلغت غير الواجب، فلا يحملنك على ترك الواجب، ثم أن لي في آل الرسول ﷺ قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارت في البلاد، ولم تسر بزاد، وطارت في الآفاق، ولم تسر على ساق، ولكني أشوق بها لديكم ولا أتنفق بها عليكم، وللآخرة قلتها لا للحاضر، وللدين ادخرتها لا للدنيا. وأنشد قصيدته، وكان له ما أراد، فهو يقول[3]... فلمًا أنشدت ما أنشدت وسردت ما سردت، وكشف له الحال فيما اعتقدت، انحلت له العقدة، وصار سلماً يوسعنا حلماً.

2- العامل الاجتماعي: كان الخوارزمي يتمتع بمنزلة اجتماعية لا يستهان بها وقد عرفناه أنه قد استقر في نيسابور في أواخر أيامه (وقد زادت حاله. وثبت قدمه، ونظر إليه ولاة الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام، والإكرام والإعظام فارتفع

---

(1) رسائل البديع/ 537.

(2) رسائل البديع/ 57.

(3) رسائل البديع/ 61.

مقداره وطاب عيشه[1]، وقد أشار البديع إلى ما آل إليه حال الخوارزمي آنذاك، فقال[2]: "ولكن عرفني هل كنت فيما سلف من زمانك، ونبت من أسنانك إلا هارباً بذمائك مضرجاً بدمائك مرتهناً بقولك، بين وجنة موشومة، وجوارح مهشومة، ودار مهدومة، وخدود ملطومة، ومتى صفت مشارعك وأخصبت مرابعك الا في هذه الأيام القذرة..

ومما لا شك فيه أن الخوارزمي كان مدعاة للحسد في علمه وأدبه ومنزلته الاجتماعية، ولم يكن لين العريكة، ولا سهل القياد، وقد أشار الثعالبي إلى أن قوماً من وجوه نيسابور كانوا مستوحشين منه جداً، وأنهم قد أعانوا الهمذاني الحافظ عليه[3]، وأنا أعتقد أنهم لم يعينوه فقط، وإنما دفعوه إلى مواجهته وأغروه، ودبروا له المكائد حتى استطاعوا أن يوقعوا بالخوارزمي في الفخ، وقد وجدوا في بديع الزمان شاباً طموحاً ذكياً، تستهويه شهرة الأدب، وشهرة المجد، فلم ير حرجا من التحكك بالخوارزمي، وتسليط لسانه عليه، بالسب والشتم والاقذاع، وهذه أمور تنفر منها طباع الخوارزمي وقد علت به السن، وشارف الهرم، لا شك أنهم نجحوا في الاختيار، ونجحوا في الأسلوب، وقد اعترف البديع في ثنايا المناظرة أن الوشاة قد فعلوا فعلهم في إذكاء نار الفتنة بعد تبادل رسائل العتاب الأولى، فهو يقول[4]:

"ومضى على ذلك الأسبوع، ودبت الأيام، ودرجت الليالي وتطاولت المدة، وتصرم الشهر، وصرنا لا نعير السماع ذكره ولا نودع الصدور حديثه، وجعل هذا الفاضل يستزيد ويستعيد بألفاظ تقطعها الأسماع من لسانه وتوردها إلي، وكلمات تحفظها الألسنة وتعيدها علي".

---

(1) اليتمية 4/ 208.

(2) رسائل البديع/ 50.

(3) يتمية الدهر/ 4/ 209.

(4) رسائل البديع/ 34- 35.

ويقول في مكان آخر[1]: ويقينا نلتقي خيالاً، ونقنع بالذكر وصالاً حتى جعلت عواصفه تهب، وعقاربه تدب، وهو لا يرضى بالتعريض حتى يصرح، ولا يقنع بالنفاق حتى يعلن...

ولم يكتف خصوم الخوارزمي بتحريض البديع، لكنهم ساندوه في جلسات المناظرة، فهم لم يحاولوا أن يضعوا حداً للسباب والشتائم التي كان يطلقها البديع، وهي من الأمور المحرجة لرجل كبير في حالتي السكوت والرد، وهم الذين أجبروا الخوارزمي على التنحي عن مكانه نزولاً عند رغبة البديع[2]، ليجلس قبالته. وهم الذين أرغموه على عدم منازلة البديع في النحو، وقد وصف البديع هذا الموقف فقال[3]: "وارتفعت المضاجّة واستمرت الملاحاة، حتى أبلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر إليه وقال: أيها الأستاذ أنت أديب خراسان، وشيخ هذه الديار، وبهذه الأبواب التي قد عدها هذا الشاب كنا نعتقد لك السبق والحذق، وتثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم. واضطره إلى منازلة أو نزول عنها، ومقارة فيها او إقرار بها". فهذا الموقف يحمل في طياته موافقة للبديع على رأيه، وغمزاً على الخوارزمي من خلال إطراء أدبه، ودفعاً له إلى حيث يريد البديع.

ثم أنه حين أنكر أن يكون قد قال "البارق الفضفاض "قافية" وافقه أهل المجلس، وقالوا قد قلت[4].

وحين سألهم البديع[5] لو أن رجلاً حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط، هل تطلقون امرأته عليه، فقالت الجماعة (لا يقع بهذا طلاق"

(1) المصدر السابق/ 36.

(2) رسائل البديع/ 65.

(3) رسائل البديع/ 66.

(4) المصدر السابق/ 68.

(5) المصدر السابق/ 72.

ثم هذه الأحكام التي كانت تطلق في نهاية كل مناظرة نحو قولهم[1] قد علمنا أي الرجلين أشعر، وأي الخصمين أقدر وأي البديهيتين أسرع وأي الرويتين أصنع.

وقال الناس: قد عرفنا الترسل أيضاً، فملنا إلى اللغة[2]، وقال الناس، اللغة مسلمة لك أيضاً فهاتوا غيره[3]، وقال السيد أبو القاسم: أيها الأستاذ أنت مع الجد والهزل تغلبه[4].

لا ريب أن في إطلاق هذه الأحكام لدليلاً على أن جو المناظرة كان في غير صالح الخوارزمي، وأن هناك تعمداً لإبعاد المناظرة عن الأجواء الكفيلة بتحقيق العدالة في الحكم.

أما العامل الثالث: فهو العامل الأدبي، إنه صراع بين مدرستين مدرسة الصناعة النثرية، وبين مدرسة التصنع والتكلف والزخرف البديعية صراع بين ذوقين بين الأدب الجاد وبين الأدب العابث.

كان الخوارزمي من أصحاب مدرسة الصناعة النثرية، مدرسة ابن العميد التي اهتمت بالسجع والمحسنات البديعية، والاعتناء بالموسيقى النثرية، ولكنها لم تضع كل ذلك في المكان الأول، ولا أغرقت فيه إغراق المتأخرين، وقد مثل البديع تيار التحول إلى مرحلة التصنع[5]، فقد ازداد اهتمامه بالمحسنات البديعية، ومن يقرأ رسائله يحس مقدار القصد في التفنن والاعتناء بالألفاظ وحشد المعاني والصور والأخيلة المتتابعة، والإفراط في المبالغة، وكان الصراع بين المدرستين واضحاً في المناظرة، فالبديع، يطالب الخوارزمي أن يقترح عليه غاية ما في وسعه، لكي يقترح عليه أربعمائة صنف في

---

(1) المصدر السابق/ 73.

(2) المصدر السابق/ 69.

(3) المصدر السابق/ 80.

(4) المصدر السابق/ 81.

(5) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي/ 227 وما بعدها.

الترسل التي هي من وجهة نظره- غاية ما يطمح إليه أديب مترسل، ولنترك للبديع فرصة الحديث عن تلك الأنماط الأدبية: يقول[1]: ثم ملنا إلى الترسل، فقلت:اقترح علي غاية ما في طَوْلك ونهاية ما في وُسعك، واختر ما تبلغه بذرعك حتى اقترح عليك أربعمائة صنف في الترسل، فإن سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخلف كل الإخلاف، فلك يد السبق وقصبه، ومثال ذلك أن أقول لك: أكتب كتاباً يقرأ منه جوابه، هل يمكنك أن تكتب، أول أقول لك أكتب كتاباً على المعنى الذي اقترح لك، وأنظم شعراً في المعنى الذي اقترح، وافرغ منها فراغاً واحداً، هل كنت تمد له ساعدا؟ أو أقول لك اكتب كتاباً في المعنى الذي أقول، وأنص عليه، وانشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل، حتى إذا كتب ذلك قرئ من أوله إلى آخره، وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً أو تجيل قدحاً، أو تصيب نجحاً؟ أو قلت لك: أكتب كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً، فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً هل كنت في هذا العمل واري الزند، قاصد القصد، أو قلت لك أكتب كتاباً في المعنى الذي يقترح، ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة، أو دال ينفصل عن الكلمة بديهة، ولا يجم فيها قلمك، هل كنت تفعل، أو قلت لك: اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام، تصب معانيه على قالب ألفاظه، ولا تخرجه عن جهة أغراضه. هل كنت تقف في ذلك موقفاً ممدوحاً، ويبعثك ربك مقاماً محموداً، أو قلت لك اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل، هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبل لهاتك بناطل، أو قلت لك اكتب كتاباً أوائل سطوره كلها ميم وأخرها جيم على المعنى الذي يقترح... الخ.

لقد أفصح البديع عن اهتمام واضح بالألاعيب التي تهتم بالشكل الأدبي، ووضعها في المكان الأول، وجعل منها مقياساً للحكم على مقدرة الأديب، وقد وصم

---

(1) رسائل البديع/ 47.

الخوارزمي هذه الألاعيب التي يفاخر بها البديع بأنها شعبذة[1]، وقد رد عليه البديع بقوله "وهذا الكلام طرمذة[2]، فما الذي تحسن أنت من الكتابة وفنونها حتى أباحثك على مكنونها، واكاثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك وأسبر فيها لسانك وفمك. قال: الكتابة التي يتعاطها أهل الزمان، المتعارفة بين الناس: فقال: أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم، المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبذة[3].

وليس يخفى على القارئ اختلاف السمات العامة للمقطوعة التي نسبها البديع إلى الخوارزمي، وبين سمات المقطوعة النثرية التي كتبها في النقود وفسادها. فقد اهتم الخوارزمي بالمعنى فربط بين الدنيا والآخرة واستشهد بالآيات القرآنية، وقد حوت مقطوعته أسجاعاً لا يحس القارئ فيها ثقل التكلف، ولا يرى كثير اهتمام بالموازنة بين الجمل والتراكيب. وليس فيها من المحسنات البديعية مما يمكن أن يشكل ظاهرة. وعلى العكس من ذلك نجد في مقطوعة البديع اهتماماً بينا بالتصنع والتكلف المنفر، فالمعاني ليست مستقيمة إذا قرئت من بدايتها، وهي مليئة بالمجازات والاستعارات والكنايات، وبها غير قليل من المبالغة، وفيها تعمد للسجع والموازنة بين الجمل. كما أن اهتمام البديع بإخراج مقطوعته بحيث تقرأ من أولها ومن آخرها لدليل على اختلاف ما بين الرجلين في الذوق، عبث البديع وجد الخوارزمي.

يقول الخوارزمي[4]: الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة بهما يتوصل إلى جنات النعيم، ويخلد في نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم". وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه اشد الإكبار،

---

(1) الشعبذة: خفة في اليد وعمل السحر يرى الشيء بغير ما هو عليه.

(2) طرمذة: المطرمذ الذي لا يفعل ولا يحقق في الأمور، ورجل طرماذ: صلف مفاخر.

(3) رسائل البديع/ 76.

(4) رسائل البديع/ 77.

وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا في ذلك ما يربح للناس في الزرع والضرع، ويعود إليه أمر الضر والنفع.

ويقول البديع[1]:

الله شاء أن المحاضر صدور بها، وتملأ المنابر ظهور لها وتفرغ الدفاتر وجوه بها، وتعشق المحابر بطون لها، ترشق آثاراً كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه، في تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل هذا، ويرفع الدين أهل عن الكلّ هذا يحط أن في إليه تتضرع ونحن واقفة، والتجارات زائفة، والنقود صيارفة، أجمع الناس صار فقد كريماً نظراً لينظر شيمه، مصاب وانتجعنا كرمه: بارقة وشمنا هممه على آمالنا رقاب وعلقنا أحوالنا وجوه له، وكشفنا آمالنا وفود إليه، بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعماءه، تأييده، وأدام بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى أن. وصلى الله عليه محمد وآله الأخيار.

لقد كان البديع شاباً في مقتبل عمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين، يبحث عن مكان له بين شيوخ الأدب، مندفعاً بطموح شديد. وذكاء وقاد، ومقدرة على الحفظ، وقد وجد في منازلة الخوارزمي، وهو من المتقدمين في عصره بالعلم والأدب، وله منزلة اجتماعية مرموقة سبيلاً للوصول إلى المجد فأعد للأمر عدته، وقد أدرك ما كان عليه جل أهل زمانه من ميل عن الجد إلى الهزل، واهتمام بالتظرف والنفور من القديم[2]، ولم يكن الخوارزمي من دعاة هذا الاتجاه، أو السائرين عليه، فلا غرابة بعد ذلك أن يجد البديع مناصرة قوية من الحاضرين، وفيهم الأدباء والعلماء، وفيهم العامة التي لا ترتاح للجد، والتي وجدت في البديع خير من يعبر عن ألفاظها وعن نقمتها.

وخلاصة القول أن مناظرة البديع والخوارزمي لم تكن إلا تعبيرا عن الصراع

---

(1) رسائل البديع/ 78- 79 وهذه القطعة الأدبية تقرأ من نهايتها أيضاً.

(2) انظر مقدمة الأمثال المولدة/ ورقة 3.

الاجتماعي في كل جوانبه المذهبية والسياسية والفكرية، وأنها لم تكن مناظرة أدبية تعتمد المقدرة والبراعة في إداء الفنون الأدبية، وبالتالي فليس من الجائز البحث عن الغالب والمغلوب، ولكن الأمر الذي لا خلاف فيه هو أن المناظرة قد رفعت شأن البديع، وأنها لم تقلل من منزلة الخوارزمي الأدبية، وأن تأثيرها قد اقتصر على الجانب المعنوي، لما لقيه من أهانة لا تحتمل.

وفاته:

اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته، وانحصر هذا الخلاف في سنتين متباعدتين. يذكر الثعالبي[1] أن أبا بكر قد توفي في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وأن وفاته كانت بعد مناظرته للبديع بفترة لا تتجاوز عاماً واحداً، ويؤكد الثعالبي أن المناظرة جرت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة[2].

وأورد ابن الأثير تاريخين- ثانيين لوفاته، فذكر وفاته في أحداث سنة 383[3] ثم أعاد ذكر وفاته في أحداث سنة 313[4] ولم يفطن إلى هذا الاختلاف، أو ينبه إليه.

ويتفق السمعاني مع الثعالبي في سنة الوفاة، ولكنهما يختلفان في تحديد الشهر فيقول[5]: أنه توفي للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة.

وقد أخذ ابن خلكان ذلك عنه، وأشار إلى ما ذكره ابن الأثير من أن وفاته كانت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فقال[6]:

---

(1) اليتيمة 4/ 201.

(2) المصدر السابق 4/ 257.

(3) الكامل في التاريخ 1/ 101.

(4) المصدر السابق 1/ 171.

(5) الأنساب 5/ 214.

(6) وفيات الأعيان 4/ 402.

"ولما رجع من الشام سكن نيسابور ومات بها في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة. وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أنه توفي سنة ثلاث وتسعين، والله أعلم رحمه الله تعالى".

وحين ترجم له اليافعي في مرآة الجنان، ذكر أن وفاته كانت سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة[1].

وتجمع المصادر على أنه قد توفي في مدينة نيسابور بخراسان ويذهب السيد فكتور الك في كتابه بديعيات الزمان[2]، إلى أنه اهتدى إلى رأي قريب من الصحة في تحديد وفاة أبي بكر، أعتمد فيه على ما أورده، المستشرق الألماني آدم متز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، من أن بديع الزمان قد وافى نيسابور سنة 392هـ معتمداً في ذلك ما نقله ابن خلكان عن ابن الأثير.

ويقول السيد فكتور الك: واعتمد متز بذلك على جملة نقلية غير مفصل زعمه، بيد أننا نستطيع أن نعلل ذلك، فنقول: ليس من المعقول أن يفارق البديع بلدته همذان سنة 380 ولما يتجاوز الثانية والعشرين، فيوافي الري بلدة الصاحب، ويمكث عنده مدة غير وجيزة، ثم يفارقه إلى جرجان، حيث يقيم مدة سنتين لا غير، فيتهيأ له من أسباب الثقافة والاحتكاك في مدة وجيزة كهذه ما يجعله كفء لتأليف مقاماته التي تنم عن معارف واسعة وعميقة، وهو ما يزال في هذه السن".

ويردف قائلاً "ثم إن ابن خلكان يقرر وفاة الخوارزمي سنة 383هـ ونحن نعلم أن أبا بكر لم يحل عليه الحول- بعد مناظرة البديع حتى توفي فتكون المناظرة الشهيرة قد حصلت سنة 392".

والمرجح عندي: أن أبا بكر الخوارزمي قد توفي في شهر شوال سنة 283، ذلك

(1) مرآة الجنان 2/ 416.

(2) وفيات الأعيان 22- 23.

أن أبا بكر قد توفي قبل الصاحب بن عباد الذي وافته منيته عام 385هـ ولا أدل على ذلك من الأبيات التي قالها الصاحب حين سمع بوفاة أبي بكر.

أقول لركب من خراسان قادم أمات خوارزميكم؟ قيل لي: نعم

فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره إلا لعن الرحمن من كفر النعم

ومما يعزز ما ذهبنا إليه أن الثعالبي كان تلميذاً للخوارزمي ومعاصراً له، فأجدر بنا أن نأخذ بروايته.

وأكبر ظني أن ما ذكره ابن الأثير لا يعدو أن يكون سهواً، أو هو من غلط الكتابة.

أما ما ذهب إليه السيد الك، فأمر لا يقوم على دليل، ذلك أن ابن خلكان لم يقرر وفاة الخوارزمي كما زعم، وإنما أورد الروايتين، ولم يرجح إحداهما، واكتفى بالقول: والله أعلم' وأحسب أنه لم يرجع إلى نص ابن خلكان في كتابه 'وفيات الأعيان' وأنه اعتمد على مفرده آدم متز.

أما التعليل الذي أورده فهو أقرب إلى التحليل، ذلك أنه ليس غريباً أن ينبغ البديع في سن مبكرة، وقد أكدت المصادر هذه الحقيقة، حين ذكرت أنه كان في مقتبل عمره وقت مناظرته للخوارزمي.

وحين صعدت روحه إلى بارئها، أحس تلاميذه بجلل الخطب الذي أصاب الأدب والعلم، وهو الرجل الذي ملأ خراسان علماً وأدباً وقصده التلاميذ من كل حدب وصوب فأقام للأدب سوقاً، وفقدوا بفقده، رجلاً حراً، وصاحب منطق حر.

يقول أبو الحسن عمر بن أبي عمر الرقاني في رثائه[1]:

ماتَ أبو بكرٍ وكان امرءاً أدهمَ في آدابه الغُرّ

---

(1) اليتيمة/ 4/ 209.

ولم يكـــــنْ حُـــــراً، ولكنَّـــــه   كـــان أمـــيرَ المَنْطِـــقِ الحُـــرُ

وينظم تلميذه الحسن بن أحمد الطبسي النيسابوري قصيدة في رثائه، يذكر فيها ما أصابه من الغم والحسرة على فقد الهمام الذي أودى به الحمام، فغيب فيه الشعر والأدب، ويعزي أهل خوارزم على مصابهم الجلل فيقول[1]:

شـــيَّب فـــرط الأســـى قـــذالي   وكـــدَّر الـــدهرُ صـــفو حـــالي

وارتجـــع الـــدهر مـــا حبـــاه   وحيعـــــل المجـــــدُ بـــــالزوال

وعـــــادت الـــــنيرَّاتُ بهمـــــا   وناحـــت العُصْـــم في الجبـــالِ

فقلـــتُ: يـــا صـــاحبيَّ مـــاذا   أتـــت بـــه كـــرَّة الليـــالي

أقـــام ربـــي النشـــور أم قـــد   دعـــا إلى العـــرضِ والســـؤال

ويورد الثعالبي أبياتاً لبديع الزمان الهمذاني في رثائه، دس فيهما سعاية ثانية حين قال[2]:

حنانيـــكَ مـــن نفـــسٍ خافـــتٍ   ولبيّـــك مـــن كمـــدٍ ثابـــتٍ

أبـــا بكـــر اسمـــعْ وقـــل كيـــف ذا   ولســـت بمســـمعةِ الصـــائت

تحملـــتُ فيـــكَ مـــن الحـــزن مـــا   تحمَّلـــه ابنـــك مـــن صـــامت

حلفـــتُ لقـــد مـــت عـــن معشـــرٍ   غنـــيِّين عـــن خطـــر المائـــت

يقولـــون أنـــت بـــه شـــامت   فقلـــت الثـــرى بفـــم الشّـــامت

وعـــــزّت علـــــيَّ معاداتـــــه   ولا متـــــــداركٌ للفائـــــــت

---

(1) أنباه الرواة/ 1/ 277.

(2) اليتيمة 4/ 209.

الفصل الثاني
شخصيته

شخصيته وأخلاقه

أ- الترفع والاعتداد بالنفس

إن أول ما يلفت النظر في أخلاق الخوارزمي وصفاته أنه كان مترفعاً معتداً بنفسه شديد الاعتداد، يضع نفسه في مراتب الطبقة الأولى من المجتمع.

ويدافع عن ذلك بكل ما أوتي من قوة ويربأ أن يكون مع العامة حيث كانوا[1] ولا شك أن هناك عوامل متعددة قد أنضجت هذا السلوك لديه:

فالعامل الأول هو انتماؤه إلى أسرة ثرية- كما يدعي- والارتباط وثيق بين الثراء وبين الاعتداد بالنفس، ولا بد أن يكون لهذا أثر كبير في تربيته التي تلقاها صغيراً على يدي والديه وأسرته.

وكونت أسفاره وتنقلاته في الأمصار عاملاً ثانياً عزز ثقته بنفسه، فقد ترك- أسرته يافعاً ليجوب البلاد باحثاً عن الحلم والمعرفة وناظراً إلى مستقبل مشرق وحياة سعيدة، لا تتحقق إلا بجمع الأموال، وعلو الهمة، والطريق إلى كل ذلك وعرُ المسالك، كثير الأهوال، وقد كانت تجاربه قاسية مريرة، كما وضح لنا من خلال دراسة حياته.

أما العامل الثالث فمصاحبته للملوك والأمراء وقادة الجيوش والولاة، وكان ذا حظ وافر من ذلك، وقد تركت هذه المصاحبة آثاراً واضحة في شخصيته إذ ظل يلح على أنه من الطبقة الأولى، ولم يترك فرصة تفوته من غير أن يعبر على ذلك.

أما العامل الرابع فشهرته الأدبية، وعلو كعبه بين الكتاب والشعراء في عصره فقد كان مخشيَّ اللسان، تُهاب جنبته، ولعل ارتباطه بعقيدة دينية واستبساله في الدفاع عنها من الأمور التي أيقظت في نفسه العزة، ومنحته الثقة بالنفس.

وقد حفلت رسائل الخوارزمي بهذه الروح، التي جرَّت عليه كثيراً من المتاعب

---

(1) الرسائل/ 14، 24، 31، 103.

والمحن، وجعلته يقف في مواجهة أصحاب السيادة والسلطان الذين حسبوا العزة والرفعة وقفا عليهم، فلا يسع عفوهم أنفة أحد من حاشيتهم وأتباعهم أو غيرهم من الأدباء والشعراء، وكان عليه أن ينفح عن نفسه، وأن يرد كيد الأعداء والولاة إلى نحورهم، وقد صور لنا صراعه مع هؤلاء القوم، ومدى تمسكه بالعزة في رسالته إلى خليفة الوزير بنيسابور الذي نصح له الاقتصار على خدمة الأمير، ومنادمة الوزير، فيقول[1]: "... ذكر الشيخ أني لو اقتصرت على خدمة الأمير وعلى منادمة الوزير، لمالت الصروف عن جنبي ناكبة، وولت الخطوب عني هاربة، ولو لم أنتجع غير نيسابور بلداً، ولا غير من بها أحداً، لعشت معهم عيشة رغدا، وجواب الشيخ تحت قول الأول:

فبالخير لا بالشر فاطلب مودتي وأي فتىً يقْتَال منه الترَّهبُ

مثلي أيد الله الشيخ، لا يحمل على الخدمة بالتقريع والتثريب، ولا بالتهديد والترغيب، ولا تحتلب أخلاق مودته بالإذلال، ولا يدرك مصون ما عنده بالامتهان والابتذال، وإنما يحبس مثلي بالرغبة، ويقيد بقيد من الذهب والفضة، ويرضى منه بالحياة كفيلين، وبالقدر والتذمم ضمينين، وإنما الحر زجاج رقيق ثمين إذا رفق به واستعمل في موضع مثله زين المَجالس، وأمتع المُجالس، وكان مالاً إلا أنه جمال، وجمالاً إلا أنه مال. وإذا خرق به إنكسر، فعقر الكاسر، وأتعب الجابر، وغم السامع والناظر، وكان ينبغي لأصحابنا أن يقتنصوني بحبالة الإحسان والبر، ويرتبطوني بحبال الحفاظ والشكر، ويعلموا أن البازي العتيق لا يصبر على الإضاعة ولا يقيم في بيت الجاعة".

لقد رافقته عزة النفس في كل مراحل حياته الزاخرة بالتنقل والارتحال في مكامن الأخطار ومواقع العثار، وكان عليه أن يأمن الزلل، ويتجنب العثار، وكان سعيه في

(1) الرسائل/ 125.

ذلك حثيثا. وتمسكه بالقيم التي اختطها شديداً، وظل يفخر بصون نفسه عن مواطن البذلة والامتهان: يقول مخاطباً أبا علي البلعمي[1]:

"... قد علم الشيخ أني مذ كنت لم يسم خدي عذار الهوان، ولم يوضع على رقبتي نير التبذل والامتهان، ولم تطرق الأيام حريم عرضي فتذكره، ولا نالت ستر صيانتي فتتركه، ولا ماء وجهي فتسفكه، ولقد اخترقت البدو والحضر، ودخلت ديار ربيعة ومضر، فما رأيتني بحمد الله أؤخر عن رغبة، ولا أخلف عن الغاية في موطني رغبة ورهبة، ومعي إذ ذاك سكر الشباب وذل الاغتراب، والقوم قد باينوني التسمية وفارقوني التربة، وإن عرضاً صنته في غير مخالفة الصيانة، لجدير ان لا أهينه في غير موضع الإهانة، فقد يتبذل الشاب، ويقول: أتصون إذا شبت ويمتحن الغريب ويقول: أتعزّز إذا أبت، فما عذر من يحتمل الذل وقد رجع إلى الوطن من الغربة، أم هل بعد الشيب إلا الموت مرحلة".

كان على الخوارزمي، والحالة هذه- أن يوازن بين مطلبين عزيزين لديه هما رفعة النفس وعزتها، وجمع المال من وجوهه المختلفة، والذي لا غنى عنه في سد الحاجات الضرورية، وتحقيق الطموحات الاجتماعية وكان عليه أن يمد يده للأمراء والوزراء والولاة، وقد مدّها عزيزة أبية وكان في ذلك مثال التاجر الذكي الذي يبيع بضاعته بغالي الأثمان، ويشعر المشتري بأنه منعم متفضل عليه. يقول في رسالة إلى بندار[2] نيسابور:

"... وسيكون الالتقاء قريباً، فإن الشاعر إذا استغنى حن إلى أهله ورجع إلى أصله، وأحب أن يرى عنوان اليسار عليه، ويجلو نفسه على عدوه وصديقه في معرض الاستظهار، ويعلم الناس أنه زرع رجاء فحصد عطاء، وأسلف من الكلام عرضاً

(1) الرسائل/ 31.

(2) البندار: فارسية تعني صاحب الملك أو المحصل، أو أمير القلعة.

زاهقاً، فأخذ من المال جوهراً نافقاً، وفرح الشاعر إذا قُبل شعره ونفق سعره، كفرح التاجر صاحب الجواهر، إذا اشتريت يتيمته، والشيخ أبي البنت إذا خطبت كريمته[1].

لقد وجد الخوارزمي في الأدب بضاعة نافقة في أسواق الملوك والأمراء، فاتجر بها، وربحت تجارته، "وإنما الأدب سلعة تنفق على الكرام والشيخ منهم، وتكسد عند اللئام، وهو بنجوة عنهم[2] لكن أيدي الولاة أرتدت مرات عديدة لتصادر ما ربح ولتفجعه بما جمعه بتقحم المهالك، واختراق المسالك والممالك، وتجبره على دفع ما يستحق عليه من خراج بعد ان اقتنى عدداً من الضياع، فيضج بالشكوى والسخط لأنهم حين يلزمونه خراجاً لا يأخذون أمواله العزيزة عليه فحسب، ولكنهم ينتقصون من مرتبته الاجتماعية "... وإن درهماً يؤخذ مني لدرهم ثقيل الوضع على السلطان، قبيح الأحدوثة في البلدان، ولئن كان يعمر به بيت الجمال، فإنه يخرب بيت الجمال، وإن كان يزيد في عدد الدراهم إنه لينتقص من عدة المكارم ولئن كان يسمى في العامة جباية، إنه ليسمى في الخاصة خزاية، وللبس أكفان الموتى، وحرق أدوية المرضى، وقطع الطرق على حجاج بيت الله الحرام وزوار النبي عليه السلام، أحسن في الأحدوثة وأبعد من العار والنقيصة من إلزام مثلي خراجاً، وسومه غرامة واستخراجا[3].

لقد رأى الخوارزمي في ما اقتناه من ضياع سبيلاً إلى التخلص من ذل الطلب والوقوف على أبواب الحكام، والاتجار بالأدب، وأراد أن يحفظ بذلك ماء وجهه لكن عمال الخراج كانوا له بالمرصاد فسدوا عليه الطريق، وأجبروه على دفع الخراج فيرفع صوته شاكياً أمرهم إلى صاحب الديوان، ولكنه يجد في الغالب- إذناً صماء عند قوم ألفوا استماع الشكايات والمظالم، وهم الخصم والحكم فيقول[4]:

---

(1) الرسائل/ 86-87.

(2) المصدر السابق/ 81.

(3) الرسائل/ 24.

(4) الرسائل/ 65.

"... قد علم الشيخ أني عقدت هذه الصنيعة، ولفقت هذه المعيشة لتكون صوناً لوجهي عن ذل السؤال وحجاباً لعرضي دون الابتذال، ولأجعل ما يدخل منها من الكفاف جسراً إلى الصيانة والعفافُ، فأحبب نفسي إلى أصدقائي وأخفف عقلي على جلسائي، فإن السائل ثقيل الكلمة مكروه الزورة، مشنوء اللحظة واللفظة، فمن أعانني على ما اعتقدته وأمسك علي جوانب ما استفدته، فقد كفى أهل الشرق كلي، وخفف عن رقابهم ثقلي، وضرب بين لساني وبينهم سترا ثخينا.."

ويزيد من قسوة الخراج على نفسه أنه شاعر وأديب، لا يجوز أن يؤخذ منه الخراج واستشهد بذلك بأبي تمام والبحتري اللذين لم يلزما بدفع الخراج، وكان لهما ما أرادا من الضياع[1]:

"ووقع في قسمي من البخوت بخت ذميم، حيث صرت ألزم خراجاً التزم بنو المدبر أضعافه للبحتري، وأضايق في ضيعة وهب أمثالها محمد بن الهيثم الغنوي لأبي تمام الطائي، حيث قال البحتري:

ولم لا أغالي بالضياع وقد دنا	عليّ مداها واستقام اعوجاجها
إذا كان لي تربيعها واغتلالها	وكان عليكم عشرها وخراجها

وقال أبو تمام:

فدع ذكر الضياع في شماس	إذا ذُكرت وبي منها نفارُ
ومالي ضيعة غير المطايا	وشعر لا يباع ولا يعارُ

فإن كان أولئك رؤساء، فليس رؤساؤنا برؤساء، وإن كان هؤلاء شعراء، فلسنا نحن شعراء، وقد عرف الشيخ أني لا أقيم على النّصف ولا أُحلُّ خطة النصف، فإن رأى أن لا يفجع خراسان بلسانها، ولا يخليها من سيفها وسنانها فعل[2].

---

(1) المصدر السابق/ 81.

(2) الرسائل/ 89.

ويقول في مكان آخر: "وما ظن سيدي بضيعة ألزمتني الجزية بعد أن كنت ألزمها الصغير والكبير، واستأديها الرعية والأمير وأخرجتني من عز السلاطين إلى ذل الدهاقين، وجمعت علي فتون الأغنياء، وغم المساكين، وشغلني صداها عن أشغال الدنيا والدين".

ويبدو أن وطأة الخراج كانت ثقيلة عليه وعلى غيره، حتى لقد صار عمال الخراج رمزاً للظلم والجور، يقول الخوارزمي في أحدهم[1]

"ورد علينا فلان، ونحن نيام نوم الأمنة، وسكارى سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويحتلب ضرعي الدنانير والدراهم، ويسير فينا سيرة السنور في الفأر، ولا يسخيرها المسلمون في الكفار حتى افتقر الأغنياء، وانكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان نعمته، وجحد صاحب الغلة غلته، وحتى أخرب البلاد، بل أخرب العباد، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا، وسبب الفقر إلى أهل الغنى...

... والله ما الذئب في الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين ولا السوس في الخز في الصيف إلا من المحسنين، ولا الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق إلا من العادلين...".

oğlag

بالرغم من ظروف العصر الذي عاش فيه الخوارزمي، واختلاف العوامل المؤثرة فيه فقد حافظ هذا الرجل على كثير من القيم التي داستها الأقدام في طريقها للصراع على السلطة والجاه والمال والبقاء، وقد كان الوفاء أحد المثل التي تمسك بها، فلقد ظل الرجل وفياً لمذهبه الديني ومعتقداته السياسية، ولم يتنازل عنهما على الرغم من قسوة الظروف، وأي وفاء أشد من التمسك بالعقيدة. والدفاع عنها، وتحمل سخط

(1) المصدر السابق/ 110-112.

الأعداء والسلطان في سبيلها؟، لقد تعرض الخوارزمي للمصادرة والسجن والتعذيب على أيدي السامانيين لكنه ظل وفياً للبويهيين، كما وفى لمعتقداته الدينية.

لقد رماه بعض خصومه بأنه متقلب، قليل الوفاء، ونحن لا نسلم بما ذهبوا إليه ذلك أن الخصومة لا تهيىء الإنصاف في القول والحكم، يقول أبو سعيد أحمد بن شبيب الشيبي في هجائه[1]:

أبو بكر له أدبٌ وفضلٌ	ولكن لا يدوم على الوفاءِ
مودّته إذا دامت لخلٍّ	فمن وقتِ الصباحِ إلى المساءِ

ولعل ما بيناه من وفائه لمذهبه الديني ومعتقده السياسي ما يكفي لدحض هذا القول، ونحن نعلم أن سلوك الإنسان لا يتجزأ. وأنه إن طبع على الوفاء، لا يستطيع أن يتحول إلى غيره، ويصعب عليه أن يجمع النقيضين، وكيف يمكن أن يكون وفياً في هذين- وفيهما يكمن الخطر- ولا يكون وفياً للأصدقاء وسائر الناس. ولعل في هذه الكثرة من الأصدقاء والمعارف، وهم من فئات شتى ما يدل على شدة الوفاء؛ ذلك أن من عرف بالغدر والتحول، وقلة الوفاء، لا بد أن يتحاشاه الناس.

ومن الطريف أن يوازن الخوارزمي بينه وبين المتنبي وقد تناول في هذه الموازنة هذا الجانب الأخلاقي، فقد أخذ على المتنبي قلة وفائه وتناقض فعله وقوله. وفخر بنفسه وبوفائه. يقول في إحدى رسائله[2]

"... ونظرت إلى أبي الطيب، وإلى تناقض حكمته، وتفاوت طرفي فعلته حيث قال في سيف الدولة[3]:

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته	إن الكرامُ بأسخاهم يداً خُتموا

(1) اليتيمة 4/ 242.

(2) الرسائل/ 6-7.

(3) شرح الواحدي/ 606.

وقال في كافور الأخشيدي[1]:

قواصــد كـــافور تــوارك غـــيره ومن قصـد البحـر استقل السـواقيا

فقد باع من الوفاء علقاً خطيراً، واعتاض من الطمع ثمناً يسيراً، وحال ضباب الحرص والرجاء بينه وبين الوفاء. وكان يضايق نفسـه في اختيـار المتـاع، ويسـامحها في اختيار المبتاع، ويخلع خلعة من نظمه تساوي بدرة على عـرض مـن لا يسـاوي بعـرة، ويزفُّ كريمة من كرائم شعره، إلى من لم تقم عنده كريمة، ولم تعرف لـه قيمـة، لـو رآى الطمع في جحر فأر لدخله، ولو أتاه الدرهم من إست كلب لما غسـله، فـلا جـرم أن الناس، كما استحسنوا قوله واستصتجوا فعلـه، وكمـا أعجبـوا بشـعره، تعجبـوا مـن غدره، يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يجرح شهادته ويعطي ثم يسترجع عطيته، فكم من حرٍّ فضّله ثم ثلبه، وكم من عرض كساه ثم سلبه، وكم من أكلة أكـل منها ثم بصق فيها، ولكنّ في قميص أبي بكر رجـلاً إذا أعطـى لم يرتجـع وإذا طلـق لم يراجع وإذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم، وإذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم، وإذا طيب فكيه بالمدح للكريم، لم يلطّخهما بمدح للئيم، وإذا زوج كريمة من كرائمه كفـوءاً حجبهن أن يتبرجن إلا لديه ويجتليهن غير عينيه، وإنما الغدر من أخلاق النساء، فمـن تعلق بطرف منه، فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران، وجذبها إلى شق النسوان...

ونحن لا نقر الخوارزمي على ما نعت به المتنبي، ذلك أنه قـد ظـل وفيـاً لسـيف الدولة، ولم يقل في هجائه بيتاً، وإن مدحه لكافور كان مشوباً بهجاء مـبطن، والمهـم في كل هذا وذاك أن الوفاء لا يعني الثبات والجمود، ذلك إن صراع المصالح والمطـامح لا بد أن يؤثر في علاقـات النـاس، فالعـداوة والصـداقة، وكـل القـيم الإنسـانية تـرتبط بالمصالح، وكلما ابتعدت المصالح عن الذاتية، واتجهت وجهة اجتماعيـة فإنهـا تسـمو وتحترم. وقد أدرك الخوارزمي بعد ذلك خطل رأيه في تقلب أحـوال المتـنبي بـين الـذم

(1) المصدر السابق/ 635.

والمدح، واكتشف أن التغير سنة طبيعية لتغير الأحوال والأزمان وبأن الوفاء لا يدوم إذا كان من طرف واحد فقط وذلك حيث يقول[1]:

"وقد كنت أعجب من الشعراء من مدح إنساناً ثم هجاه، وأنسبه إلى ضعف المسكة، وإلى وهن العزيمة، وانحلال العقدة، حتى بليت الآن بهجاء الدهر، وطالما مدحته ودفعت إلى حربه، وطالما صالحته" ويصف نفسه فيقول[2] فأنا وإن كنت شاعر اللسان، فلست شاعر الخلق، ولا شاعر الوفاء والصدق، ولا شاعر الصداقة بالود، ولا شاعر الديانة والعقد، ولا تتلون أخلاقي ألوانا، ولا أكون على صديق، ومن يشكو إليّ زمانا، ولا أكون أخاه أيام دولته، وعدوه أيام عطلته وقد غشت المروءات، وأنثلمت المودات، ومات الوفاء والثبات".

قلقه واضطرابه:

لم يهنأ الخوارزمي بحياة مستقرة هادئة إلا في أواخر حياته، حين استقر في نيسابور إثر مقتل العتبي، وقيام المزني مقامه، فلقد قضى حياته متنقلاً بين الأمصار لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، يبحث عن المال، فيكد ويكدح في الحصول عليه حتى إذا حصل منه على طائل، شد الرحال تتقاذفه الفلوات والآمال إلى أبواب الوزراء والأمراء، فمن خوارزم إلى العراق والشام وبخارى واصفهان، ونيسابور، وخراستان، وغرشستان وطبرستان وفارس، والري، ولجده، تارة هارباً، يبحث عن مأمنه، ترصده العيون في كل بقعة وتكمن له في كل زاوية، لا يدري متى تنوشه يد الحاكم الذي لا يعرف قلبه الرحمة، ولا تدخل الشفقة إليه، وكم تحمل أثناء السجن من عذاب ومصائب، ولقي ألوان الذل على يد جلاوزة السلطان وجلاديه، ثم هو بعد هذا وذلك شاعر مشهور وأديب معروف، له في المجالس رفعة، وفي محافل الأدب صولة

---

(1) الرسائل/ 123.

(2) المصدر السابق/ 149.

وجولة، وقد رفد ذلك بعقيدة دينية، ومعتقدات سياسية بينة. هذه الصور المتشعبة لحياته مع ما رافقها من ظروف اجتماعية صاخبة مليئة بالأحداث والنزاعات والحروب الطاحنة تركت بصماتها في شخصية الخوارزمي، فغرست في نفسه قلقاً عميقاً نحس به كل رسالة من رسائله، وتجلى قلقه واضطرابه من خلال حملته على الزمان وقلة الاطمئنان إليه.

مذهبه الديني، ومعتقداته السياسية

من الصعوبة بمكان أن نفصل بين المذهب الديني، وبين المعتقدات السياسية لهذا الرجل، لما بينهما من ارتباط وثيق خاصة إذا علمنا مقدار تعلقه بمذهبه وتشدده فيه، في حقبة تعد امتداداً طبيعياً للصراعات السياسية والمذهبية، ابتداءً بعهد الخلفاء الراشدين وانتهاء بالدولة العباسية.

لقد اتخذ الصراع السياسي على السلطة طابعاً دينياً، تجلى في بروز عدد من الأحزاب الدينية، كالشيعة والخوارج، اللذين برزا إبان المعارك الدامية بين علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، الذي اعتمد على الحزب الأموي غير المعلن، والذي لم يأخذ طابع الحزب الديني، بقدر ما كان تجمعاً قبلياً وإقليمياً.

وقد استمرت الحروب مستعرة بين هذه الأحزاب، بالرغم من هيمنة الأمويين الذين ووجهوا بثورات متعددة كادت تطيح بهم في بعض الحالات، وفقدوا سيطرتهم على بعض الأقاليم مدة تجاوزت عشر سنوات.

وقد فاق الحزب الشيعي في خطورته حزب الخوارج، واصطدم بالزبيريين الذي حكموا العراق مدة وجيزة، حتى إذا نشط العباسيون، وأنشأوا حزبهم لم يجدوا مفراً من الاختفاء وراء الدعوة الهاشمية الواسعة الانتشار، والتي كانت تلقى دعماً وتأييداً كبيرين من أوساط الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام كما حظيت بدعم وتأييد الأطراف العربية، التي تضررت من الحكم الأموي ولم تستفد منه، واستمر الصراع مريراً قاسياً على السلطة، مرتدياً زي المذهبية، التي لم تسلم من الانقسامات

والانشقاقات، فتفرقت شيعاً وأحزاباً. واستطاع الحزب الشيعي الاحتفاظ بجذوة الثورة ملتهبة، بعد أن أصيب بخيبة الأمل، إزاء الموقف العباسي من السلطة. وكان الخلاف يتعمق بعد كل محاولة تسحق وشهداء يسقطون.

واستطاع الحزب الشيعي أن يكوّن أول دولة له في مصر أطلق عليها 'الدولة الفاطمية' وكانت دولة مستقلة عن الدولة العباسية، حتى لقد لقب حكامها أنفسهم بالخلفاء.

واستطاع البويهيون تشكيل إمارة لهم في المشرق، وامتد نفوذهم ليشمل عاصمة الخلافة بعد عام 334هـ، وهم قوم من الديلم، ينصرون مذهب التشيع بصورة عامة إذ كانوا من أتباع زيد بن علي.

كما استطاع الحمدانيون تشكيل إمارة لهم في الموصل وحلب. لكن طموح هذا الحزب لم يكن ليكتفي بهذا القدر، لأن وجه الخلافة ظل سنياً، ليس للعلويين فيه اليد الطولى، ولا هم ولاة الأمر والنهي، وظل التاريخ النضالي الذي خاضوه يشدهم بعاطفة لا تنطفئ جذوتها ترفدها عقيدة راسخة، حملت بعضاً مما تسرب إليه من الديانات الأخرى، ولا سيما ديانات الفرس، وكان لهذا أثره البين في الانقسامات الكبيرة التي نشأت بين أطراف الشيعة، وظهرت نتيجة هذا الخلاف فرق متعددة حافظ أكثرها على المبادئ الأساسية للدين الإسلامي، وخرج قسم منها عن حظيره الإسلام، وذهب مذهباً بعيداً ولم تسلم الأحزاب الأخرى من التمزق والانقسام، والابتعاد والاقتراب من المثل الإسلامية. وكان لا بدَّ والحالة هذه أن يظهر من بين هذه الفرق، من يجنح إلى التعصب والتشدد في تطبيق المثل والتعاليم التي انساقت إليها فرقته، فظهر في الشيعة قوم من الغلاة، سموا وتسموا بالروافض. كما ظهر من السنة فرق غالية، سموا بالنواصب وكان أبو بكر الخوارزمي واحداً من هؤلاء الروافض وقد صرح بهذا حين قال[1]:

---

(1) معجم البلدان 1/ 68.

بآمـل مولـدي وبنـو جريـر ... فـأخوالي ويحكـي المـرء خالـه

فهـا أنـا رافضـي عـن تـراث ... وغـيري رافضـي عـن كلالـه

ومع أننا لا نستطيع تحديد الجذور المذهبية لأسرته، لأن معلوماتنا عنها محدودة بحيث لا تستبين معالمها، إلا أنه يمكن أن نستدل بهذين البيتين على أنه انحدر من أسرة شيعية المذهب فنشأ على حب آل البيت وتعلق. بهم.

ويعلق ياقوت الحموي[1] على هذين البيتين بقوله: "... ولم يكن أبو جَعفر رحمه الله رافضياً (يعني محمد بن جرير الطبري)، وإنما حسدته الحنابلة، فرموه بذلك، واغتنمها الخوارزمي وكان سباباً رافضياً مجاهراً بذلك".

ولعل ما يدعم هذا القول ما ورد في كتاب "تحفة الوزراء" المنسوب للثعالبي حين قال أخبرني من رآه بنيسابور، وقد كظه الشراب، فطلب فقاعاً فلم يجده. فقال: لعن بما قال:

إذا أعـوز الفقّـاع[2] لمـا طلبتـه ... هجـوت عتيقـاً والـذلام ونعـثلا[3]

وعلق قائلاً: فإذا كان يهتف بهذه الجملة لغير علة، فكيف به مع تفريع العلل بتوسيع الأمل بمن يطابقه على كفره، فيوافقه على شره".

وقد استشهد الحصري القيرواني بهذه الحادثة في الاستدلال على مذهبه فقال[4] وكان الخوارزمي رافضياً غالياً، أخبرني من رآه... الخ".

ويقول: "وكان فاحشاً بذيئاً مستخفاً جريئاً على ذوي الإنعام عليه والإحسان إليه".

---

(1) تحفة الوزراء/ 107- 108، وانظر جمع الجواهر/ الحصري القيرواني/ 254.

(2) الفقاع: شراب مسكر يستخرج من الشعير.

(3) يعني أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

(4) جمع الجواهر/ 254.

وفي رسالة الخوارزمي التي بعث بها إلى شيعة نيسابور حينما قصدهم واليها محمد بن إبراهيم، صورة واضحة لما أصاب أهل مذهبه، فقد حشد فيها كثيراً من صور المعاناة الصعبة التي تحملها الشيعة عبر نضالهم الطويل، وقد أفاض عليها شيئاً من تعصبه، فبالغ في الوصف، وأكثر من حشد الأمثلة، وتحامل على الخصوم ونعتهم بنعوت نابية، ويبدو الخوارزمي في هذه الرسالة مشبوب العاطفة، قوي الشكيمة، لا تلين له قناة.

يقول الدكتور زكي مبارك[1]: "... لقد انحاز الخوارزمي إلى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه، وفي صف هذا المذهب، وقف وقفة مخيفة، دلتنا على أنه رجل جلاد ونضال، ولكنه لم يشعرنا بحب هذا المذهب، ولم يسكب في روحنا قطرة من الحنان نحو من بكاهم من الشهداء؛ لأنه كان يشوب تشيعه بالحقد الأسود على بني أمية وبني العباس، ونستطيع أن نقول: أنه كان في هذا الموضوع داعياً صادقاً إلى فكرة لها قيمتها في الحياة الإسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحشر في زمرة المجاهدين في الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والهنات حين عرض للخلفاء بألفاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى في أرحام القيان".

ويردف قائلاً: ومن الحق أن الرسالة المطولة التي بعث بها إلى الشيعة بنيسابور، تبدو لمن يقرؤها كأنها صاعقة تصب على رؤوس من عادى من الرؤساء وفي هذه الرسالة يبدو الخوارزمي، وهو أزرق الناب، مسموم اللعاب كالحية النضناض وفيها كذلك يبدو طيبه وخبثه، وكرمه ولؤمه وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول[2]: "فإن أصابتنا نكبة، فذلك ما تعودناه، وإن رجعت لنا دولة، فذلك ما قد انتظرناه، وعندنا- بحمد الله- لكل حالة آلة، ولكل مقامة مقالة فعند المحن الصبر، وعند النعم الشكر".

---

(1) مجلة البلاغ الأسبوعي، عدد 162/ أبريل/ 1930 ص19 وما بعدها، النثر الفني في القرن الرابع.

(2) الرسائل/ 135.

وهو تارة متحزب حقود، يعدد آثام الخلفاء من بني أمية، وبني العباس يذكرنا بما اقترفوا من الجرائم في تقريب المغنين وإقصاء الفاطميين...

ولعل أبرز سمات هذا الحزب أنه يرى أن الخلافة، يجب أن تكون في أولاد علي وأنها قد غصبت منهم يوم السقيفة، وإن ظلما قد حاق بعلي ابن أبي طالب حين أخّر عن الخلافة، فتواهقت إليهم المصائب بعد ذلك فقسمنا قسمين قسماً مات شهيداً، وقسماً عاش شريداً، حتى لقد حسد الحي الميت على ما صار إليه[1].

قال أمير المؤمنين، ويعسوب الدين عليه السلام: المحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور، وهذه مقالة أسست على المحن، وولد أهلها في طالع الهزاهز والفتن، فحياة أهلها نغص، وقلوبهم حشوها غصص، والأيام عليهم متحاملة، والدنيا عنهم مائلة، فإذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائض والسنن، ومتبعي آثارهم في كل قبيح وحسن، فينبغي أن نتبع آثارهم في المحن. غُصبت سيدتنا فاطمة صلوات الله عليها وعلى آلها ميراث أبيها صلوات الله عليه وعلى آله يوم السقيفة، وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة، وسم الحسن رضي الله عنه سراً، وقتل أخوه كرّم الله وجهه جهراً، وصلب زيد بن علي بالكناسة، وقطع رأس زيد بن علي[2] في المعركة، وقتل محمد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العباسي، ومات موسى بن جعفر في حبس هرون، وسم علي بن موسى بيد المأمون وهزم إدريس بفخ حتى وقع إلى الأندلس فريداً...

لقد حمّل الخوارزمي الخلفاء الراشدين وبني أمية، وآل الزبير وبني العباس أوزار ما حاق بالشيعة والعلويين من ظلم، من حيث هم أولوا الأمر المسكون بمقاليد السياسة، كما حملهم مسؤولية تزييف الدين والأخلاق بما وضعوه على لسان النبي ﷺ من أحاديث، وما قاموا به من تبذير لأموال المسلمين وطمس للتراث الأدبي للشيعة،

---

(1) الرسائل/ 130.

(2) لعله يقصد يحيى بن زيد بن علي الذي قتل ثم حزّ رأسه وصلب في الجوزجان (انظر مقاتل الطالبيين/ أبو الفرج الأصفهاني/ 107).

ولم يكتف بذلك بل حمل الأمة كلها مسؤولية ما حاق بهم من ويلات، وما أصابهم من نوازل[1] وبحسبكم أنه ليست في بيضة الإسلام بلدة، إلا وفيها لقتيل طالبي ترة، تشارك في قتلهم الأموي والعباسي وأطبق عليهم العدناني والقحطاني:

فليس حيٌّ من الأحياء نعرفه ... من ذي يمانٍ ومن بكر ومن مضر

إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر

قادتهم الحمية إلى المنية، وكرهوا عيش الذلة، فماتوا موت العزة ووثقوا بما لهم في الدار الباقية، فسخت نفوسهم عن هذه الفانية، ثم لم يشربوا كأساً من الموت إلا شربها شيعتهم وأولياؤهم، ولا قاسوا لوناً من الشدائد إلا قاساه أنصارهم وأتبعاهم، داس عثمان ابن عفان بطن عمار بن ياسر بالمدينة، ونفى أبا ذر إلى الربذة، وأشخص عامر بن عبد قيس التميمي، وغرب الأشتر النخعي... واتبعه في سيرته بنو أمية يقتلون من حاربهم، ويغدرون بمن سالمهم، ولا يحفلون بالمهاجري ولا يصونون الأنصاري، ولا يخافون الله، ولا يحتشمون الناس، قد اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولا، يهدمون الكعبة، ويستعبدون الصحابة ويعطلون الصلاة الموقوتة، ويختمون أعناق الأحرار ويسيرون في حرم المسلمين سيرتهم في حرم الكفار...

فلما خلت البلاد لآل مروان، سلطوا الحجاج على الحجازيين، ثم على العراقيين، فتلعب بالهاشميين، وأخاف الفاطميين، وقتل شيعة علي ومحا آثار بيت النبي.. واتصل البلاء مدة ملك المروانية إلى الأيام العباسية. حتى إذا أراد الله أن يختم مدتهم بأكثر آثامهم ويجعل أعظم ذنوبهم في آخر أيامهم بعث على بقية الحق المهمل والدين المعطل زيد بن علي، فخذله منافقو أهل العراق، وقتله أحزاب الشام فلما انتهكوا ذلك الحريم، واقترفوا الإثم العظيم غضب الله عليهم وانتزع الملك منهم، فبعث عليهم أبا مجرم، لا أبا مسلم فنظر- لا نظر الله إليه- إلى صلابة العلوية، وإلى لين

(1) الرسائل/ 131- 134.

العباسية، فترك تقاه واتبع هواه وباع آخرته بدنياه، وافتتح عمله بقتل عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وسلط طواغيت خراسان، وخوارج سجستان، وأكراد إصفهان على آل أبي طالب، يقتلهم تحت كل حجر ومدر، ويطلبهم في كل سهل وجبل، حتى سلط الله أحب الناس إليه فقتله...

... وقل في بني العباس، فإنك ستجد بحمد الله تعالى مقالاً، وجُلْ في عجائبهم، فإنك ترى ما شئت مجالاً، يجبى فيؤهم، فيفرق على الديلمي والتركي، ويحمل إلى المغربي والفرغاني... ويموت إمام من أئمة الهدى، وسيد من سادات بيت المصطفى، فلا تتبع جنازته، ولا تجصص مقبرته، ويموت ضراط لهم أو لاعب أو مسخرة، أو ضارب، فتحضر جنازاته العدول والقضاة، ويعمر مسجد التعزية عنده القواد والولاة ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً أو سوفسطائياً ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً ومانوياً ويقتلون من عرفوه شيعياً، ويسفكون دم من سمى ابنه علياً...

... وكفاهم أن شعراء قريش قالوا في الجاهلية أشعاراً يهجون بها أمير المؤمنين عليه السلام، ويعارضون فيها أشعار المسلمين، فحملت أشعارها ودونت أخبارهم، ورواها الرواة مثل الواقدي، ووهب بن منبه التميمي، ومثل الكلبي والشرقي بن القطامي(1) والهيثم بن عدي(2) وداب بن الكاني، وأن بعض شعراء الشيعة، يتكلم في ذكر مناقب الوصي، بل في ذكر معجزات النبي ﷺ، فيقطع لسانه، ويمزق ديوانه كما

---

(1) الشرقي بن القطامي- 155هـ: هو الوليد بن حسين بن حبيب بن جمال الكلبي، عالم الأدب والنسب، استقدمه المنصور ليعلم ولده المهدي الأدب. ترجمته في تاريخ بغداد 9/ 278 نزهة الألباء/ 42.

(2) الهيثم بن عدي بن عدي الثعلبي الطائي البحتري، أبو عبد الرحمن عالم بالأدب والنسب وله مؤلفات كثيرة ومتنوعة ترجمته في إرشاد الأريب 7/ 261، مرآة الجنان 2/ 32- 34.

فعل بعبد الله بن عمار البرقي، وكما أريد بالكميت بن زيد الأسدي وكما نبش قبر منصور بن الزبرقان النمري...".

ولو وقف الخوارزمي عند هذا الحد لقلنا أن النقمة على أرباب السياسة من الخصوم هي التي دفعته إلى هذا الموقف المتشدد لكنه تعدى ذلك باتهام النواصب من أهل السنة بالضلال فمن ذلك ما جاء في إحدى رسائله[1]"... ورحم الله المتوفى رحمة تغسل أوضاره، وتحط أوزاره، وألحقه بالطيبين الطاهرين من آل ياسين وفرق بينه وبين النواصب والظالمين، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

لقد ظل الخوارزمي مخلصاً لعقيدته، ولم يتنازل عنها قيد أنملة فقد هجا خلفاء بني العباس في عصره، وعرض بهم وشمت وقد ضيعوا الأموال التي كانوا يباهون بها، ويستغلونها في مقارعة الخصوم، وكسب الأنصار والمؤيدين، ولم يبق لهم بعدها غير القاب يمنحونها لمن لا يستحقها، يقول في هجائهم[2]:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا	من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقَّبوا رجلاً لو عاش أوَّلهم	ما كان يرضى به للحش بوابا[3]
قلّ الدراهمُ في كفّيْ خليفتنا	هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

وقد تحدثنا في الفصل السابق عن العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه ببني بويه وبوزيرهم الصاحب بن عباد بشكل خاص وكيف أن الخوارزمي قد أخلص الود لهم طيلة حياته، وما كان ذلك إلا بتأثير مذهبه الديني، الذي اعتبر قيام دولتهم نصرة لهم

(1) الرسائل/ 171.

(2) يتيمة الدهر 4/ 130.

(3) الحش: البستان والحش: المتوضأ، سمي به لأنهم كانوا يذهبون عند قضاء الحاجة إلى البساتين، وقيل إلى النخل المتجمع يتغوطون فيها.

في صراعهم. وقد عبر الخوارزمي عن هذا الموقف بوضوح وجرأة في رسالة بعث بها إلى أبي محمد العلوي[1].

"... فأما آل أبي طالب، فإنهم ينزلون منه على سيف التشيع وسنانه وعلى يد الحق ولسانه، وماضرهم مع حياته أن لا يعيش لهم الأشتر، وما ضرهم مع عطائه أن لا تردَّ عليهم فدك وخيبر، غيرة منه على الشرف أن لا يصان عن الابتذال رحله وأن لا يحفظ فيه وله أهله...".

وإذ كانت الفرق الأخرى تباهي بعزها وماضيها، ودول أنشأتها، فقد باهى الخوارزمي بهذه الدولة، وما كانت مباهاة بالسلطان فحسب، بل بما استطاعت كسبه إلى جانبها من الفرق الأخرى الذين أقبلوا على اعتناق مذهب التشيع يقول الخوارزمي[2]... وقد علم السيد أنه ليس من فرق الإسلام فرقة إلا وهبت لأهلها رويحة، ودالت لهم دولة، كما اتفق المختار ابن أبي عبيد للكيسانية، ويزيد بن الوليد للغيلانية وإبراهيم بن عبيد الله للزيدية، والمأمون لسائر الشيعة، والمعتصم والواثق للمعتزلة، والمتوكل للنواصب والحشوية، وما بلغنا أن أحداً من أصحاب تلك الدول، زاد في عدد تلك النحل، ولقد قتل المختار أهل الكوفة، وبعث كتبه ورسله إلى أهل البصرة، فما قدر أن يزيد جمجمة واحدة في عدد جماجم الشيعة، ولقد رفع المعتصم سوطه ووضع سيفه، وصادر وسلب، ووعد وأوعد فنبا عنه الدهر بحاجته وقامت العوائق عليه في وجه بغيته.

وهذا الرجل[3] لم يزل يستدعي بقوله وفعله، ويستعين على عمارة المذهب بجاهه وماله، ويجرد لسانه والسيف مغمد، ويغمد لسانه والسيف مجرد، حتى إذا علم الله صدق نيته، ومضاء عزيمته، ورآه لا يريد إلا رضاه، ولا يسلك إلا طريق هداه، جمع

---

(1) الرسائل/ 178.

(2) الرسائل/ 178.

(3) يقصد الصاحب بن عباد.

عليه القلوب المتعادية، وألف لـه الاهـواء المتباينـة، فـدخل الجميـع ديـن الله أفواجـاً، وتقاطروا على استجابة الدعوى فرادى وأزواجاً، فلم يبق في نواحي سلطانه أحد مـن النواصب إلا وقد غاصت عليه الرحمة، وخلصت له الدعوة، فهو مبتدئ بالـدرس قـد نبغ، أو متوجه في العلم قد بلغ، وأن أحدهم ليدخل في الحق تحسنا فيجد بركـة الـدين حين يعتقده تديناً...".

وما يزال الخوارزمي مفاخراً بمذهبه وانتشاره في بقاع متعددة حتى لـو كسـد في بقعة معينة[1]:

"... فإن كسد التشيع بخراسان، فقد نفق بالحجاز والحـرمين والشـام والعـراقين، وبالجزيرة، والثغرين".

وكما فخر الخوارزمي وتباهى بدولة البويهين فقد حفظ لسيف الدولة حظه من هذا الفخر[2]، "فالمغرب لسيف الدولة رحمه الله والمشرق لحضرة الوزير أيده الله".

أما موقفه من الفرق الأخرى، فيكاد يتوضح لنا من خلال هذه الفقرة التي ينهي فيها رسالته إلى شيعة نيسابور[3].

"... ونسأله أن لا يكلنا إلى أنفسنا، ولا يحاسبنا على مقتضى عملنـا. وأن يعيـذنا من رعونة الحشوية، ومن لجاج الحرورية، وشك الواقفيـة، وإرجـاء الحنفيـة، وتخـالف أقوال الشافعية، ومكابرة البكرية، ونصب المالكية، وإجبار الجهميـة البخاريـة، وكسـل الراوندية وروايات الكيسانية، (وجحـد) العثمانيـة، وتشـبيه الحنبليـة وكـذب الغـلاة الخطابية، وأن يحشرنا على نصب إصبهاني، وعلـى بغـض لأهـل البيـت طوسـي، أو شاشي، ولا على إرجاء كوفي، ولا على تشبيه قمي، ولا على جهل شامي، ولا على

---

(1) الرسائل/ 139.

(2) الرسائل/ 139.

(3) الرسائل/ 177.

تحنبل بغدادي، ولا على قول للباطن مغربي، ولا على عشق لأبي حنيفة بلخي، ولا على تناقض في القول حجازي، ولا على مروق سجزي ولا على غلوفي التشيع كرخي، وأن يحشرنا في زمرة من أحببناه، ويرزقنا شفاعة من توليناه، وإذا دعا كل أناس بامامهم وساق كل فريق تحت لوائهم، إنه سميع قريب، يسمع ويستجيب".

ولقد وصف أصحاب الفرق الأخرى بأنهم أهل بدعة، وأن الوزير ابن عباد حين أعانهم على الدخول إلى المذهب الشيعي قد خلصهم من البدعة، فخلصهم من النار[1]:

"... وأن رجلاً يحيل طباع الزمان، وينقض بنية البلدان ويفطم الناس عن عادة المنشأ وإلف الأخوان والآباء، ويصير حداً بين الجنة والنار، وبرزخاً بين البدعة والسنة، لعظيم حجم الهمة".

ويبدو أن الخوارزمي قد خلط في عقيدته، بين مذهبي التشيع والاعتزال ومن المعروف أن المذهب الأخير قد انتشر انتشاراً واسعاً في عهد المأمون، وهو مذهب يعتمد العقل والمنطق في تفسير كثير من المشكلات، وقد ترك آثاراً واضحة في العقلية العربية والإسلامية، ولم يكن مذهباً دينياً شأن غيره من المذاهب، بقدر ما كان منهجاً في التفكير، لا يلزم صاحبه بالخروج على الفرقة الدينية التي ينتمي إليها.

يقول في رسالة بعث بها إلى فقيه هراة، يصف حالته وهو بين الموت والحياة[2]
"... ولولا أني معتزلي لقلت تأخر الأجل".

ويقول في أخرى: [3]"... وأنا الآن في هذه الجملة واقفي، وعهده بي لا أتواضع لمذهب الواقفية، ومزجي، وما كانت تطمع في مثلي شباك المزجية فكيف أعاتب

---

(1) الرسائل/ 179.

(2) الرسائل/ 108.

(3) الرسائل/ 63.

سيدي، بل كيف أخاصمه وأواثبه بل كيف أطاعنه وأضاربه، وأقل ما جنته علي غيبته أني كنت معتزلياً فعدت به واقفياً.

ويقول مخاطباً السيد أبا محمد العلوي[1] "... ذكر السيد أن اعتداده بي اعتداد العلوي بالشيعي، والمعتزلي بالمعتزلي، وأنا أقول مكافياً لا مبارياً، ومتابعاً لا موازياً، اعتدادى بما رزقنيه الله من اعتداد السيد بي، اعتداد الصحابة بالنبي، واعتداد الشيعة بالوصي واعتداد المعتزلة بالحسن البصري واعتداد الحجازيين بالشافعي واعتداد الزيدية بزيد بن علي رضي الله تعالى عنه واعتداد الإمامية بالمهدي...".

احتفظ الخوارزمي بعلاقات وثيقة بكبار العلويين والشيعة يدلنا على ذلك رسائله المتعددة إلى أبي محمد العلوي، وأبي البركات علي بن الحسين، وهو الذي ورد ذكره في المناظرة مع البديع[2] وتبدو الصلة وثيقة بينهما حين نقرأ الأبيات التي كتبها أبو البركات إلى أبي بكر[3]:

لئن كان ذنبي أني اعتللت	فذلك ذنب صغير صغير
وإن كان هجريَ من أجله	فذلك ظلم كبير كبير
صدودك عنا صدود الحيا	ة وصد سواك يسير يسير
فزرني قليلاً تجد شاكراً	لديه القليل كثير كثير

ولم تمنعه عمق الصلة، من الاعتداد بنفسه، فيباهي ويفخر بتشيعه، ويرفض أن يعامل معاملة واحد من عامة الشيعة.

يقول في رسالة بعث بها إلى أبي محمد العلوي[4]: لولا أني لا أحب أن أفتتح

(1) الرسائل/ 41.

(2) يقول في رسالة إلى بديع الزمان ولم أرفع عليه إلا السيد أبا البركات- أدام الله عزه- رسائل البديع/ 25.

(3) تاريخ العتبي 2/ 52.

(4) الرسائل/ 103.

كتابي إلى السيد بعتاب، وأن أكلفه الي تكلف حجة وجواب، لوجد سهامي في الملام مسددة، وسيوفي في التقريع محددة، وعلم أني إذا ضربت لم تقم ضربتي وإذا رميت لم تنج رميتي...

... وقد أفرد السيد كل واحد من أوليائه وشيعته بلطف وتناوله مع البر والتحفي بطرف، غيرى، وما كنت أعلم أني سكيّت الحلبة، ولا أني ساقة الكتيبة وأن إسمي آخر الجريدة، ولعمري إن شيعة السيد لكبار، ولكنني لا أصغر عنهم، وإنهم لكثير، ولكن مثلي لا يضيع فيهم... وأن قوماً أنا صغيرهم لكبار، وأن أمة أبو ذر شرها لخيار..

ولم يتورع الخوارزمي عن هجاء أحد العلويين لأنه لم يكن ميالاً إلى مذهب الشيعة فيقول فيه[1]:

شريف فعله فعل وضيعٌ	دنيء النفس عند ذوي الجدود
عوار في شريعتنا وفتح	علينا للنصارى واليهود
كأن الله لم يخلقه إلا	لتنعطف القلوب على يزيد

وقد استغل معاصروه من الخصوم تعصبه لمذهبه، فأزروا به وعرضوا به تعريضاً شديداً ووشوا به، ولعل ما لقيه على يد السامانيين ووزرائهم كان نتيجة طبيعية لهذا التعصب، وقد استغل بديع الزمان الهمذاني هذا الأمر استغلالاً ذكياً وفسلط عليه لسانه، ووصفه بأنه طعانة لعانة سبابة، للسلف الصالح والصحابة وقد دافع البديع عن هؤلاء السلف، وعدد مآثرهم، ووصم الخوارزمي بالكفر والإلحاد وهي قصيدة طويلة يقول فيها[2]:

---

(1) اليتيمة/ 230- 231.

(2) معجم الأدباء 1/ 114- 116.

وكلّني بالهم والكآبة | طعّانة لعانة سبّابة
للسلف الصالح والصحابة | أساء سَمعا فأساء جابه
تأملوا يا كبراء الشيعة | لعشرة الإعلام والشريعة

وليس بعيداً أن يكون الخوارزمي قد قال أبياتاً في مدح علي بن أبي طالب وتفضيل مذهب التشيع، ونسبها إلى نصراني[1]

عليٌّ أمير المؤمنين عزيمة | وما لسواه في الخلافة مطمعُ
له النَّسَبُ الأعلى وإسلامه الذي | تقدم فيه والفضائل أجمعُ
ولو كنت أهوى ملة غير ملتي | لما كنت إلا مسلماً أتشيعُ

لقد توضحت لنا المرتكزات الفكرية التي استند إليها في تحديد رؤية واضحة تجاه السلطة السياسية، التي كان لزاماً عليه أن يتعامل معها، وكان في ذلك سياسياً بارعاً، ذلك انه يميز بين أسلوبين في التعامل، الأول ينطلق من أسس مبدئية ثابتة وهو ما اصطلح على تسميته (بالأيديولوجية) وكان في ذلك مثال الرجل المخلص لعقيدته والمدافع عنها، المكافح من أجلها وقد دفعه هذا التعامل إلى تحديد مواقف واضحة وصريحة من التاريخ السياسي والاجتماعي للدولة الإسلامية واتخاذ مواقف متميزة من الواقع السياسي الذي عاش فيه تبعاً لقربه أو بعده من الخط الفكري الذي التزم به والثاني: تعامل يأخذ بنظر الاعتبار الظروف الآنية، ومتطلبات حياته المعيشية، وصلاته بالولاة والحكام وطريقة تقربه منهم وأسلوب مخاطبتهم، على أن لا يصرفه ذلك عن النهج المبدئي لمذهبه وعقيدته، وهذا ما يفسر لنا انقلاب الولاة والحكام عليه حين لا يستطيعون التأثير في معتقده الديني والسياسي فقد ظل وفياً مخلصاً لبني بويه متمسكاً بشروط عقيدته المذهبية وإن اضطرته ظروف الحياة المادية الصعبة إلى اتباع أسلوب

---

(1) تحفة الناصرية في الفنون الأدبية- أبو القاسم الرشتي الأصبهاني/ 37.

للتعامل يفيض بالتواضع والمسكنة، حين يعرض نفسه للخدمة ويستدر العطاء: يقول في رسالة إلى أبي سعيد أحمد بن شبيب[1].

"..... وها أنا- أيد الله صاحب الجيش سيف طرير، وسنان شهير ولسان على الأعداء مسلول وسلاح على حساد النعمة مصقول إذا ورد- أيده، الله تعالى- لزمت بابه، وصحبت ركابه، وكنت بوابه...".

ويقول من أخرى إلى أبي الحارث من ولد هاشم بن ماسجور وهو ملك الجبل[2].... "مكاتبة مثلي للأمير سوء أدب، وقلة حياء ومسكه، وتركي مكاتبته بعدما أمكن، وقرب متناولها مني تضييع لفرصة من فرص العمر، ونهزة من نهز الفوز"

ويبين أسباب المكاتبة ويعرض آلته قائلاً:

"... وقلت لا أقل من أن أدس اسمي في أسماء خدم تلك الحضرة الجليلة وأخدم ذلك السيد قولاً، وإن كنت لم أرزق خدمته فعلا، وأكاتبه غائباً.إذ كنت لا أصل إليه حاضراً، فكتبت هذه الأحرف، أصل حبلي بحبله، وأعرض بها نفسي لفضله. وأنا أخرج للأمير من عهدة هذه السلعة، وأشهد أني وسط في هذه الصنعة، فإن الهيبة تحصر بنان الكاتب، وتعقل لسان الخاطب فكيف حالها مع المكاتب...".

ومن الغريب أن لا يستكتب الخوارزمي لأي من الولاة والحكام وهو الذي ملك أدوات الكتابة، وأجاد استخدامها حتى عرف بها، ولعل مرد ذلك يعود إلى أنه أراد أن يحيا حراً طليقاً من كل قيد، وأن يبتعد عن الأعمال التي قد تجره إلى المزالق وهو إلى ذلك داعية دينية وسياسية، لا يستطيع خصومه الاطمئنان إليه، مثل ما يخشى أصدقاؤه سطوة لسانه وشدة عارضته.

---

(1) الرسائل/ 188.

(2) الرسائل/ 113.

نظرته الاجتماعية:

لعل من الطبيعي أن يتأثر الأديب بعصره بما فيه من تيارات فكرية وسياسية وبما يسود مجتمعه من عادات وتقاليد وقيم، وتختلف درجة التأثر باختلاف مواقع الإنسان وارتباط مصالحه، ومقدار وعيه، فهو إما أن ينخرط في الواقع ويصبح جزءاً منه، وإما أن يرفض هذا الواقع، ويعبر عن رفضه بطريقة معينة.

ومن الطبيعي أن يتعمق الرفض، ويتصلب بازدياد التناقض في المصالح والاختلاف في المفاهيم والمعتقدات. وقد يكون الإحساس بالظلم فردياً، وقد يكون الإحساس جماعياً، وينطلق من مصلحة فئة معينة، أو طبقة من طبقات المجتمع، وكلما كان الصراع صراع طبقات أو فئات، زادت حدته وظهرت حقيقته، ذلك أن الظلم الواقع على الفرد يمكن التخلص منه أو الاستسلام له وينتهي الأمر، لكن الظلم الواقع على فئة أو جماعة، لا بد أن يسفر عن وجه بين، ولا يزول إلا بالصراع، ولا بد من انتصار فئة على أخرى.

وليس غريباً أن يأخذ الصراع أشكالاً متعددة، وأن يبرز في كل وجه من وجوه الحياة المتعددة. فالصراع المذهبي يقود إلى صراع سياسي وفكري، وأخلاقي واجتماعي واقتصادي، والثائر على الأفكار لا بد أن ينقل المعركة، إلى كل ميادين الحياة المختلفة. والمصالح الفردية والجماعية هي المحرك لكل هذا وذلك. ولقد وضح لنا- مما سبق- مقدار تعلق الخوارزمي بمذهبه الديني، ومعتقده السياسي وتحمله لأعباء الدعوة للمذهب الشيعي ومواجهة خصومهم وأعدائهم، ولعل من الطبيعي أن ينقل الرجل بذور الرفض من ميادين الفكر والسياسة إلى الواقع الاجتماعي، الذي تفشى فيه الفساد، وعمه الاضطراب، نتيجة للفساد الاقتصادي والسياسي، فالطبقة العامة، وأغلبها من صغار التجار والمزارعين ومن الصناع والفلاحين الكادحين في الأسواق والحقول، قد أثقلت كاهلها الضرائب الفادحة وأنهكتها ويلات الحروب المستمرة بين

الأمراء، والفتن الدامية بين الطوائف، وأقلقها أهل العبث والفساد من لصوص وقطاع طرق، وعيارين وشطار،[1] فانتشر بسبب ذلك كثير من العادات الفاسدة، وفقد الأمن.

"... فهذه طائفة من الناس قست عليها ظروف الحياة وهددتها بالموت، جوعاً فاستهانت بأغلى ما يعتز به الإنسان، وفرطت به ... باعت عرضها وتاجرت بشرفها لتظفر بالقوت، واتخذت لنفسها بيوتاً تعرض فيها اللذة. كما تعرض السلع في الأسواق، مستهترة بكلّ ما يسميه الناس عرضاً وديناً، وتقاليد وأخلاقاً.

وتلك فئة أخرى أراقت ماء الوجه وأهانت المروءة، واتخذت التسول، وسيلة للارتزاق، وفضلتها على الزراعة والتجارة والإمارة، وهؤلاء قوم سدت في وجوههم أبواب الرزق فاستعانوا على العيش بقوة أجسامهم وسعة حيلهم، فاتخذوا من التلصص وقطع الطريق والسطو على أموال الناس يرتزقون منها وأولئك أناس لم يستطيعوا أن يجاروا الناس في ميادين الكفاح فأخفقوا، وتملكهم اليأس من النجاح في هذه الحياة الدنيا فاحتقروها ووقفوا منها موقفاً سلبياً، فدعوا وأسرفوا في الدعوة إلى "التوكل على الله" والثقة المطلقة بالآخرة، فصوروا الحياة بصورة قاتمة وأشاعوا فيها نغمة حزينة مملة، أولئك هم المتصوفة والزهاد.

أما أصحاب الثروة واليسار، والمناصب الكبرى في الدولة في هذا المجتمع فقد كانوا فريسة للقلق والخوف، مهددين في كل لحظة بالمصادرة والقتل والتعذيب والقبض، وزوال النعمة والجاه، كل ذلك من أجل أموالهم ومراكزهم، وكل ذلك أيضاً دعاهم إلى أن ينكبوا على اللذات يعبونها عبا، وإلى الأوقات يختلسونها اختلاساً كأنهم كانوا مع زوال النعمة على ميعاد.

فإذا أضفنا إلى هذا ما كان من ضعف أثر الدين، وانحلال الاعتبارات

---

(1) الأدب في ظل بني بريه/ 45.

الاجتماعية عند القوم، لظهور البدع الدينية، وعودة العادات العرقية القديمة إلى المجتمع من جديد استطعنا أن ندرك سبب انتشار بعض المظاهر الاجتماعية كالفسق والفجور والشراب والغناء وألفاظ المقاذر والمجون في المجتمع، حتى بين العلماء والفقهاء والقضاة الذين ينتظر منهم الوقار، والتزام جانب الدين والأخلاق، واستطعنا كذلك أن ندرك سبب عدم استنكار المجمع لهذه الموبقات وسبب جموح النزوات والشهوات عند الطبقة العامة[1].

لقد كان من الطبيعي أن يقف الخوارزمي في وجه هذا التيار العاتي، الذي قوض أركان المجمع، وأورده مورد الهلاك فشدد حملته على الزمان، وسخر من العادات والتقاليد الفاسدة وقد اتخذت هذه الحملة مظهرين:

الأول: ثورة على الزمان وأهله مصدرها الذات، وذلك أن تجاربه القاسية وما جرته عليه من ويلات وإحن وما سببت له من ضياع الأموال والوقوع في الحيرة والقلق والاضطراب والخوف، قد أفقدته الثقة بالزمان، فصب سخطه عليه، ونزع ثقته به، وما أحسبه إلا قد فقد الثقة بأهل ذلك الزمان، فلقد كثر الزيف، وضاعت الحقيقة، وندر الوفاء وقلَّ الأصدقاء، وقد حاول الخوارزمي أن يرفع هذا الكَلَّ عن نفسه وعن غيره، بالتشبث بحبال الوفاء ومعاودة الأصدقاء، ولعل كثرة الرسائل الإخوانية التي حواها كتاب رسائله ما يدل على ضعف هذه الآصرة الاجتماعية، وإلى محاولته التمسك بها من خلال إبقاء حبل الود مع الأصدقاء موصولاً، والاكثار من العتاب الذي يمكن أن يعيد الأمور إلى مجاريها كلما تحولت عنها.

لقد سامته الأيام خسفاً، وأوردته موارد التهلكة، فحنق عليها وحقد عليها، لأنها قطعت عليه طريق السعادة والأمل، يقول في إحدى رسائله:[2]

(1) الأدب في ظل بني بويه هـ53.

(2) الرسائل/ 170.

"وهذه عادة الدهر معي، وقديم صنعه بي، فإنه إذا علم أني أحب أمراً ناطه بالعيوق، ووضعه موضع بيض الأنوق، وأبعده، وهو غير بعيد وشدده وهو غير شديد، وأنا بعد اليوم لا أقر للدهر بما اقترحه عليه وأطلبه لديه، فلعلي أخدعه عن طبعه، وأختله عن سوء صنعه، ومن ذا يخادع الأيام أو يغالط الحظوظ والأقسام".

ويقول في أخرى[1] "فإن الأيام قلما رأت بيدي علقاً نفساً إلا سلبتني وقلما أعطتني مما أحب شيئاً إلا حاسبتني، حتى لو صادفت الدواء لجعلته حمى لايطال جانبه، ولو اختصصت بالماء لصيرته نبعاً لا يروي شاربه، أما الناس فما أحصي منهم عدداً ممن ابتعته فباعني وحفظته فأضاعني".

لقد صيرته الحياة قاسياً صلباً لا يألم للمصائب ولا يفرح لإقبال الحياة عليه ولا يأسى لإدبارها عنه، ويعبر عن هذه الحالة بكثير من الألم والمرارة فيقول[2]: على أني قد تعودت ضربات الزمان حتى صارت لا توجعني، وألفت صواعقه حتى صارت وإن قربت مني لا تسمعني، ونكبت حتى ما أبكي لنكبة وضحكت حتى ما أضحك لفرحة ولقد:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهامٌ تكسرتِ النِّصالُ على النصالِ

أما المظهر الثاني فينطلق من إحساس، بالمهمة الجماعية، قادته إليه عقيدته السياسية، ومذهبه الديني، وما كان عليه من علم وأدب، فسمت بأخلاقه وارتفعت بطباعه، فسخط على الزمان الذي كان يرمز به للسلطان لأنه المسؤول عن تخريب الأخلاق وإنتشار الفساد وانثلام المروءة، فسعَّر حملته عليه مصرحاً بالأمر تارة، مكنياً عنها بالزمان تارة أخرى، يقول في إحدى رسائله "ونحن دُفِعنا إلى زمان هرمت فيه

(1) المصدر السابق/ 129.

(2) المصدر السابق/ 205.

الدولة، وفترت الدعوة وكسدت السلعة، وبطلت الصنعة، والسلطان بالزمان والزمان بالإمكان، والإمكان على قدر الكيان.

وأنــتَ عبيــد الله أكــبر همــةً وأكــرمُ مــن فضــلٍ ويحيــى وخالــدِ

أولئك جادوا والزمـان مسـاعدٌ وقــد جــاد ذا والــدهرُ غــير مســاعدِ

ويقول من أخرى[1]: "والدولة تجعل القريب بعيداً، والجد يرى المخطىء مصيباً، والمجدود يمس بيديه ما لا يراه المحدود بعينيه، ويتناول قاعداً ما لا يتناوله غيره قائماً.

ويسب الزمان وأهله، ويعبر عن سخطه على هذا الواقع الفاسد الذي انقلبت به الموازين وضاعت الحقيقة في أدران الزيف، فيقول[2]:

"فأنا ولا كفران لله تعالى في زمان يجب أن يجري فيه الجفاء مجرى العادة والسجية، ونضعه موضع السنة بل الفريضة، ونقيمه مقام الجبلّة والشيمة، فننظر إلى حفظ العهد بعين الشماته والطرفة، وننزله منزل الغريبة والنادرة، ونحكم عليه بنقص العادة، وخلاف الجملة"

ويرى أن الوقوف في وجه هذه التيارات وجها لوجه، أمر لا يجني منه الإنسان غير الخسران، ولذا فإن عليه أن يحتال للزمان، وأن ينتظر الوقت المناسب الذي يتيح فرصة التغيير فيقول[3]:

"فإنما أيام المحنة موج من تطأطأ له تخطاه، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قاتل أيام الإدبار بوجهه صدمته، ومن قاتل عساكر الإقبال أيام كرها هزمته ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيراً..."

---

(1) الرسائل/ 4.

(2) الرسائل/ 38.

(3) الرسائل/ 102.

ويوجه صرخة مدوية إلى أبناء عصره للكف عن العادات السيئة، والابتعاد عن طرق الضلال والتخريب، فيقول:[1]

"فيا أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل، كم تهتكون حجب العوارف بيد الكفران، وكم تصافحون النعم بالبغي والعدوان، وكم تفضحون ختام العافية بالغدر، وكم تسترون الخيرات بقلة الشكر، وكم لا تبرزون الصنائع في معرض من حسن الذكر، ولا تقلدونها حلية من طيب النشر، وكم تتبعون الوفاء بالملق، وتنادون على الأمانة كما ينادى على الثوب الخلق، وكم تقبحون في النعم، وتحسنون في النقم، وكم تجهلون ما عرفه الحطيئة مع خبث مذهبه، ولؤم مركبه، حيث يقول:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وحين يستحوذ عليه اليأس، ولا يجد معيناً على الزمان، مع قلة في الحول والطول، لا يملك إلا أن يستكين، ولكنها استكانة الألم ودلالة الإحساس بالظلم القاسي، يقول:[2]

يا عافاك الله إمش مع الدهر كما يمشي، واجر مع الفلك كما يجري، وأرض بمن رفقت الأيام به، وارع لمن رعت السعادة له، ولا تزاحم الفلك الدوار، ولا تناطح الأقسام والأقدار، ولا تصغر الكبار ولا تتحكم على الدهر، فإنه حاكم لا يُتحكم عليه، ومسلط لا يؤخذ من يديه".

نظرته إلى المرأة:

يلمح دارس أدب الخوارزمي تخلف نظرته إلى المرأة، وكثرة مآخذه عليها بحيث يمكن اعتبارها من وجهة نظره، رمزاً للفساد الاجتماعي والأخلاقي في مجتمعه، ونحن لا نعرف مقدار التجربة الشخصية المؤثرة في نفسه، وإن كنا نعرف أنه قد تزوج وأنجب

(1) الرسائل/ 5.

(2) الرسائل/ 7.

أطفالاً، واقتنى جارية، وأظهر تعلقاً بها، فقد رفض بيعها حين طلبت منه بعشرة آلاف درهم، وقال فيها[1].

يــا طالبــاً روحـــي ليبتاعهـــا   أنـــت رســول الغــمِّ والحســرةْ

غـــدوتَ بالبـــدْرة فِـــارجع بهـــا   لســـتُ أبيـــعُ البـــدرَ بالبـــدره

ويمكن القول أن العامل الاجتماعي كان له الأثر الكبير في تكوين هـذا الـرأي عنده، فالمرأة لم تستطع أن تثبت وجوداً مؤثراً في المجتمع يكبح جموح الرجل في السيطرة والاستعباد، وحالة الحروب المستمرة بين الأقاليم كانت تمنح الرجل مزيداً من الفرص لأحكام هيمنته، وإظهار جبروته، وكان من نتائج تلك الحروب زيادة الفساد الأخلاقي والمحلال كثير من القيم، فانتشر البغاء وازداد الفسق والفجور فأحـدث هـذا ردة فعـل لدى طائفة من الناس، تطلب الاصلاح وتنشد التغـيير، ويبـدو أن ردة الفعـل كانـت شديدة من الخوارزمي فرأى في المرأة صورة الفساد والفجور ومكمن الشـرور وضـآلة التفكير، وقلة الوفاء، حتى لتحس به قريب عهد من القوم الـذين وصـفهم الله بقولـه (وإذا بشر أحدهم بالأنثى، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم)... ولئن حزن أولئـك لمولـد الأنثى، لقد عد الخوارزمي وفاتها ستراً وأمنية، وكاد يهنئ بوفاتها يقـول في رسـالة إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وبنته[2].

... فأما البنت- رحمها الله فقد كانت حياتها عفافاً وستراً ووفاتها ثوابـاً وذخـراً ولقد كانت في زمانٍ النجابةُ في رجاله غريبة، وفي نسـائه عجيبـة، والعفـاف في ذكرانـه معوز، وفي إناثه معجز، والعقل في شيوخه نـادرة تفقـد، وفي شـبابه ضـالة لا توجـد، فالحمد لله الذي سترها بالحياء في حياتها، وبالثواب في وفاتها... ولولا مـا ذكرتـه مـن سترها، ووقفت عليه من غرائب أمرها، لكنت إلى التهنئة أقرب من التعزية فـإن سـتر

---

(1) اليتمية 4/ 237.

(2) الرسائل/ 20.

العورات من الحسنات، وإن دفن البنات من المكرمات، ونحن في زمان إذا قدم أحدنا فيه الحرمة، فقد استكمل النعمة، وإذا زف كريمة إلى القبر، فقد بلغ أمنيته من الصبر.

واستشهد الخوارزمي- بعد ذلك- بأشعار الأقدمين ليدلل على صحة نظرته التي كانت منسجمة مع نظرة المجتمع في عصره[1]

قال الأول: ولم أر نعمة شملت كريماً كنعمة عورةٍ سُترت بقبرِ

وقال الثاني: تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزّال على الحرمِ

وقال الثالث: وددت بنيَّتي ووددتُ أنّي وضعْتُ بنيتي في لحدِ قبر

وقال الرابع: ومن غاية المجدِ والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال الخامس: سميّتها إذ ولدَت تموتُ والقبر صهر ضامن زِميّت

ولقد مزج بين التهنئة والتعزية في رسالة كتبها إلى كثير بن أحمد[2] وإذا كان لا بد من عين تصيب طرفاً من أطراف الكمال، ولا بد من عوذةٍ يعوذ بها وجه الجمال. فلأن تكون الواقعة في الصغير، خير من أن تكون في الكبير، ولأن يقع سهم الزمان على النسوان أمثل من أن يقع على الذكران.

والحمد لله الذي جعل طي المحنة منحة، وفرج الترحة بفرحة، فستر عورة من حيث سلب أنساً ونزهة، وكفى مؤونة من حيث جلب فجعة.

وفي رسالة بعث بها إلى الوزير ابن عباد[3]، يعزيه عن شقيقته ويظهر فيها أنفته من ذكر النساء للوزير وكأني به يتحدث عن منكر تنفر منه النفس البشرية، فلا تقبله، ولا يجوز التحدث به أمام القوم الذين علا شأنهم، وإذا كان ذلك في حرم الوزراء والأمراء، فما بال القوم الذين أزرى بهم الدهر، لا ريب أنهن في منزلة دون هذه، إنه

---

(1) الرسائل/ 20-21.

(2) الرسائل/ 60.

(3) الرسائل/ 84.

انتقاص شديد للقيم الإنسانية، حين يخجل الإنسان من ذكر النساء...". ..المصيبة التي قرعت صفاة الوزير في المتوفاة زكى الله عملها، وحقق في مغفرته أملها، وإن كانت نالت كلا من خدمه، ومتحملي أعباء نعمه، بالغم الذي لا تنجلي كربته، والجرح الذي لا تؤمن ضربته، وفجعني من بينهم بالنصيب الأوفر، والقسم الأكثر، فإني أغار لهيبة الوزير من ذكر النساء أولاً، واتطير لنعمته أن تتخللها التعازي والمراثي ثانياً"[1].

ويأخذ على المتنبي قوله في رثاء أخت سيف الدولة حين قال:

يعلمن حين تحيا حسنَ مبسمها ... وليس يعلمُ ألا الله بالشَّنَبِ

فيقول "ولو عزّاني إنسان عن أختٍ لي بمثل هذا لألحقته بها. وضربت رقبته على قبرها".

والمرأة في نظر الخوارزمي صورة من صور الضعف والتخلف العقلي والاجتماعي فهي مبذرة للأموال، فاسدة الأخلاق ولذا فإن على الرجل أن يكون قواماً عليها، حذراً كل الحذر في مراقبتها وأن يبعدها عن الرجال لأن الاختلاط يفسد أخلاقها، ويعرض ذويها للعار. يقول[2].

"ولولا أن تضييع المال ضرب من العجز والإخلال، وخصلة من خصال النساء لا الرجال، لكنت أترك تلك الضيعة نسياً منسياً".

ويقول في مكان آخر... وإنما التمائم سلاح النساء، ومن حصون الضعفاء.

"... وكما أن من آفات النساء أنهن إذا أكرمنَ قبحَ خلقهن وإذا أهنَّ فسد خلقهن[3]

(1) الرسائل/ الطبعة العثمانية 1312.

(2) الرسائل/ 84.

(3) الرسائل/ 122.

وحين وقع الخوارزمي طريح الفراش بسبب حمى أصابته، لم يجد غير المرأة شبيهاً لها، فهي نذير شؤم، وطالع شر، وقد سبقه إلى ذلك المتنبي[1] يقول الخوارزمي[2]

ولــو أبصــرتَ في أرجــان نفســي ... عليهــا مــن أبــي يحيــى ذمــامُ

ولــي مــن أم ملــدم كــلَّ يــوم ... ضــجيع لا يلــذُّ لــه منــامُ

مقبِّلــة ولــيس لهــا ثنايــا ... معانقــةٌ ولــيس لهــا إلتــزامُ

كــأن لهــا ضــرائر مــن غــذائي ... فيغضــبها شــرابي والطعــامُ

إذا مـا صـافحت صـفحات وجهـي ... غــدا ألفــا وأمســى وهــولامُ

وحين أراد أن يصور تقلب الدنيا بين إقبال وإدبار وفرحة وترحة، ربط بينها وبين المرأة التي لا بد من التعامل معها بحذر واستعلاء، يقول[3]:

وقـد جـاءت الـدنيا إليـك كمـا تـرى ... طُفيليـة قـد جاوبـت قبـل أن تـدعى

صبتْ بك عِشقاً، وهي معشوقُة الورى ... فقد أصبحتْ قيساً وعهدي بهـا ليلـى

ولمــا رأت خُطابهــا تــركتهُم ... ولم تــرض إلا زوجهــا الأول الأولى

ولم تتســاهل في الكفــي ولم تقــل ... رضــيتُ إذا لم تكــن إبــلٌ معــزى

علــى أنهــا كانــت جفتــك تــذللا ... فخليتها حتـى أتـت تطلـب الرجعـى

ثقافته

للخوارزمي حصيلة من الثقافة ثرة، ألم فيها بكثير من علوم العربية، وآدابها فقد برع في حفظ الشعر وروايته، وقصة دخوله على الصاحب، وادعـاؤه، حفـظ عشـرين

---

(1) في قصيدته التي مطلعها:

ملومكمـاً يجـل مـن الـملام ... ووقـــع فعالـــه فـــوق الكـــلام

(2) اليتيمة 4/ 217.

(3) المصدر السابق 4/ 227.

ألف بيت من شعر النساء[1]، دليل على قوة الحافظة وثرائها، حتى اشتهر بالحفظ، قال السيوطي. قال الحاكم[2] كان واحد عصره في حفظ اللغة والشعر، وكانت قريحته تقصر عن حفظه[3].

ويصفه تلميذه أبو منصور الثعالبي بأنه[4] "باقعة الدهر وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم، وعالم الفضل والظرف، وكان يجمع بين الفصاحة العربية، والبلاغة المفيدة، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ويتكلم بكل نادرة، ويأتي بكل فقرة ودرة ويبلغ في محاسن الأدب كل مبلغ ويغلب على كل محسنٍ بحسن مشاهدته، وملاحة عبارته، ونعمة نعمته، وبراعة جده، وحلاوة هزله".

ولم يقتصر في روايته على الشعر الجاهلي والإسلامي ولكنه كان يحفظ أشعار المحدثين ويرويها، وقد أعتمد الثعالبي في تدوين أشعار عدد من الشعراء على ما كان يرويه له أبو بكر الخوارزمي من محفوظه أو مدوناته، لا سيما شعراء الشام[5] ويبدو أن الخوارزمي كان يروي شعر أبي الطيب المتنبي، وقد ورد في شرحي الواحدي والعكبري عدد من روايات الخوارزمي لابيات في الديوان، يؤخذ بها في أغلب الأحيان[6].

---

(1) وفيات الأعيان 4/ 401.

(2) الحاكم: محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين له تاريخ نيسابور ومؤلفات أخرى.

(3) بغية الوعاة/ 51.

(4) اليتيمة 4/ 194.

(5) اليتيمة 1/ 45، 104، 20، 122، 135-138، 248، 278، 288، 296، 298 وغيرها كثير.

(6) انظر شرح الواحدي: 1/ 79، 122، 184، 197، 277، 278، 290، 331، 349، 354، 355، 367، 376، 388-389، 445، 572، 753، 868، وانظر شرح العكبري 1/ 21، 73، 155، 205، 225، 227، 334، 2/ 18، 63، 124، 158، 211، 264، 267، 236، 237.

ولم يكن الخوارزمي مجرد راوية للشعر، فحسب، فقد تعدى ذلك إلى فهم الشعر، ونقده، ومعرفة الخصائص الفنية للشعراء، وما اشتهر به كل منهم، وعدّ حفظ الشعر مصدراً من مصادر الإلهام فيه وفي ذلك يقول: "من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وأهاجي الحطيئة، وهاشميات الكميت، ونقائض جرير، وخمريات أبي نواس وتشبيهات ابن المعتز، وزهديات أبي العتاهية، ومراثي أبي تمام ومدائح البحتري، وروضيات الصنوبري، ولم يخرج في الشعر، فلا أشب الله قرنه"[1] ولعل شهرة الخوارزمي في الحفظ، واعتزازه بما يحفظه[2] قد دفعت بديع الزمان إلى مصاولته في هذا الميدان،[3] بما له من باع طويل فيه.

وقد كان من نتيجة حفظ الخوارزمي وروايته للشعر العربي أن غصت رسائله بالأشعار يتمثل بها في الأغراض المتنوعة التي يطرقها، وأبرزت لديه ظاهرة بينة في عصره هي ظاهرة التضمين، وقد أفرد الثعالبي لهذه الظاهرة موضعاً حين ترجم له فقال[4] وهذا لمع من تضميناته التي كانت له رشيقة، وطريقة أنيقة يضعها في مواضعها، ويوقعها أحسن مواقعها ويفصح بها عن اتساع روايته وكثرة محفوظاته".

وقد درس الخوارزمي اللغة، واشتهر بحفظها، وأهله علمه بها ليقوم على شرح ديوان أبي الطيب المتنبي كما أهّله هذا الحفظ والاستيعاب لأن يكون واحداً من مشاهير عصره في النثر والشعر حتى قال عنه أبو حيان التوحيدي:[5] "وكان الخوارزمي من أفصح الناس، ما رأينا في العجم مثله..."

وقد اعتمد الثعالبي في تأليف كتابه "فقه اللغة وسر العربية" على جلة من العلماء

---

(1) مطالع البدور: 1/ 214.

(2) الرسائل/ 47.

(3) رسائل البديع/ 56.

(4) يتيمة الدهر 4/ 212.

(5) أخلاق الوزيرين/ 108.

والأدباء، منهم الخوارزمي، مما يدل على عمق معرفته باللغة يقول الثعالبي[1] "وتركت والأدب والكتب، أنتقي منها وانتخب، وأفصل وأبوب وانتجع من الأئمة مثل الخليل والأصمعي... ومن سواهم من ظرفاء الأدب الذين جمعوا إلى فصاحة العرب البلغاء اتقان العلماء، ووعورة اللغة إلى سهولة البلاغة كالصاحب أبي القاسم وحمزة بن الحسن الأصبهاني، وأبي الفتح المراغي، وأبي بكر الخوارزمي والقاضي أبي الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني. "ويبدو أن الخوارزمي قد أخذ فقه اللغة عن أبي الفضل العروضي[2].

وقد عرف عن الخوارزمي سعة علمه بالنحو[3]، وفي شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي يتصدى كثيراً لمسائل الإعراب. بحيث يمكن اعتبارها سمة من سمات هذا الشرح. ولعل اختياره المناظرة في النحو قبل غيره من العلوم[4] والمعارف حين طلب إليه البديع ذلك مما يمكن الاستدلال به على علو كعبه فيه، وسعة اطلاعه عليه. ولكنه لم يترك لنا مؤلفات في هذا العلم.

أما الأمثال فقد كان له حظ موفور في حفظها وروايتها والاستفادة منها في شعره ونثره، وقد كونت جزء من مخزونه الثقافي والفكري، ويبدو أنه اطلع على الكتب المصنفة في هذا الباب وذكر عدداً من حكماء العرب الذين اشتهروا بالأمثال[5] مثل أكثم بن صيفي[6] وبهنس الفزازي، وعامر بن الظرب

---

(1) فقه اللغة / 16-22.

(2) نفس المصدر/ 40، 42-43،47، 90، 139، 268، 229، 332، 333.

(3) اليتمية 4/ 194.

(4) رسائل البديع/ 55.

(5) الأمثال المولدة/ ورقة 3 و4.

(6) أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية التميمي حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين، أدرك الإسلام ولم يسلم توفي سنة 9هـ.

العدواني[1] وعمرو بن حممة الدوسي[2] وذكر أسماء عدد من الذين تصدوا لجمع الأمثال كأبي عبيد والمفضل الضبي، والأصمعي، وعلي بن زين الطبري[3] وقبلهم عبيد بن شرية الجرهمي[4].

وقد قاده ذلك إلى تصنيف كتاب جمع فيه الأمثال المولدة التي استحدثها أبناء عصره وسنتحدث عنه بالتفصيل عند الحديث عن مؤلفاته.

ويعد الخوارزمي واحداً من أدباء عصره الذين لم يكتفوا بدراسة الأدب واللغة وحفظ الشعر، لكنهم عمدوا إلى سبرأغوارها والتعرف على سر الفصاحة العربية، فكان أن ألم بكل ما يمت إلى هذا التراث بصلة، فدرس التاريخ العربي والإسلامي[5] وحفظ أيام العرب وأنسابها، وقد أفرد بابا في كتابه 'الأمثال المولدة' تناول فيه أيام العرب في الجاهلية والإسلام[6] عددها وذكر أطراف النزاع فيها ومن دارت عليه، وقد اشتهر عنه اهتمامه بالأنساب. يقول السمعاني[7] 'ذكر الحاكم أبو عبد الله في تاريخ نيسابور فقال: اجتمعت معه في نيسابور وبخاري، ثم جاءنا إلى نسا، ثم استوطن

---

(1) هو عامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ العدواني، حكيم خطيب، كان إمام مصر وحكمها وفارسها وهو من المعمرين في الجاهلية.

(2) عمرو بن حممة بن رافع الدوسي من الازد. أحد المعمرين من حكام العرب في الجاهلية مات قبل الإسلام ترجمته في الإصابة 5821 اليعقوبي 1/ 215.

(3) علي بن زين الطبري، أبو الحسن طبيب حكيم مولده ومنشأه بطبرستان له مصنفات عدة منها (الدين والدولة- مطبوع) أخذ عنه الرازي الطب.

(4) عبيد بن شرية الجرهمي، راوية من العمرين من الحكماء والخطباء في الجاهلية أدرك النبي، له مصنفات في الأمثال والتاريخ توفي سنة 67هـ.

(5) انظر رسالته إلى شيعة نيسابور، 130 وما بعدها وانظر الرسائل/ 97.

(6) الأمثال المولدة 47/ ب 49/ ب.

(7) الأنساب 5/ 214.

نيسابور وقلما اجتمع معي إلا وذاكرني بالأسامي والكنى والألقاب حتى يحيرني في حفظه لهذه الأنواع.

وكان من نتائج تمسكه بمذهبه الديني تزوده، بحصيلة من الثقافة تساعده على فهم المذهب، والرد على الخصوم، وفي رسالته إلى شيعة نيسابور مايشير إلى معرفته بتاريخ الشيعة وغيره من المذاهب، وإدراك ما بينها من خلاف في المعتقدات ولا بد أن يكون قد ألم بشيء من علم الكلام واطلع على الفلسفة، لما لهذا من ارتباط بالعقائد الدينية والسياسية في عصره.

ولعل مهنة التدريس التي زاولها ومنادمة الملوك والرؤساء مما اقتضاه ثقافة موسوعية استطاع بها أن يؤثر في محدثيه ويبز أقرانه، ويرفع من مستوى تلاميذه.

مصادر ثقافته:

أما مصادر ثقافته، فكثيرة ومتنوعة، وأبرزها القرآن الكريم الذي هو مصدر العقيدة الإسلامية، وعمود اللغة، ويبدو أن الخوارزمي قد حفظ آياته، واستوعبها وأكثر من الاستشهاد بها في رسائله وأجاد استخدامها، وكان يدفعه إلى هذا الحفظ، محاولة لفهم العقيدة الإسلامية، وسبر لأغوار اللغة، واستفادة من الأساليب البلاغيه في القرآن الكريم، بيد أنه لم يهتم بالحديث كثيراً، ذلك أن استشهاده به، قليل نادر، ولعل ميله إلى مذهب الاعتزال كان من العوامل المؤثرة في ذلك.

وتؤلف دواوين الشعر العربي مصدراً غزيراً من مصادر ثقافته فاستقى منه عللا بعد نهل، حتى اشتهر برواية الشعر وحفظه، كما درس كتب اللغة والأدب. ودرس كتب الأمثال والعروض والفقه، والأنساب، ودرس التاريخ وكتب الأنساب ويمكن الاستدلال بهذه الفقرة من رسائله على تعدد مصادر ثقافته، ذلك أن الدقة في التخصيص لا يجيدها إلى مطلع، آخذ بقدر.

يقول[1]: ... لو كنت أحمد بن يوسف في البلاغة وعبد الحميد بن يحيى في اتساع الكتابة، وجعفر بن يحيى في الاختصار وأبا الربيع في التوسع والإكثار وأبا العيناء في العارضة. وأبا العتاهية في البديهة، وابن المعتز في التشبيهات وأبا نواس في الخمريات والطرديات والعتابي في المعاتبات، والنابغة في الاعتذارات وصريع الغواني في الاستعارات والفرزدق في الفخريات، وجريراً في المهاجاة، وغلبتُ في المخاطبة صعصعة بن صوحان، وقمعت في الفصاحة خالد بن صفوان، ونطقت بيتيمة ابن المقفع مرتجلاً، وأتيت بعجوز آل رقية مبتدعاً، وبعذراء آل خارجة مقتضيا، وضرب لي المثل في المقامات لا بسحبان وائل، وبوهي بي في العيّ عندي لا بباقل وحفظت حفظ الشعبي وحاضرت محاضرة ابن القرية النمَّري، وأبدعت إبداع أبي تمام الطائي، ووعظت عظة الحسن البصري، وجادلت جدل النظّام في الكلام، وصنفت تصنيف الجاحظ في الجد والهزل، وأربيت على إياس بن معاوية في الذهن والعقل، وبهرجت الأصمعي رواية، وزيفت أبا عبيدة حفظاً ودراية، وعلّمت أمير المؤمنين عليه السلام الحلال والحرام، ولقنت شريحاً القضاء والأحكام، وصرت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم، ووفقت توفيق سليمان في الحكم، وأخذ عني بطليموس علم الهيئة وارسطا طاليس علم الفلسفة وبلنياس باب الطلسم والحيلة، وقرأ علي سيبويه نحو البصريين، والفراء نحو الكوفيين، واختلفت إلي الهند في تعليم الحساب، ودرس علي أبو عثمان المازني علم التصريف والإعراب، واقتبس مني الخليل عروض الشعر، وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر، وضرب على قالب خطي خط ابن مقلة، وتوارث الكتابة أهل بيتي، كما توارثها بنو ثوابه، وأمليت على الكلبي شجرة النسب. وعلي أبي عمرو بن العلاء أيام العرب، وأوتيت الحكمة وفصل الخطاب...ثم حملت بعد هذا كله على أن يمضي بي في عتاب الإخوان لساني أو يجري فيه بناني لقصُر عن ذلك عناني.

(1) الرسائل/ 183- 184.

وقد عمد الخوارزمي إلى إبراز تنوع معارفه من خلال الرسالة التي بعث بها إلى أبي الحسن البديهي الشاعر معرضاً به منتقصاً من معارفه، هازئاً به[1].

وكان من الطبيعي أن تؤثر حياة التنقل والترحال في ثقافته وشخصيته فتعلم منها درساً اكسبه ثقة بالنفس واعتداد بها وأورثته عمقاً في التفكير، ومقدرة على التحليل كما أنها صقلت طبعه وفتحت ذهنه وشحذت قريحته بمجالسة الأدباء والشعراء ومنادمة الوزراء والأمراء، وكانت مجالسهم عامرة بالأدب وتنافس فيها الشعراء وتبارى فيها الكتاب، وتوسع فيها العلماء فقد اتصل الخوارزمي بمشاهير عصره في اللغة والأدب في حله وترحاله. لقي ابن جني والعروضي والمتنبي وغيرهم في بلاط سيف الدولة كما لقي ابن العميد والصاحب وأبا حيان في بلاد المشرق وكان له صلات وصداقات مع كثير من الشعراء والأدباء والمؤرخين والمحدثين والفقهاء. وقد أدرك الخوارزمي أهمية هذه المجالس في صقل العقول، وتفتح الأذهان، فسجلها في إحدى رسائله: إذ يقول[2]:

"ولم يخرج أهل تلك البلدة في قالب الكمال، ولا يستوفون شرائط الرجال، ولا ينظمون في طرفي القول والفعال، وهم يرون كل يوم وارداً ويشهدون وافداً، ويسمعون نغمة، ويطالعون نعمة ... وهم يلتقون على باب الوزير مع كل كاتب وحاسب، ويجلسون في سدته مع كل كاتب وشاعر، ولا يعدمهم أن ينظروا إلى ذي صناعة معاشية أو معادية، وإلى ذي آلة رياضية أو عقلية، فترق ألسنتهم وتصفوا أذهانهم، وتتنزه أبصارهم، وتدق أفكارهم لاقتباسهم علم كل مكان، ..واستماعهم تبيان كل لسان، ولترددهم بين اللغات المختلفة، وبين الأخلاق المتمايزة فهم يبصرون ويستبصرون".

---

(1) الرسائل/ 191- 240.

(2) الرسائل/ 104.

ولم تسعفنا المصادر لمعرفة مقدار إجادة الخوارزمي للغة الفارسية وإطلاعه على آدابها، أو وجود كتابات أو أشعار أو مؤلفات له فيها، ولكن هذا لا ينفي معرفته بهذه اللغة وهو من أصل أعجمي، ونشأ في بيئة أعجمية ولا بد أن تكون قد أمدته بنصيب من الثقافة، وأن يكون قد اطلع على آدابها ودرس تاريخها وفي رسائله ما يشير إلى مثل هذا الأطلاع[1] وقد ترك لنا أبياتاً في شعره مزج فيها بين العربية والفارسية:

يقول فيها[2]

قطعنـــا شـــط نهـــر الهنـــد منـــد	سُـــكارى آخـــذي بالدســـتبند[3]
وراحٍ قهـــوة صـــفراء صـــرف	شَـــمول قرقـــف مـــن جهنبنـــد
وســـاق شـــبه دينـــار أتانـــا	يـــدير الكـــأس مـــن فينـــا كالدرنـــد
فلمـــا دب ســـكر الليـــل فينـــا	وأصـــبحنا بحـــال خردمنـــد[4]
متـــى تـــدنو لقبلتـــه تلكـــا	ويلقـــى نفســـه كالدردمنـــد[5]
وهـــذا شـــعر مـــزاح ظريـــف	يحـــاكي أنـــه جنـــد بـــن جنـــد

وخلاصة القول أن الخوارزمي قـد ألم بثقافـة واسـعة متنوعـة متشـعبة تعـددت مصادرها، وكان جل اعتماده على نفسه، ولم يكن لشيوخه ذلك الأثر البين في ثقافتـه، وحين سئل الخوارزمي وهو على فراش الموت مـا تشـتهي؟ قـال النظـر في حواشـي الكتب[6].

(1) المصدر السابق/ 36، 77.

(2) معجم البلدان/ 5-418- مادة هند مند.

(3) الدستبند: نوع من الرقص الجماعي الشبيه بالدبكة.

(4) خردمند: عاقل، فهيم مدرك ذكي.

(5) الدردمند: المتألم المريض.

(6) المخلاة/ 1.

شيوخه:

لم يعرف عن الخوارزمي ملازمته لشيوخ العلم والأدب، ولكن تنقلاته في الأمصار قد أتاحت له فرصة الأخذ عن عدد منهم، وقد بقي أثرهم ضعيفاً في ثقافته، وكان جل اعتماده على نفسه في الدرس والإطلاع ومن شيوخه:

1- الصفار:[1] إسماعيل بن محمد بن صالح بن عبد الرحمن أبو علي الصفار النحوي- صاحب المبرّد. لقيه الخوارزمي في العراق، وأخذ عنه النحو[2]، وكان سنياً متعصباً وكان مولده سنة سبع وأربعين ومائتين، وتوفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ودفن في بغداد.

وليس لدينا ما يشير إلى مقدار تأثره بشيخه، ولكن هذا الأثر يبدو ضعيفاً لقصر المدة التي قضاها الخوارزمي في بغداد، وكان اتصاله به أثناء رحلته إلى بلاط سيف الدولة في حلب.

2- أحمد بن كامل[3] بن خلف بن شجرة بن منصور بن كعب بن يزيد أبو بكر القاضي وهو أحد أصحاب محمد بن جرير الطبري ولي قضاء الكوفة، وكان من العلماء بالأحكام والقرآن والنحو والشعر، وأيام الناس، وتواريخ أصحاب الحديث، وله مصنفات في أكثر ذلك، توفي سنة 350هـ لقيه الخوارزمي في بغداد وأخذ عنه.

3- ابن خالويه[4]: الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان أبو عبد الله اللغوي النحوي، من كبار أهل اللغة العربية، وقد لقيه الخوارزمي في بلاط سيف الدولة بحلب، ودرس عليه النحو واللغة والشعر والأدب، وقد أفاد الثعالبي في كتابه "فقه اللغة

---

(1) ترجمته في تاريخ بغداد 6/ 302.

(2) الأنساب- السمعاني/ 5/ 214.

(3) ترجمته في تاريخ بغداد 6/ 32-303.

(4) ترجمته في اليتمية 1/ 123، معجم الأدباء 4/ 5، نزهة الألباء/ 23.

وسر العربية ما رواه الخوارزمي عن ابن خالويه[1] ويبدو أن الخوارزمي لم يتأثر بموقف ابن خالويه من المتنبي وقد كان بينهما مناظرات.

تلاميذه

زاول الخوارزمي مهنة التدريس، فأمه التلاميذ، يأخذون عنه الأدب ويدرسون عليه اللغة، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها[2] ويبدو أنه قد اشتغل بها أول مرة في العراق بعد عودته من بلاط سيف الدولة، ولعل ظروف الحياة المعاشية هي التي ألجأته إلى ذلك، ولكنه- على أي حال- لم يتفرغ للتدريس إلا في أواخر حياته بعد أن استقر في نيسابور، وقد درس عليه عدد غير قليل من التلاميذ في الأماكن التي ارتحل إليها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن عدداً من تلاميذه أصبحوا فقهاء وهم من مذاهب مختلفة، فأغلب الذين عرفناهم ينتسبون إلى المذهب الحنفي، وفي هذا ما يدل على إلمامه بالفقه الإسلامي، وثقة أصحاب المذاهب الأخرى بما للخوارزمي من علم وأدب تدفع الطلبة إلى التزود بها، رغم الخلافات العقائدية والمذهبية.

وقد احتفظ الخوارزمي بصلات وثيقة بتلاميذه، فكان يكتب إليهم شاكياً همومه ومصائبه، حين تلم به الخطوب، حتى إذا علم بمرض أحدهم سارع في الكتابة إليه مواسياً ومشجعاً، يفرح حين تفتح الحياة صدرها لأحدهم، فيكتب إليه مهنئاً وناصحاً وموجهاً، وحين بلغه أمر تلميذ له خرج على منهج المناظرة والحجة كتب إليه[3].

بلغني أنك ناظرت، فلما توجهت عليك الحجة كابرت، ولما وضع نير الحق على

---

(1) فقه اللغة وسر العربية 16-22.

(2) اليتيمة 1/194.

(3) الرسائل/12.

عنقك ضجرت وتضاجرت وقد كنت أحسب أنك أعرف بالحق من أن تعقه، وأهيب لحجاب الأنصاف والعدل من أن تشقه. كأنك لم تعلم أن لسان الضجر ناطق بالعجز، وأن وجه الظلم مبرقع بالقبح، وأنت إذا استدركت على نقد الصيارفة، وتتبعت أخطاء الحكماء والفلاسفة قد طرقت إلى عيبك لعائبك، ونصرت عدوك على صاحبك، وقد عجبت من حسن ظنك بك، وأنت إنسان، والله المستعان.

فهذا منهج قيم في المناظرة، وإقامة الحجة، وطريقة في التأديب لا تخلو من قسوة تطلبتها الضرورة.

وهو رقيق شديد الرقة في معاملتهم، تقطر عباراته عاطفة وحنوا عليهم، فكأنهم أبناء أصلاب فيقول في مخاطبة أحدهم[1]:

كتبك يا ولدي عندي تحف وشمامات، وأنوار وباكورات أفرح بأولها وانتظر ورود ثانيها واشكرك على ماضيها، وأعد الأيام والليالي على باقيها، فكثّر علي سوادها، ووفر علي أعدادها، وأعلم أني أحبك حباً مستكناً وبادياً.

أحبك مالو كان بين معاشر من الناس أعداءً لجرَّ التَّصافيا

وآنس بك حاضراً، واشتاق إليك غائباً، شوقاً لو عرفته: لتكبرت على الورى ولم تقم وزناً لأهل الدنيا.

ولما لم يكن بمستطاعنا معرفة مقدار ما للخوارزمي من أثر من في تلامذته لنقص المعلومات، ولضياع مؤلفات أغلبهم، فقد آثرنا الاقتصار على ما وضح من أثر في عدد من التلاميذ كالثعالبي والعروضي والهروي، واكتفينا بذكر أسماء الباقين مع النزر القليل من المعلومات المتعلقة باتجاههم في الأدب، وهناك عدد آخر من التلاميذ لا نعلم عنهم شيئاً. فقد وردت أسماؤهم في شعره ورسائله كأبي سعيد رجاء، وأبي

(1) الرسائل/ 76.

القاسم العباس ابن الوليد الأصفهاني، فلم نر أهمية كبيرة لإدراج أسمائهم أما أشهر تلاميذه فهم:

1) الثعالبي- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري له مصنفات عديدة تناول فيها معارف شتى، كانت سائدة في عصره فقد ألف في اللغة والنقد والبلاغة بفروعها، والمجتمع والموسوعات، ولكنه برز في التراجم وكتب الاختيارات[1] وقد طبع عدد من مؤلفاته ومازال القسم الأكبر منها مخطوطاً أو مفقوداً.

وقد ترك الخوارزمي آثاراً بينة في مؤلفات الثعالبي ومن هذه الآثار:

1- اعتماد الثعالبي على كثير من مرويات الخوارزمي في كتابه الشهير "يتيمة الدهر"[2] والاستعانة به في تدوين عدد من الوقائع التاريخية والأدبية كما في سيرة أبي الطيب المتنبي، والصاحب بن عباد والمهلبي، وغيرهم[3] وكان واحداً ممن أخذ عنهم في كتابه "فقه اللغة وسر العربية"[4] ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الثعالبي الموجودة من ذكر له أو إسناد إليه، أو إعجاب وترديد لآرائه.

2- تفضيل الثعالبي شعراء الشام على غيرهم من شعراء عرب العراق وما يجاورها[5]، فقد استدل الثعالبي على ذلك بتجربة الخوارزمي ورأيه في شعراء الشام، الذين أعجب الخوارزمي بهم أشد الإعجاب، ولعل لهذا

---

(1) الثعالبي ناقداً وأديباً/ 171.

(2) أنظر مقدمة القسم الأول من اليتيمة.

(3) المصدر السابق 1/ 135 وما بعدها، 2/ 234، 3/ 307.

(4) انظر مقدمة فقه اللغة.

(5) اليتيمة 4/ 24-26.

التفضيل أثر فيما جرى عليه الثعالبي من دراسة الأدب حسب الأقاليم، وبيان أثر البيئة في الحياة الأدبية.

2) ومن تلاميذه المشهورين أبو الفضل العروضي[1] لقد روى أن الخوارزمي قد استخلفه على درسه عند غيبته[2]، ويبدو أنه قد تأثر به في موقفه من أبي الطيب المتنبي، حيث صنف كتاباً في شرح ديوان أبي الطيب[3].

وقد وصفه الدكتور محسن غياض[4] بأنه "حلقة من سلسلة المدرسة الفارسية التي أعجبت بالمتنبي، وعكفت على شرح ديوانه، فهو أبرز تلامذة الخوارزمي، وأبعد مشايخه تأثيراً فيه، وفيما شرحه من شعر الشاعر" وأبو الفضل العروضي شيخ أبي الحسن الواحدي، وقد تأثر الأخير بشعره كثيراً.

3) محمد بن آدم بن كمال أبو المظفر الهروي[5] كان يُقصد للتدريس في النحو وشرح الدواوين، ويمكن عده واحداً من سلسلة مدرسة الخوارزمي في شرح ديوان أبي الطيب، وربما تأثر به في الاهتمام بالأمثال، فقد صنف كتاباً في شرح أمثال أبي عبيد.

ومن تلاميذ الخوارزمي المعروفين محمد بن أحمد بن محمد بن أشرس[6] وهو

---

(1) أحمد بن محمد بن عبدالله بن يوسف العروضي ترجمته في معجم الأدباء 2/ 87 تتمة اليتيمة 2/ 23، أنباء الرواة 1/ 119، الوافي بالوفيات 8/ 33، بغية الوعاة 1/ 369.

(2) معجم الأدباء 1/ 369.

(3) انظر: التبيان-المقدمة (ج-د)، الصبح المنبي/ 268-269.

(4) انظر المقال المنشور في مجلة المورد المجلد الرابع، العدد الرابع 1975 بعنوان (المستدرك على ابن جني فيما شرحه من شعر أبي الطيب المتنبي خمسون نصاً من كتاب مفقود لأبي الفضل العروضي.

(5) ترجمته في معجم الأدباء 6/ 267.

(6) ترجمته في معجم الأدباء 6/ 326-328.

أديب فاضل شاعر من أهل نيسابور، وأبو نصر أحمد بن علي بن أبي بكر الزوزني الذي ورد العراق وانخرط في سلك شعراء عضد الدولة[1] ومنهم الحسن بن أحمد الطبسي النيسابوري[2] وقد رثى أستاذه بقصيدته التي مطلعها.

شـيّبَ فـوطُ الأسـى قـذالي   وكـدّر الـدّهرُ صـفوَ حـالي

ومنهم أبو العلاء صاعد بن محمد الاستوائي، وقد انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بخراسان[3].

ومنهم ابن درست عبد الرحمن بن محمد الحاكم[4] له مصنفات عديدة وقد وصفه الثعالبي بأنه من أعيان الفضل وأفرادهم وشعره كثير الملح والنكت حسن الديباجة، كأنه يصدر عن طباع المفلقين من أهل العراق.

مؤلفاته:

1) رسائله:

لأبي بكر الخوارزمي ديوان رسائل معروف، يمكن عده نموذجاً عالياً للنثر الفني في القرن الرابع الهجري، حيث شاعت المحسنات البديعية وطغت الصنعة على الأدب، ويشمل ديوان رسائله ما يزيد على مائتي رسالة في مواضيع شتى يغلب عليها طابع الرسائل الإخوانية.

طبعت رسائل الخوارزمي ست طبعات أقدمها طبعة كوبرلي 1274هـ، ثم في

---

(1) ترجمته في اليتيمة 4/ 446-447.

(2) ترجمته في نزهة الألباء/ 265-266 دمية القصر/ الباخرزي- القسم السادس رقم (522).

(3) ترجمته في الفوائد اليتيمة: 71، تاريخ بغداد 9/ 344 الجواهر المضيئة 1/ 26 تاج التراجم في طبقات الحنفية/ 29.

(4) ترجمته في اليتيمة 4/ 425-428 فوات الوفيات 1/ 549 تحقيق محي الدين عبد الحميد، الجواهر المضيئة 1/ 309 بغية الوعاة 307 وله ترجمة في دائرة معارف البستاني 1/ 482.

بولاق سنة 1279هـ وطبع بالمطبعة العثمانية 1312هـ ثم في استانبول- مطبعة الجوائب 1297، وفي بمباي 1301[1] ثم في بيروت- دار الحياة- عن طبعة الجوائب وهي طبعات غير محققة تشوبها أخطاء كثيرة وفيها اختلافات يسيرة وقد تماثلت في ترتيبها.

أما النسخ المخطوطة فهي كثيرة ومتناثرة ذكرها بروكلمان في كتابه- تاريخ الأدب العربي- وقد أطلعت على قسم منها ولا يكاد يختلف ما اطلعت عليه عما هو مطبوع، ولم أجد في مخطوطة الموصل[2] رسالته إلى شيعة نيسابور، وقد ذكر بروكلمان المخطوطات التالية[3]

رسائل الخوارزمي: برلين- (8626-2627)[4] توتنهن 71 رقم 1، فينا 279، ليدن 343-344، باريس أول 6009 مكاتب، كمبردج أول 1499-1500، الموصل رقم 3، أيا صوفيا 4310 (منشآت أنظر NZKM 21.73) حميدية 1200 (أنظر ZA 27.156) فيضية 1604=1605 (أنظر ZDMG 68.81) كوبرلي 1293 (أنظر MSOS XIV, 18) با يزيد 2640 (مع مقامات يبرز فيها عيسى بن هشام كما في مقامات بديع الزمان الهمذاني أنظر (RESCHER 504).

وقد تبين لي أن مخطوطة بايزيد رقم 2640 إن هي إلا مجموع ضمن رسائل بديع الزمان الهمذاني ومقاماته، وإن لا علاقة للخوارزمي بهذا المخطوط سوى ما ورد فيه من نقد لشعره على لسان بديع الزمان، وأن المقامات التي برز فيها عيسى بن هشام ليست إلا مقامات بديع الزمان المعروفة.

---

(1) تاريخ الأدب العربي 2/ 111.

(2) مصورة في المكتبة المركزية.

(3) تاريخ الأدب العربي 2/ 111.

(4) أنظر E.AHLWARDT, 71570-571 ARABI SCUHEN HANDS CHRIFTEN DER KONIGLLCHEN

2) ديوان شعره:

لأبي بكر الخوارزمي ديوان شعر معروف في عصره تهاداه تلاميذه في حياته، مما يدل على أنه قد رتبه بنفسه بدليل قوله[1]:

"نسخة شعري التي طلبتها- يا ولدي- سائرة إليك، وغير مضنون بها عليك". وقد ذكره الثعالبي فقال:[2] "وديوان رسائله مخلد سائر، وكذلك ديوان شعره" كما ذكرت المصادر الأدبية المتقدمة ديوانه[3].

أما المراجع الحديثة فقد ذكرت ديوانه، واشار أغلبها إلى أنه مفقود وذكر بروكلمان[4] أنه لم يبق لنا من شعر الخوارزمي إلا نماذج رواها صاحب اليتيمة،ولكنه عاد فذكر أن للخوارزمي ديوان شعر في (كامبرج) برقم (ثالث 518) وأن ديوانه قد طبع في القاهرة سنة 1903، وتوحي عبارته (وعاب جامع مخطوطة بايزيد رقم 2640) أن للخوارزمي شعراً مجموعاً.

وقد تبين لي أن لا وجود لديوان مطبوع للخوارزمي، فلقد فتشت عنه في العراق ومصر ولبنان وسوريا وتركيا ورجعت إلى فهارس المطبوعات، واستفسرت من المختصين فلم أعثر له على أثر[5] ويبدو أن بروكلمان قد وهم وربما قصد ديوان بديع الزمان الهمذاني الذي طبع في القاهرة سنة 1903، أما المجموع الذي أشار إليه، فقد

---

(1) الرسائل/ 75.

(2) اليتيمة 4/ 194.

(3) أنظر وفيات الأعيان 4/ 401.

(4) تاريخ الأدب العربي 2/ 10.

(5) ومما يؤيد هذا القول ما ذكره مصطفى الشكعة في كتابه "بديع الزمان الهمذاني رائد القصة والمقالة" حين قال "ولكن لسوء الحظ لم نعثر على ديوانه 81/ 82"، ويقول السندوبي في حاشية صفحة 154 من كتاب المقابسات "وله ديوان شعر لم نره" وقد طبع الكتاب الأول سنة 1959 وطبع الثاني سنة 1929.

تبين لي في أثناء زيارتي إلى تركيا- أنه كتاب يحتوي رسائل البديع ومقاماته وحيث تعذر علي الحصول على نسخة مصورة من مخطوطة (كامبرج) اضطررت للسفر إلى بريطانيا للإطلاع عليه بعد أن اعتذرت الجهة المختصة عن التصوير، فوجدت أن الديوان المشار إليه يعود إلى شاعر عاش في القرن العاشر الهجري يدعى (أبو بكر محمد العباس الطبرخزي الخوارزمي البكري)، وجلّ شعره في التصوف الإسلامي، وقد نسب الديوان خطأً إلى أبي بكر الخوارزمي في فهرس جامعة كامبرج.

3) كتاب الأمثال المولدة:

كتاب جمع فيه الخوارزمي أمثالاً استحدثها مولدو العصر وأبناء الدولة العباسية من أهل بغداد وغيرها من العراق ودمشق وذواتها من الحجاز[1].

ويصف الخوارزمي أمثاله فيقول[2] "وهي قريبة إلى الفهم، عذبة على اللسان ومقبولة في العقل، لا يجهلها العامة ولا يتكبر عنها الخاصة، وأكثرها مرسلة لا يعرف أصحابها لإتيان الزمان على ذلك، ولأن كلام العرب تقيده الأفهام، ولا تشغل بتخليده الأقلام، ولا يجري في الضبط والرواية مجرى كلام العرب الذين حفظوا أنسابهم فوعوها، وأيقنوا أن الأشعار دواوينهم فرووها، فأخذها الباقي عن الماضي وتلقفها المستفيد عن الراوي حتى وصلت إلينا فأودعناها الكتب وشغلنا بها الخواطر".

توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في مكتبة فيض الله في تركيا برقم (2133) ضمن مجموع حوى عدداً من كتب الثعالبي، ويتضمن هذا المجموع الكتب التالية: كتاب الأمثال، كتاب منتخب سنن العرب وكتاب تحسين القبيح، وتقبيح الحسن، وكتاب تحفة الوزراء، وكتاب المبهج ومواسم العمر، وسر الحقيقة، ووردت عبارة على الغلاف تقول "كلها للثعالبي رحمه الله".

---

(1) الأمثال المولدة/ 3- ب.

(2) المصدر السابق 3- ب.

وجاء في آخر كتاب الأمثال ما نصه[1] آخر كتاب الأمثال جمع أبي بكر الخوارزمي، وصلوات الله وسلامة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وقع الفراغ من نسخه في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة اثنين وأربعين وأربعمائة، وكان الفراغ من هذه الأحرف التالية في العشر الأوسط من شعبان سنة ثمان وعشرين بعد الألف من الهجرة".

وفي معهد جامعة الدول العربية بالقاهرة فيلم مصور لهذا المخطوط تم تصويره سنة 1949، وهو يمثل نموذجاً سيئاً للتصوير ذلك أن صفحات عديدة منه غير مصورة، وان كثيراً من الصفحات قد صور نصفها الجانبي وترك الآخر وكنت قد حصلت في أثناء زيارتي للقاهرة على نسخة من هذا الفيلم فاستنسختها وعمدت إلى مقابلتها مع النسخة الأصلية باستانبول وأكملت النواقص، فحصلت لدي نسخة تامة من هذا المخطوط.

ومن القدماء الذين ذكروا هذا الكتاب أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر قال معلقاً على بيت شعر للخوارزمي[2]:

"وعاش إلى أن يترك الناس مدحه ومن ذا الذي يرجو إياب المثلم

وفي الأمثال: لا أفعل كذا حتى يعود المثلم". وهو مثل استشهد فيه الخوارزمي على الأمثال التي سارت في أقاليم محددة ولم يكتب لها الشيوع، وروى قصته[3] كما نقل عنه في كتابه (الكناية والتعريض) فقال[4]:

"... وذكر الطبري في كتاب الأمثال المولدة: أنه يقال للسكران إذا بلغ غاية

---

(1) الأمثال المولدة/ 67.

(2) اليتيمة 4/ 220.

(3) الأمثال المولدة 7/ أ.

(4) الكناية والتعريض/ 50.

السكر: قد عبر موسى البحر" وقد ورد هذا المثل في ورقة (20- ب) من كتاب الأمثال وجاء فيه "فإذا ذكروا أن السكران قد بلغ أقصى غاية سكره وطفح قالوا قد عبر موسى البحر، أي جاوز حد العقل إلى حد الجهل".

كما نقل الثعالبي عنه في كتابه "ثمار القلوب" ولكنه لم يذكر اسم الكتاب، وقد اختصر فيه ما كتبه الخوارزمي عن أيام العرب. يقول الثعالبي[1] ...قال أبو بكر الخوارزمي: فيما يقولون "ما يومي من فلان بواحد": أي ما الشر علي منه من جهة واحدة والغالب في اليوم أنه لا يذكر إلا في الشر، كقوله سبحانه وتعالى: "وذكّرهم بأيام الله" أي عقوبته ووقائعه في أعدائه.

وقالوا في الدعاء: أراني الله يومك، ويوم عبيد يوم قتله ويوم العنز يوم ذبحها؛ وأنت إذا نظرت إلى قولهم: يوم البسوس وهو يوم بكر وتغلب، ويوم تحلاق اللمم وهو بينهما، ويوم الفجار وهو بين كنانة وقيس، ويوم النباج، وهو بين أسد وتميم وعامر... حتى عد أكثر من مائة يوم، ثم قال، فإذا نظرت من الأيام إلى يوم بدر وأحد، والخندق وحنين... حتى عد أيام المغازي كلها ثم قال: فإذا نظرت بعدها في يوم اليمامة على حنيفة، ويوم الحيرة لخالد على بني بقيلة، حتى عد أكثر وقائع الإسلام، علمت أن ذلك أكثر من قولهم، يوم الشورى، ويوم بركواء".

وقد ورد ذلك مفصلاً في كتاب الأمثال المولدة 47/ ب-49/ ب.

ولعل في هذا ما يثبت نسبة الكتاب لأبي بكر الخوارزمي، وينفي نسبته للثعالبي الذي صنف كتاباً في الأمثال مختلفاً عن هذا الكتاب في مادته ومنهجه.

يقع الكتاب في تسع وستين ورقة تحتوي كل صفحة على حوالي سبعة عشر سطراً. قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أجزاء، ورتبه على أبواب بعد مقدمة مسهبة تناول

---

(1) ثمار القلوب/ 640.

فيها دواعي تصنيفه للكتاب، وحدد منهجه وعرف فيه المثل. جاء في المقدمة[1]... ثم إن هذا الكتاب صنفناه نداري به الزمان، ولجانس به الوقت ولكل زمان تصنيف يحكيه، وفي كل وقت علم يقتضيه، وربما ضاق الوقت عن صرف الجد، وجل عن كل الهزل، فاحتيج إلى سلوك طريقة بينهما، ولكل مقام مقال.

ونحن نخرج من عهدة هذا الكتاب، ونبرأ إلى الناظر فيه من عيبه عنده، ونكشف له عن صورته، ليكون نظره فيه عن بصيرة، وتركه عن معرفة، فإنه إن طلبه غير عارف بفضله كان مقلداً، وإن رفضه دون إقامة الحجة في رفضه كان متحاملاً متعصباً.

ثم يبين لنا منهجه في الجمع والتأليف، ومصادر الأخذ فيه فيقول:[2] هذا- أرشدك الله- كتاب التقط من أفواه الشطار والعيارين، وجمع في مجالس المغنين والمضحكين[3]، وروى من البم[4] والزير وحصل في أثناء البرابط[5] والمزامير، وسمع أكثر ما فيه من السؤال والسائلة، وتلقف من بين كلام الظرفاء والصوفية، فإن طالبتنا في أسانيدة باسم الحسن البصري وبالرواية عن بكر بن عبد الله المزني، وبالمراسيل من قرقد السبخي، والسماع عن محمد بن كعب القرضي، وقتادة بن دعامة السدوسي أو أحدثنا في أبياته برواية الأصمعي واختيار المفضل الضبي، وتصحيح أبي عثمان المازني، وإجازة محمد بن المستنير النحوي، وابن عبد الله بن الأعرابي، أو أردت منا في أمثاله أن يكون من حكم أكثم بن صيفي، وأمثال بيهس الفزاري، أو نوادر عامر بن الظرب العدواني، وعمرو بن حممة الدوسي، كنت قد طالبتنا بما نعيا عنه، وتحكمت علينا بما نعجز عنه وكل شيء من معدنه يجلب، وكل متاع من قرارته يطلب.

---

(1) الأمثال المولدة/ 2-ب.

(2) الأمثال المولدة/ 2-ب.

(3) المصدر السابق/ 2-ب.

(4) البم والزير: من أوتار العود وأراد بهما ضاربي البم والزير.

(5) البربط: ملهاة تشبه العود (فارسية معربة).

وقدم الخوارزمي اعتذاراً عن هذا المنهج، يلمح الدارس من خلاله تمسكه بالقديم واحترامه له، رغم ما تفرضه ظروف الحياة الاجتماعية والاتجاه الذوقي العام فيقول[1]:

"ونحن نعتذر إليك من الحاجة إلى جمع هذا الكتاب بما عليه جل أهل هذا الزمان، وخدم السلطان من الميل إلى الأدب الرطب لسهولته والنفور عن الأدب اليابس لوعورته، حتى أن أحدهم يتطير من شعر أهل الجاهلية، ويتبرم بعويص النحو واللغة، ويضرب "قفا نبك" مثلاً لكل مبتذل، ويجعل "عفت الديار" معياراً لكل متروك مهمل، قال بعضهم:

خلقنا على باب الأمير كأننا (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل)[2]

وقال الآخر:

خلقنا عنده حتى كأنا (ألا هبي بصحنك فأصبحينا)[3]

وقال آخر:

وأرزاقنا لا تستبين وجوهها (لما نسجتها من جنوب وشمال)[4]

أما أبواب الكتاب بعد المقدمة فهي التالي:

1- باب الوصف والإبلاغ.

2- باب في حسن الاستعارة والتمثيل.

3- باب ما يجري مجرى العظة والحكمة من كلام المولدين والإسلاميين.

---

(1) الأمثال المولدة/ 3-أ.

(2) مطلع معلقة امرئ القيس.

(3) مطلع معلقة عمرو بن كلثوم.

(4) عجز بيت في معلقة امرئ القيس.

4- باب في المواعظ والأمثال.

5- باب في شتم الرجل والدعاء عليه.

6- باب مدح الرجل والشفقة عليه.

7- باب في تفاريق المجون والتشبيه.

8- باب آخر في مثل ذلك.

9- باب في تناول المولدين واستعاراتهم.

10- باب جماع آداب الأمثال في الهزل والمجون وما يجري مجراها.

11- باب آخر فيما يجري هذا المجرى من الهزل.

12- باب آخر في الأعداد ما تدخل الهزل.

13- باب آخر في الهزل في الاستعارة.

14- باب من الهزل في أمثال السؤّال.

15- باب افعل من كذا.

16- باب آخر في التشبيه في كأن وكما.

17- باب (لم يسمّه، وقد يكون بسبب من سهو النسّاخ).

18- باب ما جاء من ذلك في القرآن الكريم، وضربت بها الأمثال.

19- جماع أبواب الأمثال التي تفرد بها أهل بغداد.

20- باب لهم فيما يجري مجرى العظة والتمثيل.

21- باب لهم فيه حسن الاستعارة هزلاً وجداً.

22- ما جاء في الأشعار والأخبار السائرة.

23- باب الأراجيز.

وتكمن أهمية الكتاب في كونه مصدراً من مصادر دراسة الأمثال في العصر

العباسي ويساعد على كشف كثير من العادات والتقاليد، ذلك أن أمثال العصر صورة ناطقة للحياة الاجتماعية، ويزيد من أهميته أنه عمد فيه إلى تدوين الأمثال التي يتداولها الأدباء والظرفاء والسابلة، والسؤّال والغرباء والمغنون، وأغلبهم من العامة.

ومن الجدير بالذكر أن الميداني قد استوعب في كتابه 'مجمع الأمثال' أغلب ما ورد في كتاب الأمثال للخوارزمي، ويبدو أنه كان واحداً من مجموعة كتب الأمثال التي رجع إليها، ونخل فصولها وأبوابها[1] فقد نقل من الأمثال المولدة- في بعض الحالات- التعليقات والشروح التي وردت في أمثال الخوارزمي، ولعل أبلغ دليل على الأخذ من غير اشارة إلى المصدر ما أخذه في الباب التاسع والعشرين وهو الباب المخصص لأيام العرب- فقد نقل أيام الإسلام من 25-87[2] بتسلسلها وبألفاظها كما أوردها الخوارزمي، هذا غير ما نقله بألفاظه دون تسلسله في أيام العرب الأخرى.

4- كتاب شرح ديوان أبي الطيب المتنبي:

أغفل الثعالبي الإشارة إلى عدد من مؤلفات الخوارزمي، ولم ينسب منها إليه صراحة غير ديوان شعره، وديوان رسائله[3]. وقد ورد ذكر كتاب الأمثال المولدة بطريقة عابرة- كما بينا-.

وكتاب شرح ديوان أبي الطيب المتنبي أحد المؤلفات التي أغفل ذكرها الثعالبي، ولا نعلم سبباً لذلك. وليس بين أيدينا ما يشير إلى تعمد الثعالبي في هذا الإغفال، فقد عرف عنه أكباره وتقديره لشيخه. وليس هذا الكتاب مما يصح إغفاله أو تجاهله، ذلك

---

(1) مجمع الأمثال 1/ 4 يقول: حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتاباً. ونخلت ما فيها فصلاً فصلاً وباباً باباً.

(2) المصدر السابق 2/ 445-448.

(3) اليتيمة 4/ 194.

لما لشعر أبي الطيب من أهمية في ذلك العصر، ولما لشروحه من أهمية في ترجيح كفة على أخرى في الصراع الدائر حول الشاعر وشعره.

وقد تابعت جل المصادر الثعالبي في إغفاله أو تغافله، ولم نجد من يذكر للخوارزمي كتابه من المتقدمين سوى العكبري، فقد جاء في مقدمة كتابه[1].

"وجمعت كتابي هذا من أقاويل شراحه الأعلام، معتمداً على قول إمام القول المقدم فيه، الموضح لمعانيه، المقدم في علم البيان أبي الفتح عثمان، وقول إمام الأدباء، وقدوة الشعراء أحمد بن سليمان بن أبي العلاء، وكتاب أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي"... وقول جماعة كأبي علي بن فورَّجة، وأبي الفضل العروضي، وأبي بكر الخوارزمي وأبي محمد الحسن بن وكيع، وابن الإفليلي، وجماعة، وسميته "التبيان في شرح الديوان".

ويبدو أن العكبري قد أفاد من روايات الواحدي عن الخوارزمي مثل ما أفاد من شرح الخوارزمي نفسه، فقد أخذ عنه في تسعة عشر موضعاً خمسة عشر منها في موضوع الرواية[2]، والأربعة الأخرى تتناول شرح الأبيات[3]

أما الواحدي، وهو تلميذ أبي الفضل العروضي فقد أفاد من شرح الخوارزمي ولكنه لم يذكر اسم الكتاب، ولم تكن إفادة الواحدي مقصورة على الشروح والروايات ولكنه أفاد، من منهج الخوارزمي في الشرح أيضاً، فقد أورد أربعة عشرة رواية منسوبة للخوارزمي[4] يرجحها تارة ويرجح غيرها عليها تارة أخرى، ويورد معها أحياناً شرح الخوارزمي للبيت.

---

(1) التبيان المقدمة– ج– د–.

(2) التبيـــان 1/ 21، 73، 155، 205، 225، 227، 343، 2/ 18، 63 و124، 158، 211، 236، 237، 264 و267.

(3) التبيان 1/ 246، 338، 2/ 168، 364.

(4) انظر شرح الواحدي 1/ 79، 122، 184، 197، 277، 278، 354 و355، 366، 388، 445، 572.

أما الشروح فكان يستعين بها على تفسير النص، وغالباً ما يفتتحها بقوله "وكان الأستاذ أبو بكر الخوارزمي يقول"... ثم يورد الشرح وقد خطأ الواحدي ابن جني، وأبا علي الفارسي فيما ذهبا إليه في تفسير قول أبي الطيب[1].

كأنه زاد حتى فاض عن جسدي فصار سمعي به في جسم كتماني

ثم أورد شرح الخوارزمي للبيت وعقب على ذلك قائلاً: "والأستاذ أبو بكر فسّر هذا التفسير، وهو على ما قال"

ونقل الواحدي عن شيخه العروضي خمساً من الروايات والشروح التي يسندها إلى شيخه الخوارزمي[2]

ولم نجد لهذا الكتاب ذكراً بعد ذلك إلا عند البديعي في كتابه الصبح المنبي[3] فقد عدّد فيه شروح ديوان أبي الطيب وذكر من بينها شرح الخوارزمي وأتى به متأخراً مع أنه من أقدمها ولم يوضح طبيعة الشروح التي ذكرها فقال: "... وقد انتدب العلماء لديوانه وشرحوه شروحاً كثيرة لفهم من تكلم على ديوانه أجمع، ومنهم من تكلم على بعضه، فمن شروحه:

كتاب ابن جني، وهو أول من شرحه، وكتاب اللامع العزيزي لأبي العلاء المعري وكتاب معجز أحمد لأبي العلاء المعري وكتاب أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي... وكتاب أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي..."

وقد سار مؤرخو الأدب الحديث على نهج سلفهم، ولم يعرضوا في ترجمة الخوارزمي لغير ديواني شعره ورسائله. ومما تجدر الإشارة إليه أن المستشرق الألماني بروكلمان على شدة تتبعه لشروح ديوان أبي الطيب لم يذكر هذا الشرح.

---

(1) شرح الواحدي/ 88.

(2) المصدر السابق/ 288، 331، 753، 768.

(3) الصبح المنبي/ 268- 269.

ومن أوائل المستشرقين الذي عرضوا لهذا الشرح المستشرق الفرنسي بلاشير في كتابه "أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي"، لقد عدّ- الخوارزمي رأس مدرسة في شروح ديوان أبي الطيب وقرر[1] أن الديوان مفقود.

وقد اهتديت بعد بحث طويل إلى وجود نسخة خطية من هذا الكتاب في مكتبة دبلن بإيرلندا[2] وقد حصلت على نسخة مصورة (ميكروفلم) لهذا المخطوط وتبين لي أن المخطوط هو الجزء الثاني من شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي بكر الخوارزمي، فقد كتب على الصفحة الأولى: "الجزء الثاني من شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للخوارزمي".

أما كاتب هذا العنوان فهو أحمد بن شاهين القبرسي المعروف بالشاهيني[3] (995- 1053هـ- 1587- 1643م) أديب شاعر ناب في القضاء بدمشق وتولى قضاء الركب الشامي سنة 1030هـ وكتب بالخط نفسه أبياتاً من شعره ونص على ذلك بقوله:

"ولكاتبنا أحمد بن شاهين": ثم كتب ثلاث مقطوعات شعرية تتكون الأولى من ستة أبيات مطلعها:

أي ذنب لي قل لي غير حظ منك قلّ

وقد وجدت المقطوعة ذاتها منسوبة إليه في كتاب نفحة الريحانة[4] مما يؤكد صحة نسبة الشعر إليه وكتب في الطرف الأيسر من الصحيفة ذاتها بيتين لابن نباته

---

(1) أبو الطيب المتنبي/ 476- 477، وتابعه الدكتور محسن غياض/ المورد م: 4ع: 4/ 1975.

(2) يعود الفضل في ذلك إلى أستاذي الدكتور علي الزبيدي الذي لم يتوان عن تقديم المعلومات الأولية وزودني برقم المخطوط في المكتبة.

(3) انظر ترجمته في تراجم الأعيان 1/ 139 خلاصة الأثر 1/ 210، ريحانة الإلباء 1/ 228 ونفحة الريحانة 1/ 96.

(4) نفحة الريحانة 1/ 130.

المصري يتغنى فيهما بجمال دمشق، ويبدو أن هذا المخطوط كان- فيما مضى- ملكاً لهذا الرجل وقد تضمنت الصفحة الأولى من الورقة الثانية ترجمة لأبي الطيب المتنبي، نصّ كاتبها في نهايتها على أنها ملخص من تاريخ القاضي شمس الدين بن خلكان، ويختلف هذا الخط اختلافاً كبيراً عن الخط الذي في الورقة الأولى، كما يختلف عما في المخطوط. ومن المرجح أن هذه الترجمة قد ألحقت بالمخطوط بعد زمن طويل من استنساخه.

يقع المخطوط في مائتي ورقة من الحجم الكبير، ويبدو أن ناسخين قد تعاونا على نسخة، فالأوراق من (3- 101) بخط واحد وما بعدها بخط ناسخ آخر (من 101- 139) ثم يكمل الناسخ الأول ما بقى حتى النهاية وقد قدر الدكتور حسين محفوظ أن هذا الخط يعود إلى منتصف القرن الخامس أو بداية السادس.

يبدأ الشرح في هذا المخطوط بهذه العبارة (للعقلاء ومن هذا الباب قول الله تبارك وتعالى ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وهي بقية شرح بيت أبي الطيب:

حالفته صدورها والعوالي فليخوضن دونه الأهوالا

من قصيدته في مدح سيف الدولة التي مطلعها:

ذي المعالي فليعلون من تعالى هكذا هكذا والا فلالا

ويبدأ بعد ذلك بشرح قوله:

وليمضنّ حيث لا يجد الرمح مداراً ولا الحصان مجالاً

ويمكن أن نستدل بأن ورقة قد سقطت من هذا المخطوط تحتوي على الأبيات الخمسة الأولى من القصيدة، وأن ناسخاً آخر هو الذي كتب ترجمة أبي الطيب في مقدمة المخطوط، ولعل في هذا ما يدل على أن مالك المخطوطة لم يكن لديه الجزء الأول منها ولو كان عنده الجزء الأول، لاكتفى بالترجمة له في مقدمته.

وقد رتبت القصائد في الديوان حسب أشخاص الممدوحين، فالسيفيات

والكافوريات، ومدائح فاتك ومراثيه، ثم قصائده في مدح عضد الدولة، والعميديات ثم يعود مرة أخرى إلى قصائده في مدح عضد الدولة، وفيما يلي جدول بمطالع القصائد بحسب ما وردت في المخطوط:

(السيفيات)

ذي المعالي فليعلون من تعالى	هكذا هكذا، وإلا فلا لا
رأيتك توسع الشعراء ذماً	حدثيهم المولد والقديما
ذكر صبا ومرابع الآرام	جلبت حمامي قبل وقت حمامي
الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو أوّلٌ وهي المحلُّ الثاني
يا أخت خير أخ يا بنت خير أب	كناية بهما عن أشرف النسب
عُقبى اليمين على عقبى الوغى ندم	ماذا يزيدك في إقدامك القسم
ما لنا كلنا جو يا رسول	أنا أهوى وقلبك المتبول
فهمت الكتاب أبرّ الكتب	فسمعا لأمر أمير العرب

الكافوريات:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً	وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا
أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا	ولا أنا عن نفسي ولا عنك راضيا
إنما التهنئات للأكفاء	ولمن يدّنى من البُعداء
من الجآذر في زيِّ الأعاريب	حمر الحلى والمطايا والجلابيب
أودّ من الأيام ما لا تودّه	وأشكو إليها بيننا وهي جنده
يقل له القيام على الرؤوس	وبذل المكرمات من النفوس
أحق دار بأن تدعى مباركة	دار مباركة الملك الذي فيها
فراقٌ ومن فارقت غير مذمم	وأم ومن يممت خير ميمَّم

أنوك من عبد ومن عرسه ... من حكّم العبد على نفسه

حسم الصبح ما اشتهته الأعادي ... وإذاعته ألسن الحسّاد

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب ... وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من شأنه ما عنانا

عدوك مذموم بكل لسان ... ولو كان من أعدائك القمران

ملومكما يجل عن الملام ... ووقع فعاله فوق الكلام

متى كن لي أن البياض خضاب ... فيخفى بتبييض القرون شباب

من أية الطرق يأتي مثلك الكرم ... أين المحاجم يا كافور والجلم

أما في هذه الدنيا كريم ... تزول به عن القلب الهموم

لو كان هذا الآكل أزوادنا ... ضيفا لما وسعناه إحسانا

أتحلف لا تكلفني مسيراً ... إلى بلد أحاول منه مالا

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد ... لما مضى أم لأمرٍ فيك تجديد

جزى عرباً أمست ببلبيس ربها ... بمسعاتها تقرر بذاك عيونها

لأن تك طيىء كانت لئاما ... فألأمها ربيعة أو بنوه

لحى الله وردانا وأمّا أتت به ... له كسبُ خنزير وخرطوم ثعلب

أعددت للغادرين أسيافاً ... أجدع منهم بهن آنافاً

بسيطة مهلاً سقيت القطارا ... تركت عيون عبيدي حيارى

ألا كل ماشية الخيزلي ... فدا كل ماشية الهيدبي

وأسود أما القلب منه فضّيق ... نخيب وأما بطنه فرحيب

مدائح فاتك ومراثيه

لا خيل عندك تهديها ولا مال　　فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

الحزن يقلق والتجمل يردع　　والدمع بينهما عصي طيع

يذكرني فاتكاً حلمه　　وشيء من الند فيه اسمه

حتام نحن نساري النجم في الظلم　　وما سواه على خف ولا قدمِ

العميدات

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا　　وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

جاء نيروزنا وأنت مزاره　　وودت بالذي أراد رتاده

بكتب الأنام كتاب ورد　　فدت يد كاتبه كل يد

أحب امرئ حبّت الأنفس　　وأطيب ما شمه معطس

نسيت وما أنسى عتاباً على الصدِّ　　ولا خفراً زادت به حمرة الخدّ

في عضد الدولة:

أوه بديل من قولتي واها　　لمن نأت والبديل ذكراها

مغاني الشعب طيباً في المغاني　　بمنزلة الربيع من الزمان

أثلث فإنا أيها الطلل　　نبكي وترزم تحتنا الأبل

أزائريا خيال أم عائد　　أم عند مولاك أنني راقد

آخر ما الملك معزًّى به　　هذا الذي أثر في قلبه

قد صدق الورد في الذي زعما　　أنك صيرت نثره ديما

ما أجدر الأيام والليالي　　بأن تقول ماله ومالي

فدى لك من يقصِّر عن مداكا　　فلا ملك إذن إلا فداكا

وسأورد فيما يلي نماذج لهذا الشرح، من القصيدة التي كـان الخـوارزمي معجبـاً بها:

مـــن الجـــآذر في زي الأعاريـــبِ   حُمـر الحلـى والمطايـا والجلابيـب

من للاستفهام، ومعناه الإنكار والتعظيم، والجؤذر: ولد البقرة والزي:

اجتماع الزينة، وأصـله زوى لأنـه مـن قولـك: زويـت الشـيء إذا جمعتـه، ويقـال في تصريف الفعل منه تزيا، والأصل تزوى.

الأعاريب: جمع الجمع، يقال عرب وأعراب، وأعاريب، والجلباب درع واسـع تلبسـه المرأة، وجمعه جلابيب وجلايب.

شبّه النساء بالجآذر فقال: من هؤلاء الجاذر التي خرجت في زي العرب ثم جعلها حمـر الحلي والمطايا والجلابيب، وذلك لأن أشرف الحلى الحمر من الذهب واليواقيـت، وأشرف المراكب حمر النعم، وأشرف ملابس النساء الجسدات[1] والمعصفرات

إن كنـــت تســـأل شـــكا في معارفـــا   فمـــن بـــلاك بتســـهيد وتعـــذيب

هذا استفهام في الأول نفسه، فقال: إن كنت تسأل عنهن شكاً منك في معرفتهن فهن من فتنّك ومن بلاك بالتسهيد والتعذيب، وانتصاب شكاً على التمييز أو على أنـه مصدر لعلة، المعارف: جمع المعرفة، وإنما جمع المصدر لاختلاف وجوهها ويجوز أن يعني بالمعارف الوجوه، لأن الوجه سمي معرفاً، لأن المعرفة تقع بها وقوله: مـن بـلاك إنمـا وحده حملاً على لفظ (من) كقوله تعالى "ومنهم من يستمع إليك" والبيـت علـى طريقـة عبد بني الحسحاس:

يعـــدن مريضـــا هـــنَّ هـــيجن داءه   ألا إنمـــا بعـــض العوائـــد دائيـــا

أزورهـــم وســـاد الليـــل يشـــفع بـــي   وأنثني وبيـاض الصبح يغـري بـي

---

(1) الجسدات: جمع مجسد: قيل هو الثوب الأحمر أو المطلي بالزعفران.

هذا البيت أحسن ما اخترع في هذا المعنى، وقد أتى به جماعة ممن تقدمه فلم يوفوا حقه، وذلك إنما استوفى الغرض في أحسن لفظ وأعذب عبارة، فجعل سواد الليل شفيعاً له، وبياض النهار مغرياً به وقد قال الأول إلاّ إنه لم يأت به على هذا الحال، فإنه اقتصر على ذكر الليل فقال:

قالت الليل موعد لك منا   فارقب الليل إن أردت اللقاء

وجاء ابن المعتز فجمع بينهما فقال:

"الشمس نمامة والليل قواد"

إلا أن في لفظه سخفاً، والمتنبي تناول هذا المعنى من الحضيض فعلا به على السماك، وصار أولى به من الأول.

نخلص من ذلك كله إلى ما يلي:

1- ليس لدينا ما يثبت عنوان الكتاب كما وضعه مؤلفه، ومن المرجح أن يكون العنوان هو المدون على المخطوط "شرح ديوان أبي الطيب المتنبي" لا سيما أن كاتب العنوان من المعروفين في عصره بالأدب.

2- أن الكتاب هو من تأليف أبي بكر الخوارزمي، ولعل ما دوّن على المخطوط من نسبة الكتاب إلى مؤلفه مما يساعد على إقامة الدليل على صحة نسبته.

ثم إن الكتاب يخلو من ذكر أي من شراح ديوان أبي الطيب سوى ابن جني الذي ورد ذكره مرتين، ليس فيهما نقل عن شرحه ولكن في الاستدلال على بعض الوقائع وفي هذا ما يدل على تقدم صاحبه، ولو كان متأخراً لاضطر إلى الاستعانة بشروح غيره في فهم النص، أو الرد على ما يراه مجافياً للمعنى.

كما أن المخطوط يكاد يخلو من الروايات المتعددة، وهذا يعني أن الشارح كان قريب الصلة بالمتنبي، واعتمد رواية واحدة ولو كان متأخراً لاضطر إلى تناول الروايات، وترجيح بعضها على بعضها الآخر.

3- أن الخوارزمي قد شرح الديوان كله، وأن الجزء الأول من الديوان، الذي ما يـزال مفقوداً يحتوي على القسم الأكبر من الشرح.

4- يكتسب الكتاب أهميته لكونه واحداً من أقدم شروح ديوان أبي الطيب إذا لم نقل أنه كان أقدمها، فقد عاصر الخوارزمي المتنبي وجمعهما بلاط سيف الدولـة وحضـر الخوارزمي مجلسه ولعله قد قرأ عليه شعره، وكان الخوارزمي يكبر ابن جـني عمـراً كان الأخير دون العشرين من عمره حين غادر المتنبي بلاط سيف الدولة الحمداني، ومع أننا لا نعرف التاريخ الذي شرع فيه الخـوارزمي في تـأليف كتابـه، إلا أن مـن المحقق أنه قد انتهى منه بعد مقتل أبي الطيب، بدليل شـرحه للـديوان كـاملاً، ومـا دمنا لا نعرف الزمن الذي بدأ فيه ابن جني بشرح ديوانه، ولا نعرف وقـت انتهائـه على وجه التحديد فإن بالمستطاع أن نقول أن الكتابين قد ألفا في وقت واحد. كمـا يكتسب الكتاب أهميته لأن صاحبه قد عـدّ رأس مدرسـة في شـروح ديـوان أبـي الطيب، ومن المؤكد أن تلاميذه قد تـأثروا بـه في شـرحه كـالهروي، وأبـي الفضـل العروضي وتلميذه الواحدي وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الهراشي.

أما خصائص هذه المدرسة فقد تجلت في هذا الشرح من خلال:

(1) ما تحلى به المؤلف من موضوعية في الشرح والتحليل، فلـم يتحامـل علـى المتنبي كما فعل الصاحب والحاتمي، ولم يتعصب له كما فعل ابن جني، ولكنه لم يستطع أن يخفي إعجابه بما في شعر أبي الطيب من جزالة ومتانة، وما فيـه من صور وكنايات وتشبيهات.

(2) لم يقصر الشارح اهتمامه بالشروح اللغوية كما فعل ابن جني، ولكنه تناول فيه شروحاً لغوية ونحوية وأدبية وصرفية.

5- كتاب الأمالي: انفرد بذكره الميداني[1] في تفسير قولهم: "لا أفعل كذا ما غبا غبـيس"

(1) مجمع الأمثال 2/ 239.

يقول... ورأيت في أمالي الخوارزمي أن معنى غبا: أظلم والغبيس من أسماء الليل...".

وقد يكون المقصود هو كتاب الأمثال الذي تحدثنا عنه فيما سبق، وأن تصحيفاً قد أصابه.

ولعل هذا الكتاب هو ما أشار إليه تلميذه الحسن بن أحمد الطبسي النيسابوري في رثائه حين قال[1].

يا أهل خارزم من يعزي أنتم أم الجد والمعالي

أم القوافي أم المذاكي أم التعاليق والأمالي

وليس غريباً أن يكون لمثله هذا الكتاب، وهو رجل اتخذ التدريس مهنة وربما جمع في كتاب ما كان يمليه على تلاميذه من العلوم والآداب.

6- مفيد العلوم ومبيد الهموم: طبع هذا الكتاب طبعتين: الأولى سنة 1906م-1323هـ والثانية سنة 1909م، 327هـ، وقد نسب الكتاب إلى الشيخ جمال الدين أبي بكر الخوارزمي.

وقد نسب السيد يوسف إليان سركيس[2] هذا الكتاب إلى أبي بكر الخوارزمي بعد ترجمة له، ذكر فيها أنه ولد سنة 316، وقال عنه الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي وأشار إلى ما ذكره حاجي خليفة من نسبة الكتاب إلى بعض المغاربة[3].

يتناول الكتاب موضوعات كثيرة ومتشعبة، يقول مؤلفه في المقدمة[4] "... من كان له

---

(1) إنباه الرواة 1/ 277.

(2) معجم المطبوعات العربية والمعربة/ 838- 839.

(3) كشف الظنون 2/ 1772.

(4) مفيد العلوم ومبيد الهموم 6-7.

هذا الكتاب لا يضيق صدره أبداً، ويعرف به قواعد الشرع، وقانون نصرة الممالك، ونصرة المذهب، ورد الخصم، وتذكر الآخرة، وقاعدة العدل، وعاقبة الأمور، ونذير العدو إلى غير ذلك... وسميته مفيد العلوم ومبيد الهموم ورتبته على اثنين وثلاثين كتاباً.

والكتاب ليس لأبي بكر الخوارزمي الذي نحن بصدد دراسته ذلك أن الكتاب قد ألف بعد وفاة الخوارزمي، يدلنا على ذلك ما ذكرة المؤلف في الباب الثاني من كتاب سير الملوك[1] يقول:

قرأت في سير السلطان الغازي محمود بن سبكتكين رحمه الله..." ومن المعروف أن السلطان محمود بن سبكتكين قد توفي في سنة 421هـ.[2]

ثم أن مؤلف الكتاب رجل من أتباع السنة الأشعرية، والخوارزمي شيعي متعصب، يقول المؤلف[3] "افترقت الأمة من أهل القبلة على اثنين وسبعين فرقة، أهل الحق منهم السنة الأشعرية ومن سواهم فضلال".

ويقول في مكان آخر[4]: "قال النبي ﷺ ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها فرقة. (اعلم) أن الناجي من هذه الأمة أهل السنة والجماعة وذلك بفتوى النبي ﷺ، لما سئل: من الناجي؟ فقال: ما أنا عليه وأصحابي، وكان على السنة والجماعة، دون البدعة والمخالفة" وقد استشهد مؤلف الكتاب بقول مأثور للخوارزمي[5] من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وأهاجي الحطيئة،

---

(1) المصدر السابق/ 344.

(2) الكامل في التاريخ 9/ 398.

(3) مفيد العلوم/ 18.

(4) المصدر السابق/ 335.

(5) مفيد العلوم/ وانظر مطالع البدور في منازل السرور/ 1/ 214.

وهاشميات الكميت ونقائض جرير[1] وخمريات أبي نواس وتشبيهات ابن المعتز،....إلخ.

وعليه فالكتاب ليس للخوارزمي، وقد وهم السيد سركيس بهذه النسبة ولم أستطع من خلال ما بذلته من جهد التعرف على مؤلف الكتاب ذلك أن كتب التراجم لم تسعفنا في معرفة شخصية المؤلف.

7- المكارم والمفاخر: طبع هذا الكتب في القاهرة سنة 1354هـ- 1935م وقام بنشره السيد عزة العطار، سكرتير لجنة الشبيبة السورية بالقاهرة آنذاك، وقد نسب الكتاب إلى أبي بكر الخوارزمي، وترجم له في المقدمة، وقد استند في نسبته إلى الخوارزمي إلى طريقة الكتابة، وأسلوب التراكيب اللتين اشتهر بهما الخوارزمي يقول: وقد عثرنا على رسالة صغيرة باسم (المكارم والمفاخر) منسوبة إلى الخوارزمي ومع أننا لا نملك من الأدلة ما يثبت صحة نسبة هذه الرسالة إلى الخوارزمي. نكاد نجزم أنها لا بد أن تكون من إنشائه ووضعه، لأن طريقته في الكتابة، وأسلوبه في التراكيب يتجليان في إنشاء الرسالة وأسلوب تأليفهما".

وقد تبين لي أن هذا الكتيب مستل من كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم المنسوب إلى جمال الدين أبي بكر الخوارزمي، وهو الكتاب السابع عشر منه[2] ويبدو أن الناشر قد أضله اسم الخوارزمي الذي نسب الكتاب إليه، فلم ير حرجاً من نسبته لأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي. وقد وضح لنا أن كتاب "مفيد العلوم ومبيد الهموم ليس لأبي بكر الخوارزمي".

8- رسم المعمور من البلاد: نسب هذا الكتاب إليه البغدادي في كتابه هدية

---

(1) وقلائص جرير وفيه تصحيف.

(2) مفيد العلوم ومبيد الهموم/ 227- 247.

العارفين[1]، وعمر رضا كحاله في معجم المؤلفين[2]، كما نسبه حاجي خليفة[3] إلى الخوارزمي ولم يسمه. وقد وهم هؤلاء في نسبة الكتاب إليه، ذلك أن عنوان الكتاب يشير إلى أنه يتناول علم البلدان، ولم يعرف لأبي بكر مثل هذا الاتجاه وأرجح أن يكون مؤلفه محمد بن موسى الخوارزمي الذي اشتهر بالفلك والرياضيات، والكتاب مفقود.

9- كتاب المناقب: ذكر هذا الكتاب الشرواني[4] ونقل عنه حكاية تقترب من الأسطورة، تظهر شدة العذاب الذي لقيه عبد الرحمن بن ملجم لما اقترفت يداه من فعل أثيم بقتل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. يقول الشرواني:

"ومن كتاب المناقب لأبي بكر الخوارزمي قال: قال أبو القاسم بن محمد...الخ".

وقد جمع محقق كتاب (المناقب) لمؤيد الدين الخوارزمي، السيد محمد رضا الخرسان أسماء الكتب التي ألفت في مناقب علي بن أبي طالب من غير الشيعة فكان منها ما أسماه "مناقب علي بن أبي طالب- لأبي بكر الخوارزمي المتوفى سنة 383" ويبدو أن السيد الخرسان قد وهم في مذهب الخوارزمي هذا.

ولا يبعد أن يكون للخوارزمي مثل هذا الكتاب، لما عرف به من تمسك بمذهبه وعمل لنصرته. ولكننا لم نعثر على هذا الكتاب.

---

(1) هدية العارفين 2/ 57.

(2) معجم المؤلفين/ 119.

(3) كشف الظنون 1/ 902.

(4) حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح/ 95.

الفصل الثالث

شعره

شعره

مقدمة

لم يبق لنا من شعر الخوارزمي غير ما احتفظت به يتيمة الدهر وما تناثر في كتب الثعالبي الأخرى، وما استطعت جمعه من المصادر المختلفة فقد سبق أن أشرت إلى ضياع ديوانه، وهذا يعني أن الدراسة ستقتصر على ما بقي من شعره، وأغلبه مقطعات من قصائد لا نستطيع معرفة القدر الضائع منها، ولا الأغراض الواردة فيها، كما لا نستطيع تحديد القدر الضائع من قصائد الديوان.

وليس من ريب أن فقدان الديوان سيعود على هذه الدراسة بكثير من الخسران، ولن يكون النقص إلا حليفها، لأن الباحث لا يستطيع أن يتوصل إلى نتائج مرضية عبر معلومات ناقصة مبتورة، ذلك أن كثير من أشعاره المتناثرة، قد دونت للاستشهاد بها على أغراض محددة، يقتطع لأجلها بيت أو أبيات من قصيدة تخدم ذلك الغرض، ويبدو أن الضائع من شعره كثير، ذلك أنه قال الشعر مبكراً فقد فارق وطنه في ريعان عمره، وحداثة سنه، وهو قويم الأدب نافذ القريحة حسن الشعر[1] وعاش بعد ذلك حياة طويلة زاخرة، اتصل خلالها بالحكام والولاة في الشام والعراق وفارس وما وراء النهر، ودبّج فيهم قصائد المدح ليأخذ عطاياهم وينال حُظوتهم، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أننا لم نعثر له على بيت واحد في مدح سيف الدولة الذي عاش في بلاطه حقبة من الزمن، وأنى له أن يأخذ رفده من غير أن يقدم شيئاً مما عنده، وما كان له من بضاعة غير الأدب، وغير قصائد يقدمها بين يدي ذلك الأمير لينال بها استحسانه، ويدخله في حاشيته. كما لم نعثر له على بيت واحد في مدح البلعمي الذي رافقه مدة من الزمن، بعد عودته من الشام، وكان إذ ذلك قوى العود يتدفق قوة وشباباً، وتطفح آماله بنوال الأمير، ويرتجي منه رفعة، وعلو منزلة، وما بغير قصائد المدح يتواصل حبل الود بين

(1) اليتيمة 4/ 204.

الشاعر والسلطان. ولم يبق لنا من ثمرات تلك الصحبة غير بيتين في هجاء البلعمي دونهما صاحب اليتيمة.

وقد ضاع شعره في مدح والي سجستان وأميرها خلف بن أحمد الذي توطدت- علاقته به، ولم يبق من مخلفات تلك الصلة غير قصيدة الشكوى والألم والاستغاثة التي بعث بها إلى أبي نصر الميكالي، وهي تعد بحق من أجود ما ترك من شعر لما فيها من عاطفة صادقة تنم عن ألم وحرقة. ولم يبق لنا من شعره في مدح بني شار غير أبيات لا يعتد بها كثيراً في دراسة شعره. كما أن ما بقي من شعره في مدح آل بويه ووزيرهم الصاحب بن عباد، لا يساعد كثيراً على معرفة النسق العام للقصيدة، ومقدار الترابط بين أجزائها، وطريقته في الابتداء والانتهاء وطبيعة المؤثرات الزمنية للشعر والتاريخ في بناء القصيدة، ورسم الصورة.

ويبدو واضحاً أننا قد فقدنا أكثر أشعار الخوارزمي، التي كان يكن أن تعيننا على دراسة شعره، واستخلاص التجربة الفنية فيه، وقدرته على الموازنة بين القديم والحديث، وأثر العوامل السياسية والاجتماعية في توجيه شعره ورسم مساره.

شاعريته والعوامل المؤثرة فيها

ولعل من الضرورة- قبل البدء في دراسة شعر الخوارزمي- أن نبحث في عوامل تكوين شاعريته، ومدى الأصالة فيها، ذلك أن قول الشعر، والتضلع من الأدب، من الأمور التي لا تستقيم بسهولة، ولا يرد حياضها كل من أراد، فكيف تسنى لهذا الرجل أن ينبغ في الشعر والكتابة. وأن يجد له مكاناً فيهما وقد نسله أبوان من غير العرب ونشأ في بيئة لمس المتنبي غربة العربي فيها. فعبر عن ذلك بقوله[1]:

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

(1) ديوان المتنبي بشرح الواحدي/ 766.

ومع إدراكنا لما كان للعربية من وجود فاعل ومؤثر لا سيما في دواوين الأمراء والولاة وما كانت تعنيه في أذهان هؤلاء القوم الذين شدهم الدين الإسلامي إلى العربية بأوثق الأسباب، وإدراكنا لأثر العوامل الاقتصادية والسياسية في الاتجاه إلى تعلم العربية، ودراسة آدابها ومحاكاة أهلها والاندفاع إلى منافستهم بها، إلا أن هذه العوامل كلها لا تكفي لإبطال الأثر التربوي والنفسي للغة الأم، وإن لم تكن إذ ذاك لغة البيت والشارع.

ونحن بدورنا لا نستطيع إهمال العامل الذاتي في الإبداع، ولا نستطيع إهمال الموهبة، ولكننا ندرك أن الموهبة وحدها لا تكفي وأن عوامل كثيرة لا بد أن تؤثر في صقلها لتضعها في الطريق المناسب. فهل كانت المدة القصيرة التي قضاها يافعاً في خوارزم، كافية لصقل تلك الموهبة، والتأثير فيها ذلك الأثر الكبير، بحيث استطاعت أن تخلق من الخوارزمي شاعراً وأديباً في العربية مشهوراً؟. ذلك ما نرتاب في مقدار صحته، فقد وضح لنا في أثناء دراسة حياته أنه قد رحل إلى العراق ولما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، ولم يكن له شيوخ مشهورون بحيث يتسنى لنا تحديد أثرهم في ميله واتجاهه ونبوغه، كما أن مدة بقائه في العراق لم تكن طويلة -كما نعتقد- وأن أثرها فيه كان محدوداً، ونحن نميل إلى أن بيئة الشام عامة وبلاط سيف الدولة في حلب كانا من أهم عوامل صقل موهبته فقد كانت هذه البيئة موئلاً للشعراء والأدباء، ومحطاً لرحالهم، جمع شعراؤها بين فصاحة البداوة، وحلاوة الحضارة، ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان، وبني ورقاء، وهم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين أداة السيف والقلم[1]

لقد أفلحت رحلة الخوارزمي، إذ وصلته بأشهر حاضرة من حواضر الأدب حينئذ، وكان ما يزال في ريعان عمره. وعنفوان أمره، قد دوخ بلاد الشام، وحصل من

(1) اليتيمة 1/ 25.

حضرة سيف الدولة بحلب في مجمع الرواة والشعراء، ومطرح الغرباء والفضلاء، فأقام ما أقام بها من أبي عبد الله بن خالويه، وأبي الحسن الشمشاطي وغيرهما من أئمة الأدباء، وأبي الطيب المتنبي، وأبي العباس النامي، وغيرهما من فحول الشعراء، بين علم يدرسه، وأدب يقتبسه ومحاسن ألفاظ يصيدها، وانقلب عنها، وهو أحد أفراد الدهر وأمراء النظم والنثر، وكان يقول: ما فتق قلبي، وشحذ فهمي وصقل ذهني، وأرهف حد لساني، وبلغ هذا المبلغ بي إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي وغصن الشباب رطيب ورداء الحداثة قشيب[1].

ولا نستطيع أن نغفل أثر العامل الذاتي في التثقيف، فقد درس الخوارزمي دواوين الأقدمين. وحفظ أشعارهم، وروى أشعار المحدثين. فكان ذلك عاملاً من عوامل يقظة الموهبة والإبداع لديه، فلا غرو بعد هذا أن تتشرب نفسه العربية ويسبر أغوارها، ويبذ فيها كثيراً من أقرانه في الشعر والنثر.

ويبدو الخوارزمي منحازاً إلى القديم ميالاً إليه، يألم لانكفاء القوم عنه، وابتعادهم عنه، وإهمالهم له. ولكنه يدرك أسباب الانكفاء والإهمال، "فالأدب آلة تنفق بطلب الطالب لها، ورغبته فيها، كما تكسد برغبته عنها، وانزوائه منها، فالمهمل إذا احتيج إليه مستعمل، والمستعمل إذا استغني عنه مهمل ولذاك ترك الناس ذكر الشيح والقيصوم، واقبلوا على ذكر النرجس والورد، وطووا ذكر الأثافي والرماد، والوقوف على الأطلال والأوتاد، إلى ذكر البساتين والأنهار والتعلل بالأنوار والأزهار، واغبوا ذكر زينب وعثمة، وأكثروا ذكر تحية ونزهة، إذ كان هذا أجرى على لسانهم، وأشبه بحكم زمانهم"، أما زمانهم، فقد امتاز بميل أهله عن الجد إلى الهزل والاهتمام بكل ما هو جديد، ويعود ذلك إلى استتباب الحضارة، وما يسرته من متع الحياة، وهيأته من

(1) اليتيمة 1/ 26.

ظروف اللهو والعبث وبروز عادات وتقاليد لم تكن مألوفة لدى القدماء، وانتشارهم في بيئات مختلفة عن بيئة الشعر القديم.

فلا غرابة أن ينفر القوم من القديم لما فيه من صرامة وجد وما يصوره من عادات وتقاليد، وبيئات تضاءلت تأثيراتها في حياتهم، وانقطع حبل الصلة بها، يقول الخوارزمي[1]:

"فبالجملة إن الناس بالزمان، والزمان بالسلطان والسلطان متصرف على حكم حاشيته وبطانته، وناظر بأعين كتابه وكفاته، وجلهم بل كلهم مائل عن مواردة الجد إلى حلاوة الهزل، يستبشع الإعراب، ويلعن الأعراب، ويتطير من شعر الشماخ[2] والطرماح[3] إذ رووه، وينفر من كلام قس[4] والاهتم[5] إذا حكوه، فإن فاوضه مستعطف ببيت لحاتم طيء زوى وجهه، وصعر خده، وسد أذنه، وجعل حرمان من أنشده مرآه، هذا إذا لم يتعد إلى شتم الحي ولعن الميت".

ولعل إعجابه بالشعر القديم بما فيه من أصالة وقوة، وما له من ارتباط نفسي بمصدر مهم من مصادر ثقافته وعلمه، قد قاده إلى الإعجاب بشعر الشعراء الذين نهجوا نهج القديم في القوة والجزالة، غير منقطعين عن العصر والبيئات الجديدة، فرأى في شعرهم روحاً جديدة مزجت بين الجديد والقديم، وقد نجد في هذا ما يفسر إعجاب الخوارزمي بشعر أبي تمام والبحتري وأبي الطيب المتنبي.

---

(1) الأمثال المولدة/ 3-ب.

(2) الشماخ: هو معقل بن ضرار من حرملة الغطفاني شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابغة، ترجمته في الإصابة (3913).

(3) الطرماح: هو الطرماح بن حكيم شاعر وخطيب من طي، خارجي، وكان صديقاً للكميت انظر ترجمته في الشعر والشعراء 2/ 489، والأغاني 12/ 38 دار الثقافة.

(4) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك أحد حكماء العرب. ومن كبار خطبائهم، أدرك الإسلام ولم يسلم ترجمته في البيان والتبين 1/ 27 الأغاني 14/ 40.

(5) الأهتم: هو سنان بن سمي بن سنان بن خالد بن منقر، من خطباء العرب المشهورين.

كان أبو تمام قدوة في الشعر تحتذى، وقد ورد إطراؤه لأبي تمام في إحدى رسائله، حين استشهد ببيتين له هما[1]:

وإنّ أولى البرايا أن تؤاسيه عندَ السُّرورِ لمن آساكَ في الحَزَنِ

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كانَ يألفهم في المنزلِ الخَشِنِ

يقول: وشهادة أبي تمام في الكرم تقوم مقام شهادة أمة، بل أمم، ولئن كان خزيمة بن ثابت[2] ذا الشهادتين عند الأنبياء والحكام، فإن أبا تمام ذو الشهادتين عند الأحرار والكرام. "ويرى الخوارزمي، أن المتنبي قد تأثر بأبي تمام، وأخذ من معانيه، وقد وضح هذا من خلال شرحه لديوان أبي الطيب.

أما إعجابه بشعر البحتري فقد عبر عنه بقوله[3]: "غرر البحتري ووسائط قلائده، وأبيات قصائده، أكثر من أن تحصى، وعندي أن أفصح أبياته وأبلغها وأجمعها لكثير من المعاني بالقليل من الألفاظ:

فمن يرض بعد السخط كان على هدى وليس لمن بعد الرضى يسخط اهتدى

فإن الرضى بعد العدا يكشف الفلا وإن العدا بعد الرضا يجلب القلى

ويرى الثعالبي أن الخوارزمي كان لشدة إعجابه ببيتين للبحتري يقول: لا تنشدونيهما فارقص طرباً، وما أقبح الرقص بالمشايخ". والبيتان هما:

يذكرنيك والذكرى عناء مَشابهُ فيكَ طيبةَ الشُّكول

نسيم الروضِ في ريحٌ شمال وصوب المزن في راح شمول[4]

(1) الرسائل/ 101.

(2) خزيمة بن ثابت: صحابي من أشراف أوس، شهد صفين مع علي وقتل فيها ترجمته في الإصابة رقم (2247).

(3) الإعجاز والإيجاز/ 188، ولم أجد البيتين في ديوان البحتري.

(4) وفي الديوان 3/ 1736 (وذكر فيك- والذكرى عناء. شبايه فيك بينة الشكول).

أما إعجابه بشعر المتنبي، فقد عبر عنه تعبيراً عملياً، إذ عمد إلى شرح ديوانه شرحاً كاملاً معبراً بذلك عن شدة الإعجاب به لما فيه من قوة ومتانة، وما حواه من استعارات وتشبيهات بديعة جمع فيها بين القديم والحديث، وألم فيها بروح العصر إلمامه باللغة الأصيلة.

ويقول الخوارزمي[1]: "أمير شعراء العصر، أبو الطيب المتنبي وأمير شعره قصيدته التي أولها[2]:

من الجآذرُ في زي الأعاريب حُمْر الحُلى والمطايا والجلابيب

وأمير هذه القصيدة قوله[3]:

أزورهم وسوادُ الليل يشفع بي وأنثنى وبياضُ الصبح يُغري بي

وقد دمج فيه أربعة من الطباق، وهي: الزيارة والانثناء والسواد والبياض، والليل والصبح، والشفاعة والإغراء ولا يعرف لأحد مثله".

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخوارزمي على شدة إعجابه بشعر المتنبي واهتمامه به، لم يكن ليخفي مآخذ له على أخلاقه وسلوكه، فقد رماه بالبخل، وقلة الوفاء، وتناقض القول والفعل، يقول الثعالبي[4]: "سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: كان أبو الطيب قاعداً تحت قول الشاعر:

وإنَّ أحقَّ الناسِ باللومِ شاعرٌ يلومُ على البخلِ الرجالَ ويبخلُ

وإنما أعرب عن عادته وطريقته في قوله[5]:

---

(1) خاص الخاص/ 146- 147.

(2) ديوان المتنبي للواحدي/ 633.

(3) المصدر السابق/ 634.

(4) اليتيمة 1/ 135- 136.

(5) ديوان المتنبي/ الواحدي/ 374.

بليت بلى الأطلال إن لم أقـف بهـا وقوف شحيح ضاع في التُرب خاتمـه

ولم تستطع الصلة الوطيدة التي كانت تربط الخوارزمي بالصاحب بـن عبـاد، أن تجر الخوارزمي إلى مهاجاة المتنبي أو الانتقاص من شعره، فقد وقف موقف المحايد مـن الخلاف معه، وبين أن شعراء بغداد قد نالوا من عرض المتنبي، وتباروا في هجائه، لأنـه ترفع عن مدح الوزير المهلبي، فسلّط ألسنة الشعراء عليه. وكان يرى أن الصاحب بـن عباد، قد اتخذ المتنبي غرضـاً يرشـقه بسـهام الوقيعـة، ويتتبـع عليـه سـقطاته في شـعره وهفواته، وينعى عليه سيئاته، وهو أعرف النـاس بحسـناته، وأحفظهـم لهـا، وأكثـرهم استعمالاً لها، وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته لأن المتنبي لم يقم لـه وزنـاً. ولم يجبـه إلى طلبه في زيارته وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان[1].

وقد تأثر الخوارزمي في شعره بأبي الطيب المتنبي إذ أخذ عنـه كـثيراً مـن معانيـه وأغراضه، وقد أورد صاحب اليتيمة عدداً من المواضع التي أخذ فيها الخـوارزمي عـن المتنبي إذ يقول[2]: قال أبو الطيب المتنبي، وهو من قلائده:

فـإن تَفُـقِ الأنـامَ وأنـتَ مـنهُم فـإنَّ المسـكَ بعـضُ دمِ الغـزالِ

وقال أيضاً

ومـا أنـا مـنهم بـالعيش فـيهم ولكـن معـدنُ الـذهب الرُّغـام

أخذ أبو بكر الخوارزمي معنى البيتين، وهما قريب من قريب، فقال:

فـديتك مـا بـدا لـي قصـد حُـرٌ سـواك مـن الـورى إلا بـدا لـي

وإنـك مـنهم، وكـذلك أيضـاً مـن المـاء الفرائـد واللآلـي

وتسكن دارهم وكذلك سكنى الحجـارة والزمـرد في الجبـال

(1) انظر اليتيمة 1/ 136– 138.

(2) اليتيمة 1/ 146.

وقال أبو الطيب[1]:

وصــرت أشــك فــيمن أصــطفيه   لعلمــي أنــه بعــض الأنــام

أخذه الخوارزمي فقال:

قــد ظلمنــاك بحسـن الظّــنّ   يــا بعــضَ الأنــام

ويبرز التأثر واضحاً في المعنى والوزن والقافية في قصيدته التي وصف فيها الحمى. يقول المتنبي من قصيدة له[2]:

وزائِرَتــي كَــأنَّ بِهــا حَيــاءً   فَلَــيسَ تَــزورُ إلا في الظَــلامِ

بَــذَلتُ لَهــا المَطـارِفَ وَالحَشـايا   فَعافَتهــا وَباتــت في عِظــامي

يَضيقُ الجِلـدُ عَـن نَفسـي وَعَنها   فَتوسِــعُهُ بِــأنواعِ السِّــقام

كـأنّ لهـا ضـرائر مـن غـذائي   فيغضــبها شــرابي والطعــام

إذا مــا فــارَقَتني غَسَّــلَتني   كَأَنّــا عاكِفــانِ عَلــى حَــرام

كَـأَنَّ الصُبحَ يَطرُدُهـا فَتَجـري   مَــدامِعُها بِأَربَعَــةٍ سِــجام

أُراقِـبُ وَقتَهـا مِـن غَـيرِ شَـوقٍ   مُراقَبَــةَ المَشــوقِ المُســتَهام

وَيَصـدُقُ وَعـدُها وَالصِـدقُ شَـرٌّ   إِذا أَلقــاكَ في الكُــرَبِ العِظــام

أَبِنـتَ الـدَهرِ عِنـدي كُـلُّ بِنـتٍ   فَكَيـفَ وَصَـلتِ أَنـتِ مِنَ الزِحـام

ويقول الخوارزمي في وصفها[3]:

ولـو أبصـرت في أرجـان نفسـي   عليهــا مــن أبــي يحيــى ذمــام

---

(1) المصدر السابق 1/ 147.

(2) شرح ديوان المتنبي/ الواحدي 978/ ومطلعها قوله:

ملومكمــا يجــلُّ عــن المــلام   ووقــع فعالــه فــوق الكــلام

(3) اليتيمة 4/ 217.

ولي من أمّ ملدم كلّ يوم ... ضجيع لا يلذّ له منام

مقبّلة وليس لها ثنايا ... معانقة وليس لها التزام

كأنّ لها ضرائر من غذائي ... فيغضبها شرابي والطعام

إذا ما صافحت صفحات وجهي ... غدا ألفا وأمسى وهو لام

إذاً لرأيت عبدك والمنايا ... تصيح به تنبّه كم تنام

ولا يفوتنا قبل تناول الشعر بالدراسة أن نلم قليلاً بما للخوارزمي من نظرات وآراء في الشعر والشعراء، وبعض اللمحات النقدية التي لا تكوّن مادة نقدية تستحق أن نفرد لها فصلاً خاصاً. ذلك أننا سنكون مغالين إذا صورناه ناقداً، أو أن له نظرية في النقد. وقد يكون من المفيد إيراد هذه اللمحات التي يمكن أن تساعد على تحليل شعره. ومعرفة بعض معاييره الهامة ومدى تذوقه للشعر وكيف كان يصدر أحكامه، وأثر ثقافته في ذلك، ومن المعروف أن الخوارزمي، لم يترك كتاباً في النقد ولم يعهد له مثل هذا الميل، وإن كان اهتمامه بالشعر ودراسته ونظمه، قد استوجبت معرفة بقواعد النظم، وأساليب القول وتلمس معاني الحسن والإبداع، وملاحظة مواضع الوهن والضعف والإلمام وبالبلاغة والعروض، وقد فصلنا ذلك في الكلام على ثقافته.

ومما يلفت الانتباه من بين تلك اللمحات النقدية ما كان يذهب إليه من ملازمة الشعراء للمبالغة والتزيد والكذب أحياناً، ولعله قد تأثر في ذلك بالآية القرآنية ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

ولكنه لا يرى في كذبهم ومبالغتهم وإفراطهم ما ينتقص من مكانتهم

---

(1) سورة الشعراء، الآيات من 224- 226.

الاجتماعية، فللشعر ضروراته، وها هو يتحدث عن نفسه مبرئاً إياها من الكذب والنفاق، وقلة الوفاء، فيقول[1]:

"وأنا وإن كنت شاعر اللسان، فلست شاعر الخلق، ولا شاعر الوفاء والصدق ولا شاعر الصداقة والود، ولا شاعر الديانة والحقد".

ويقول من أخرى[2]:

"أنت رحمك الله تعالى من أيدي هؤلاء الشعراء الكذابين مرحوم، وفيما بينهم مظلوم، سلبوك علاك وهي حلاك، ونحلوها قوماً سواك، والمدح الكاذب ذم، والبناء على غير أساس هدم".

ويصف الشعراء في إحدى رسائله، ويبين رفعة منزلتهم وسمو مكانتهم في المجتمع مع ما في شعرهم من مغالاة وكذب ونفاق، فيقول[3]: وما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم، والكذب مذموم إلا فيهم، إذا ذموا ثلبوا، وإذا مدحوا سلبوا وإذا رضوا رفعوا الوضيع، وإذا غضبوا وضعوا الرفيع، وإذا أقروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد، ولم تمتد إليهم يد، غنيهم لا يصادر، وفقيرهم لا يحتقر وشيخهم يوقر، وحديثهم لا يستصغر، وسهامهم تنفذ في الأعراض إذا نبت السِّهام عن الأغراض، وتصل إلى البعيد، كما تصل إلى القريب، وشهادتهم مقبولة، وإن لم ينطق بها سجل. ولم يشهد بها عدل، وسرقتهم مغفورة، وإن جاوزت ربع دينار، ولو بلغت ألف قنطار، إن باعوا المغشوش لم يردُّ عليهم، وإن صارموا الصديق لم يستوحش منهم. بل ما ظنك بقوم هم صيارفة أخلاق الرجال، وسماسرة النقص والكمال، بل ما ظنك بقوم هم

---

(1) الرسائل/ 149.

(2) المصدر السابق/ 204.

(3) الرسائل/ 11- 12.

أمراء الكلام يقصرون طويله، ويخففون ثقيله ويقصرون ممدوده، ولم لا أقول ما ظنك بقوم يتبعهم الغارون، وفي كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون".

ويبدو أن الخوارزمي كان شديد التأثر بنقد القدماء، فلمحاته النقدية لا تتعدى إظهار الاستحسان، وتفضيل البيت أو القصيدة أو الشاعر على غيره، وغالباً ما يخلو هذا الاستحسان من تعليل، وإذا أورد شيئاً، فلا يتعدى عبارات ساذجة تتناول جانباً من جوانب البيت أو القصيدة، فالمتني أمير شعراء عصره[1] وقصيدته (من الجآذر في زي الأعاريب.. أمير شعره، وأمير هذه القصيدة قوله: (أزورهم وسواد الليل يشفع بي) أما تعليله لهذا الحكم النقدي فأساسه البلاغة. فقد جمع الشاعر فيه أربعة من الطباق، ولا يعرف لأحد مثله- كما يقول-.

ومن أمثلة ذلك ما تكرر في كتابه شرح ديوان المتني، وسأورد فيما يلي عدداً من الأمثلة التي يمكن القياس عليها:

يقول في شرح قول أبي الطيب[2]:

دِمَنٌ تكاثرتِ الهُمومُ عليَّ في عَرَصاتها كتكاثر اللُّوَّام

ما أحسن ما أتى بالمقابلة في هذا البيت ويقول في شرح بيت آخر[3]:

أرواحنا انهملت وعشنا بعدها من بعد ما قطرت على الأقدام

هذا البيت سلك فيه طريقته في قوله:

أشاروا بتسليم فَجدنا بأنفسٍ تسيل على الآماق والسُّم ناقع

"... وكأنه قلب على الشعراء طريقتهم، لأن المعهود من الدمع أن يتسلى به المكروب، وعلى ذلك وردت الأشعار، وهذا جاء فقلب عليهم ذلك وبالغ...".

---

(1) خاص الخاص/ 146- 147.

(2) شرح ديوان المتني للخوارزمي 9- 10.

(3) المصدر السابق 10-أ.

ويقول في آخر[1]:

وتعـــذر الأحـــرار صـــير ظهرهـــا إلا إليـــكَ علـــيَّ فـــرج حـــرامِ

هذا البيت مخلصه حسن، وألفاظه جزلة، ونظمه سديد.

ومن ذلك أيضاً[2]:

وحشـــاه عاديـــة بغـــير قـــوائم عقـم البطـون حوالـك الألـوانِ

هذه استعارة حسنة، فإنه كنى عن ألـنفس بالعاديـة..... وهنـاك شـواهد كـثيرة تؤكد حقيقة ما ذهبنا إليه من تأثره بنقد القدماء، يقول الثعـالبي[3]: وكـان الخـوارزمي يقول: أغزل بيت للعصريين قوله (يعني أبا الطيب المتنبي):

قد كنتُ أشفِقُ من دَمعي على بصـري فـاليَوْمَ كـلُّ عزيـزٍ بَعـدَكمْ هَانَـا

يقول الثعالبي[4]: سمعت الخوارزمي يقول: أحسن ما قيل في مدح النساء قـول الشاعر:

ونحـــن بنـــو الـــدنيا وهـــنّ بناتُهـــا وعـــيش بـــني الـــدنيا لقـــاء بناتهـــا

وأبلغ ما في ذمهن قول الآخر:

إن النســـاء شـــياطينٌ خلقـــن لنـــا فكلنـــا يتّقـــي شـــر الشـــياطين

على أنه نقض قول من قال:

إن النســـاء ريـــاحين خلقـــن لنـــا فكلنـــا يشـــتهي شـــم الريـــاحينْ

وقد أخذ الخوارزمي على المتنبي قوله في رثاء أخت سيف الدولة:

يعلمـــن حـــين تحيـــا حســـن مبســـمها ولـــيس يعلـــم إلا الله بالشـــنب

(1) المصدر السابق 11-أ.

(2) المصدر السابق 17-ب.

(3) الإعجاز والإيجاز/ 217.

(4) ثمار القلوب/ 270.

ولم يجد غير عبارة هي أقرب إلى روح الجاهلية منها إلى روح عصره فقال: لو عزاني إنسان عن حرمة بمثل هذا، لألحقته بها، وضربت عنقه على قبرها[1].

ويقول الثعالبي[2]: وسمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: لم أسمع في وصف الطفيلي، أبلغ من قول الحمدوني:

أراكَ الدهرَ تطرق كل دار | كأمر الله يَحدُثُ كل ليلة

يقول الثعالبي[3]: وسمعت أبا بكر الخوارزمي غير مرة يقول: أنا أحفظ في هجاء المغنين ما يقارب ألف بيت، وليس فيه أبلغ وأوجز وأطرب من قول أبي الفتح لكشاجم[4]:

ومغنٍّ بارد النغمة مختل اليدين

ما رآه أحد في دار قوم مرتين

وكان الخوارزمي يعجب بحسن الكناية، ويثني على قائلها فقد روى الثعالبي[5] أن الخوارزمي أعجب بقول الشاعر:

وإذا الكريم أضاع مطلب أنفه | أو عرسه لكريهة لم يغضب

وقال: أنظر كيف لطف هذا الشاعر بحذقه للكتابة عن فرج الأم بقوله (مطلب أنفه).

كما نقل الثعالبي[6] إعجاب الخوارزمي بما جاء في قول أبي حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب من كناية نادرة حيث يقول:

---

(1) الرسائل/ 84، اليتيمة 1/ 84

(2) ثمار القلوب/ 35.

(3) خاص الخاص/ 64.

(4) انظر ديوان كشاجم، تحقيق خيرية محفوظ/ 475.

(5) الكنايه والتعريض/ 7.

(6) الكنايه والتعريض/ 8.

ثم فمـــا عنـــدك خـــيرٌ يرتجـــي | أيهـــا الأيـــر القليـــل المنفعـــة
طالمـــا جـــدلت فرســـان الـــوغى | وافتتحـــت القلعـــة الممتنعـــة
وتقحمـــــت مطـــــامير الهـــــوى | فعرفـــت الضـــيق منهـــا والســـعة

وعهدي بالأستاذ الطبري ينشد هذه الأبيات، ويعجب من جودتها في معناها ويقول: إن من يكنى عن الأحراج والفقاح بمطامير الهوى لمن شياطين الإنس الذين سخر لهم الكلام حتى قادوه بألين زمام.

تلك هي طريقة الخوارزمي في التعبير عن خلجات نفسه تجاه الشعر، وتأثره بأسلوب القدماء في النقد واضح بين، ونقده نقد تأثري لا يتعدى الإعجاب وإصدار الأحكام، وكثيراً ما يردد عبارات الاستحسان كقوله: وهذه استعارة حسنة، وكناية حسنة، ومعنى حسن، وقد يلجأ في بعض الحالات إلى التوضيح والتفسير ولا يتعدى حدود الكلمة أو البيت.

أما دواعي الشعر عنده، فالطرب والرغبة والرهبة، والطرب صفة تصيب الإنسان من شدة السرور أو الحزن، فيقول: على أني قد طلقني الشعر، ولا أقول طلقته، وإنما الشعر[1] بالطرب أو الرغب أو الرهب، وما بقي شيء يسر به خاطر ولا كريم فارغب، ولا بقي وجل فأرهب، وبين هذا القول وقول الأول في المفاضلة بين الشعراء سبب وثيق: فأشعر الناس أمرؤ القيس إذا ركب، والأعشى إذا طرب وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، ولعل في هذا ما يؤكد عمق صلته بالقديم سواء أكان في الشعر أم في النقد أو التذوق.

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا الحديث أن نشير إلى أن الخوارزمي لم يستطع التخلص من تأثير العصر، ومقتضيات الحياة الجديدة بما لها من تأثير على الذوق

---

(1) الرسائل/ 45.

الأدبي، فقد تطورت معاني الموضوعات القديمة واستقلت فروع من الموضوعات القديمة، وظهرت أغراض جديدة.

ومن يقرأ شعر الخوارزمي يجد فيه السمات الشعرية العامة للقرن الرابع فمن حيث الأغراض، وهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل- نجد أن الخوارزمي قد نظم في الموضوعات الجديدة المستقلة كالوصف، وجارى شعراء عصره الذين تباروا في وصف الأطعمة والشراب، وقد وجدنا له بعض المقطوعات التي يمكن عدها من أدب الفحش والمجون، وإن كان دافعها الهجاء ومثلما تأثر الخوارزمي بالأغراض الشعرية في عصره فقد تأثر بالمعاني والأساليب واهتم بالصناعة والمحسنات.

أغراضه:

من الطبيعي أن يستجيب الإنسان إلى نوازع نفسه، ومتطلبات حياته، وظروف عصره وبيئته، ولا بد أن تترك هذه العوامل مجتمعة أثراً بيناً في سلوكه، وطريقة تفكيره، فتضفي عليه لوناً معيناً، وتميزه به من غيره.

كان الخوارزمي نزاعاً إلى المجد منذ صباه، ولم يجد غير الأدب طريقاً يوصله إلى الشهرة، فسلكه، وقاده ذلك إلى الرحلة والتجوال، فقرع أبواب بغداد والشام ثم عاد إلى الشرق فطوف فيه ما طوف، ولقي من المتاعب والمصاعب الشيء الكثير وحصل له من الشهرة في الأدب ما أراد، ولكن شهرة الأدب لا تكفي ولا بد لها من رفد مادي يعلي به مكانته الاجتماعية ويسد به حاجته.

ولعل في هذا ما يفسر لنا كثرة المديح في شعره، فقد أراد أن يتوصل به إلى الملوك والولاة والحكام. فيأخذ عطاءهم وينال من خلاله شهرة أدبية في مجالسهم الزاخرة بالشعراء والأدباء والعلماء، ومنهم من طارصيته، وجلس على باسق من الأرض، لايطال إلا بكد النفس، وعظم الهمة فقد عاصر الخوارزمي شعراء أفذاذاً، كالمتنبي، وأبي فراس، والسري الرفاء، والخالديان والنامي وغيرهم وكان عليه أن يقف معهم أو قريباً منهم، كي لا تضيع فرصته وتخمد ريحه، فكد عقله وذهنه، واتجه إلى

القديم ينهل منه، يغير على المعاني فيأخذ الجزل منها، يصوغه في قوالب شعرية تقليدية ولا عليه بعد ذلك أن يأخذ عليه بعض معاصريه منهجه في السطو على المعاني. كما فعل القاضي أبو الحسن الجرجاني حين رماه يقول:[1]

لـو نفضـت أشـعاره نفضـة   لانتشـرت تطلـب أصـحابها

لقد كون غرض المديح العمود الفقري في شعره، فأغلب ما وصلنا من شعره في المديح، ويلي ذلك الهجاء والرثاء، وجل هذه الأغراض هي ثمرة صلته بدواوين الولاة والحكام.

أما شعر الشكوى والأخوانيات فهو قليل بالإضافة إلى ما عرف عنه من ميل إلى التشكي والتظلم، ولم نجد له غير مقطوعة واحدة في العتاب، وقد وجدنا له شعراً في الوصف والخمرة وكلها مقطعات صغيرة، وستتناول فيما يلي بالتحليل أهم أغراضه.

المديح:

لقد ارتبط شعر المديح عند الخوارزمي بطموحاته وتطلعاته. فرآى فيه- كما قلنا- سبيلاً للوصول إلى المجد، كما وجد فيه سبيلاً لتحصيل المنفعة وما كان ليخفي حرصه على تحصيلها. ولعل هذا النهج كان نتيجة طبيعية لظروف العصر التي جارت على الأدباء والشعراء. فتركتهم فيها- لمؤثرات شتى-، يصارعون الحياة في سبيل لقمة العيش، ويتلقفون فتات الملوك والأمراء والوزراء ويبحثون عن المجد في أحضان الضعة، ويهرعون إلى قول الشعر في مدحهم رياء ومداجاة، لا استجابة لعواطف صادقة أو أحاسيس مرهفة ولم تكن تلك الظروف وليدة ذلك العصر فحسب، بل كانت امتداداً طبيعياً للظروف السابقة ومن هنا أصبح الأدب سلعة تباع وتشترى،

(1) أحسن ما سمعت/ 45-46، تتمة اليتيمة 1/ 10.

وينادى عليه كما ينادى على الثوب الخلق، وقد برزت هذه الظاهرة بجلاء في شعر الخوارزمي، وعبر عنها بقوله:(1)

يا أيها الخاطب مدحي وهل	يورد من غير رشاء قليب
شيئان لم يجتمعا لأمرئ	حب الدنانير وحب الحبيب

فالبذل، والعطاء هما ثمن المديح، وهما رشاء الود، وهل يورد من غير رشاء قليبْ. وكما أن الجمع بين الحب وبين الأنانية متمثلة بالبخل أمر لا يمكن تحقيقه فكذلك الحصول على المدح لا يكون بغير البذل والعطاء، ولسان الشاعر روضة لا تسلف الزهر حتى تستسلف المطر، فإذا ما أسلف أحدهم مِدْحةً ولم يقطف ثمارها جرد من لسانه سيفاً مصلتاً يدافع به عن حقه وطالب به مطالبة القوي، ولا يتردد في عتاب من أخر حقه أو توبيخ من تغافل عنه، فها هو يكتب قصيدة إلى أحدهم يعاتبه على تأخره عن تقديم ما وعده به، ويعنفه على فعلته، ولم تخل قصيدته من إغلاط في القول رغم ما تضمنته من معاني المديح حيث يقول:(2)

ألا من بلّغ الأستاذ أني	أنا الصمصام أغمده الحياءُ
أَلجدب والسباخُ لديك مرعى	ونظماً والسَّراب لديك ماءُ
يطرّقنا الزمان وكلَّ يوم	لنا خطب حواشيها البكاء
وكنتَ وعدتنا نظراً فأبطا	وقد تتبلغُ الخيل البطاء
فان عزَّ القضاءُ لديك يوما	فموجود لدينا الاقتضاء
ويرضى بالرجاء سواي قومٌ	وما عندي لحكمكم ارتضاء
فان أخا الرجاء على يقينٍ	من البلوى وفي القرح امتراء
وشر المرتجين أخو مطال	يعمِّر في جوانبه الرجاء

---

(1) اليتيمة 4:234، والقليب هو الدّلو.

(2) نثر النظم/ 40.

إذا أضحى فموعده مساء — وان أمسى فموعده ضحاء

وهذا العتب واسطة ولكن — لها طوقان مدح أو هجاء

وبين النجح والتعويق حد — وقنطرة يقال لها السخاء

فلا تشك الزمان فليس يشكو — مسيءٌ نفسه أنت القضاء

فهو لا يقبل بالرجاء، ولا يثق بالوعود بل يأخذ ثمن بضاعته ساعة بيعها، ويجني ثمار غرسه أوان نضجه، والعتاب وسيلة تضع الممدوح على مفترق طريقين: طريق التكفير عن التقصير، بمواصلة البذل، وطريق النكوص والتراجع، واحتمال أوزار ذلك، عتاباً مراً:

ولما أن غرست إليك ودّي — فلم يثمر لديك زكيٌّ غرسي

ازدتَ ملالةً، وازدتُ هجراً — فصنتك عنهما فهجرت نفسي

لأن الذنب ذني حين أهدي — إلى من لا يريد الأنس أنسي[1]

كان الخوارزمي إذن متكسباً في شعره، ولذا كانت فضيلة الكرم من أهم الفضائل لديه. يقدمها في شعره على غيرها، يعلي قدرها، ويكثر ذكرها ليذكّر الأمير بالعطاء، فالكرم صفة لازمة من صفات الممدوح وهذه الصفة، وإن كانت مستحبّةً في الأخلاق العامة للمجتمع، فإنه لا يذكرها لمجرد رفعة صاحبها. وعلو منزلته ولكنها وسيلة من وسائل الكدية والسؤال. فنحن نمدح الرجل بالشجاعة وعلو الهمة حين نريد منه نصرة واستظهاراً، ونعلي فيه العلم والأدب حين نطمح إلى إكرام العلماء والأدباء، ونمدح فيه الكرم حين نطمع في عطاياه.

إن وصف أولي الأمر من الولاة والحكام بالكرم أمر لا يتطابق مع الفهم الصحيح للكرم، تلك العادة التي تعود في جذورها إلى أصول الضيافة العربية، التي

---

(1) بغية الوعاة/ 51، الحصون المنيعة 7/ 186.

حتمتها ظروف التنقل والترحال في بوادٍ مقفرة، تتطلب تقديم العون والطعام للمارة والأضياف مع حسن الملاطفة والجاملة، فالبذل من المال الخالص هو الجدير بمثل هذه الصفة، أما أولئك الولاة والحكام فليس عطاؤهم من الكرم في شيء، ذلك أنهم يعطون من أموال الدولة، ويهبون من خزائنها، وقد لا أكون مغالياً إذا قلت أن ما كانت تتظاهر به هذه الفئة من الكرم، لا يعدو أن يكون وسيلة سياسية ناجحة، لا تخلو من تبذير وإسراف ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائد المدح عند الخوارزمي من الإشادة بهذه الصفة، التي يسبغها على ممدوحيه كقوله من قصيدة في مدح عضد الدولة[1]:

غريب على الأيام وجدان مثله	وأغرب منه بعد رؤيته الفقرُ
فلا حرٌّ إلا وهو عبد لجوده	ولا عبد إلا وهو في عدله حرُّ
عجبتُ له لم يلبس الكبر حِلَّة	وفينا لأنِ جُزنا على بابه كبرُ

وقوله من قصيدة أخرى في مدحه، وقد درت عليه أخلاف الرزق، فأصبح له وكلاء يشرفون على إدارة أمواله، وكثر بكثرتها المنتفعون به. وقد أصبح ذا ثروة ويسار بسبب اتصاله بعضد الدولة[2]:

بِحَمْدك لا بِحَمْد النَّاس أضحى	وَكيلِي لَيْسَ يَكْفِيهِ وَكيلُ
وَكَانُوا كلما كالوا، وزنَّا	فصرنا كلما وزنوا نكيلُ
وزدت من الْعِيَال وَذاكَ أنِّي	كتبت على لقائك من أعولُ
وعشت وناقصٌ رزقي فأضحى	(مفاعلتن مفاعلتن فعول[3])
وكنت أبيع من سقط القوافي	وأحجر ما تضمت الحمول
وأكتم من أبايع دق بزي	ففاض عليه نائلك الجميل

---

(1) اليتيمة 4/ 222.

(2) اليتيمة 4/ 223، خاص الخاص/ 190.

(3) هذا وزن بحر الوافر، وهو يريد أن رزقه أصبح وافرا.

لقد أفاض عليه بنو بويه بعطائهم، فلم ينس جميل أياديهم عليه وانتشالهم إياه من غائلة الفقر والجوع، إلى حالة الغنى والثراء فتغنى بذلك في شعره وعدد أوجه العطاء، وهي كثيرة، يقول من قصيدة في مدح عضد الدولة:[1]

إلا حركالي أبرويز بن هرمز	وقولا له: قم تلق أعجوبة قم
تطلع إلى الدنيا لتعلم أن ما	ملكتَ من الدنيا بمقدار درهم
لعمرك لولا آل بوية في الورى	لكان نهاري مثل ليل المتيم
هم جعلوني بين عبد وقينةٍ	ودار ودينارٍ وثوبٍ ودرهمِ
وهم تركوا الأيام تعجب أن رأت	سلُوي، ولا أرقى السماء بسلم
وهم غمروني دائماً بصلاتهم	فصنت عن الإبطاء شعري فيهم

وصفة الكرم التي تطغى على ممدوحيه، تكاد تكون ملازمة لصفات أخرى أهمها الشجاعة والبسالة في الحروب، وإجادة الكتابة، وقد جمع الخوارزمي كل هذه الصفات في بيتين مدح بهما الصاحب بن عباد الذي أعجب بهما إعجاباً شديداً وقد قيل أن الصاحب بن عباد قد خلع عليه كل ملابسه، وكذلك فعل الحاضرون[2]:

يدٌ تراها أبدا	فوقَ يد وتحت فمْ
ما خُلقتْ بَنانُها	إلا لسيفٍ أو قَلَمْ

ومما تجدر الإشارة إليه أن أغلب الوزراء والأمراء في الدولة العباسية في تلك الحقبة قد اهتموا بالكتابة ودخلوا ميدان الأدب والشعر ولا يخفى ما كان لابن العميد والصاحب بن عباد، وأبي الفضل الميكالي وغيرهم من منزلة في الأدب والكتابة، وقد عمت هذه الظاهرة وتبارى القوم في الافتخار والتمدح بالكتابة، وكان طبيعياً أن تتردد

(1) اليتيمة 4/ 223-224، الإعجاز والإيجاز/ 199.

(2) غرر الخصائص 1/ 26.

هذه الصنعة في شعر المديح، ويروى الوطواط أن أبا بكر الخوارزمي قصد الصاحب ابن عباد ومدحه بقصيدة قال فيها[1]:

ومـا خلقـت كفـاكَ إلا لأربـعٍ عوائِــدُ لم يُخلــق لهــنَّ يــدانِ

لشـكرك أفـواه وتنويـل نائـل وتقليـب هنـدي وأخـذ عنـانِ

فلما بلغ إلى هذا البيت قال له: لم تذكر القلم، وهو آلة الكاتب وبه تقدم ورأس ويقول في مدح الصاحب بن عباد:[2]

أخـو كلمـاتٍ مـا جلاهـا لسـانه علـى أحـد إلاغـدا وهـو خاطـبُ

متى يروها أهلُ الصِّناعةِ ينشـدوا (عجائبُ حتى ليس فيهـا عجائـبُ)

وفي قصيدته التي يمدح بها أبا نصر المكالي، نلاحظ مقدرا التلازم بين تلك الصفات، وامتزاجها، فأبو نصر كريم لا ينزف الالحاح نائلة، يجمع الأموال ليفرقها في طلب الآمال، وهو عالم لو قسمت علومه على الناس لما بقي فيهم جاهل، وأخلاقه رفيعة سامية، وأقواله عذبة جميلة تكاد تسيل من شدة عذوبتها، فكأنما هي أمواله التي تتدفق على السائلين بغير حساب، وهو إلى ذلك كله شجاع يهاب سطوته الفرسان، باسل لا ترهبه الحروب، ولا تغضن وجنته لأنه اعتاد خوض غمارها[3]:

زَفَّ المنـامُ إلـيَّ طَيْـفَ خَيالِـهِ لـو أنَّ طَيْفـاً كـان مـن أبدالِـهِ

لو أن هـذا الـدهر يشـكُر لم يـدع شـكْرَ الأمـيرِ وقـد غـدا مـنْ آلـه

لا ينـزف الإلحـاح قائلـه ولا سـؤل امـرئٍ ينهـاه، عـن آمالـه

والخَلْقُ عنـد سُـؤاله والجُـودُ مـن عُذّالِـه والمـوت مـن عُمّالـه

وفعالـه كمقالـه، وشمالـه كيمينـه، ويمينـه كشـماله

(1) اليتيمة 4/ 214.

(2) اليتيمة 4/ 214.

(3) تاريخ العتبي/ 37.

تتجمـــع الأمـــوال في آمالـــه	فيفـــرق الأمـــوال في أمالـــه
لا علـــم إلا عـــزه في عـــزّه	لا عـــز إلا حالـــة مـــن حالـــه
وله علوم لو قسمن علـى الـورى	مـــا زاد عاقلـــه علـــى جهالـــه
وخلائــق لــو أنهــن كواكــب	أضحى السها في الضوء مثل هلالـه
وفصول قول هن أعـذب مسـمعاً	مـن راحـة المشـغول مـن أشـغاله
سمحُ البديهة لـيس يمسـك لفظـه	فكأنمـــا ألفاظـــه مـــن مالـــه
وكأنمـــا عزماتـــه وســـيوفه	مـن حـدهن خلقـن مـن إقبالـه
متبسِّـم في الخطـب تحسـب أنـه	مـــن حســـنه متلـــثم بفعالـــه

وليس غريباً أن تفتقر القصيدة إلى أدنى حد مـن العاطفـة، وصـدق الإحسـاس برغم ما حوته من معان تقليدية كـثيرة، هـي غايـة مـا يوصـف بـه الممـدوح. فغيـاب الصدق في العاطفة، والأصالة في التجربة الشعورية، قد أحال تلـك المعـاني إلى كومـة من الألفاظ المرصوفة بنظام قاصر عن إيصال القارئ إلى حالة الاستمتاع أو الإعجاب. وربما أحسَّ بالنفور، وكيف يرتاح القارئ إلى قوله:

لا علـــم إلا عـــزه في عـــزه	لا حـــر إلا حالـــة في حالـــة

وكيف لا ينفر من تكرار الألفاظ ومن الحشو الثقيل في قوله:

وفعالـــه كمقالـــه، وشمالـــه	كيمينـــه ويمينـــه كشـــماله

ويبدو أثر القديم واضحاً في شعره، ففي قصيدته التي يمدح بهـا شمـس المعـالي قابوس بن وشمكير نلمس مقدار تأثره بمعاني القدماء سواء أكان تضـميناً مباشـراً، أو غير مباشر، فقد سار على طريقتهم في استنهاض الهمـم، وشـحذ العـزائم، والتـذكير بالآباء والأجداد وما لهم من ماض مجيد، وهـو إلى جانـب تـأثره بالقـديم لا يسـتطيع إخفاء أثر المحدثين في شعره، فالإعجاب بالبـديع والميـل إلى المقـابلات قـد انعكـس في

شعره، فكما عمد المتنبي إلى المقابلة بين سيف الدولة الحمداني وبين السيف عمد الخوارزمي إلى المقابلة بين شمس المعالي وبين الشمس يقول[1] :

شموس لهن الخِدْرُ والبدرُ مَغْرِبَ فطالِعُها بالبينِ والهَجْرِ غارِبُ

ولكنَّما شَمسُ المعالي خلافُها مشارِقهُ ليستْ لهُنَّ مغارِبُ

وما لقَّبوه الشمسَ إلا وقد رووا (بانك شمس والملوك كواكب)

أقول لزوار الأمير ترجَّلوا فمن زاره من راجل فهو راكبُ

وإن زارَهُ الفُرسانُ كُنتُ كفيلَهُم بأن يرجعوا والخيلُ فيهم جنائِبُ

إذا رجعوا عن بابه فنشيدُهم (وإن سكتوا أثنت عليه الحقائبُ)

إلى كم يحلُّ المرءُ مثلُكَ بلدةً بها مُنبرٌ فيها لغيرك خاطب

لقد هان من أمسى ببلدة غيره (وقد ذلَّ منْ بالت عليه الثعالب)

عليك بهذا السيفِ فاقضِ ديونه فللسيف دينٌ عند حقك واجبُ

ولا تقعدنْ تُغضي الجفونَ على القذى وفي الأرض مركوب ورمح وصاحبُ

غريمُكَ هذا الدَّهرُ فالزمه يغترم فلن يوقَظ الغُرَّامَ إلا المُطالِبُ

وإلى جانب المعاني العامة المعروفة في شعر المديح معان استقاها من المثل والمبادئ والأفكار الشائعة في عصره، وقد بينا في فصل سابق أن الخوارزمي كان يميل إلى مذهب الاعتزال ولهذا امتدح للصاحب نصرة هذا المذهب، وأشاد بنصرته العدل والتوحيد، وهو واحد من أهم مبادئ الاعتزال، يقول[2] :

ومن نصر التوحيد بالعدل فعله وأيقظ نوام المعالي شمائله

ومن ترك الأخيار ينشد أهله (أجل أيها الربع الذي خف آهله)

---

(1) اليتيمة 4/ 221، تاريخ العتبي 1: 407.

(2) اليتيمة 4/ 214.

ومن هنا يتبين أن غرض المديح كان شديد الالتصاق بحياته السياسية والاجتماعية حتى أنه طغى على غيره من الأغراض، وحق لنا أن نلحقه بقائمة الشعراء المداحين.

الهجاء:

يعد الهجاء واحداً من أهم الأغراض التي علق بها لسان الخوارزمي فكثر في شعره، وتعود أسباب هذه الكثرة إلى كثرة خصومه، وتكسبه بالشعر وظروف حياته المتنقلة في بقاع تتطلب سطوة السيف أو اللسان. ولم يكن الخوارزمي صاحب سيف فيعمله، فكان يضرب بلسانه دفاعاً عن نفسه وعن مصالحه، وكانت ضرباته سريعة ومؤثرة، تنم عن صدق الإحساس، ومقدرة على الاستجابة السريعة لمؤثرات الحياة، ومعرفة أثر الكلمة في جرح الإحساس، وقد تميز ما وصل لنا من شعره في الهجاء بأنه مقطعات صغيرة أغلبها لا يتعدى البيتين، تحمل في طياتها ضربات موجعة مليئة بالسخرية اللاذعة، فمن ذلك قوله في هجاء أبي بكر النحوي البستي:

نحويكم في حمقه معرفة لا نكرة
ذو لحية مبسوطةٍ وفطنه مختصرة

ويتجلى صدق العاطفة والإحساس في قصيدته التي كتب بها إلى الصاحب ابن عباد يمدحه فيها، ويشكو إليه ما حل به على يد حسام الدين أبي العباس تاش أحد قادة جيوش السامانيين وقد ضمن هذه الشكوى المرة هجاء عرض له من خلال صور المأساة التي حلت به على أيدي السامانيين. فقد صادروا أمواله التي جمعها بالتكسب والمديح، فكانوا كالجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس؛ فلا يترك خلفه غير الألم والحسرة والدموع، ولأنهم يصادرون أموال الشاعر التي جمعها بالتكسب والوقوف على أبواب الممدوحين فهم متكسبون مثله وهو أمر مستقبح من السلاطين والولاة يقول[1] :

---

(1) اليتيمة 4/ 234-235.

جزى الله عني أهلَ سامان ما أتوا | وفي اللهِ للثـأرِ المُضَيَّعِ طالِبُ
هُمُ زوَّجوني الهمَّ بعد طلاقِهِ | وذلكَ عُرسٌ للمآتمِ جالبُ
هم أعطشُوا زرعي فشمْتُ سحائباً | غرائِبَ لما أخلفتني القَرائِبُ
فانحوا لزرعي بالحصادِ وأنضبوا | مياهاً لها أيدي سواهُم مذانِبُ
انحصد أيديكُم، ويزرعُ غيرُكم | فأنتم جرادٌ والملوكُ سحائِبُ
فأنتم مدحتُم آلَ بويةَ لا أنا | (وأمدحُ من لفظِ اللسانِ حَقائبُ)

وحين توجه إلى بني شار، ولم يجد عندهم ما كان يأمله من خير عميم، ورزق وفير، ومكانة مرموقة، جرد لسانه لهجائهم، فعاب عليهم قلة الوفاء والبخل، في الوقت الذي كانوا يدعون الكرم، ويطلبون المديح من الشعراء والأدباء.[1]

ألا أبلغ بن شارٍ كلامي | ومَنْ لم يلقهم فهو السَّعيدُ
علام ابتعتم فرساً عتيقاً | وليس لديكُم علفٌ عتيدُ
وفيم حبستُم في البيتِ بازاً | يحيصُ الطَّيرُ عنه أو يحيدُ
فلا قربتُموهُ فعلّتمُوه[2] | ولا خلّيتم عنه يصيدُ

فهو لا يكتفي بهجائهم، والتعريض بهم، ولكنه يفخر ويباهي بنفسه إذ لا يقيم على الخسف، ولا يرضى بعيش الذل والهوان كالفرس الكريم لا يصلح أن يقتنيه غير الكرام، والصقر الذي لا بد لمن يربيه أن يكرمه، ويقدم له طعاماً يقوم مقام الصيد الجزل.

ومع ذلك، فلا يكاد يخفي على القارئ ما في تلك الأبيات من ذلة وخضوع وأنه وإن وصف نفسه بالعتق وعراقة الأصل فإنه لم يخرج عن كونه فرساً ابتيع بدراهم

(1) اليتيمة 4/ 206-207.

(2) عَلّتموه: أي تكلفتم رزقه، وفي اليتيمة فعلمتموه، ولا يستقيم به الوزن والمعنى.

معدودات ثم حرمه الشاري العلف أو بازا اصطيد وحبس دون طعام. لا شك أن الطمع هو الذي أورد الشاعر موارد الذل والخنوع وهجاؤهم بالبخل لا يعد شيئاً إزاء ما ورط الشاعر فيه نفسه. وإن حب المال هو الذي حمله وغيره من الشعراء على إراقة الوجه تحت أقدام الممدوحين. وتتجلى السخرية واضحةً في بيتين آخرين هجا فيهما طاهر بن شار، وقرنه بالكلب [1] :

لله في كـــل مـــا قضـــاه	لطـــائف تحتهـــا بـــدائعْ
سـبحان مـن يطعـم ابـن شـار	ويـترك الكلـبَ وهـو جـائعْ

وقد قاده تعصبه للمذهب الشيعي إلى هجاء الخلفاء العباسيين الذين غصبوا [2] الشيعة حقهم، وقد ضعف نفوذهم وسلطانهم بقوله:

مالي رأيت بني العباس قـد فتحـوا	مـن الكُنـى ومـن الألقـابِ أبوابـا
ولقبـوا رجـلاً لـو عـاشَ أولُهـم	مـا كـان يرضـى بـه للحـش بوابـا
قـلَّ الـدراهمَ في كفَّـيْ خليفتنـا	هـذا فـأنفقَ في الأقـوامِ ألقابـا

ولعل هذا التعصب هو الذي حدا به إلى هجاء أحد العلويين لأنه مال عن مذهب التشيع، واعتنق مذهب السنة [3] .

شـريفٌ فعلُـه فِعْـلٌ وضـيعٌ	دنـيءُ الـنَّفسِ عنـد ذوي الجـدودِ
عَـوارٌ في شَـريعتنا وفَـتْحٌ	علينـا للنَّصـارى واليهـودِ
كـأنَّ اللهَ لم يَخلِقْـه إلا	لتنعطـفَ القُلـوبُ علـى يَزيـدِ

---

(1) اليتيمة 4/ 221، تاريخ العتبي 1: 407.

(2) اليتيمة 4/ 230، سيرة جلال الدين منكبوتي/ 182.

(3) اليتيمة 4/ 230-231، عيون التواريخ 12/ 225.

فالميل إلى السخرية واضح بين، ويكاد يكون أشد وضوحاً في هجائه لأبي سعيد بن ملّة حيث يقول[1]:

أرى لـك أفعـالاً تنـاقض أمرهـا ... علـى أنهـا في القبح والعـار واحـد

نبيذك ذا حلوٌ ووجهك حامضٌ ... ومـاؤك ذا سخن وفعلـك بـارد

وقد يلجأ الخوارزمي في بعض الحالات إلى استعمال الألغاز، والتلاعب بالكلمات والحروف، زيادة في تشويه صورة المهجو، والتندر به فمن ذلك قوله في طاهر بن شار[2]:

وقـال أنـا المليـك فقلـت حقـا ... بقلـب الـلام نونـاً في الهجـاء

ولم أر مـن أداة الملـك شـيئاً ... لـديك سـوى احتمالـك للـواء

واحتمال اللواء كناية عن السقوط الأخلاقي، ولعل مقطعاته الأخرى لا تخلو من إسفاف في المعنى، واستعمال لكلمات مبتذلة لا يقبلها الذوق، يقول في هجاء أبي سعد بن دوست الهروي:

أبـو سـعد لـه ثـوب مليـح ... ولكـن حشـو ذاك الثـوب خريـه

فـإن جـاوزت كسـوته إليـه ... فلـيس وراء عبّـادان قريـة

أما تلاعبه بالألفاظ فيظهر واضحاً في هجاء طاهر السجزي وكان يكنى بأبي الحسين[3]:

ألا يـا سـائلي بـأبي حسـين ... وفي التجريـب علـم مسـتفاد

هـو ابـن سميِّـه، والطـاءُ عـينٌ ... وشـبهُ كِنيِّـه والسـينُ صَـادُ

(1) اليتيمة 4/ 231.

(2) اليتيمة 4/ 207، الكناية والتعريض/ 35.

(3) اليتيمة 4/ 232.

يعني أنه ابن عاهر، وابن حصين هي كنية الثعلب وقد تدفع به السخرية أحياناً إلى سلوك طريق مليء بالسخف يفيض بكلمات نابية ومعان مبتذلة رخيصة، فيذكر العورات ولا يكني، وقد كان هذا اللون شائعاً في ذلك العصر، اشتهر به طائفة من الشعراء، كابن حجاج وابن سكرة الهاشمي وغيرهما ويبدو أن الخوارزمي قد تأثر بهذه الطائفة من الشعراء ويقول في هجاء أحدهم[1]:

فسا الشيخ سهواً وفي كفه راح فلمناه لوماً قبيحاً

فقال: لي الدخل والخرج لي فأدخلت راحاً وأخرجت ريحاً

وخلاصة القول أن فن الهجاء عنده يمثل الوجه الآخر للعلاقات التي كانت سائدة بين الشعراء والحكام، وأن هذا الفن كان شديد الالتصاق بمقتضيات العصر ومتطلباته، وأن ظاهرة الفحش والإقذاع في الشعر كانت رائجة مقبولة عند السامعين.

الرثاء:

الرثاء من الأغراض التقليدية المعروفة في الشعر، فما من شاعر إلا أحسَّ بثقل الفراق الأبدي الذي يجلبه الموت وأحس بالألم والحزن الذي يعانيه أهل الراحل لفقده. من أجل ذلك كان الرثاء- بصورة عامة- على جانب كبير من الصدق في التعبير لأننا حين نفقد إنساناً، لا نحزن لفقده فحسب، ولكننا نحزن لفنائنا المرتقب فقد يتصور كل منا أنه صائر إلى زوال، وأن الآمال التي يحملها تتحطم أمام صورة الموت المخيفة، ولهذا كان الاتجاه إلى الحكمة، والميل إلى الزهد من السمات البارزة في شعر الرثاء. ما نفع كل أعراض الحياة، وما فائدة الصراع الذي نخوضه من أجل الطموح، إذا كان الموت هو المآل؛ فعظماء التاريخ يموتون وبسطاء الناس يموتون، والكل صائر إلى زوال، فالحكمة الناسكة المثبطة للعزائم والهمم هي السائدة في هذا اللون من الشعر.

(1) اليتيمة 4/ 232، نهاية الأرب 4/ 75.

يقول الخوارزمي في رثاء مؤيد الدولة، وتهنئة فخر الدولة البويهي[1]:

ألم تـرَ أن المـوتَ قـد نصـح الـدُّنيا وقـال لمـن يسـعى لها أنـتم الحمقـى؟

يقولـونَ عالجنـا فصـحَّ عليلُنـا وما اعتلَّ من يبقى وما صحَّ من يفْنى

إذا النـاسُ ظنُّـوا أنهـم في سـلامةٍ فأبـدانُهم صـحَّت، وأنفسُـهم مرضـى

وقـولا لفخـرِ الدَّولـةِ الملـكِ الـذي تسـيرُ العُلـى في طـرْقِ هِمَّتِـه حَسـرى

رزئـتَ أخـاً لـو خُـيِّر المجْـدُ في أخٍ من النَّاسِ طُـراً مـا عـداهُ ولا استثنى

وقـد جـاءت الـدنيا إليـك كمـا تـرى طفيليـة قـد جاوبـت قبـل أن تـدعى

وقد جمع الشاعر في هذه القصيدة بين الرثاء والمديح، وهـو أمـر معـروف لـدى الشعراء الذين سبقوه، ويمكن القول أن العاطفة في مثل هـذه القصـائد، أعـني قصـائد رثاء الولاة والحكام لا يمكن أن ترقى إلى مستوى العاطفة في رثاء الأصدقاء والأقارب، الذين نحس بلوعة حقيقية لفراقهم، فنصف الأطفال وهـم يصـرخون، والنسـاء وهـي تولول وتنشج، ونستعيد ماضي الذكريات التي جمعتنا بهـؤلاء وحـرارة الـدمع، وثقـل الفراغ الذي يخلفه فقد الأبناء والآباء. على أن ما بقي من شعر الخوارزمي يكاد يكون خالياً من رثاء الأقارب والأبناء والأصدقاء، وهو الذي يمكن أن نستدل به على عمـق التجربة وصدق الأحاسيس والمشاعر عنده، ولا نستثني من ذلك قصيدته في رثـاء أبـي الحسن المحتسي التي حاول أن يظهره فيها صديقاً وعشـيراً لـه في حياتـه، إذ لم يسـتطع التخلص من تأثير المصالح والمنافع التي كان يحصل عليهـا، فكـان كمـن ينـدب حظـه بفقده، لا من يحزن لفراق الصديق بعاطفة مشبوبة. يقول في هذه القصيدة[2]:

وصـاحبٍ لـي لـو حلَّـت رزيَّتـهُ بـالطير مـا هَتفـتْ يومـاً علـى فَـنن

---

(1) اليتيمة 4/ 227، تاريخ العتبي 1/ 132.

(2) اليتيمة 4/ 229-230.

عاشــرته عشــرةً لــو أنهــا وقعــت	بين الضُّحى والدُّجى سارا على سَنَنِ
حتــى إذا نلــت سُــؤلي مــن مَواهِبِـهِ	وصــادني بشــباكِ الوصــلِ والمِــنَنِ
ثكِلْتُـــه بعـــدما ســـارت محاسِـــنُه	في العَظْمِ واللَّحمِ سيرَ الماءِ في الغُصُـنِ
يــا دهــرُ أثكلــتني حتــى أبــا الحسَــنِ	لقـــد أمنـــتُ عليـــهِ غـــيرَ مـــؤتمَنِ
وصــنت ســهمك مــني يــوم قتلكــه	في مقتــل القلــب لا في مقتــل البــدنِ
جمعت ضدَّين مــن خــرقٍ ومــن أدبٍ	بطشَ الجَهولِ، ومكرَ العاقِـلِ الفَطِـنِ
قد كنتُ أَعجبُ لِمْ أخرتَ من أجلي	فــالآنَ أدري لمــا قــد كنــتَ تــذخرُني
ولم يكــن في الــورى ذا منظــرٍ حســنٍ	في مخـــبرٍ حســـنٍ إلا أبـــو الحســـن

فالتصنع والافتعال ظاهران في أبيات هذه القصيدة، رغــم كــل المحــاولات الــتي بذلها لإظهار الحزن والتفجع، فقد وصف الرزية بأنها شديدة وأنها لو أصابت الطير لما عاد إلى الغناء والترنم، وأن عشرته كانت متينة بحيث لو وقعت بين الضحى والـدجى، وهما على طرفي نقيض لما افترقا، وأن موته كان ضربة لآماله ومصالحه، ثم يهجم على الدهر معاتباً ومعنفاً، ولم يجد غير معنى باهت ينعته به، وهو تطابق المنظر والمخبر.

أما قصيدته في رثاء ابن العميد ورغم أنها من قصائد رثاء الولاة والحكام فهـي تختلف عن غيرها من القصائد بحكم الظروف التي قيلـت فيهـا، ويخيـل إلـي أنـه كـان صادقاً في مشاعره، ذلك أن مقتل ابن العميد على يد بني بويه، ووزيرهم الصاحب بن عباد، كان يمكن أن يدفع به إلى التشفي بمصابه، واستخلاص العبرة من الدرس القاسي الذي لقنوه إياه، ولكن صدق العاطفة وعمق الإحساس قد دفعا بـه إلى رثائـه وبكائـه برغم ما كان يمكن أن يجره عليه ذلك من وبال، ولعل خوفـه مـن التصـريح بأسـباب الفجيعة هو الذي دعاه إلى مخاطبة الدهر وتقريعه وتأنيبه، وقد ذكرنا في فصل سابق أن الدهر عنده وعند غيره من الشعراء كان ذا مدلول سياسي يرمـز بـه إلى السـلطان وإلى ولاة الأمر، وأنه حين يعنفه ويلومه، إنما يعنف مرتكبي الفعلة الشنعاء. ثـم يعمـد بعـد

ذلك إلى الحكمة والدعوة إلى الزهد في هذه الحياة التي لا تستقيم لأحد، ويخاطب نفسه، ويتحدث عن الألم والحرقة والدموع الغزيرة التي تنسكب من عينيه حزناً وألماً، ويضرع إلى الله أن يضفي عليه ذيول رحمته وغفرانه، ويندفع إلى المغالاة في الحزن، فيتمنى الموت طمعاً في لقاء مرتقب يوم القيامة، يقول في رثائه[1] :

يا دهرُ إنكَ بالرجالِ بصيرُ ... فلطالما تجتاحُهم وتُبيرُ

يا دهرُ غيري من خدعتَ بباطلٍ ... وابنُ العَميدِ مُغيَّبٌ مقْبورُ

الآن نادتنا التَّجارِبُ طلِّقوا ... دُنياكُمُ إنَّ السرورَ غُرورُ

يا دهرُ ظلَّ لِمخلَبيكَ فريسةً ... رجلٌ لعمري لو علمتَ كَبيرُ

رجلٌ لو أنَّ الكُفرَ يحسُنُ بعدَه ... هُجِيَ القَضاءُ، وأُنِّب المَقْدورُ

أشكو إليكَ النَّفسَ وهي كئيبةٌ ... وأذم فيكَ الدَّهرَ وهوَ غَزيرُ

وأقولُ للعَينِ الغَزيرِ بُكاؤُها ... خطبٌ لعمري لو عَميتِ يَسيرُ

قد مِتُّ بعدَكَ ميتةً مستورةً ... قد ساقها لي موتُكَ المشهورُ

ودفِنْتُ في قبرِ الهُمومِ وضمَّني ... كفنانِ: ضيقُ الصَّدرِ والتَّفكيرُ

ضحكتْ إليكَ الحُور ضحكك كلَّما ... وافاكَ ضيفٌ أو أتاكَ فَقيرُ

وضفَت عليكَ ذيولُ رحمةِ ربنا ... واللهُ بَرٌّ بالجوادِ غَفورُ

وسقى ضريحَكَ مستَهلٌّ عمرُه ... شَهْرٌ، وعُمر النبتِ منهُ شُهورُ

جودٌ ككفِّكَ أو كعيني أو دمٌ ... أجراهُ سيفُكَ في العِدى مشهورُ

أهوى القيامةَ لا لشيءٍ غيرَ أن ... ألقاكَ فيها والأنامُ حُضورُ

وأحِبُّ فيكَ الموتَ علماً أننا ... بعدَ المماتِ إلى اللِّقاءِ نصيرُ

---

(1) اليتيمة 4/ 226-227.

وتجدر الإشارة إلى أن الشعر الذي يقال في رثاء الولاة والحكام أغلبه متكلف فيه تملق كاذب، وفيه محاباة، يهرع الشاعر إلى صفات المدح فينسبها إلى المرثي يصفه بالكرم والشجاعة والعفة والطهر، ويبالغ في هذه الأوصاف مبالغته في مدح الأحياء. ورثاء الخوارزمي لم يخرج عن هذا الإطار وقصيدته في رثاء ركن الدولة شاهد على انسياقه وراء هذه المعاني ودليل على غياب العاطفة الوجدانية وفقدان الصدق في الأحاسيس والمشاعر. كما أن القافية الساكنة التي بنى القصيدة عليها والنغمة الموسيقية الراقصة لا تستطيعان أن تقنعا القارئ بصدق الانفعال: يقول[1]:

ألستَ ترى السيفَ كيفَ انثلمْ	وركنَ الخلافةِ كيفَ انهدمْ
طوى الحسنَ بنَ بويهِ الرَّدى	أيدري الردى أيُّ جيشٍ هَزمْ
طويلُ القَناةِ، قصيرُ العِداتِ	ذميم العُداةِ حميدُ الشِّيمْ
فصيحُ اللسانِ، بديعُ البنانِ	رفيعُ السِّنانِ سريعُ القَلَمْ
يكيلُ الرِّجالَ بأقدارِها	ويرعى البُيوتاتِ رَعيَ الحَرمْ
جوادَ عليهم بخيلٌ بهم	إذا ساءَ خصَّ، وإن سرَّ عمْ
فيا دهرُ سُحقاً ولا تحتشِمْ	فقد ذهبَ الرَّجلُ المُحتشمْ
وخطُّ الفَناءُ على قَبْرِهِ	بخطُّ البِلى وبنانِ السَّقمْ
إذا تمَّ أمرٌ دنا نَقْصُهُ	تُوقَّعْ زوالاً إذا قيلَ تمْ

ويبدو أن الخوارزمي قد تأثر بقصيدة الخنساء في رثاء أخيها صخر حيث تقول[2]:

طويل النجاد رفيع العماد	ساد عشيرته أمردا

(1) اليتيمة 4/ 226.

(2) ديوان الخنساء ط5/ 31.

إذا القـــوم مـــدوا بأيـــديهم إلى المجـــد مـــد إليـــه يـــدا

فنـــال الـــذي فـــوق أيـــديهم مـــن المجـــد ثـــم مضـــى مصـــعدا

ويحمـــل للقـــوم مـــا عـــالهم وإن كـــان أصـــغرهم مولـــدا

تـــرى المجـــد يهـــوي الى بيتـــه يـــرى أفضـــل المجـــد أن يحمـــدا

ولعل الدوافع التي قادتـه إلى رثـاء أحـد خصـومه، وإظهـار الحـزن في موضـع الشماتة تتلاءم مع المثل العربية التي لا تقر الشماتة بالأموات، لأنها لا تعبر عن عراقة الأصل ولا عن نبل الأخلاق، ولا هي مما يتحلى به الشهم الكريم، وقد وجد في هـذا الموقف تجاوباً مع ميله إلى الترفع والاعتداد بالنفس اللذين كـان يتحلـى بهمـا فأبـدى الحزن والجزع وأظهر نبل العاطفة الإنسانية رغم الخصـومة والعـداء واسـتعاد بـالحزن أحزانه، وتذكر بالموت آلامه. فما انصاع للحقد، ولا انطلق إلى التشفي ولكنه عمد إلى طريقة شبيهة بالعتاب، عتاب لا يخلو من مرارة، ولكنه لا يبلغ مبلغ السـخط، وصـور لنا الصراع الدائر في نفسه بين مشاعر الفرح وبين مشاعر الحزن ولكل منهمـا مسـوغ، وفي كل منهما صدق، أحس أنه خسر بفقده رجلاً كريماً، وأحس بالفرح لأنـه تخلـص من الظلم الذي ناله على يديه واستطاع- رغم التناقض- أن يشعرنا بميـل واضـح إلى الحزن والألم، وقد لجأ كعادته إلى الحكمة، فدعى إلى تحكيم العقـل والاعتـدال في كـل أمر، والابتعاد عن المغالاة في المحبة والكراهية، فعـدوُّ اليـوم قـد يكـون صـديق الغـد، وصديق اليوم قد يكون عدو الغد، ويمكن أن نعد هذا اللون من الرثاء جديداً في بابه.

ولطول القصيدة نقتطع أبياتاً منها[1]:

أيـــدري الســـيفُ أيَّ فتـــىً يُبيـــد وأيَّـــة غايـــةٍ أضـــحى يُريـــدُ

لقـــد صـــادتْ يـــد الأيـــامِ طـــيراً تضـــيقُ بـــه حبالـــةُ مـــن يَصـــيدُ

(1) القصيدة في اليتيمة 4/ 228-229.

فـــلا أدري أأضـــحكُ أم أبكّـــي — وتهـــدِمُني المَنيَّـــةُ أو تُشـــيدُ
صـــديقٌ قـــد فَقـــدناهُ قَـــديمٌ — وثكـــلٌ قـــد وجـــدناه جَديـــدُ
مصـابٌ وهْـو عنـدَ النـاسِ نُعمـى — ونحسٌ وهـو عنـدَ النـاسِ عيـدُ
تهنِّـــيني الأنـــامُ بـــه ولكـــن — تُعـــزيني المواثِـــقُ والعُهـــودُ
وسـيفٌ قـد ضُـربتُ بـهِ مِـراراً — فمـن ضَـرباتهِ بـي لـي شُـهودُ
فلمـــا أنْ تفلَّـــل ظِلـــتُ أبكـــي — وعنـــدي منـــهُ بعـــدُ دمٌ جَســـيدُ
ومـن عجـبِ اللَّيـالي أن خصـمي — يبيـــدُ، وأن حُزنـــي لا يبيـــدُ
وأن النصـــفَ مـــن عـــيني جَمـــودٌ — وأن النصـــفَ مـــن عـــيني جَليـــدُ
إذا ســفَحتْ عليـــهِ دُمـــوعُ عـــيني — نهاهـــا الهجـــر منـــه والصـــدودُ
وآثـــار لـــه عنـــدي قبـــاحٌ — يجمِّـــش بينهـــا الـــرأسُ الحَديـــدُ
فنصـــفٌ مـــن مـــدامِعها ســـخّينٌ — ونصـــف مـــن مـــدامعها بَـــرودُ
فمـــن هـــذا رأى في النـــاس مِثلـــي — أريـــد مـــن المُنـــى مـــا لا أريـــدُ
ومـــن نكـــد المنيـــةِ فقـــد حُـــرٍّ — تخـــالفَ فيـــه إخـــواني الشُّـــهودُ
فـــذا هنَّـــا، وقـــالَ مضـــى عَـــدُوٌّ — وذا عـــزَّى وقـــال مَضـــى وديـــد
رأيــت العقــلَ ينفــعُ وهــو قَصْــدٌ — ويلقـــي في المهالِـــكِ إذ يَزيـــدُ
كمثـلِ الـدِّرعِ إن خفَّـت أجنَّـتْ — وإنْ ثقُلَـــتْ فحامِلُهـــا جَهيـــدُ

الشكوى:

الشكوى صوت صدى حزين ينبعث من أعماق النفس الإنسانية نتيجة إحساس بالضعف والظلم، غايتها التخفيف عن النفس من خلال نقل الأحاسيس للآخرين طلباً للمشاركة، وبحثاً عن الخلاص، وبقدر ما يحس الإنسان بثقل كاهل الحياة عليه ومجانبتها لطموحه وأهوائه وقلة الحول والطول في التغيير، تتصاعد زفرات

الشكوى وتندفع الآهات الحرى. وقد تكون الشكوى نتيجة إحساس جماعي، كما قد تكون نتيجة اضطهاد فردي، أو إحساس بالاضطهاد، وربما استغل هذا الغرض في طلب المنافع، واعتمد أسلوباً في الحياة، من غير ما إحساس بظلم أو استجابة لأحاسيس صادقة..

ولم يكن غرض الشكوى عند الخوارزمي إلا استجابة لكل هذه الدافع، فقد أحس بالظلم الواقع على معتنقي مذهبه في عقيدتهم وآرائهم السياسية وأحس بالاضطهاد الفكري، مثلما أحس بمرارة الفقر والجوع وتعثر آماله وطموحه، ولم يستطع إخفاء حقيقة الرغبة في اجتناء المنفعة رغم التظاهر بالعفة والترفع، وقد اتخذت الشكوى لديه صوراً متعددة. فمن شكوى الزمان الذي تجسدت فيه صورة الاضطهاد الديني والسياسي والفكري، إلى شكوى الفقر والمرض والحرمان وشكوى الأصدقاء والإخوان، ولما لم يستطع التصريح عمد إلى التلميح، واختار الدهر غرضاً يرشقه بسهام الهجاء والشكوى فذلك الدهر ظالم غشوم، لا يؤتمن، ولا تدوم عطاياه، وإن بدا كريماً، فهو كالسيل العرم لا يعتد بسنقاية ما خربه، وكالسم الزعاف، يخيب أمل شاربه في الشفاء، يقول الخوارزمي[1]:

لا تشكر الدهر لخير سببه	فإنه لم يتعمد بالهبهْ
وإنما أخطأ فيك مذهبه	كالسيل إذ يسقي مكاناً خرَّبهْ
والسم يستشفي به من شربه	ما أثقل الدهر على من ركبهْ
حدثني عنه لسان التجربهْ	ما أهون الشوكة قبل الرطبهْ

وأسهل الكد على من أكسبه

---

(1) اليتيمة 4/ 240.

وحين يساوره اليأس، وتلم به الخطوب فلا يتبين طريقه، يلوذ بالشعر شاكياً وقد تتخذ شكواه شكل الحديث مع النفس كقوله[1] :

لِمْ لا أجانس دهري في تقلُّبه	لِمْ لا أبادل إنساناً بإنسانِ
لم لا أحاكي حبيباً في مقالتِه	ما اليوم أول توديعي ولا الثاني
لِمْ لا أقارضُ ما قد قاله حَسَنٌ	وصلاً بوصلٍ وهجراناً بهجرانِ

ولعل حياته المليئة بالاضطراب والاغتراب، وتقلب أحواله بين الثراء الفقر قد أشعرته بقسوة العوز والحاجة، والفقر من ألد أعداء الإنسان يقتل في نفسه الطموح، ويورثه الذل، ويغرس في قلبه الحقد. وقد كانت معاناة الخوارزمي شديدة، ذلك أنه انحدر من أسرة غنية ما لبثت أن افتقرت، حتى إذا جمع بركوب الأهوال شيئاً من الثروة سلط الله عليها يد الولاة والحكام، فذهبت بدداً، وافتقد بفقدانها كثيراً من أدعياء الصداقة. يقول من قصيدة له[2] :

ولقد بلوتُ الأصدقاءَ فلم	أر فيهم أوفى من الوَفْرِ
وكذاكَ لم أر في العدى أحداً	أنكى لمن عادى من الفقرِ
ذهب الغنى وورثت عادته	فأنا الغني وغيري المثري
وتجمَّعت فيَّ اثنتان ولم	يتجمعا في سالفِ الدهرِ
لا يبرح المقصوص موضعه	ولقد قُصصتُ فطرتُ عن وكري

أما إحساسه بالاضطهاد الفكري، الذي عبر عنه بقوله[3] :

وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان... ولم أر أميراً يحجر على

---

(1) ثمار المتون/ 311.

(2) اليتيمة 4/ 236.

(3) الرسائل/ 10.

كاتب في كتابته أو على شاعر في شعره. فقد عبر عنه شعراً بأسلوب ساخر من خلال نصيحة غير مألوفة، تحمل معاني النقد المشوب بالمرارة والسخط فيقول[1] :

فــإن ســرّك حرمــانٌ ... بــه تصــبحُ مقليّــا

فكــن ذا أدبٍ جــزلٍ ... وكــن مــع ذاكَ نحويّــا

ويرتبط شكوى الفقر عنده بإظهار الأسف لانعدام الجود والكرم، إذ ينعى على الموسرين شحهم وبخلهم، وتملصهم من التزام حق السائل والمحروم، وتمنى أن يكون صاحب جيش فلا يتسلح بغير السؤال والاستجداء لأن الناس ينهزمون منه، ولعل في هذا ما يشير إلى شيوع ظاهرة التسول والاستجداء في القرن الرابع وثقل ظل المتسولين. ويقول من قصيدة له[2] :

خبتْ نارُ العُلى بعد اشتعالِ ... وصاح الخيرُ حيّ على الزّوالِ

عدمنا الجودَ إلا في الأماني ... وإلا في الصحائفِ والأمالي

فياليتَ الدفاترَ كنَّ قوساً ... فأثرى الخَلْقُ من كرمِ الخِصالِ

ولو أنّي جعلتُ أميرَ جيشٍ ... لما حاربتُ إلا بالسُّؤالِ

لأن الناسَ ينهزمونَ منهُ ... وقد ثبتوا لأطرافِ العوالي

ويكاد يفصح عن الطلب والسؤال، عن طريق رسم صورة لحالة البؤس والشقاء التي تلم به مستدراً الشفقة والعطف، مثال ذلك قوله[3] :

ولــي قمــيصٌ رقيــقٌ ... تقُــدُّه الأوهــامُ

وجبّــةٌ لا تســاوي ... تصــحيفُها والسَّــلامُ

(1) غرر الخصائص 1/ 18.

(2) نثر النظم/ 73.

(3) المصدر السابق/ 69.

ومثلما شكا الخوارزمي الدهر والفقر شكا المرض. وقد مرت بنا قصيدته إلى الصاحب بن عباد في شكوى الحمى التي أصابته وهو بأرجان[1]، وما انتهى إليه حاله من ضعف وهزال، فشبه الحمى بامرأة غيور، لكنها تغار من طعامه وشرابه ونومه وراحته، تعترض له في كل حين، وتسد عليه كل دروب الهرب، وتقطع عليه إحساسه بالحرية والخلاص، ويشكو ما آل إليه من ضعف وما صار إليه من هزال بعد مرضه فيقول[2]:

ضنيتُ فلو أدخلتُ في حلقِ بقّةٍ ... خريفيةٍ من دِقّتي لم تغصّ بي

وأصبح قلبي في يدِ الهمِّ واغتدتْ ... أمانيُّ في أظفارِ عنقاءَ مغربِ

أما الشكوى من الإخوان والأصدقاء فشائعة في شعره، وقد بينا في فصل سابق مقدار تبرمه بما ساد مجتمعه من زيف ورياء ومصانعه وقلة وفاء، وقد انعكس هذا الشعور في أدبه شعراً ونثراً، وإن كان أبين في النثر منه في الشعر: يقول[3]:

ولي والله إخوان كثيرٌ ... نصيبي من فعالهم سواء

ولكني رأيتك من أناسٍ ... إذا لم يحسنوا فلقد أساؤوا

وتلتقي تجربته مع الأصدقاء بتجارب السلف الذين أدركوا قلة الوفاء بين الأصدقاء حتى أصبح الظفر بصديق ودود من الأمور المستحيلة، فقد قال الأول:

ثلاثة ليس لها وجود ... الغول والعنقاء والودود

ويقول الخوارزمي[4]:

---

(1) اليتيمة 4/ 217، نهاية الأرب 2/ 262.

(2) ثمار القلوب/ 505.

(3) اليتيمة 4/ 234.

(4) ثمار القلوب/ 495.

تغربتُ أسألُ من عنّ لي من النّاسِ هل من صديقٍ صَدُوق

فقالوا: عَزيزانِ لا يوجَدان صديقٌ صدوقٌ وبيضُ الأَنُوقِ

ويعقه واحد من تلاميذه، وكان قد حَظِي منه برعاية كريمة، وزوده بعلم جم غزير، فيحز في نفسه سوء فعلته فيقول[1]:

هذا أبو بكرٍ صقلت حسامه فغدا به صلتاً عليَّ وأقدما

أمسى يجهِّلني بما علمته ويريش من ريشي لرميي أسهما

أرقيتَ بي في سلَّم حتى إذا نلت الذي تهوى كسرتَ السلَّما

ومع أن شعر الشكوى من الأغراض المعروفة في الشعر العربي إلا أنه انتشر انتشاراً واسعاً في القرن الرابع. وكان أثراً لما أصاب الناس في هذا العصر من ضروب المحن والنكبات، وألوان الفاقة والبؤس، فذوو المناصب الكبيرة كثيراً ما كانوا يتعرضون للقتل والسجن، واستصفاء الأموال، والأغنياء قلما تصفو لهم الحياة لأنهم مهددون بالاستيلاء على أموالهم، والمثقفون لا يكادون يحصلون على الكفاف من العيش، والطبقة العامة فريسة للجوع والمرض والجهل[2].

الوصف:

يبدو أن للوصف مكانة لا يستهان بها في شعر الخوارزمي وتظهر في هذه المقطعات مقدرته الشعرية على رسم صورة الموصوف عن طريق الإكثار من التشبيهات والاستعارات الحسية والعقلية، مع ميل واضح إلى المبالغة عن طريق التكرار، وحشد الصور.

---

(1) اليتيمة 4/ 235-236.

(2) الأدب في ظل بني بويه/ 339.

وقد تنوعت موضوعات الوصف عنده وتعددت، إذ وصف القلاع والقصور كما وصف النباتات والحيوانات، والخمر والطعام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أثر البيئة الطبيعية في شعره يكاد يكون معدوماً رغم ما تميزت به حياته من مظاهر التنقل والارتحال في بيئات مختلفة المناظر والمناخ والتضاريس، فمن مناطق شديدة الحرارة في فارس والعراق إلى مناطق معتدلة في بلاد الشام، ومن سهول فسيحة إلى جبال ووديان وهضاب ومن بقاع مخصبة، وأنهار ومياه، وجداول وثلوج إلى بقاع مقفرة ماؤها سراب، وطيرها غراب، وفي هذا التنوع في البيئات يتنوع جمال مظاهر الحياة، فكان من المفروض أن تمد شاعريته بمزيد من الخصب وتنمي قابلية الوصف عنده، ولكننا لم نجد أثراً لذلك في شعره، ولعل ذلك يعود إلى أنه كان شاعراً مقلداً ومتنفعاً بالشعر، لا يهتز للجمال اهتزازه للمصالح والمنافع، وقد يكون فيما ضاع من شعره شيء من ذلك ولكننا لا نستطيع الحكم على الضائع، وإن كنا لا نستطيع الاقتناع بسهولة باختفاء الغرض كلية نتيجة الضياع.

وقد بقي لنا من شعره قصيدتان في وصف المباني والقلاع عارض في واحدة منهما قصيدة الرستمي[1] في الوزن والقافية وقد تناول فيها وصف الدار التي بناها الصاحب بن عباد. وقد استطاع الخوارزمي أن يجمع فيها بين الوصف والمديح بعبارات مشرقة جميلة، وتشبيهات ظريفة أنيقة، فالدار لشدة ارتفاعها عممت رأس الغمامة، وأنارت ظلمة الليل الحالك بما يشع فيها من أنوار، وهي دار رحبة رحابة صدر صاحبها، تطفح بالكرم مثلما تطفح أياديه. ولتألقها وشدة جمالها باهت الأرض بها السماء ويحسب الناظرُ للصحنَ لاتساعه أنه لا يستطيع قطعه إلا مراحل ويصف النقوش والزخارف التي زينت الجدران، والمياه العذبة الصافية اللامعة كأنها نجوم ذائبة

---

(1) انظر اليتيمة 3/ 209 ومطلع قصيدة الرستمي:

نصبن لحبات القلوب حبائلاً عشية حل الحاجيات حبائلا

أو سيوف مشرعة، ويصف الروض متهللاً نضراً نـدياً ويشـبهه بوجـه الممـدوح حـين يلحظ مستعطياً:

فيقول[1]:

أكـلُّ بنـاءٍ أنـتَ بانيـهِ مُعْجِـزٌ	بنيـتَ المعـالي أم بنيـتَ المنـازِلا
فـلا الإنـسُ تـبني مثلـهنَّ معالمـاً	ولا الجِـنُّ تـبني مـثلُهنَّ معـاقِلا
كنائسُ أضـحتْ للغمـامِ عَمائمـاً	عُلـواً وأمسـت في الظـلام قنـادِلا
رحابٌ كأن قد شاكلتْ صدرَ ربِّها	وبيضٍ كأنْ قـد نازَعتـهُ الشَّـمائِلا
وبهوٌ تباهي الأرضُ منـه سماءَها	بأوسـعَ منهـا آخـراً وأوائِـلا
وصحنٌ يسيرُ الطَّرفُ فيه ولم يكن	ليقطعَـهُ بالسـيرِ إلاَّ مـراحِلا
تلـوح نُقـوشُ الجُصِّ في جُدرانِـهِ	كما زيَّن الوَشْـمُ الـدَّقيقُ الأنـامِلا
ومـاءٌ إذا أبصـرتَ منـه صـفاءَهُ	حسبتَ نجومَ الليلِ ذابتْ سـوائِلا
رأيت سيوفاً قد سللن على الثرى	وصارت لها أيدي الرِّياح صـياقلا
وروضٍ كعيشِ السَّـائليكَ نضَـارةً	ووجهُكَ بِشراً حـينَ تلحـظُ آمـلا

أما القصيدة الثانية فقد وصف فيها قلعة من القلاع التي افتتحها مؤيـد الدولـة، واستنزل منها صاحبها المسمى (كوشيار)، فشـبهها ببكـر لم تفـتض لأن مهرهـا غـال، وأنها لشدة مناعتها لا يحلم بالوصول إليها أحد، ولا ترقى الـريح إليهـا بغـير سـلالم، وكأنما الصوت المنبعث من هذا الطود الشامخ صـوت ديـك سمـاوي يصـيح مترنمـاً، لشدة اقترابها من السماء، وشبهها لقدمها بعجوز تنافس الدهر قدمه، ولكنها احتفظت مع ذلك بقوة الكاعب، وشدة بأسـها، ويكـرر تشـبيهاته واسـتعاراته الـتي أوردهـا في

---

(1) اليتيمة 3/ 217-218.

وصف دار الصاحب، فالنجوم عمامتها وتخوم الأرض أساسها والتنافس عليها بين الأرض والسماء قائم على قدم وساق[1]:

ويكـــرِ تحامتهـــا البُعـــولُ مخافـــةً	فقـد تُركـتْ مـن كثـرةِ المهـرِ أيِّمـا
ممنعـــةً لم يغلـــطِ الـــدَّهرُ باسمِهـــا	ولم يرهـا فـى النَّـومِ إلا توهُّمـا
تَـــزِلُّ عقـــابُ الجَـــوِّ عـــن شُـــرفاتها	وتبغـي إليهـا الـريحُ مرقـىً وسـلَّما
ويســـمعُ في الأفـــلاكِ صـــيحةَ ديكهـــا	فتحسبُ ديكَ العـرشِ صـاحَ ترنُّمـا
عجوزٌ تُرى فـى صِحَّةِ الجسـمِ كاعبـاً	ولو أُرِّخت كانت مـن الـدَّهرِ أقـدما
تـــواري أساســـاً بـــالتُّخومِ مُـــؤزَّراً	وتـبرز رأسـاً بـالنُّجومِ مُعَمَّمـا
تُنازِعهـــا الأرضَ الســـماءُ وتـــدَّعي	لـديها بهـا حقّـاً لهـا مُتَهضَّـما
وتحسَـبُها زُهـــرُ الكواكِـــب كوكبـــاً	هوى خلـفَ شـيطانٍ رجـيمٍ فخيمـا

ويظهر لنا من هاتين القصيدتين مقدرته على استيعاب الصور والربط بينها وبين صور ذهنية قريبة من الخيال بجبال المبالغة في التشبيه، والكناية والاستعارات وتبدو هذه الظاهرة جلية في وصف الحيوانات والنباتات: فمن ذلك قوله في وصف لجاة[2]:

بنـتُ مـاءٍ بـدت لنـا مـن بعيـدٍ	مثلمـا قـد طـوى البُخـاريُّ سِـفْرهْ
رأسُـــها رأسُ حيَّـــةٍ وقراهـــا	ظَهْـرُ تُـرسٍ وجلـدُها جلـدُ صـخرَهْ
مثـل فهـر العطـار دق بـه العطـر	فحلـت طرائـق الطيـب ظهـره
يقطَـعُ الخَـوفُ راسـها فـإذا مـا	أمنتـــهُ فرأسُـــها مُســـتقرَّهْ

لقد أبدع في وصف الحركة والسكون في البيت الأخير، فكنى عن الحذر وشدة

---

(1) نهاية الأرب 1/ 405.

(2) نهاية الأرب 10/ 317.

الخوف والسرعة في إخفاء الرأس بقطع الرأس، وهي حركة تتطلب سرعة وخفة ورشاقة، وترتبط بالرعب والخوف والفزع مثلما يرتبط السكون والاستقرار بالطمأنينة والأمن.

ويقول في وصف القنفذ[1]:

ومدجج وسلاحُه من نفسِهِ	شاكي الدَّوابرِ أعزلِ الإقبالِ
يُمسي ويُصبحُ لم يُفارِق بيتَهُ	ولقد سرى عدداً من الأميالِ
وتراهُ يكمنُ بعضُه في بعضِهِ	فتطيشُ عنهُ أسهُمُ الأهوالِ
عيناهُ مثلَ النُّقطتينِ وخَطْمُه	يحكي ثُدَيَّ رضاعةِ الأطفالِ
وكأن أقلاماً غُرزنَ بظهرِهِ	مسَّ المِدادُ رؤسها بِبِلالِ
تتهاربُ الحيَّاتُ حينَ يرينَهُ	هربَ اللُّصوصِ رأت سوادَ الوالي
وكأنَّه الخِنزيرُ إلا جِلده	وصياحه وتقارب الأوصال

فيشبهه بالفارس المدجج بالسلاح، لكن سلاح الفارس رمحه وسيفه ودرعه، وسلاح القنفذ درع شائك يقيه الخصوم، قد اتخذ منه بيتاً لا يفارقه، يلوذ به حين يداهمه الخطر بحركة انطوائية سريعة، وهو لصغر حجمه، وضآلة جسمه، له رأس صغير تطل منه عينان تشبه النقط، ومقدمة أنفه تشبه حلمة الثدي، ومع ذلك تهرب الحيات منه حين تراه خوفاً وهلعاً، كما يفر اللصوص أمام الشرطة، وهو في شكله العام شديد الشبه بالخنزير ولكنه يختلف عنه في جلده وصوته وحجمه.

ويقترب الوصف عنده في هذه المقطوعة من الألغاز والأحاجي ذلك الغرض الذي شاع في القرن الرابع، واشتهر به عدد من الشعراء وأهم خصائص هذا اللون من الشعر هو الميل إلى الإبهام، وذلك بطريق التلميح والتلويح بالأوصاف العارضة،

(1) نهاية الأرب 10/ 165-166.

وإيجاد نوع من الصلة دون التصريح، وتبدو هذه الظاهرة واضحة في وصف النباتات فمن ذلك وصفه للريباس[1]:

ولعبةٍ عاجٍ في قميصٍ موردٍ أسافِلُه خُضْرٌ وأزرارُه حمرُ
كأنَّ يديها والأنامِلُ خُضِّبَتْ وشُدَّت على أطرافها خرقٌ خُضرُ

وكقوله في الند[2]:

وطيبٍ لا يُخلُّ بكل طيبٍ يُحيِّينا بأنفاسِ الحبيبِ
يظَلُّ الذيلُ يستُره ولكن ئنِمٌ عليهِ أزرارُ الجُيوبِ
إذا ما شمَّ أنفٌ حنَّ قلبٌ كأن الأنف جاسوسُ القُلوبِ

ويصف الريحانَ فيكثِرُ من التَّشبيهات مع أنه لا يتناول التفاصيل وربما اتجاه إلى ذلك ميله إلى المبالغة في تزيين صورة الموصوف من خلال الربط بينه وبين ما يقترن به من صور حسية مستقاة من الواقع فيقول[3]:

وصفت ريحاناً إذا ما وصفه واصفُه قيل لـه: زد في الصفهْ
دقَّقه صانعه ولطَّفه كأنَّه وشم يدٍ مُظرفهْ
أو خطٌ وراقٍ أدق أحرفه أو زغباتِ طائرٍ مُصفَّفهْ
أو حُلَّةٍ بخُضرة مفوفة

أما الخمر فيبدو أن لها مكانة في نفسه فكان يعاقرها ويمتع نفسه بها وكان كما

(1) نهاية الأرب 11/ 64.

(2) اليتيمة: 4/ 239.

(3) اليتيمة 4/ 239- 240، نهاية الأرب 11/ 255 في اليتيمة (وضغث ريحان).

يقول الثعالبي[1]: يقسم أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأنس، ويجري على قضية قول كشاجم[2]:

عجباً ممن تعالت حالُه فكفاه اللهُ زُلّات الطلب

كيف لا يقسم شطريْ عُمره بين حالين نعيم وأدب

وقد مرت بنا أبيات الصاحب بن عباد[3] إلى أبي بكر التي يحثه فيها على مواصلة الشرب، وعدم الإصغاء لأهل النصح. وفيها ما يدل على ولع الخوارزمي بالشرب.

ولم يبق لنا غير مقطوعتين له في الخمر، وليس فيهما وصف دقيق للخمرة غير ما ذكره عن لونها الذي شبهه بالذهب في البيت الأول من المقطوعة الأولى حيث يقول[4]:

وصفراءَ كالدينارِ بنتِ ثلاثةٍ شمالٍ وأنهارٍ ودهرٍ محرَّمِ

وينتقل بعد ذلك إلى بيان آثارها الاجتماعية والنفسية، ويظهر تناقض الآثار باختلاف الوضع النفسي والاجتماعي والديني، ففيها مسرة المحْزون، وعذر المعربد وكبر المجوسي، وفتنة المسلم، وفي شربها حياة للنفوس، وقتل لها، حين يشربها الفقير المعدم ينسى فقره وبؤسه، وتعيد إليه ثقته بنفسه فيشعر بغنى النفس. وطالما أودت بثروة الأغنياء لما يرتكبون من أفعال تحت تأثيرها، فأفقرتهم. ثم يأتي بعد ذلك إلى وصف الساقي. فيشبهه بالظبي في خفته ورشاقته وكلما دار بأقداحها دارت معه أعينهم رغبة في وصاله، فكانوا يرشفون من يده خمراً ومن شفاهه وخديه خمراً،

---

(1) اليتيمة 4/ 208.

(2) الديوان: 69، وفيه (عجبي.. ذلات).

(3) اليتيمة 3/ 227.

(4) اليتيمة 4/ 238.

فتتضاعف اللذة وتزداد المتعة، ويبدع في وصف الظلام بميل واضح إلى التجريد فيشبهه في شحوبه بمعاش الفقير، وقلب المعلم الذي يذوب حنواً ورقة على تلاميذه. يقول:

وصفراءَ كالدينارِ بنتِ ثلاثةٍ ... شمالٍ وأنهارٍ ودهرٍ محرَّمِ
مسرَّةُ محزونٍ، وعذرُ معربدٍ ... وكِبرُ مجوسيٍّ، وفتنةُ مُسلِمِ
مماتٌ لا حياءٍ، حياةٌ لميِّتٍ ... وعدمٌ لمن أثرى، ثراءٌ لمعدمِ
يدور بها ظبيٌ عيونُنا ... على عينِهِ من شرطِ يحيى بنِ أكثمِ
يُنزِّهُنا من ثغرِه ومُدامِهِ ... وخدَّيهِ في شمسٍ وبدرٍ وأنجُمِ
نهضْتُ إليها والظَّلامُ كأنَّه ... معاشُ فقيرٍ أو فؤادُ مُعلِّمِ

أما المقطوعة الثانية. فيصف فيها كوز الفقاع، وهو وعاء مستدق العنق، متسع القاعدة، محكم الإغلاق، إذا فتح تصاعد منه الزبد، وكنى عن الشرب من فوهتها بالتقبيل، لكنها تثور وتهدر، كأنما هي امرأة عزوف، وفي وصفه ميل إلى استخدام أسلوب الألغاز والأحاجي: يقول فيها[1]:

وضيِّقةُ الفَمِ دحداحةٌ ... عليها قميصٌ ندىً أخضرُ
تثور إذا كشفوا رأسها ... وإن قبَّلوا فمها تهدرُ

الغزل:

اتخذ الخوارزمي لنفسه في الغزل منهجاً تقليدياً، حذا فيه حذو الأقدمين، ويرجع السبب في ذلك إلى منهجه في الشعر، وقد عرفناه مقلداً لا يرفض الجديد، كما يعود إلى الجدب العاطفي، إذ لم يعرف حياة الاستقرار، فكان دائب الحركة، كثير التنقل، كثير الهموم والمتاعب شغلته متاعب الحياة في جمع الرزق، والاهتمام بالأمور السياسية والمذهبية، فلم تترك لقلبه فرصة الانشغال بالأمور العاطفية ولهذا جاءت تجربته في هذا

(1) محاضرات الأدباء 4/ 379.

الجانب فقيرة، ولا نحس فيها بحرارة العاطفة ولا نتبين صدق الإحساس. رغم كل المحاولات التي بذلها للارتفاع إلى مستوى التجربة الحقيقية وبرغم ما حشد لها من رقيق الألفاظ، وجميل المعاني.

ولا يفوتنا أن نشير إلى ما تحدثنا به في الفصل السابق عن تخلف نظرته إلى المرأة، وحقده عليها وعدها بؤرة رذيلة، وملاذ فسق وفجور، ولهذا كان من غير الطبيعي أن يوفق بين نظرته تلك وبين الغزل والنسيب.

وقد سار التقليد عنده في منحيين: الأول: استهلال قصائد المديح بأبيات الغزل والتشبيب جرياً على نهج القصيدة التقليدية، وغالباً ما تكون مشوبة بافتعال ظاهر، فالغزل أو التشبيب، وسيلة الشاعر للتوصل إلى غرض المديح، ولا يهم الشاعر كثيراً أن ينقل تجربته ولا أن يعبر عن اللوعة واللهفة التي يحسُّ بها، ولا يهدف إلى سرد مغامراته ومقابلاته. لأن هذه الأمور لا تهم الممدوح في قليل أو كثير. وإذا كانت قصائد المديح تجنح إلى المبالغة، فمن الطبيعي أن يأخذ غرض الغزل سمات القصيدة ذاتها.

وتتضح هذه الظاهرة في شعره من خلال قصيدته في مدح عضد الدولة فقد ساق ستة أبيات من الغزل ليتوصل إلى مقابلة سخيفة وليقول بأنه حسد ناظره على التمتع بجمال تلك المرأة، كما تحسد الأفلاك نعل فناخسرو وذلك حيث يقول في قصيدته [1]:

وكم ليلةٍ لا أعلِمُ الدهرَ طيبها	مخافَةَ أن يَقْتصَّ مني لها الدَّهرُ
سهادٌ ولكنْ دونَه كلُّ رقدةٍ	وليلٌ ولكنْ دونَ إشراقِهِ الفَجْرُ
وسكرُ الهوى لو كان يحكيه لذةً	من الخمرِ سُكرٌ لم يكُن حُرِّمَ السُّكرُ

(1) اليتيمة 4/ 211.

ولمـــا أدارت مقلـــة جاهليـــة ... هـلاك امـرئ في ضـمن ثـوبي لهـا نـذر
ومالت كأنْ قد سُقِّيت خَمر خدِّها ... وكيـفَ يُميـلُ الخَمْـرُ مـن ريقَـه الخَمْـر
حسـدْتُ عليهـا نـاظري إذ تُحلُّـهُ ... كمـا تُحسُـد الأفـلاكُ نعـلَ فناخسـرو

ومع ذلك فأبياته لا تكاد تخلو من جمال في الصنعة، ومتانة في التركيب. وقد حشد كثيراً من ألوان البديع، وأتى بالعديد من المقابلات الجميلة والتشبيهات الموفقة.

وشبيه بذلك ما جاء في مقدمة قصيدته في مدح قابوس بن وشمكير، حيث استهل قصيدته بمطلع غزلي أراد به التوصل إلى مقابلة في المعاني بين خوف الجفون وخوف الممدوح شمس المعالي يقول[1] :

قامـت تـودعني بـالأدمعِ السُّـجمِ ... والصـمتُ بـينَ يـدٍ منهـا وبـينَ فَـمِ
الـبينُ أخرسـها، والـبينُ أنطقهـا ... وهـذه حالـةٌ في النـاسِ كلِّهِـمِ
قد طالما انهزمَتْ عنا الجيوشُ فلا ... تحاربينـا بجـش الـورد والمعـنم
لم يبقَ في الأرضِ لي شيءٌ أهـابُ ... فهل أهاب انكسار الجفن ذي السقم
استغفِر الله من قولي: غلطْتُ، بلـى ... أهـابُ شمـسِ المعـالي أمَّـةَ الأمَـمِ
كأنَّ لحظكِ من سيفِ الأميرِ ومـن ... حتْمِ القَضاءِ ومن عزْمي ومن كلمي

أما المنحى الثاني، فهو الميل إلى الغزل العفيف، الذي يذوب قلب الشاعر فيه حسرات على فراق الحبيب، ويتفطر شوقاً إلى لقائه فإذا حظي منه بنظرة أو ابتسامة شكا وقع السهام، وأحس بطعنات الرماح في القلب الواله المعذب، ولقد تتبع الخوارزمي الأقدمين في خطواتهم، ونسج على منوالهم، وأخذ قسماً من معانيهم فهذه أبيات في الغزل وثيقة الصلة بما جاء في شعر عنترة بن شداد العبسي حيث يقول[2] :

---

(1) تاريخ العتبي 1/ 404-405، نسمة السحر 2/ 320.

(2) لم أجدهما في الديوان، ولا في معلقته.

ولقـد ذكرتُـكِ والرِّمـاح نواهِـلٌ   مـني وبـيضُ الهِنْـدِ تقطـرُ مـن دَمـي
فـوددتُ تقبيـلَ السُّيوفِ لأنهـا   لمعــت كبــارقِ ثغــرِكِ المتبسِّــم

ويقول الخوارزمي[1] :

ولقـد ذكرتـك والنجـوم كأنهـا   درٌ علـى أرضٍ مـن الفَيْـروزج
يلمعْنَ مـن خلـلِ السَّحابِ كأنها   شَـرَر تطـايرَ في دُخـانِ العَـرفجِ
والأفقُ أحلكُ من خـواطرِ كاسـبٍ   بالشِّـعرِ يسـتَجدي اللئـامَ ويرتجـي
فمزجـتُ دمعـي بالـدِّماء ولم أكـن   صـرفَ الهَـوى والعهـدِ إن لم أمـزج

ويتضح من هذه الأبيات مقدار تأثره بالحضارة من خلال موازنة الصور والتشبيهات الواردة في القصيدتين المشتركتين في موضوع واحد. فالدر والفيروزج، من ألفاظ الحضارة الجديدة، وبينها وبين السيف والرمح والسنان مسافة ما بين المدنية والبداوة ثم إن تشبيه الأفق بخواطر الكاسب من الأمور المرتبطة بالحضارة، ويتصور نفسه عاشقاً أضناه العشق، وغيب رشده فيكثر أصدقاؤه لومه، محاولة منهم لإرجاعه إلى جادة الصواب ويرد عليهم رد العاشق الموله، ويقول لهم إن اللوم لا يجدي العاشق شيئاً، لأن القلب ضعيف لا يحتمل الفراق، وقد يكون في الفراق مقتله، فلا تتعبوا أنفسكم في لومي وتقريعي، فمتى كان في الوجود حب ورشد[2] :

لـيس علـى القلـبِ للعـذولِ يـدُ   ولا ليـومي مـن الفـراقِ غَـدُ
كـل فـؤادٍ مـع الهـوى غَـرضٌ   وكـلُّ يـوم مـع النَّـوى أمـدُ
يـا أيهـا الطـالبونَ بـي رشـدا   متـى التقـى الحُـبُّ قـطُّ والرُّشـدُ
ولـي فـؤادٌ مـذ صِـرتُ أفقِـدُه،   لم أنتفـع بعـدَهُ بمـا أجِـد

(1) اليتيمة 4/ 211.

(2) اليتيمة 4/ 212.

شـــهدْتُ للقلـــبِ حـــينُ عُلّقـــه　　　بأنّـــه للوجـــوهِ مُنتقِـــدُ

ويقودُه خيالُه إلى اصطناعِ تجربةٍ مستقاةٍ من الشعر القديم تموج بالعتاب، فيتخيل حبيبته مرتحلة، ويقف ليودعها فتلمح ابتسامة على وجهه، فيخالجها الشك، وتنظر إليه شزراً عاتبة، لائمة، فيعز الأمر عليه، ويحاول أن يثبت صدق عاطفته. وشدة حزنه ولوعته، فيخاطبها بقوله[1]:

اغــركِ يــوم الــبينِ منّــي تبســمي　　　فشيعتِ سهماً مـن فـؤادي بأسـهُمِ

رويدكِ عهدُ القلبِ بالصَّبرِ بعـدَكم　　　وحقّـكِ عهـد النـار بـالبردِ فـافهمي

عذيريَ من ضحكٍ غدا سبب البكا　　　ومـن جنّـةٍ قـد أوقعـت في جهـنّمِ

زعمـتِ بـأني قـد سـلوتُ وهـذه　　　أراجيـفُ مـن في عزمـه قتـلُ مسُـلِمِ

علـى ذا فـدومي أجرمـي وتجرّمـي　　　وبكّـي وأبكـي، وأظلمـي وتظلّمـي

كأنـــك لا تـــروين بيتـــاً لشـــاعرِ　　　سوى بيتِ (من لاَ يظلِم الناسَ يُظلَمِ)

تعلّمـتِ فعـلَ الـدّهرِ ثـم سـبقتِهِ　　　فأنســاني التلميــذُ فعــلَ المُعلّـــمِ

أديـري لحـاظَ القلـبِ فيَّ لتنظـري　　　إلى مفلسٍ مـن صـبره عنـكِ معـدمِ

ولا ترسـلي هـذي اللـواحظَ كلَّهـا　　　فواحـــدةٌ تكفيـــكِ قتـــلَ المُتـــيَّمِ

وبالرغم من أنه كان يميل إلى التقليد- كما قلنا آنفاً-، فإنه كان يستجيب إلى متطلبات العصر استجابة حييه فرضتها الظروف ولا تخلو تجربته من سذاجة، وافتعال فقد روى أنه رفض بيع جارية له بمبلغ عشرة آلاف درهم، وقال في ذلك[2]:

يـــا طالبـــا روحـــي ليبتاعهـــا　　　أنـــت رســـول الهـــمِّ والحَســـرةْ

---

(1) شرح المضنون به على غير أهله.

(2) اليتيمة 4/ 237.

جئـت بالبـدرة فـارجع بهـا لسـت أبيـعُ البـدرَ بالبَـدرهْ

ويقول في قينة له[1] :

وقينـةٍ أحسـنُ مـن لُقياهـا تملـي كتـابَ الحُسـنِ مقلتاهـا

ونقطـةٌ وشـكلةٌ خـدَّاها إذا اجتلاهـا اللحـظُ أنشـدناها

(واهـاً لريَّـا ثـم واهـاً واهـا)

أما الغزل بالمذكر، فقد وجدنا له مقطوعتين من الشعر تتألف الأولى من ثلاثة أشطر، وتتألف الثانية من ثلاثة أبيات وربما استهواه الجناس في المقطوعة الأولى أكثر مما استهوته الفكرة ولم يعرف عن الخوارزمي مثل هذا السلوك. ولخلص إلى القول أن الغزل عند ليس غرضاً أصيلاً، وليس فيه إبداع ولا ابتكار. وأنه حاول أن يساير فيه الشعراء من غير أن يكون له تجربة. كما أنه لم ينزلق إلى الهاوية التي انزلق إليها شعراء الغزل الماجن.

الحكمة:

في شعر الخوارزمي اعتناء قليل بالحكمة والأمثال وقد عثرنا له على مقطعات صغيرة قليلة من الشعر الذي يمكن أن يعد خلاصة لتجاربه الشخصية صاغها بأسلوب النصيحة الذي يقترب من التعليمية فهو يميل إلى استخدام النهي والتعجب والوصف الموحي، وقد يميل إلى التقرير أحياناً، وهذا الضرب من النصائح التي تقترب من الحكمة لا يستطيع أن يرقى إلى مستوى الحكمة في شعر المتنبي أو في شعر زهير مثلاً.

فاعتدادُه بنفسه، وأسلوبه في التعالي والترفع قد ولدت حكمة في قوله[2] :

عليـكَ بإظهـارِ التَّجلُّـدِ للعـدى ولا تُظهِـرنْ منـكَ الـذُّبولَ فَتحقـرا

(1) المصدر السابق 4/ 213.

(2) اليتيمة 4/ 240، خاص الخاص/ 192.

ألستَ ترى الرَّيحانَ يُشتم ناظراً ويطرحُ في الميضاةِ أنّى تغيرا

وتجربته مع الأصدقاء، ومعرفته بالناس، وجده في تحقيق طموحه هي التي أملت عليه الحكمة في قوله[1] :

لا تصحبِ الكسلانَ في حاجاتِه كم صالحٍ بفسادِ آخر يفسدُ

عدوى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ والجمرُ يوضَعُ في الرَّمادِ فيَخمُدُ

ولعل صلته بالولاة والحكام، وما هم عليه من تقلب واضطراب، ورفعة واتضاع، وما لقيه على أيديهم، وما حل بغيره قد أنطقت لسانه فقال[2] :

وبعضُ الناسِ يعلو وهْو سُفلٌ وبعضُ الناسِ يسفُلُ وهو عالي

وقال:

ما أثقلَ الدَّهرَ على من رَكِبَه حدَّثني عنه لسانُ التَّجربةْ

لا تشكُرِ الدَّهرَ لخيرٍ سبَّبه فإنه لم يتعمَّد بالهبةْ

وإنما أخطأ فيكَ مذهَبه كالسيلِ إذ يسقى مكاناً خرِبَةْ

والسمُّ يستشفى به من شَربه

وقد تحدثنا في غرض الرثاء عن ميل الشعراء إلى الحكمة، فالخوف من الموت ينطق الألسنة بالحكمة، وهي في الغالب حكمة زاهدة مثبطة، يتنازع فيها البقاء والفناء، ولكن طغيان الفناء أشد عمقاً، وأبين أثراً، وقد وجدنا هذا الميل في شعر الخوارزمي ومثال ذلك قوله في مطلع قصيدته التي رثى بها ركن الدولة[3] :

---

(1) المصدر السابق 4/ 229.

(2) أعيان الشيعة 45/ 261.

(3) شرح تاريخ العتبي 1/ 132.

ألم تـر أن المـوتَ قـد نصـح الـدنيا وقـال لمـن يسـعى لهـا أنـتم الحمقـى

يقولــونَ عاجلنــا فصــحَّ عليلُنــا وما اعتلَّ من يبقى، وما صحَّ من يغنى

إذا النـاسُ ظنـوا أنهـم في سـلامةٍ فأبـدانُهم صـحَّت وأنفسـهم مرضـى

وقد أورد الثعالبي في كتابه التمثيل والمحاضرة مجموعة من الأمثال السائرة من شعر الخوارزمي في ذلك العصر منها قوله[1]:

وإذا مــدَّةُ الشــقي تناهــت جــاءه مــن شــقائِه مُتقاضــي

وقوله:

ولا تعجبـا أن يملِـكَ العبـدُ ربَّـه فإن الدُّمى استعبدْنَ من ملكَ الدُّمى

ويبدو أن ثقافته في الأمثال وروايته للشعر القديم لم تؤثر كثيراً في هـذا الجانـب من شعره، واقتصر أثرهما في ما يعرف بالتضمين، فقد ضمن أشعاره كثيراً من الأمثال والأشعار التي تعنى بالحكمة وتناسب الغرض، نحو قوله[2]:

وصــارخةٍ للــزوجِ كــان غِناؤُهــا (لها كُنيةٌ عمـروٌ ولـيسَ لهـا عمـرُو)

من بيت لأبي صخر الهذلي[3]:

أبــى القلــب إلا حبهــا عامريــة لهـا كنيـة عمـرو ولـيس لهـا عمـرو

وكقوله[4]:

وعاش إلى أن يـتركَ النـاسُ مدحَـهُ (ومن ذا الذي يرجـو إيـابَ المـثلَّم)

---

(1) التمثيل والمحاضرة/ 125.

(2) اليتيمة 4/ 220.

(3) المصدر السابق 4/ 220.

(4) هو عبد الله بن سلمة السهمي، من بني هذيل بن مدركة، كان في العصر الأموي مولى لبني مروان توفي سنة 80هـ/ 700م.

وقد جاء في الأمثال: (لا أذهب حتى يعود المثلم)

وقوله[1] :

لقـد هـان مـن أمـس ببلـدةٍ غـيره (وقد ذلَّ من بالـت عليـه الثَّعالِـبُ)

لقد أصبح واضحاً أن الخوارزمي طرق أغراض الشعر التقليدية المديح والهجاء والرثاء، والغزل والوصف وأخذ بنصيب غير قليل من أغـراض العصـر الـتي عملـت الظروف على إبرازها، ولكنه بقي معتدلاً لم يندفع للجديد، ولم يخف ارتباطه بـالتراث الشعري القديم، وإنه عاش أسير الظروف النفسية والاجتماعيـة الـتي تحـيط بشـعراء الدواوين.

الخصائص الفنية:

لقد صار من الواضح أننا لا نقف أمام عبقرية شعرية متميـزة في تـاريخ الأدب العربي، وأن شخصية الخوارزمي الشعرية، لم تستطع أن تضـيف جديـداً إلى الشـعر في مضامينه وأشكاله، ولذا فإن دراستنا للخصائص الفنية في شعره، لن تضيف جديداً إلى الخصائص الفنية العامة المعروفة في الشعر العربي، بـل ستنصـب علـى معرفـة مقـدار التزام الخوارزمي بهذه الخصائص، ومقدار التركيـز علـى جانـب دون غـيره، ومقـدار تأثره بعصره، وبأدب العصور التي سبقته وأثر ثقافته في الاتجاه الشعري العام.

1- المحاكاة والتقليد:

ومما هو ليس بخاف أن ثقافة الخوارزمي المستندة إلى القديم الموروث قـد أثـرت بشكل بـارز في خـط سـير شـعره، فسـار علـى نهـج أصـحاب المدرسـة الكلاسـيكية الجديدة[2] الذين استطاعوا المواءمة بين الموروث، وبين ظروف حياتهم العصرية، وكان

---

(1) اليتيمة 4/ 221، تاريخ العتبي 1: 408.

(2) للتفصيل انظر: بلاشير/ أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي/ 24.

شعارهم (دفع الشعر العربي على طريق الحياة). وقد امتلك قادة هذه المدرسة الحديثة من أمثال ابن تمام والبحتري والمتنبي من المواهب والقدرات ما مكنهم من تجاوز الطريق الضيق المحفوف بالمخاطر بين القديم الجاف، والجديد المترف، وخطوا لتابعيهم منهجاً لا يستقيم بسهولة لكل من أراد.

جرى الخوارزمي في شعره على منهج هؤلاء وحذا حذوهم في أغراضهم ولغتهم ومعانيهم، ولكنه لم يستطع أن يرقى إلى درجتهم لأنه كان يتكئ عليهم ولا يجاريهم، فقد مثلت قصيدة المديح العمود الفقري بين أغراضه، وحافظت على شكلها التقليدي العام، واحتفظت بالمقدمة الغزلية والطللية، مثلما احتفظت قصيدة الرثاء بغرضي الحكمة والمديح.

وتميزت قصيدة الهجاء لديه بروح السخرية العالية من خلال التصوير الكاريكاتيري والألاعيب اللفظية التي يأتي بها على سبيل الألغاز، زيادة في الاستهجان والاستهزاء، وبقيت ألفاظه محافظة على عفتها، وإن زلت قدمه أحياناً، فإنه لم يهو إلى الحضيض كما هوى ابن حجاج وابن سكرة الهاشمي وإضرابهما.

أما من حيث المعاني، فقد كان الخوارزمي يستمدها من ثقافته الثرة المستندة إلى الأصول العربية العريقة كما يستمدها من واقع حياته الحضرية، ولم يتوان عن الإغارة على معاني الشعراء ليصوغها في قوالب شعره، محافظاً في الغالب على جمال النسق، وحلاوة التركيب، ودقة المعاني.

وقد أشرنا– فيما مضى– إلى شدة إعجابه بشعر أبي الطيب، وتأثره بمعانيه وشعره، يقول بلاشير[1]: (.... ولا عجب بعد هذا الإجلال العفوي (للمتنبي) أن يعمل الشاعر المترسل أبو بكر الخوارزمي وهو أحد المعجبين منذ زمن بأبي الطيب بعد عودته إلى خراسان على نشر ديوان أبي الطيب وتقليد شعره).

---

(1) أبو الطيب المتنبي– دراسة في التاريخ الأدبي/ 476.

ولقد عرضنا فيما سبق لعدد من المواضع التي نسج الخوارزمي فيها على منوال المتنبي، وظهرت محاكاته لقصيدة عنترة بن شداد في مقطوعته الغزلية:

ولقد ذكرتك والنجوم كأنها ... در على أرض من الفيروزج

كما تبين لنا مقدار تأثره برثاء الخنساء لأخيها صخر في قصيدته التي رثى بها مؤيد الدولة حيث يقول:

طويل القناة، قصير العدات ... ذميم العداة، حميد الشيم

ولعل من الطريف أن نورد رأياً لبديع الزمان الهمذاني في شعر الخوارزمي، مع ما فيه من غلو مبعثه العداوة والحقد، وإن كان لا يخلو من صحة، لا سيما في مسألة الأخذ التي عدها البديع نوعاً من السرقة غير المباحة.

يقول بديع الزمان[1]: سألت أمتع الله بك عن الخوارزمي وشعره، وقلت إني أجد فيه بيتاً لو رؤي في المنام لأوجب الغسل حسناً، وبعده بيتاً إذا سرد ينقض الطهارة نتناً، ولعمري إن هذين البيتين لو كانا نبتين ما نبتا في أرض، أو ثمرين ما اجتنيا من غصن، فكذلك إذا كانا شعرين يبعد أن يصدرا عن صدر، ويطبعا من طبع، أو يصبا على قالب قلب، أو يكونا نفسيْ نفس، فقد يسمن الشاعر ثم يغث، ويجيد القائل ثم يرث، ولكن لا كماً تراه في شعر أبي بكر، وما كنت لأكشف هذه الأسرار، وأهتك تلك الأستار، وأظهر منها العار والعوار، لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فيما أملينا، وتجهيز قدح إلينا فيما روينا من مقامات الاسكندري... وقد رتبت شعر الخوارزمي ثلاث مراتب، فثلث مسروق وهو الأوسط، وثلثه رديء وهو الأسقط وثلثه لا جيد ولا رديء، وسنأتي بعون الله على القصائد التي ادعاها، وأعرفك من أين سرق مسروقها، وسلخ مسلوخها، وعلى ما طبخه، فأكشف لك عيوبه، حتى نأتي

---

(1) رسائل ومقامات بديع الزمان الهمذاني مخطوط- مكتبة بايزيد- تركيا رقم 2640 ورقة/ 100-101.

على ديوانه أجمع، ثم نفرغ لرسائله[1]، فأعرفك ما يردد من أسجاعه، ويكرر من ألفاظه فهو لا يتعدى فرقتين، ولا يتخطى طبقتين، وتلك الأسجاع هي التي يطرز بها كلامه ويقرر نظامه، ويطرف محاضراته، ويوسط محاوراته، فإذا خلت منها كتبه وقصائده كان ما يبقى منها غفلاً عطلاً لا يحلو ولا يحلى، فأوّله قصيدته:

لغير محبك الرأي السَّديدُ ... وغير فؤاده القلب الجليد

هذا المعنى لكثرة ما تداوله الشعراء، لا أدري ممن أخذه، وسأعد عليك من قال ممن صب على هذا القالب، فأقربه بيت أبي الطيب المتنبي، حيث يقول:

بغيرك راعياً عَبِثَ الذِّئابُ ... وغيرَكَ صارماً ثلَمَ الضِّرابُ[2]

أخذ وزن البيت ومعناه ولفظه، فإن كانت قضية القطع ترجب في الربع، فما أشد شفقتي على جوارحه أجمع. وأنشدني أبو عبد الله الفارسي لبراكويه الزنجاني[3]:

مضى العُمْر الذي لا يُستعاد ... و(إن) لم يُقضَ من ليلى مُرادُ

بكيت وذكرُها عندي جَديدٌ ... وشابَ الرأس واسودَّ الفُؤادُ

تواصى بالرحيلِ بنو أبيها ... فقلت: لغيرِ رأيكُم السَّدادُ

أخذ معنى البيت ولفظه ووزنه، وأحسب أن ربيعة من مكدم[4]، وعُيَيْبَةَ بن الحارث[5] بن شهاب كانا لا يستحلان من النهب ما استحله، فإنهما كانا يأخذان جله،

---

(1) يمكن الاستدلال بهذا القول على أن للبديع كتاباً ضائعاً في نقد شعر الخوارزمي ورسائله.

(2) ديوان المتنبي/ الواحدي/ 543.

(3) الزنجاني: لم أعثر على ترجمة له.

(4) ربيعة بن مكدم: هو ربيعة بن مكدم بن عامر بن حرثان من بني كنانة أحد فرسان مضر في الجاهلية، ترجمته في بلوغ الأرب للآلوسي 1/ 144. وسمط اللآلي/ 910.

(5) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، مؤلف مقاييس اللغة، والجمل والصاحبي أستاذ أستاذ بديع الزمان والصاحب بن عباد (349-395هـ).

جله، وهذا الفاضل قد أخذه كله وأنشدني أبو الحسين أحمد بن فارس لبعض العرب وقد خطب إليه بنت تسمى الدَّرْمكْ، فقال:

أتاني في ثياب الحسنِ ملساً وعينُ القبحِ ما تحتَ الثيابِ

ليخطب دَرْمكاً فصددتُ عنهُ فقلتُ اغرب بجانِحةِ الغُرابِ

فغيري من يُغَرُّر بالأماني وغيري من يُهاجُ إلى سَرابِ

أخذ معنى البيت ووزنه ولفظه أكثر مما يأخذ اللص بعد حائط ينقبه، وثقب يثقبه.

قال: وأنشدني لابن الرومي:

وقائلة بالنُّصحِ لِمْ لا تزوَّجي فقلتُ لها غيري إلى القَرْنِ أحوج

ولعل ابن الرومي سرق من أبي بكر هذا البيت.

ويليه الثاني مسروق أيضاً، وهو:

وفي الثوبين منه مستهامٌ[1] هواكِ لواعظِهِ قُيود

أخذه من أبي الجلباب في قصيدته التي أولها:

وماء الوجه ويحك يا حذام صريعك بين ثوبيْ مُستهامِ

ولعمري إن هذه ليست بسرقة، وإنما هي مكابرة محضة وأحسب قائله لو سمع هذا لقال (هذه بضاعتنا ردت إلينا)... الخ

وقد أشرنا فيما تقدم إلى ظاهرة التضمين في شعره، وقد تنبه إليها الثعالبي من قبل فخصها بنصيب وافر من العناية وأبدى إعجاباً كبيراً بها حيث يقول:

وهذه لمع من تضميناته التي كانت له رشيقة، وطريقة أنيقة، يضعها في مواضعها، ويوقعها أحسن مواقعها، ويفصح بها عن اتساع روايته، وكثرة محفوظاته، فمنها قوله:

---

(1) مستهام: هائم.

ولما أكثر الحسّادُ فيه | وقالوا قد تغضّنَتِ الخُدودُ
أجاب الفضلُ عنه حاسديهِ | (لأمرٍ ما يُسَوَّدُ من يَسُودُ)

البيت لبلعام بن قيس الكناني

ومن ذلك قوله:

مقابلٌ بين أقوام وألوية | مُردَّدٌ بينَ إيوانٍ وديوانِ
إذا أتى داره الأضياف أنشدهم | (وإخوتي أسوة عندي وإخواني)

المصراع لأبي تمام.

... ومن تضميناته للأمثال قولهُ:

يا جاليَ البنتِ بعدما ثُقبتْ | تبرز القدر بعدما قُلبتْ
هذا كما قد يُقالُ في مثلٍ | (جُصِّصتِ الدَّارُ بعدما خَرِبتْ)

ويمكن القول أن سبب شيوع التضمين في شعره يعود إلى غلبة الأسلوب النثري عليه، وكان كثير الاستشهاد، بالشعر والقرآن والأمثال في نثره، فامتد أثر ذلك إلى الشعر، كما يعود إلى إدراكه أهمية المثل والحكمة في النفس العربية ولم تكن الأبيات والأشطر والأمثال التي يضمنها في شعره إلا من ذلك النوع الذي يقترب من المثل أو يفعل فعله، وقد عرفنا أن الخوارزمي كان شديد الاهتمام بالأمثال.

وهو لا يستطيع في بعض الحالات أن يجيد في المعنى إجادة شعرية ترقى به إلى مستوى المعاني الشعرية العربية القديمة، فيلجأ إلى التضمين ليغطي عيوب النقص التي يمكن أن تتكشف، وفوق كل هذا كان الخوارزمي شديد الحرص على إظهار مقدرته على الحفظ والرواية والاستيعاب، ولا يسعنا إلا أن نشارك الثعالبي استحسانه وإعجابه.

الوحدة الموضوعية

أما الوحدة الموضوعية، فيبدو أن الخوارزمي لم يخرج على ما هو مألوف في

القصيدة العربية التقليدية، فقد استهل بعض قصائد المديح بأبيات من الغزل والنسيب، والوقوف على الأطلال، ليصل بعد ذلك إلى الغرض الرئيسي، ولكننا لا نستطيع الحكم على مقدار شيوع هذه الظاهرة، لأن شعره لم يصل إلينا مكتملاً وقد بينا عند الكلام على غرض الغزل أن تلك المطالع لا تحمل في ثناياها تجربة عميقة وإنما هي وسيلة يتوصل بها إلى غرض المديح، ولا نستثني من هذا الحكم وقوفه على الأطلال ووصف الرحلة في قصيدته التي مدح بها أبا نصر الميكالي حيث يقول[1] :

تلكَ الدِّيارُ فريسةُ الأحقابِ	صنعتْ بعيني صُنْعَ ساكنها بي
وإلى الأميرِ ابنِ الأميرِ تواهقتْ	رزحى للرِّكابِ برازحي الرُّكّابِ
لبسوا الدُّجى لبسَ الغُرابِ لريشِهِ	وغدوا لحاجتهِمْ غُدُوَّ غُرابِ
والفجْرُ يطرقُ والظَّلام كأنَّه	فضلاتُ عتبٍ في خلال عتابِ

ومن المعلوم أن تنوع الأغراض في القصيدة الواحدة لم يكن ليؤثر كثيراً على الوحدة الموضوعية في القصيدة العربية القديمة لأن الشاعر في الجاهلية والإسلام حين يقف بالأطلال باكياً ويمر بديار الحبيبة، تتماوج في ذهنه أطياف الحبيبة وتعود به الذكريات إلى الماضي، فيرتبط ذلك كله بوصف الرحلة وأتعابها ويصف ناقته أو فرسه التي قاسمته مشقة السير، كل ذلك ليضفي على الممدوح شيئاً من المهابة، وليصل بعد ذلك إلى الموضوع الأصيل الذي بنى القصيدة عليه. ينتقل الشاعر من غرض إلى غرض بطريقة انسيابية، يمهد في كل غرض للغرض الذي يليه، ولكن هذا الترابط الموضوعي والعضوي ذا الدلالة النفسية لم يتحقق كثيراً في شعر الخوارزمي، ولا أدل على ذلك من الطريقة البائسة في التخلص من الغزل المفتعل الكاذب إلى المديح في قصيدته التي مدح بها عضد الدولة حيث يقول[2] :

---

(1) تاريخ العتبي 2/ 39-40.

(2) اليتيمة 4/ 211.

حمـدت عليهـا نـاظري إذ تحلـه كما تحسـد الأفـلاك نعـل فناخسـرو

ولا يعني هذا القول انعدام الوحدة الموضوعية في شـعر الخـوارزمي وإنمـا نعـني بذلك شعر المديح الذي يكون عمود شعره الفقري، إذ هو شاعر متكسب.

وهناك العديد من القصائد والمقطعات التي تتحقق فيها الوحدة الموضوعية إذ لا مناص من ذلك، ومنها قصائد الرثاء التي يلتـئم فيهـا الحـزن بالحكمـة وذكـر المناقـب والتعزية وهناك المقطعات الوصفية التي تكاد تنفرد بالغرض، وهذا يعني أن القصيدة في شعر الخوارزمي ليست ذات شكل بنائي واحد، وإن بناء القصيدة يتصل اتصالاً وثيقـاً بالغرض فقصائد المديح تقليدية لا تصل حد التوفيق، وربمـا وفـق في غرضـي الهجـاء والرثاء أكثر من غيرهما، ففي الهجـاء تعـبير صـادق عـن حسـه وإنفعالاتـه، وإظهـار لمقدرته على استخدام السخرية، والإتيان بالصور والتشبيهات الدقيقة والمؤثرة.

المحسنات اللفظية والبديعية:

من المعروف أن القرن الرابع الهجري قد شهد اهتماماً واسعاً بالصـنعة اللفظيـة التي غرس بذورها في الشعر مسلم بن الوليد وأبو تمام الطائي واستمرت تؤتي أكلـها من بعدهما، حتى كادت تطغى علـى الشـعر، وتبـارى فيهـا الشـعراء، مثلمـا تبـارى الناثرون في استخدامها.

ومع أن الخوارزمي كان من حذاق هذه الصنعة في النثر إلا أن هـذه الظـاهرة لم تكن شديدة البروز في شعره، ولعل اهتمامه بالمقابلات المعنوية فاق اهتمامه بالمحسـنات البديعية، فمن ذلك قوله[1]:

فـذا هنّـى وقـال: مضـى عَـدوّ وذا عـزى وقـال: مضـى وديـد

رأيـتُ العقـلَ ينفـعُ وهـو قَصْـدٌ ويلقـي في المهالـك إذ يزيـد

---

(1) اليتيمة 4/ 229.

ومنها قوله:

فــلا يــوم تمــوتُ بــهِ مجيــدٌ ... ولا يــومٌ تعــيشُ بــه حَميــدُ
ومــا أصــبحتُ إلا مثــلَ ضِــرْسٍ ... تأكَّــل فهــو موجــودٌ فَقِيــدُ
ففـــي تركـــي لـــهُ داءٌ دويٌّ ... وفي قَلعـــي لـــه ألمٌ شَـــديد

ومن الجدير بالذكر أن قصيدته في رثـاء أبـي سـعيد الشبيبي قـد تميـزت بهـذه الظاهرة التي وفق فيها توفيقاً شديداً ودلت على مقـدرة كـبيرة علـى الإتيـان بالصـور المتقابلة، والمعاني المتباينة التي تفصح عن مبلغ الحيرة والاضـطراب لفقـد عـدو كـان صديقاً، فمن مقابلاته المعنوية قوله[1]:

أيـــا مـــن قُربُـــه خِـــبرةٌ ... ويـــا مـــن بُعـــدُه عِبْـــرَةْ
ويـــا مـــن وصـــلُه يـــومٌ ... ويـــا مَـــن هَجْـــرُه فَتْـــرَةْ

ومن ذلك قوله[2]:

رأيتكَ إن أيسرتَ خيَّمت عندنا ... مُقيمـاً وإن أعسـرتَ زُرتَ لُمامـا
فما أنت إلا البدرُ إن قلَّ ضَوءُه ... أغـــبَّ، وإن زادَ الضـــياءُ أقامـــا

ومنه قوله[3]:

أو مــا رأيــتَ البحــرَ يغــرقُ ... منـــه بالخَطْـــبِ اليَســـير
والنــاسُ مثــلُ الجِسـم يعتَمِـدُ ... القَبيـــلَ علـــى الـــدَّبير
يتحامَـــلُ العُضْـــوُ الخَطـــير ... بقـــوَّةِ العُضْـــوِ الحَقـــير

---

(1) اليتيمة 4/ 237.

(2) المصدر السابق 4/ 239، أسرار البالغة/ 124.

(3) المصدر السابق 4/ 234.

كتحامُــلِ الــرُّمحِ الطَّويــلِ بزجِّـــــه ذاكَ القَصـــــير

فالجناس والطباق موجودان في شعره، وتكاد المحسنات البعيدية لديه تـأتي عفـو الخاطر من غير تكلف واحتشاد، وقل أن نجد في شعره مثل قوله:

يــا شــادناً مِــتُّ قَبْلَــهْ قــد صــارَ في الحُسْــنِ قِبْلَــهْ

امــنن علــيَّ بقُبْلَــهْ

وقد يلجأ الخوارزمي أحياناً إلى استخدام الألاعيب اللفظية والعروضـية، فمـن الأول قوله في هجاء أحدهم[1]:

وقـال أنـا المليـكُ فقلـتُ حقّـاً بقلـبِ الـلامِ نونـاً في الهِجَـاءِ

ولم أر مــن أداةِ المُلْــكِ شــيئاً لــديكَ ســوى احتمالِــكَ للّــواءِ

ومن الثانية قوله[2]:

وعشتُ وناقصَ رزقي فأضحى (مفــاعلتُنْ مفــاعَلتُن فَعــولُ)

ويجدر التنويه بأن الخوارزمي بما له من باع طويل في الأدب، لم يخل شـعره مـن سقطات انقاد إلى بعضها بسبب ميله إلى المغالاة والافراط، وقد أخذ عليه الثعالبي قوله في مدح شمس المعالي قابوس بن وشكير[3]:

لقد هانَ من أمسى ببلدةِ غـيرِه (وقد ذلَّ من بالت عليه الثعالـب)

فقال: هذه من سقطاته وعرره الواقعة في غرره فيـه سـوء أدب، وهـو بـالتقريع أشبه منه بالتقريظ، وليس مما يخاطب به الملوك.

---

(1) اليتيمة 4/ 207 الكناية والتعريض/ 35.

(2) المصدر السابق 4/ 232.

(3) اليتيمة 4/ 222.

ومما زلّ فيه أقبح زلة قوله من قصيدة في الصاحب، وقد اعتل:

نعوا لي نفس المجد ساعة أخبروا بما يشتكي من سقمه ويمارس

فإن في لفظة النعي ما فيها من الطيرة، إذ هي مما يقع في المرثية لا في العيادة ثم قال:

فهلا فداهُ منْ ليسَ مِثلُه ومن رَبْعُه في ساحةِ الجُود دارسُ

جزى الله عني الدَّهرُ شراً فإنَّه يضايقُني في واحدٍ وينافِسُ

ومن سقطاته المنكرة قوله للصاحب من قصيدة[1] :

ومهيبٍ كأنَّما أذنبَ النَّا سُ إليهِ فَهُم مغشُونَ ذلاً

وظريفٍ كأنَّ في كلِّ فعلٍ من أفاعيلِهِ عرائِسَ تُجلى

فإن الكبراء والمحتشمين لا يوصفون بالظرف، إذ هو من أوصاف الأحداث والقيان والشبان، ولم يرض بالفرطة في هذه اللفظة حتى شبه أفاعيله بعروس تجلى، فلو مدح مخنثاً لما زاد، والكامل من عدت سقطاته، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة.

ومع تحفظنا الشديد على ما ورد في مناظرة الخوارزمي والبديع من أشعار وغيرها فإنه من الضروري أن نشير إلى النقد الذي ساقه البديع لأبيات ادعى أنها للخوارزمي في المناظرة التي جرت بينهما ومع أن الخوارزمي قد أنكر قوله للألفاظ التي نقدها البديع، فإنه لا يبعد أن يكون للسرعة الشديدة التي نظمت فيها الأبيات أثر كبير في الوقوع في الزلة. ولعل في إنكار الخوارزمي لها دليل على معرفته بما فيها من خطأ.

---

(1) اليتيمة 4/ 223.

الفصل الرابع
نثره

نثره

مقدمة:

يعد القرن الرابع الهجري من أزهى العصور في تاريخ الأدب العربي، فقد نضجت فيه الحياة العقلية، وترسخت فيه الدعائم الحضارية لقرون النهضة التي سبقته، فكان من نتيجة ذلك تطور فن الكتابة النثرية، بحيث أصبحت ذات سمات مميزة، وبرزت فيه عناصر فنية جديدة استطاعت أن تصبغه بصبغتها.

وكما يقول الدكتور زكي مبارك[1]، "فإن تلك الخصائص لم تكن جديدة كل الجدة. ولكن فيه خصائص تُلمحُ عند كتاب القرن الأول والثاني والثالث، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والخوارزمي وبديع الزمان".

ولعل أبرز الخصائص الفنية التي امتاز بها النثر في هذا القرن هو الالتزام بالسجع والاهتمام بالمحسنات البديعية، والتأني في الكتابة واختيار الألفاظ والمعاني والمبالغة في ذلك[2].

ومع ذلك فقد احتفظ النثر الفني في هذا القرن بكثير من الخصائص الفنية التي كانت سائدة في القرنين الثاني والثالث، كالترسل والازدواج. ولكنه- على كل حال- كان بداية لعصر الانحطاط الذي أصبحت فيه الصنعة والزخرف والتكلف غاية في ذاتها.

هذا بالإضافة إلى أن مجالات النثر الفني في هذا القرن قد توسعت فظهرت فنون جديدة لم تكن معروفة كالمقامات، واختص عدد من الكتاب بنمط من الكتابة الفنية، وهو ما عرف بالرسائل الإخوانية[3].

---

(1) النثر الفني في القرن الرابع 1/ 127.

(2) المصدر السابق 1/ 127-136.

(3) المصدر السابق 1/ 200.

ويعد الخوارزمي واحداً من أشهر كتاب الرسائل الإخوانية في القرن الرابع الهجري، ومن الكتاب الذين أعطوا لهذه الرسائل سماتها الفنية المعروفة، واستطاعوا أن يغزو بها الموضوعات التي كانت حكراً على الشعر.

مكانته الأدبية:

لقد استطاع الخوارزمي أن يجد له مكاناً بين أدباء عصره وكتّابه، وبلغ من الشهرة والسطوة ورفعة المنزلة مبلغاً كبيراً، شهد له بها معاصروه ومنهم الثعالبي [1] فقد كتب تعليقاً على المناظرة بين الخوارزمي والبديع قال فيه [2] ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً لهبوب ريح الهمذاني، وعلو أمره، وقرب نجمه، وبعد صيته، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحداً من الأدباء والكتاب والشعراء ينبرى لمباراته، ويجترئ على مجاراته...".

ومن الواضح أن الثعالبي قد بالغ كثيراً في تقدير مكانة شيخه، ولكننا مع ذلك لا نستطيع إلا أن نسلم بأقوال واحد من مشاهير الكتاب في عصره، وهو أبو حيان التوحيدي، الذي أعجب بفصاحة الخوارزمي، حيث قال [3] كان الخوارزمي من أفصح الناس، ما رأينا في العجم مثله.

أما المتأخرون والمعاصرون، فليسوا بأقل إعجاباً من القدماء بشخصية الخوارزمي الأدبية، وأهمية رسائله، فقد قال عنه الكلاعي [4] بأنه من أفراد الدهر، وأمراء النظم والنثر ونقل ابن الفوطي [5] قولاً للموفق بن أحمد المالكي يمتدح فيه فخر

---

(1) انظر اليتيمة 4/ 194.

(2) المصدر السابق 4/ 257.

(3) أخلاق الوزيرين/ 108.

(4) أحكام ضعة الكلام/ 124.

(5) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ج4- ق3/ 392.

خوارزم[1] ، ولم يجد غير الخوارزمي له قريناً حيث يقول:- "خوارزم كانت قبل فخرها، مزهوة بأبي بكرها، صادقة في زهوها به من بكرها، مباهية به، مباهاتها ببكرها، تعده لغرائبه من رغائبها، وتعده لرغائبه من غرائبها، وما أخطأت خوارزم باعتقادها فيه، وإفاضة ما سمع من النظم والنثر من فلّق فيه. نعم حال الخوارزمي في فنه إلى جنب فنون العلامة حويلة، وسحره الفياض بالنسبة إلى جدوله دجيلة، هذا بون ما بينهما في علم الأدب وحفظ لغات العرب".

وقد استطاعت شخصية الخوارزمي الأدبية أن تفرض نفسها وأن تجد لها مكانة مرموقة شهد بها المستشرقون مثل ما شهد لها سابقوهم، فقد وصفه يوهان فك[2] وبروكلمان[3] بأنه واحد من كبار رجال النثر في القرن الرابع، وأنه استطاع أن يقرض الشعر الرشيق والنظم الأنيق".

وقد شارك المعاصرون أسلافهم إعجابهم بشخصية الخوارزمي الأدبية، فقد وصفه الدكتور مصطفى الشكعة[4] بأنه "ذو أدب خليق بالدرس والعناية، ككاتب مجيد، وشاعر عظيم" وخصه الدكتور زكي مبارك بدراسة في كتابه النثر الفني في القرن الرابع[5] ، ووصفه بأنه "شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي، وشغلت الناس عدة أجيال "وأن له" بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال والنبوغ الأدبي".

ومما تجدر الإشارة إليه أن دراسة نثر الخوارزمي ستقتصر على رسائله، ذلك أن

---

(1) فخر خوارزم: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري المفسر.
(2) العربية/ 166.
(3) تاريخ الأدب العربي 2/ 111.
(4) بديع الزمان الهمذاني/ 81-82 (ونحن لا ندعي بأنه كان شاعراً عظيماً).
(5) انظر ج 2/ 316-337.

أغلب مؤلفاته لم يصل إلينا، وأن ما وصل منها لا يشكل مادة نثرية فنية باستثناء ما ورد في مقدمة كتابه "الأمثال المولدة"، ومع أن لهذا النمط من الكتابة أسلوباً خاصاً أملاه فن التأليف، فإن لتلك المقدمة مزايا وخصائص وضعتها في عداد النثر الفني.

ولو تهيأ لنا الظفر بمقدمة كتابه "شرح ديوان أبي الطيب" وغيره من المؤلفات لتكونت لنا مادة ثرة تساعدنا على معرفة آرائه في النثر والشعر والحياة العقلية مما يعين على دراسة فنه النثري، وقناعته بهذا النمط أو ذاك من أنماط الكتابة وفنونها.

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نلمح إلى أن معرفة التطور في الكتابة عند الخوارزمي من الأمور التي يصعب رصدها، ذلك أن جميع رسائله غير مؤرخة، وأنها جاءت- في أغلب الأحيان- غفلاً من اسم المرسل إليه، وحتى الذين ذكرت أسماؤهم فأغلبهم غير معروف، ولذا كان من الصعب تحديد مسار تطور فن الكتابة عنده بين عهدي الشباب والشيخوخة.

ولم نستطع أن نتبين وجود فوارق تميز بين رسائله فهي متشابهة في خصائصها الفنية والأسلوبية، وهذا يعني أن الخوارزمي لم يقع أسير ظروف معينة فرضت عليه التحول من نمط إلى آخر.

أغراضه:

تناول الخوارزمي في رسائله أغراضاً كثيرة ومتعددة، شملت مناحي الحياة المختلفة، ولهذا التنوع في الأغراض أسبابه: فقد شارك في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية، واتسمت حياته بالتنقل والاغتراب، فكان له أصدقاء ومعارف كثيرون، وهم في منازل وطبقات اجتماعية متفاوتة فمنهم الأمير والوزير، وقائد الجيش، والوالي وعامل الخراج، ومنهم الكاتب والشاعر، وفيهم الأشراف والشيوخ والقضاة، وكان الخوارزمي حريصاً على إظهار مقدرته الأدبية من خلال الرسائل الفنية التي بدأت تأخذ شهرة الشعر، وتنوب عنه في بعض ميادينه، وقد وجد الخوارزمي في هذا اللون الأدبي ميداناً فسيحاً، يوصله إلى الشهرة، فأكثر فيه، ولعل مرد هذا الخصب في كتابة

الرسائل الإخوانية يعود إلى أن الخوارزمي لم يكتتب لأي من الأمراء أو الوزراء، وقد ساعد ذلك على بروز شخصيته الأدبية التي كان يمكن أن تطمس في خضم العمل الرسمي، وتضيع موهبته الفنية في زخم الرسائل الديوانية التي تذيب- في أغلب الأحيان- شخصية الكاتب بشخصية مرؤوسه.

لقد أوجبت عليه صلاته بالحكام والولاة وقادة الجيوش، مشاركتهم في البأساء والضراء، فيهنئ بالتولية والفتوح والأعياد، ويشكر لهم جزل العطاء، ووافر المنحة، ويكيل لهم المدح والثناء، حتى إذا ألمت به ملمة، أو حلت به نائبة سارع إلى الشكوى، وما أكثر ما كان يشتكي عمال الخراج، وقد وقفوا له بالمرصاد وأذاقوه العذاب. ولطالما أطلق لسانه في عتاب من يتأخر عن الإجابة على رسائله، وهو عتاب يموج بالمديح والافتخار. فإذا أصيب أحدهم بعزيز أو ألم به خطب كتب إليه معزياً أو مواسياً، ولا يفوته أن يشمت ببعضهم حين يجنون ثمرة فسادهم عزلاً وتشريداً ولا تخلو رسائله من غرض الاستجداء، وطلب المواصلة.

أما حياته الاجتماعية، فلم تكن أقل تأثيراً من سابقتها، فقد ربطته مهنة التعليم بطائفة من التلاميذ الذين حرص على إبقاء صلات وثيقة بهم، فيكتب إليهم موجهاً متشوقاً، واعظاً حيناً، عاتباً موبخاً لائماً حيناً آخر، ويفوض لبعضهم أشغاله حين لا يجد سبيلاً إلى البقاء في موطنه، ولم يكن بد من الاحتفاظ بعلاقات طيبة أو سيئة بأدباء عصره ومؤدبيه، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الصلة أثر في تحديد غرض الرسالة وأسلوبها، فالمودة تطلق لسانه في امتداح أدبهم وفضلهم وعلمهم، والعداوة تفجر البغضاء، وتجلب السخرية والازدراء. ورسالته إلى أبي الحسن البديهي ثمرة من ثمار ذلك اللّد. وليس يخفى ما للعوامل المذهبية من أثر في رسائله فقد آلى على نفسه أن يكون مدافعاً عن المذهب الشيعي، ناصراً لأهله، يتفجع لفجيعتهم، ويفرح لفرحهم، وقد كثرت رسائله إلى أبي محمد العلوي وتعد رسالته إلى شيعة نيسابور خير مثال على ذلك الأثر.

لقد حوت رسائل الخوارزمي كل هذه الأغراض، وأغراضاً غيرها ولكنها بقيت خالية من رسائله إلى أسرته وأقربائه، ولعل سبب ذلك يعود إلى أنها تحتوي أموراً خاصة، فلم يخرجها مع رسائله الأخرى التي لم ير حرجاً في إظهارها. وأنه كان يظهر الرسائل التي تبرز مكانته الاجتماعية. وستناول فيما يأتي بالتفصيل أهم أغراضه.

العتاب:

حظي غرض العتاب في رسائل الخوارزمي بالنصيب الأوفر والاهتمام الأكبر. وليس يخفى أن الخوارزمي قد استخدم هذا الغرض استخداماً ذكياً، للوصول إلى غاياته وأهدافه، وأماط اللثام عن كثير من المثل والعادات والتقاليد الاجتماعية لذلك العصر، وكان يرى أن العتاب لابد أن يفضي إلى إحدى طريقين: المودة أو القطيعة:

يقول في رسالة كتب بها إلى رئيس دامغان[1]:

"أنا أغار لما بيني وبينك - أيدك الله - من ذلك التملق، ومن عشق التشوق وأقشر لك عصا العتاب، وأتسرع لك بخشونة الجواب، إذا كانت الحالة بيننا مبنية على أساس الصدق، ومصونة - بحمد الله تعالى - عن شوائب المذق، وليس بعد العتاب إلا التقدم إلى الصلة أو النكوص إلى القطيعة، وإنما هو جسر عن يمينه العتبى والرجعى، وعن يساره النوى والشكوى، فلا تفتح من التجوز باباً أغلقته يد الوفاء ولا تبح من الحفاظ جانباً حمته قضية الود والإخاء... وقد خرقت فيك حجاب المجاملة، ولبست لك ثوب المكاشفة، فإن أدبك ذلك فمؤدب العاقل إخوانه، ومرآته زمانه، وسوط الفرس الجواد عنانه، وإن أبيت، فما أنا باخع نفسي على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً[2]".

ولعل خير ما يوضح فلسفة العتاب عنده ما جاء في رسالته إلى صاحب الجيش

---

(1) الرسائل/ 185 ودامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبة قومس.

(2) الآية في سورة الكهف/ 6 ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾.

جواباً عن رسالة مدحه وعاتبه فيها حيث يقول[1]: "فهمت كتابك الذي هو أشرف كتاب إلي، فقد رصع بأظرف عتاب علي، وما كان أحوجك أن تجعل كلامك بمائه. وتحلي ظفرك الناصع ببهائه فلا تشوبه بالعتاب، ولا تكدره بمر الخطاب فتكون قد أدبتنا بصمتك، وعاقبتنا بعفوك، فكفاك سلاحاً لك قراع الحلم دونك، فربما بلغ الإحسان من العقوبة ما لم تبلغه الإساءة، ودخلت المسرة مداخل تنبو عنها المساءة، على أني ما أجهل منفعة العتاب، ولا أنكر مرافقه بين الأحباب، ولا أشك في أنه يطرى خلق الود، ويجلو غيرة العهد، ويداوى أدواء القلوب، ويترجم عن خفيات القلوب، وأنه الأنموذج بين الأولياء والأعداء، والجسر بين المدح والهجاء والمصلح للعشرة الفاسدة، والمقرب بين الديار المتباعدة، ولهذا أشتقّت لفظة العتبى، وهي الرجوع إلى الرضا، ولكن إذا كان مصدره عن شكاية ومنبعه عن جناية، ووقع عن فترة في الود عرضت أو ثلمة في الإنصاف حدثت، جمع الشمل، وجدد الوصل، وصقل ما صدئ من العشرة، وأزال ما وقع من الفترة، وإذا كان مصدره عن تجرم وتجن كان مفتاحاً لباب العربدة ومكدراً لصفو المودة، وترجماناً عن لسان القطيعة، وإنما هو دواء إذا لم يصادف داء استحال داء، وإذا صادفه كان شفاء...".

أما دوافع العتاب فكثيرة، وأكثر ما جاء منها في رسائله بسبب انقطاع المراسلة، فمن ذلك رسائله إلى الوزير ابن عباد[2]، وإلى حاجبه أبي الحسن بن دايه[3]، وأبي الفرج خليفة الوزير بطوس[4].

وطبيعي أن تختلف حدة العتاب باختلاف المرسل إليه. فحين يعاتب الصاحب

---

(1) الرسائل/ 181.

(2) الرسائل/ 157.

(3) الرسائل/ 25.

(4) الرسائل/ 26.

بن عباد على انقطاع المراسلة يخلط العتاب بالمديح، ويذكر أيادي الرجل عليه، وما أسداه من كريم النعم، وما خصه به من وافر الفضل، ويتشوق إلى تلك الأيام التي جمعت بينهما، ويعض أنامله ندماً على ما فات منها. ويبدو أن علاقته بالصاحب قد جاوزت حدود العلاقة بين الأديب والوزير، فيخاطبه مخاطبة الصديق ويكاد يخرج في بعض عباراته عن اللياقة: يقول في رسالة بعث بها إلى الوزير ابن عباد[1]:

"إذا رأيت كتاب الوزير وقد ورد على غيري، غرت عليه غيرة الفحل على الشول، بل غيرة المرأة على البعل، ولوددت أن لم يكاتب به غيري أوَ منْ يشكره مثل شكري، فإني مع استقصاري لنفسي في ذلك، أتعبت الوراقين، بل أتعبت الكرام الكاتبين، وأبقيت للخواطر والألسن شغلاً طويلاً، وطرحت عليها عبئاً ثقيلاً، ولقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصاراً، وكان ليلي بها نهاراً، وساعاتي فيها أسحاراً، كما أن أيام فراقه ليال طوال، وليلة فراقه تعد بليال، وإني بعد صبري على فراقه لجلد على وقع سهام الهجر، واسع المجال في ميدان الصبر، ولقد أصابت عين الزمان وفائي، وسلبتني حسنتي، وهي جزعي بفراق أصدقائي، فآجرني الله تعالى على هذه المصيبة، ولا حرمني عليها جميل الأجر والمثوبة. لا يبعني الوزير، وقد اشتريته بأهل الدنيا ولا يبعدني عنه، وقد قرّبني الحب إليه، ولا يبخل علي بكتبه، فعهدي به لا يبخل علي بفضته ولا بذهبه، وليأنف من أن يكتب اسمه في جريدة البخلاء، بعدما صدرت به جرائد الأجواد السمحاء إن شاء الله تعالى".

وحين يكتب إلى تلاميذه تقطر كلماته حباً وحنواً وعطفاً ويخلط العتاب بالعظة والنصيحة، يخاطبهم مخاطبة الأب البار الرحيم... يوجههم ويرعاهم، ولا يتردد في إظهار القسوة والتلويح بالشدة إذا دعت الضرورة. يقول في رسالة كتب بها إلى أحد تلاميذه، وقد ولي خلافة البندار بطوس[2]:

(1) الرسائل/ 157.

(2) الرسائل/ 26.

وردت كتب ولدي على يد جماعة أصدقائه وكافة أوليائه وطلبت حصتي، فلم أجد فيها، فليت شعري هل قصدني من بينهم الزمان، وكيف خصني منه بالحرمان وكيف صرت المستثنى، وقعدت على طريق إلاّ، وكيف عدني ولدي في الأجانب وكنت أعد نفسي في الأقارب وهلا إذ لم يدخلني في جملة إخوانه وأصفيائه، أدخلني في جملة أوليائه، وقد اغتفرت هذه الواحدة، وسوء أخذه إن عاد إليها ثانية فما يسع عفوي لأكثر من مرة، ولا تنال إقالتي أكثر من عثرة.

هذا العمل أول ما جرى ولدي في ميدانه، وسابق أهل زمانه، فإن طلب الغاية، وبذل الجهد والطاقة، لحق السابق، وفات اللاحق، وإن قصر فاته المراد، وسبقته الجياد، وهو ابن رجل إن سبق ابنه لم يشكر، وإن سُبق لم يعذر، فليتعب نفسه، فلا راحة مع الهمة وليسهر عينه فلا نوم مع طلب الغاية، وليحذر فلتات اليد واللسان وسكرات الشبان، فإن سكر الشباب أشد من سكر الشراب، وليكتب في قلبه بيد عقله قول الأول:

خدمة السلطان والكاسات من أيدي الملاح ليس يلتئمان. فاختر رفعة أو شراب راح.

وتتحول رقته في العتاب إلى ما هو قريب من القسوة لأن أبا محمد العلوي وهو من أشراف العلويين في ذلك العهد قصر في الكتابة إليه، ولم يخصه ببر ولطف كما خص غيره، يقول في رسالة بعث بها إليه[1]: لولا أني لا أحب أن أفتتح كتابي إلى السيد بعتاب. وأن أكلفه إلى تكلف حجة وجواب، لوجد سهامي في الملام مسددة، وسيوفي في التقريع محددة، وعلم أني إذا ضربت بلساني لم تقم ضريبتي، وإذا رميت لم تنج رميتي، ورد كتاب الشريف- أيده الله تعالى- وهو الكتاب الشريف كاتباً، السعيد حاملاً المغبوط ناسخاً، المحسود راوياً، وفيه الكلام الذي لا يبليه الزمان، ولا تمجه

(1) الرسائل/ 103.

الآذان، وقد أفرد السيد فيه كل واحد من أوليائه وشيعته بلطف، وتناوله من البر والتحفي بطرف، غيري، وما كنت أعلم أني سكيت الحلبة ولا أني ساقة الكتيبة ولا أن اسمي آخر الجريدة، ولعمري أن شيعة السيد لكبار، ولكن مثلي لا يضيع فيهم، وأعوذ بالله تعالى من الكساد، فإنه أخو الفساد، وأستجيره من أن أكون محباً غير محبوب، فإن المحبة شجرة لا تثمر إلا على عرقين، وسقف لا يبقى إلا على عمادين، وأن قوماً أنا صغيرهم لكبار، وأن أمة أبو ذر شرها لخيار...".

ولكن سورة العتاب تتلاشى بعد ذلك لتحل محلها مبالغة مفرطة في بيان الآثار الناجمة عن غياب ذلك السيد:

"خرج السيد فخبا نجم العلم، وأفلت شمس الأدب، وانهدم ركن السحاب، وفل سيف العطاء، وغارت عين الأريحية، وانثلم جانب الإنسانية، وانهزمت عساكر الكرم، وأغبر وجه السيف والقلم، ونضب ماء الحياة، وركدت ريح البهاء، وضرب بنيان العقل، وتضعضع جبل التوحيد والعقل.."

ثم ينتقل بعد ذلك ليتحدث عن كرم الصاحب بن عباد، وفضله، وفضل أصبهان وأهلها.

وهكذا يتبين لنا أن غرض العتاب، أساسه المودة، وغايته إصلاح ما فسد منها، يرأب به الصدع ويداوى به الجراح، ويكاد لا يخفى على القارئ ما فيه من شدة، وما تضمنه من امتداح النفس، وكان الخوارزمي شديد الحرص على إظهار مكانته الاجتماعية، وسطوة قلمه ولسانه، وهو مع ذلك يوازن ألفاظه موازنة دقيقة كيلا يخرج العتاب عن غايته، مع ميل واضح إلى المبالغة، فغالباً ما تكون الفكرة صغيرة، ولكنه يطورها، وينقلها من حيزها المحدود إلى حدودها القصوى، ولكن براعته في الصياغة، وأسلوبه في المزاوجة وحسن تلطفه. تساعد القارئ على احتمال غلوائه، مثلما تساعده سهولة اللغة وبساطتها، وربما أحس القارئ بالضيق حين يضطر إلى مجاراة عباراته المترادفة ذات المدلول الواحد، والتي يأتي بها عادة للتهويل والمبالغة.

التهنئة:

اقتضت علاقات الخوارزمي الاجتماعية، وصلاته بأولي الأمر مشاركتهم في المسرات، وهي كثيرة ومتنوعة، وقد وجدنا في رسائله طائفة من رسائل التهنئة، في الأعياد والانتصارات والفتوحات والتولية، والتخلص من النكبات والمصائب، والشفاء من الأمراض ومع أن هذه المشاركة أهمية بالغة في التعبير عن الأحاسيس والمشاعر إلا أنها لم تكن خالصة لها، بل كان يرى فيها، وسيلة للتذكير بنفسه، وإن لم يكن خامل الذكر، ولكن من طبع الساسة التجاهل والتغافل والتناسي وهو لا يطبق فيهم هذا الأمر، ولا يترك الفرصة تفوته، فقد عرفهم عن كثب، وعرف فيهم شدة تعلقهم بالمجاملة والتزلف والملق، ورغبتهم في الإطراء والتمدح، حتى لو لم تنطبق عليهم صفات المديح، ولو لم تَمَسّهُم من قريب أو بعيد.

فمن هذه الرسائل رسالته إلى صاحب الديوان يوم المهرجان وقد حوت اعتذاراً عن تقديم هدية في هذه المناسبة[1]: "لولا ما يمس الشيخ من الانقباض عند الهدايا جلت أو قلّت، وإن كان ليس مع عطاياه جليل، كما أنه ليس مع تواضعه قليل لأفنيت في هديتي إليه الأعلاق والجواهر، ولأتعبت في حملها إليه الخف والحافر، ولسبقت في ذلك الأولين، واتبعت فيه المتأخرين، عرف الله تعالى الشيخ بركة هذا المهرجان، وأفرده بذلك عن سائر أيام الزمان ولا زال يلبس الأيام قشيبها وهو جديد، ويقطع مسافة سعدها ونحسها وهو حديد، والسلام".

أما التهنئة بالانتصارات والفتوح، فتكاد تكون ضريبة على أولياء النعمة والحاشية ويلتزم بها الأدباء قبل غيرهم، وهم أقدر الناس على تصوير حالات الفرح والاستبشار في نفوس أبناء الشعب، وأعلم الناس في معرفة أثر الكلمة في نفوس الممدوحين، وما هم عليه من حب التزلف، والميل إلى تهويل الحروب والمعارك

---

(1) الرسائل/ 73.

والانتصارات، وبيان آثارها النافعة على العدل والسلام، وتركيز دعائم الدولة إلى غير ذلك: يقول في رسالة كتب بها إلى أبي القاسم بن علي صاحب جيش الصّاغيان [1]:

"لم يزل يبلغني ما يرتفع على يد الأمير من الفتوح التي تفتح لها أبواب السماء، ويفوح منها روائح العز والسناء، في أولئك الأعداء الذين امتنعوا بشدة كلبهم، وقلة سلبهم، ومتاركة المسلمين قديماً لهم، ورضاهم رأساً برأس منهم، حتى لقد حقنت الدماء، وسكنت الدهماء، وأمنت السبل، واجتمع الشمل، ورجع النافر، وعمر الغامر واجتمعت البيضة، وأغمد السيف، وركز الرمح، وقرت الأمور قرارها ووضعت الحرب أوزارها، وهذا صنع لم يخص الله تعالى به أهل أفق دون أفق، ولا أفرد بمزيته سكان غرب دون سكان شرق؛ إذ كانت النعم فيه عمت كل من عرف الإسلام وفضله، وعادى الشرك وأهله. لا زال الأمير يرى كل يوم بسيفه فتحاً يعظم به الخطب، وتستبق فيه الكتب، ولا زال الشرك من قتلاه، والنفاق من جرحاه، والفساد في الأرض من أسراه، حتى تملأ فتوحه كل سامع وناظر، وتشغل كل كاتب وشاعر".

وحين ولي علي بن كامه ولاية قومس بعث الخوارزمي برسالة إليه يهنئه فيها، ويظهر فرحه وابتهاجه، ويمدحه ويمدح أهل بيته وهم من السيادة في منزلة عالية، قد خضعت له البلاد ودانت لهم المنابر، فهم أصحاب سياسة ورئاسة، وينهي رسالته بالدعاء إلى الله في أن يديم لهذا الوالي عزه وتأييده وأن يرفعه إلى درجات عالية، وأن يهيئ له من الانتصارات ما يمكنه من السيطرة على الأقاليم، والوصول إلى سدة الملك، يقول في رسالته [2]:

كتبت، والولاية التي شرُفت بالأمير، ولم يتشرف بها، وتسببت له ولم يتسبب لها، وصغرت قياساً إلى شأنه من حيث كبرت إلى مقادير أهل زمانه. قد بلغني خبرها،

---

(1) الرسائل/ 162.

(2) الرسائل/ 164-165.

فجررت ذيلي فرحاً ورحت لا تحملني أعواد سرجي مرحاً، ووددت لو شربت البحر المحيط عليه قدحاً، وأين بالأمير عن افتراع المنابر، وقيادة العساكر، وهو من أهل بيت يحكم بالملك صغيرهم، ويشيب عليه كبيرهم، تقر بأسمائهم المنابر النافرة، وتسكن بأعلامهم البلاد الشاغرة، لم يرضعوا إلا ثدي ولاية، ولم يروا إلا تحت راية، ولم يغتذوا إلا في حجر سياسة ورئاسة، فلا زال يترقى ذروة رتبة بعد رتبة، ولا زال اسمه يفترع خطبة بكراً بعد خطبة، ولا زال الملك سليله ونتيجه، والعز صنيعه وخريجه، حتى يمتلك الأقاليم ويفترش السرير العظيم، فيعطي القوس باريها، ويملك الزعامة من يليق بها، ويحسن فيها".

ومما يغلب على هذه الرسائل قصرها ووحدة موضوعها، والدقة في اختيار ألفاظها ومعانيها، حتى تكاد تقترب من القصيدة، وليس بخافٍ ما فيها من مبالغة وتعمد لإظهار مقدرته على السجع، ومهارة في استخدام البديع، والإتيان بالتشبيهات والاستعارات اللطيفة.

ولا أكون مجانباً للحقيقة إذا قلت أن هذا النمط من الرسائل له دلالة اجتماعية، إذ لم يكن بوسع كل من أراد أن يخاطب بها الأمراء والوزراء، وأن مكاتبتهم بهذا النمط من الرسائل يقتصر على طائفة من الناس يرتبطون بهم بوشائج وصلات تتجاوز حدود العلاقة بين الأديب والسلطان، لأن العادة في التهنئة والمديح أن يقف الشاعر أو الأديب بين يدي الأمير أو الوالي ينشد، قصيدة أو خطبة بطريقة رسمية. أما هذه الطريقة من التهنئات، فيلوذ بها من وجد لنفسه موقعاً متميزاً، لا يعفيه من الالتزام، ولكنه يعطيه فرصة أكبر للتعبير عن خلجات نفسه.

التعزية والمواساة

اشتملت رسائل الخوارزمي على ثمان رسائل في التعزية، وجل هذه الرسائل موجه إلى الملوك والوزراء والأمراء، وهي تدل على قوة علاقته بهم، وما له عندهم من

مكانة، كما تعكس جوانب من العادات والتقاليد، وقد أشرنا في فصل سابق إلى تخلف نظرته إلى المرأة الذي هو انعكاس للواقع الاجتماعي، فقد كتب إلى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له، وكتب إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وبنته، وكتب إلى كثير بن أحمد يعزيه عن ابنة له، وكتب إلى الوزير ابن عباد يعزيه بوفاة أخته، وكتب تعزية إلى شخص يكنى بأبي بكر وكتب إلى أبي منصور ملك الصاغانيان يعزيه عن عمه، وكتب إلى ملك خوارزم شاه لما أصيب بابنه، وكتب إلى أبي طاهر وزير أبي علي بن إلياس بكرمان[1].

وقد تميزت رسائله في التعزية بقصرها، وتفردها بغرضها، باستثناء رسالته إلى الصاحب بن عباد، التي استهلها بالحديث عما لقيه من تكريم وعناية، وما حظي به من إكرام على يد عامل الوزير، وما تكنفه من نعم، ثم ينتقل إلى غرض التعزية بعد امتداح الوزير والثناء عليه، ويطلب مكافأة العامل الذي أكرم وفاده.

وغالباً ما يفتتح رسائله بقوله (كتابي، أو كتبت...) على عادته في معظم رسائله الأخرى، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الغرض مباشرة ويبدأ في الحديث عن أثر الفاجعة في نفسه، وما جرته عليه من هموم وما أورثته من كمد، وقد يعرج على الحياة فيمطرها بوابل من النعوت السيئة، يقول في رسالة كتب بها إلى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له[2]:

"كتابي عن سلامة، وما سلامة من يرى كل يوم ركناً مهدوماً ولحداً ملحوداً وأخاً مفقوداً، وحوضاً من المنية مورداً، ويعلم أن أيامه مكتوبة وأنفاسه محسوبة، وأن شباك المنايا له منصوبة. أف لهذه الدنيا ما أكدر صافيها، وأخيب راجيها، وأغدر أيامها

(1) انظر الرسائل 15 و18 و60 و82 و161 و166.

(2) الرسائل/ 15-16.

ولياليها، وأنغص لذاتها وملاهيها، تفرق بين الأحباء والأحباب بالفوات، وبين الأحياء والأموات بالرفات.

ورد عليّ خبر وفاة فلان، فدارت بي الأرض حيرة، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة، وملك الوله والوهل قلبي وساوس وفكرة، وتذكرت ما كان يجمعني وإياه من سكري الشباب والشراب، فعلمت أنه شرب بكأس أنا شارب من شرابها، ورمي بسهم سوف أرمى به فبكيت عليه بكاء لي نصفه، وحزنت عليه حزناً لي شطره، وسألت الله تعالى فإنه أكرم مسئول، وأعظم مأمول أن يفيض عليه من رحمته ما يتمم به سهمه في نعمته، وأن يتغمد كل زلة ارتكبها برحمته، ويضاعف له كل حسنة اكتسبها بمنته...".

ينتقل بعد ذلك إلى الترحم على الميت، وبيان مآثره وفضائله ويشجع أهله وذويه على التذرع بالصبر، والتجمل بالعزاء، وينتهي بعد ذلك إلى الدعاء والضراعة إلى الله ليغفر ذنوبه. ويصفح عن خطاياه، ويسأله المثوبة لأهل الفقيد على جميل صبرهم...".

ولعل أبلغ رسائله، وأكثرها صدقاً، ونبل عاطفة، واشتمالاً على روح الإيمان الصادق، ومعرفة لأثر الفجيعة في النفس تلك الرسالة التي كتب بها إلى رجل يكنى بأبي بكر، فقد تجنب المبالغة، وأحسن اختيار الألفاظ والعبارات واستشهد بالشعر، وآيات من القرآن، فأحسن الاختيار، يقول في رسالته[1]:

"بلغني ما قاساه شيخي- أيده الله تعالى- في هذه المصيبة من غم يشكى، بل يبكي، وجزع يضني بل يفني، والموت خطب ثقل حتى خف، وكثر حتى قل، وهان على الباقي لما رآه بالماضي، وعلى المعزى لما رآه في المعزي، ودخل الجميع تحت قول المتنبي.

---

(1) الرسائل/ 147.

يـدفنُ بعضـنا بعضـاً ويمشـي　　　أواخرنـا علـى هـام الأوالـي

وشيخي أعرف بالله، وأقرأ لكتاب الله، وأروى لأخبار رسول الله من أن يتأدب بغير أدب الله، ولا يسلم لقضاء الله، ولكن لمفاجأة المصيبة لذعة يستراح منها إلى مباثـة الصديق، وإلى تسلية الأخ الشقيق؛ فقد يأنس المريض إلى العائد، وإن علم أنه لا يملك شفاءه، ولا يدفع بلاءه، جعلنا الله تعالى ممن يستنجز بالصبر مـا وعـده مـن البشـرى، والصلوات والرحمة والهدى، فإنه تعـالى ذكـرُه ذكـرَ الصـابرين فقـال: "أولئـك علـيهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون" وألهمنا العزاء عما استأثر به، والشـكر على ما أخلف منه، والسلام.

وقد استطاع الخوارزمي أن يجمع في إحدى رسائله بين غرضي التعزية والتهنئة، بأسلوب شيق رقيق، حتى ليحس القارئ أنـه أمـام قطعـة شـعرية اختيرت ألفاظهـا، ونمقت عباراتها، فكأنما الحزن والفـرح يتراجحـان في كفـة ميـزان فيغلـب هـذا تـارة، ويغلب الآخر تارة أخرى. وقد أفاد الخوارزمي من البديع أيما إفادة، فامتلأت القطعـة بالطباق والمقابلات، وحليت بالسجع. ورغـم قصـر الرسـالة فـإن الكاتـب لم يسـتطع التخلص من المبالغة التي حفلت بها معظم رسائله، يقول في رسالته، وهي موجهـة إلى ملك خوارزم شاه، وقد أصيب بابنه[1]:

كتبت، وأنا مقسَّم بين فرحة وترحة، ومـردَّد بـين محنـة ومنحـة، أشـكو جزيـل الرزية، وأشكر جزيل العطية، وأسأل الله تعالى للأمير الماضي الغفران والرحمة، وللأمير السيد التأييد والنعمة فإن المصيبة بالماضي، وإن كانت تسـتوعب الصـبر، فـإن الموهبـة بالباقي تستنفذ الشكر، والحمد لله الذي كسر ثم جبر، وسلب ثـم وهـب وابتلـى ثـم أولى، وأخذ ثم أعطى.

كتب على المشرق خاصة بل على الدنيا كافة أن تطمس آثارها وتظلم أقطارهـا

(1) الرسائل/ 160.

وتهب ريح الخراب عليها، وتنظر عين الكمال إليها، حتى ذبلت شجرة المملكة، ووهن ركن الملة، وطرف ناظر الدولة، وانثلم جانب الدعوة، ثم استدرك الله تعالى برحمته خلقه، فرد إلى الأمير حقه، وقرت الدولة في قرارها، وعادت النعمة إلى صاحبها، وطلعت الشمس من مطلعها ووضعت الرئاسة في موضعها، فأنا الآن بين شكاية الأيام وشكرها، وبين حرب الدهر وسلمه، أبكي وأنا ضاحك وأضحك وأنا باكي العين، إلا أن الضحك علي أغلب، والفرح إلي من الهم أقرب، لأن المصيبة ماضية، والنعمة باقية.

رحم الله تعالى الماضي رحمة تهوّن علينا مصرعه، وتبرد له مضجعه، وتضاعف حسناته، وتمحو سيئاته، وأعان الأمير على رعاية ما استرعاه، وألهمه شكر ما أعطاه، وتولاه فيما ولاه، ولاه جزيل ما أولاه، وأيد بالهيبة سلطانه، وثبت بالبقاء أركانه، وحرس من الغير زمانه.

أما رسالته إلى كثير بن أحمد، فيبدؤها باعتذار لطيف عما سيقدمه من مواعظ ونصائح لا يرى أن لمثله الحق في إسدائها إلى رجل عرك الحياة، وجربها، رجل يعود إليه سراة القوم، حين تلم بهم الخطوب، فيجدون فيه ضالتهم. ومثل هذا التواضع شائع في رسائله إلى أصدقائه. ومن لهم فضل عليه. وهو يرى أن المشاركة في المحن واجبة على الأصدقاء والمحبين.

ثم يذهب إلى بيان آثار الفجيعة في نفسه، وقد اصيب بسهامها وهو إذ يدرك أثر الفجيعة في النفس، يدرك أيضاً مقدار الكمد والحزن الذي يسببه السكون إليها، والسكوت عليها، وأن على المحزون أنه يخفف عن نفسه إما بالبكاء، وهو لا يليق بالرجال، وإما بالإذاعة والاشتكاء للإخوة والأصدقاء ويحاول الخوارزمي بعد ذلك تخفيف الفاجعة على النفس، فيحمدالله على أنها قد أصابت الصغير دون الكبير، وأصابت الأنثى دون الذكر، ويكاد يغبط ذويها على صغر المصيبة، وقلة شأنها إذا قورنت بمصائبه ومصائب غيره، ممن قلب الزمان لهم ظهر المجن فإن محنة هؤلاء صافية صرفاً، وخالصة بحتاً.

وينهي رسالته بالدعاء لوالدي المتوفاة، ويستمطر الرحمة والغفران على المتوفاة، يقول في رسالته[1]:

"نحن معاشر أولياء الشيخ ومتحملي أعباء نعمته، والمتسمين بسمة جملته، إذا صدئت قرائحنا وفسدت أذهاننا، جلوناها بمجالسته وغسلنا عنها وضر التغير باتباع طريقته، وسسنا أنفسنا بما نراه ونتعلمه من سياسته لبطانته ثم لرعيته، وإذا كانت الحال هذه فمن المحال أن نبيع على الشيخ ما اشتريناه منه وإن نجلب إليه ما جلبناه عنه، وأن نقيم أنفسنا مقام المتعلمين، وأن نحمل إليه مواعظ بذلة كلامه منها أبرع، وبداية توقعاته منها أبدع، ولكن لا بد للمحب أن ينطق لسانه وقلمه بما يترجم به عن ودائع صدره، ويعبر عن نيته وسره، ولا بد لمن شارك ربيبه في أيام الرخاء والمواهب من أن يشاركه في أيام الغموم والمصائب ليكون قد خدمه من النوبتين، وتصرف معه في الحالتين، وأثبت اسمه في جريدة الشركاء المساهمين مرتين، وبلغني خبر المصيبة فاغتممت بها غمين ونفذت إلي سهام الفجيعة من طريقين، أما إحداهما فهي أني أغار على هذه الجنبة الكريمة، وعلى هذه الدولة المستقيمة من أن تنفذ فيها رمية الزمان، أو تتناولها يد من أيدي النقصان".

أما رسائل المواساة، فكان يكتب إلى أصدقائه، ومعارفه حين يلم بأحدهم عارض لا يصل حد النكبة والمصيبة، وذلك كأن يصاب بمرض أو علة، فقد كتب إلى (اردهل) رسالة حين ورد عليه خبر علته[2]، وكتب إلى تلميذ له رسالة أخرى حين ظهر عليه الجدري[3] وكتب إلى تلميذ آخر حين ورد عليه كتابه بأنه عليل[4]، ولعل أطرف الرسائل في هذا الباب رسالته إلى كاتب بعض الأمراء، وقد ورد عليه كتابه

(1) الرسائل/ 60.
(2) الرسائل/ 55.
(3) الرسائل/ 158.
(4) الرسائل/ 109.

يشكو فيه الجرب[1]. فقد حوت إلى جانب المواساة شيئاً من السخرية وقد وصف فيها علاجاً، وأبدى معرفة بالطب، وأكثر فيها من النصائح.

ومن دواعي كتابة هذه الرسائل مواساة الولاة والكتاب الذي يتعرضون بين الفينة والأخرى إلى إنقلاب سادتهم عليهم، فمن كان له حظ من سعادة، هرب بدمائه، لا يلوى على شيء، وهو سعيد بالنجاة رغم الفزع والخوف والاضطراب، ولا يجد الخوارزمي محيصاً عن الكتابة إلى مثل هؤلاء مواسياً، ومشجعاً، ومهنئاً بالسلامة ويظهر من خلالها نبل عاطفته وصفاء سريرته، فمن ذلك رسالته إلى أبي الحسن الحاكم بن أبي حاتم لما هرب من نيسابور إلى بخاري[2]، بعد أن أرادوا القبض بها عليه، ومنها رسالته إلى وزير خارزم شاه، لما نكب[3] ورسالته إلى قاضي سجستان حين نكبه أميرها[4].

يعمد الخوارزمي في هذه الرسائل إلى إظهار الحزن، والتألم للمصاب، وبيان مقدار تأثره بالنازلة والعلة ثم ينتقل إلى بيان آثار العلة في المريض وطرق الوقاية والعلاج، ويهرع إلى تهوين الأمر بالإجابة عما يمكن أن يطرح من استفسارات، وما يمكن أن يلم بذهن المواسي من أوهام لأنه يدرك أثر الوساوس في نفس المريض، فيريحه بهذه الإجابات ويجري في هذه الرسائل على عادته في ذم الدهر والأيام، ويختتمها بالدعاء والضراعة إلى الله لتخليصه مما هو فيه يقول في رسالة كتب بها إلى تلميذ له، ظهر عليه الجدري[5]:

"وصلني خبر الجدري، فنال مني، وهيج حزني، وأراع قلبي، وأسهر عيني، وهذه

---

(1) الرسائل/ 115.

(2) الرسائل/ 43.

(3) الرسائل/ 102.

(4) الرسائل/ 171.

(5) الرسائل/ 158.

العلة، وإن كانت موجعة، وفي رأي العين فضيعة شنيعة، فإنها إلى السلامة أقرب، وطريقها إلى الحياة أقصر لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد الممرض والمعالج تصل إليها، وإنما هي قرح نبهته الطبيعة، ودم أثارته الحرارة. وظاهر الداء أسلم من باطنه، وباطن الجرح أهون من كامنه، وهذه بعد، علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، وإذا كانت العلة عامة، كانت أكثر طباً ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح إلى المشاركة، وتأنس بالجماعة، كما تستوحش من الوحدة. ولعمري إنها تورث سواد العين وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر خيار ومن المحنة إلى المحنة صروف ومقدار. وإذا أخطأت سهام الأيام جانباً وأصابت جانباً، سرت أكثر مما أساءت، لأن الحسنة فيها تستبعد وتستغرب، والسيئة منها، تنتظر وترتقب، ولست أستطيع لك غير الدعاء، ولا أكلم في بابك إلا طبيب الأطباء ولا أصانعه عنك إلا بالثقة والرجاء، لا أسأل صحتك إلا ممن خلق علتك، وأرى لك أن تحسن ظنك بربك، وتستغفره من ذنبك، وتجعل الصدقة شفيعك واليقين طبيبك، وتعلم أنه لا داء أدوأ من أجل، ولا دواء أشفى من مهل، ولا فراش أوطأ من أمل، شفاك الله تعالى وكفاك، وسلمك وعافاك، وبلغك رضاك، وحسبك به طبيباً وكفاك.

لقد امتازت هذه الرسائل بوحدة الموضوع، وترابط الأطراف، وعمق المعاني وحسن التعليل، مع العناية بالسجع والمزاوجة والمقابلة بين الجمل والمعاني. وهذه السمات تنطبق على كل رسائل المواساة. على أن رسائله إلى أصدقائه المنكوبين، تزخر بالحكمة والنصيحة، والدعاء ويستعين فيها بشعر الأقدمين وحكمهم، ولا يخفى مالتجاربه الشخصية من أثر في هذه الرسائل، وقد عرف الساسة عن قرب في الشدة والرخاء، في المودة والعداوة، يقول في رسالة كتب بها إلى وزير خوارزم شاه لما نكب[1]

(1) الرسائل/ 102.

قد امتدت مدة هذا البلاء، وأوهمتنا أن الدار دار البقاء لا دار الفناء وصار الخطب فيها سبباً من أسباب سوء الظن بالآثام وداعية إلى قلة الاستنامة إلى الأيام، ونصرة لفعال اللئام على الكرام. ولقد عجبت من ذلك الأمير، كيف استبدل العبيد بالأحرار، وكيف تحول من ظهر الفرس إلى ظهر الحمار، وكأنه لم يسمع في الخبر بدل الأعور أريد بذلك قول الشاعر:

أفنيت مذ قلنا غداة أتيتنا بدلٌ لعمرك من يزيد الأعور

ولما سمعت أيد الله الشيخ بهذه النادرة التي تضحك الثكلى، وتترك العقول حيرى قلت: لا إله إلا الله. وما أعرف لها فائدة إلا أنها أنطقت الناس بالتوحيد، وإن كان على وجه التعجب لا على وجه التهليل والتحميد، اللهم اجعلنا ممن يتعجب إذا سمع الغرائب، فإنه إذا كثر العجب زال التعجب كما قيل:

على أنها الأيام قد صرن كلها (عجائب حتى ليس فيها عجائب)

فأما الآن فقد كان ما كان، فإني أرى للشيخ أن يلبس للدهر ثوباً من الصَّبا ثخيناً ويولي حوادثه ركناً من التماسك ركيناً وأن تجده الأيام حراً، وأن تصفيه الحوادث إذا أذاقته مراً وأن يداري مع ذلك سلطانه، ويصغر بلسانه إساءته، ويكبر أحشاءه ويروض لسانه في الخلق على شكره، لئلا يجمع به في الجلوة إلى غيره، فإنما أيام المحنة موج من تطأطأ له تخطاه ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الأدبار بوجهه صدمته ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزمته، ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيراً، ومن حاسب على القليل من العتب لقي كثيراً، وآفة الناصح آلته، وعيب الكامل في المحنة دالته، لأنه يطالب بثمن نصيحته، ويدل على صاحبه بكفايته، ويعتقد أن طول الخدمة آكد حرمة، وأن تأكد الحرمة عنده قرابة ولحمة. ولعمري إن ذلك كذلك، ولكن الغضب ينسي الحرمات، ويدفن السيئات ويخلق للبريء جنايات.

وإنَّ أمير المؤمنين وفعله لكالدهر، لا عارٌ بما فعل الدهر

وقد يعرض الخوارزمي من خلال هذه الرسائل إلى مظاهر الظلم الاجتماعي. وظواهر الفساد، ولكنه يكتفي ببيان آثارها وشدة وقعها وتأثيرها، وكان يرى أن خير العلاج الوقاية، وأن الصبر واحتمال المكارة هما السبيل إلى الخلاص، لأن أيام المحنة موج من تطأطأ له تخطاه، ففي رسالته إلى قاضي سجستان حين نكبه أميرها يشير الخوارزمي إلى ظاهرة فقدان العدالة، وظلم الولاة والحكام، الذين يأخذون بالبلاغات الكاذبة، ولا يغفرون صغيرة ولا كبيرة، فيتحدث عنها بأسلوب ساخر يلمس القارئ من خلاله مقدار السخط والغضب على هذه الظاهرة، وقد نجد العذر للخوارزمي لأنه لم يستطع التصريح بما يجول في نفسه من ضرورة مقاومة الفساد، والاكتفاء بتجنب الوقوع في الشرك: يقول في رسالته[1]:

"ولكني علمت أن والينا هذا رجل ينظر إلى الذنب الخفي، ويتغابى عن العذر الجلي، وله أذنان، واحدة يسمع بها البلاغات وهي كاذبة وأخرى يصم بها عن المعاذير، وهي صادقة، وليس بينه وبين الصفو نسب، ولا له إلى التثبت طريق ولا مذهب، ولو تعرضت لسخطه بعد ما عرفته من شططه لتحملت دونه الوزر في ظلمي، ولكنت مقدمته إلى ذمي، ومن قعد تحت الريبة ركبته، ومن تعرض للظنة نالته:

ومن دعا الناس إلى ذمه　　　رموه بالحق وبالباطل

وأقل ما ينبعث من حضوري أن يثب هذا الجواد وثبة يصون القاضي عنها، ويبتذلني لها، فأكون قد ضررت نفسي ولم أنفع غيري، فإذا المحنة قد تضاعفت على القاضي ضعفين، وتكررت عليه كرتين".

ويمضي الخوارزمي في البحث عن وسيلة للخلاص، فيدخل في حوار مع نفسه ويكشف عن الصراع الدائر بين الأقدام والإحجام وبين الخوف والألم، وبين الاستقرار والأمل، فيقول:

---

(1) الرسائل/ 171.

"فلما مثلت بين تخلفي آمنا، وحضوري خائفاً، عدلت بين طرفي الرؤية ووزنت بين مقدار المحنة، فرأيت أن أميل مع السلامة وأقنع من العمل بالنية، واغتفر عهدة التفصيل لصحة الجملة، فغبت وكلي غير جسمي شاهد، وتميزت وما أنا إلا مشاهد وبعدت وقلبي قريب، وباينت وقلبي سهيم، وأغضيت على عين كلها قذى، وانطويت على صدر كله شجا، وانصرفت بقلب ساخط راض، وأغمضت بجفن ضاحك باك، وقلت:

فإن تسجنوا القسرى لاتسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

"ولقد نسجت في ذم الظالم حللا لا يبليها الماء، ولا يجففها الهواء ولا تغطي عليها الظلماء، والمغبون من احتقب الاثم، والغارم من غرم العرض والرابح من محنته فانية، ومثوبته باقية".

الشكوى:

يعتصر الألم قلب الخوارزمي كلما انقلب الزمان عليه أو حلت به نائبه أو أصابه مكروه، ومن يقرأ رسائله يطالعه الحزن والألم والشكوى، وسوء الظن بالأيام، فقد وصف محنه بأنها أكثر من الكثير، وأكبر من الكبير، وبأنها زائدة على محن الناس وفاضلة عن معايير العادة والقياس"[1]، لقد ذاق الخوارزمي مرارة التشرد والهوان فقد صفع، وضرب وحبس، ولاحقه موظفو الخراج، وقعدوا له كل مقعد، فصودرت أمواله، وساءت حاله، فأنطقت هذه الحياة المضطربة لسانه بالشكوى، مثلما أنطقه المرض والألم، فمن ذلك ما كتب به إلى قاضي القضاة، يشكو إليه حاله، وما صار إليه أمره بعد إصابته بالحمى يقول فيها[2]:

"كتابي إلى القاضي عن سلامة من الله تعالى بها بعد اليأس منها وقربها بعد البعد

---

(1) الرسائل/ 34.

(2) الرسائل/ 169-170.

عنها، وأهلني لها أضعف ما كنت أملاً وأسوأ ما كنت عملاً، وأقبح ما كان بيني وبين الله تعالى أثراً حين انحلت عقدة الرجاء، ولحظتني عين البلاء، وأمرضني طبيب الأطباء، وبعدت علي مسافة الشفاء، وتقاصرت عن علاجي خطوة الدواء، وأفلست من العافية، كما أيسرت من الحمى، وقربت من الآخرة، كما بعدت من الدنيا ووقفت على جسر قدامه الوفاة، وخلفه الحياة، ونظرت إلى المنية عن عين كريهة نظرها، حديد بصرها، وعرفتني أن ابن آدم ضعيف التركيب، منتقض الترتيب، دواؤه داؤه وبقاؤه فناؤه، وأعضاؤه أعداؤه، كفاه موتاً أن يبقى فيهرم وحسبه داء أن يصح ويسقم، ثم أراد الله تعالى أن يُريَ عبده رحمته بعدما أراه قدرته فأقامه من صرعته، واستله من مخالب علته، وأزال عنه يد المنية بعدما اشتبكت به، فله الحمد رباً عفواً غفوراً، رحيماً شكوراً يأخذ حكمة وعدلاً، ويعفو رحمة وفضلاً.

ولعل أكثر رسائله تعبيراً عما كان يحسه من ظلم، تلك الرسالة التي كتب بها إلى صاحب ديوان الحضرة، يشكو ما آل إليه أمره، وقد زحفت عليه عساكر النحس وابتلي بأمواله التي جمعها بتقحم المهالك، يقول في رسالته[1]:

كتابي إلى الشيخ من الديوان، وأنا فيه ملتحف بالحرمان، مشتمل بالذل والهوان قاعد بين النقصان والخسران، عن يميني مستخرجان، وعن يساري وكيلان، والحمد لله على تصاريف الدهر وأحواله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، فقد أحفيت قلمي ويدي في كتبي إلى الشيخ أخطب نظره لي، وأنشد ما أظللته من عنايته بي، فلم يعطف علي عطفه، ولم يشغل بجانبي طرفه، وإذا إدباري مصمت لا يسمع الدعوى ولا يقبل الرقى، وما أشكو إلا نحسي، ولا أهجو إلا نفسي، وما خصمي غير حرماني، ولا قرني إلا زماني. ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمنةِ، وسكارى سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتتح علينا أبواب المظالم، ويجتلب فينا

(1) الرسائل/ 111-112.

ضرعي الدنانير والدراهم ويسير فينا سيرة لا يسيرها السِّنورُ في الفأر، ولا يستخيرها المسلمون في الكفار حتى افتقر الأغنياء، وانكشف الفقراء. وحتى ترك الدهقان ضيعته، وجحد صاحب الغلة غلته".

ومن رسائله المؤثرة التي عبر فيها عن خوفه وألمه، تلك الرسالة التي كتب بها وهو هارب على وجهه فراراً من البلعمي، فوصف ما حل به من ذل وهوان وما صار إليه حاله من فقر وجوع وألم. يقول في رسالته إلى أبي علي البلعمي[1]: "كتابي إلى الشيخ، وقد أمضت الأيام فيَّ حكمها، وأنفذت في صبري تجلدي سهمها...

انتهت بي المحنة بعد فراق الشيخ إلى غاية ليس بينها وبين الموت حجاز، ولا وراءها للبلاد مجاز حتى لقد ركبت غير دابتي، وأكلت غير نفقتي، ونزلت بيتاً بكراً، وأكلت خبزاً يسراً...".

ولا يخالجنا الشك في أن صيحات الألم، وأصوات الحزن والشكوى لم تكن إلا صدىً حقيقياً لحياة الخوارزمي في ذلك العصر، ولقد كان في كل ذلك خير معبر عن حياة أدباء عصره.

النصح والتوجيه:

حرص الخوارزمي على توجيه تلاميذه ونصحهم وإرشادهم لما فيه خيرهم ومصلحتهم وكان يرى في ذلك واجباً من واجباته، وقد استمد من تجربته، ومن تجارب الماضين مادة غنية مليئة بالحكمة، يبسط لسانه فيها لتلاميذه، فلا يجدون غضاضة في اتباعها، لأنها تعبير صادق عن مشاعر الود والمحبة، وأنى للمرء أن يجد نصيحة أخلص من نصيحة أستاذه، وتوجيهاً أسلم من توجيه شيخه ومؤدبه.

ولم يقف الخوارزمي عند حدود النصح والتوجيه التي يمليها الارتباط بمجلسه،

---

(1) الرسائل/ 30.

ولكنه كان يلاحقهم بعد انتقالهم إلى الحياة العملية، كما جاء في رسالته إلى تلميذ له قلد خلافة البندار بطوس[1]:

وشبيه بذلك ما جاء في رسالته إلى وكيل الوزير ابن عباد بأصفهان حين ولي سوق الطعام[2]:

كتابي وقد علم الله تعالى أن أمرك مستول على أفكاري، وشاغلي عن ساعات ليلي ونهاري، فإنك بصدد شغل إن كفيته لم تشكرّ، وإن عجزت عنه لم تعذر، إذ كان الإحسان من شرطك، والإساءة غير مضنونه بك، والذي أراه لك أن تقسم لكل ساعة حقاً من نفسك، وتعرف إلى كل وقت طائفة من شغلك، ولا تبت ليلة إلا وقد أقمت وظيفة يومها، ولا تمر بك ساعة إلا وقد توفرت عليها بقسمها، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، ولا تهمل نفسك في شغل السبت إلى الأحد، فإن الأشغال إذا تزاحمت أعمت الناظر، وشغلت القلب والخاطر، وبلدت الكافي والماهر.

الشفاعة:

رغم أن حياة الخوارزمي قد أحيطت بظروف قاسية واتسمت بطابع الاضطراب إلا أنها لم تخل من حالات استقرار نتيجة العلاقات الحسنة التي تربطه بأولى الأمر حتى إذا كان له موقع في نفوس هؤلاء هرع إليه المتظلمون لإزالة ظلاماتهم، إذ يجدون فيه شفيعاً مسموع الكلمة، محفوظ المكانة، ولا يجد بداً من الكتابة إلى أصدقائه من الولاة والحكام، الذين كان يحس أنهم لا يردون له مطلباً.

لهذا النمط من الرسائل أسلوب خاص، يتطلب لباقة وفطنة، وحسن توسل وكان عليه أن يخلط الشكر بالمديح، والاعتزاز بالتذلل، وقد استطاع الخوارزمي أن

---

(1) الرسائل/ 26-27.

(2) الرسائل/ 45-46.

يجمع كل ذلك في رسالته التي كتبها إلى أبي عمر المكندري وزير صاحب جرجان حيث يقول[1]:

"وعدُ الشيخ يكتب على الجلمد، إذا كتب وعد غيره على الجمد، ولكن صاحب الحاجة سيء النظر بالأيام، مريض الثقة بالأنام لكثرة من يلقاه من اللئام، وقلة من يسمع من الكرام، وفلان نفض عندي غرائر شكره، واستعان بي على تحمل ما أثقله من أعباء بره، فاعلمته أنني أثقل بنعمة الشيخ ظهراً، وأضيق منه بما لزمني أداؤه صدراً، وأنشدته شعراً.

أعسنين هسلاً إذ كلفست بهسا	كنت استعنت بضارع العقل
أقبلت ترجو العون من قبلي	والمستعان به لفي شغل

ثم إني تذممت أن أرد أخواني في ماعون طلبوه من لساني فأصحبته هذه الأحرف والشيخ يلمظه بالزيادة حلاوة الشكر، ويعرفه فعلاً لا قولاً حميد عاقبته، وما أفاض فيه من جميل النشر، فمثله عرف الشاكرين الصنعة، ونفق بينهم هذه السلعة".

الرسائل الدينية

لعل أبرز تلك الرسائل هي الرسالة التي بعث بها إلى شيعة نيسابور[2]، وهي رسالة تبين مقدار التزام الخوارزمي بالمذهب الشيعي الذي كان يعتنقه، وقد فصلنا القول في ذلك في الفصل الثاني، ولعل أبرز ما يميز هذا النمط من الرسائل هو التعصب الشديد الذي ينطلق من عاطفة جياشة مؤمنة بكل قيم هذا المذهب وتراثه، والحقد على خصومه وأعدائه.

ومن يقرأ رسائله إلى أبي محمد العلوي[3]، يحس فيها أثر العاطفة الدينية

(1) الرسائل/ 13-14.

(2) الرسائل/ 130- 139.

(3) انظر الرسائل/ 9 و32 و167 و174.

والمذهبية التي كانت تمد الخوارزمي بثقة عالية بالنفس ترفعه عن أوضار الحياة المادية، لتضعه في صف أصحاب العقيدة الذين لا يتوانون لحظة في التضحية من أجلها، ومن الرسائل الدينية تلك الرسالة التي بعث بها إلى فقيه في تعهد مسجد[1]:

أحق الأماكن أن يصان ولا يهان، وأولاها بأن ينحي عن مدرجة الاختلال ويرفع عن أن تتناوله يد الابتذال، مكان بني ليجمع شمل التعبد، ويضمن نشر التهجد وترفع منه الحوائج إلى من لا يضجر من السؤال، ولا يتبرم بكثرة السؤال، وهو الكبير المتعال فإن صيانة هذا المكان صيانة الدين، بل صيانة الإسلام والمسلمين وكبت الكفر والكافرين، وما ظنك بموضع هو بيت من بيوت الله، ومظنة لقراءة وحي الله تصف فيه الأقدام بين يدي الله، وتميز فيه أولياء الله من أعداء الله، وهو من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وهو مجلس من مجالس الأخبار، ومسكن من مساكن الأبرار، وحصن من حصون المسلمين على الكفار...الخ.

هذه هي أهم الأغراض التي كتب فيها الخوارزمي، وقد تكلمنا عنها بشيء من التفصيل ولعل من المفيد أن نشير إلى أن الخوارزمي قد كتب في عديد من الأغراض فمن ذلك طلب المكاتبة والمواصلة والتشفي والتشوق والاستعطاف وقد أثرنا الاقتصار على دراسة الأغراض الآنف ذكرها لأهميتها وشيوعها في رسائله.

الخصائص الفنية:

تطورت الرسائل الفنية في القرن الرابع الهجري تطوراً كبيراً وقد ساعد على تطورها ظهور عدد من الكتاب الذين وجدوا في النثر طواعية وقدرة في التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم، تفوق قدرة الشعر، فعمدوا إلى التفنن في صياغتها ووسعوا دائرة أغراضها، وطوروا من أساليبها، كالصاحب بن عباد والخوارزمي والبديع الهمذاني.

---

(1) الرسائل/ 163.

وبالإضافة إلى ظهور هذه الفئة من الكتاب فإن هنالك عوامل أخرى ساعدت على هذا التطور، ولعل أبرز هذه العوامل هو التنافس الذي كان قائماً على أشده بين كتاب الدواوين الذين أصبحت لهم منزلة اجتماعية وسياسية مرموقة ويختار منهم الوزراء والولاة.

ولم يكن العامل الحضاري أقل تأثيراً من سابقيه، ذلك أن ظروف الحضارة وتوسع الموضوعات الإنسانية وتطور مدارك الفرد من الأمور التي لا بد أن تعكس نفسها على الأدب، وأن تؤثر في أذواق الناس وثقافتهم، مثلما تؤثر في سلوكهم.

وقد تميزت الرسائل الفنية في هذه القرن بمجموعة من الخصائص والسمات كالالتزام بالسجع، والاهتمام بتجميل النص واستخدام المحسنات البديعية، والميل إلى المبالغة والإطناب، والاستشهاد بالشعر، والأمثال والآيات القرآنية.

وسنتناول في هذه الدراسة أبرز الخصائص الفنية التي امتازت بها رسائل الخوارزمي سواء في شكلها أو مضمونها.

ولا شك أن الالتزام بهذه الخصائص وغيرها مسألة نسبية تحددها شخصية الكاتب الأدبية، ولعل هذه الفوارق هي التي تطبع شخصية الكاتب وتبين أصالة فنه وصدق إحساسه وعمق تجربته.

مقدمات الرسائل وخواتيمها:

ليس للخوارزمي منهج واحد في افتتاح رسائله، وإن كان الطابع العام فيها خلوها من عبارات الثناء والتفخم والتعظيم وكلمات التحية المتعارف عليها، كما أنها تكاد تخلو من التحميدات التي درج كتاب الرسائل الديوانية والإخوانية على الابتداء بها في العصور السابقة، وإن ما جاء منها في رسائله إنما يأتي بعد مقدمة أخرى وأنه لم يلتزم بها في أغلب رسائله، فمن ذلك قوله[1]:

---

(1) الرسائل/ 106.

"كتابي عن سلامة لا أتهنا بها إلا بسلامة الشيخ، والحمد لله تعالى على سلامته، وعلى سلامتي في جملته. وصلى الله على سيدنا محمد النبي، وعلى عترته".

وكقوله[1]: كتابي- أطال الله بقاء سيدي- من حضرة الوزير عن سلامة بسلامته مشتبكة، وحال بجميع أحواله متمسكة، والحمد لله على النعمة عليه أولاً، وهو حين يحمد الله على سلامته، وسلامة من يكتب إليه فإنه ليجاري بها سنن الكتاب ويتابع طريقتهم، ويجعل منها مصدراً للتفاؤل، يقول في إحدى رسائله[2]:

"وإني إن أصدرت كتابي إليه بالسلامة، مع أن قلبي غير سليم من الألم ولا صحيح من ألوان السقم، فإنما أريد بذلك التفاؤل للكتاب، واتباع رسوم الكتاب".

ويغلب أن يفتتح الخوارزمي رسائله بقوله "كتابي" أو كتبت، لينتقل بعد ذلك إلى المضمون، وذلك نحو قوله[3]:

"كتابي إلى الشيخ، وأنا في خمار شرتي من الدهر".

"كتابي ولو استقبلت من أمري ما استدبرت".

وقوله[4]: "كتبت إلى الأستاذ معاتباً مرة، ومستعتباً كرة".

"كتبت وقد أذن الدهر بالعتبى بعد العتب" وقد يبدأ رسائله بالمضمون مباشرة، وكأن الحديث متصل بينه وبين المرسل إليه، فكأنما هو جالس أمامه يخاطبه، كتب إلى أحد تلاميذه فقال[5]:

"بلغني أنك ناظرت، فلما توجهت عليك الحجة كابرت".

---

(1) الرسائل/ 85.

(2) الرسائل/ 101.

(3) الرسائل/ 8 و10.

(4) الرسائل/ 23 و89.

(5) الرسائل/ 12.

وكتب إلى تلميذ آخر له[1]:

"فلا ترتفع علينا لشغل وليته"

وقد يبدأ رسائله ببيت أو بيتين من الشعر يأتي بهما على سبيل الحكمة والمثل نحو قوله[2]:

"ما زلت أنشد- أيد الله الحاكم- قول الأول:

رُبَّ أمــــــر تتقيــــــه جَــــر نفعــــاً ترتجيــــه

خفــــي المحبــــوب منــــه وبــــدا المكــــروه فيــــه

فأنظر إلى تنزيله، ولا أقف على حقيقة تأويله"

وكثيراً ما يبدأ رسائله التي يرد بها على رسائل الآخرين بقوله: وصل كتابك أو وصل كتاب الشيخ، أو وصل كتاب الأمير، أو وصل كتاب سيدي.

ومن الواضح أن أسلوبه في مقدمات رسائله لم يرتبط بغرض الرسالة، وإنما هي مقدمات مشتركة بين سائر رسائل التهنئة والمديح والعتاب، ولم يميز بها طبقة أو فئة من غيرها، وكل ما في الأمر أنه كان يستخدم عبارات وصفية دارجة، كالشيخ والسيد والوزير والأمير، وغالباً ما يخاطب تلميذه بلفظه "ولدي".

أما خواتم الرسائل، فغالباً ما تنتهي بالدعاء الذي يستمد معانيه من طبيعة الغرض الذي حبرت فيه الرسالة فهو في معرض الرثاء يستمطر الرحمة والغفران للمتوفى، ويستلهم الصبر والعزاء لآله وذويه. وهو في معرض الشكر والثناء ضراعة إلى الله لإدامة النعمة، وزيادة الرفعة وهو في المواساة ابتهال إلى الله لرد كيد خصوم إلى نحورهم وإعادة الأمور إلى مجاريها، أو طلب للاعانة على التخلص من المرض أو المصيبة.

---

(1) الرسائل/ 16.

(2) الرسائل/ 17.

وقد يخرج على هذا المألوف أحياناً، ويأتي بدعاء تحس فيه رغبة في الإغراب كما جاء في رسالته إلى أبي الحارث ملك الجبل، وهي رسالة شكر ومدح وثناء فهو يقول[1]:

"ولقد سلك الأمير من الكرم طريقاً يستوحش فيها لقلة سالكها، وعمر للمعروف دارا لا يستأنس بها لعدم ساكنها، وبيته في قفارها لدروس آثارها، وانهدام منارها، أعانه الله على صعوبة الطريق، وقلة الرفيق، وألهمهُ صبراً يهون عليه احتمال المغارم، ويقرب عليه مصافاة المكارم، فبالصبر تنال العلى، وعند الصباح يحمد القوم السرى".

وقد يعبر الخوارزمي في دعائه عن مقدار برمه بالعادات والتقاليد التي كان يضيق بها ذرعا، فيضرع إلى الله أن يخلص المجتمع منها، فمن ذلك قوله[2]:

"اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتني حتى يبور الجهل، ويموت النقص كما مات الفضل".

وشبيه بذلك قوله[3]: والله تعالى أسأل أن يهب ريح الكرم، ويطلع نجم الهمم، ويجلو عن خلقه صدأ هذه الأخلاق والشيم بمنه وكرمه".

ولعل من المفيد أن نشير إلى فلسفة الدعاء عند الخوارزمي:

فهو يدرك أن الدعاء حيلة من لا حيلة له، وأنه دليل على الضعف والعجز وأن الإنسان إنما يلجأ إلى الدعاء لضيق ذات يده، يقول في إحدى رسائله[4]:

"ولكن الدعاء غاية من ضاق إمكانه ولم يساعده زمانه، وقطعت من مسافة همته خطوة جدته، وبه يكافئ من قلت بسطته، وعجزت قدرته".

---

(1) الرسائل/ 114.

(2) الرسائل/ 129.

(3) الرسائل/ 91.

(4) الرسائل/ 55.

وقد ينهي الخوارزمي رسائله بأبيات من الشعر أو آية قرآنية أو بطائفة من الحكم والأمثال. كما يختتم رسائله بعبارة (إن شاء الله)[1]، وقد[2] تنتهي بعبارة (والسلام)[3].

وبذا يتضح لنا أن الخوارزمي لا يميل إلى منهج محدد في الإبتداء والانتهاء وأن لا تصنع فيهما.

الالتزام بالسجع:

اتسم أسلوب الخوارزمي في رسائله بالتزام السجع حتى أنه صار خصيصةً من خصائص فنه النثري، ولعل من الصعوبة أن تعثر للخوارزمي على فقرة خالية من السجع، وليس الأمر غريباً فقد كان واحداً من الذين اختطوا هذا السبيل، فكانوا رأس مدرسة أدبية عنيت بالسجع والمحسنات البديعية والزخرفة، فما يذكر الميل إلى الصنعة والزخرف إلا ذكر الخوارزمي، والصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمذاني والصابي والثعالبي، يقول الدكتور زكي مبارك[4]:

(وكتاب هذا العصر ينقسمون إلى ثلاث طوائف: طائفة تلتزم السجع التزاماً مطلقاً، ولا تخرج عنه إلى في قليل من الأحيان، ومن أشهر هذه الطائفة بديع الزمان الهمذاني والخوارزمي والثعالبي والصابي والميكالي وابن عباد وابن دريد وابن نباته وابن وشمكير).

ونستطيع أن نقرر أن إلتزام الخوارزمي بالسجع وغيره من المحسنات لم يصل إلى الدرجة التي بلغها بديع الزمان والصاحب ابن عباد في رسائلهما. فالسجع عند

---

(1) أنظر الرسائل/ 152 و158 و128.

(2) الرسائل/ 165–167.

(3) أنظر الرسائل/ 17 و23 و55 و61.

(4) النثر الفني في القرن الرابع 1/ 138.

الخوارزمي حلية يجمل بها مقطوعاته الأدبية، ولكنه لايتعمل في صناعتها ولا يذهب بها مذهباً بعيداً كما فعل البديع الذي عدها عنصراً مهماً من عناصر فن الكتابة، يقصده الكاتب قصداً، ويتفنن فيه ما شاء، ولم يعد السجع في مقاييسه ذلك التوافق الصوتي بين المقاطع الأخيرة من الجمل نتيجة التشابه في الحروف والحركات ولكنه مذهب آخر قوامه المغالاة والإفراط في الإلتزام بالسجع، والتنويع والتفنن في اختراع الألوان الجديدة. حتى أن بديع الزمان الهمذاني أخذ على الخوارزمي اقتصاره على ذلك النمط المتعارف بين الناس، فقد جاء في المناظرة[1] "أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم، المتناول بكل يد وفم".

وقد أعجب الخوارزمي بالسجع أيما إعجاب، وعبر عن إعجابه بقوله[2]: "قرأت الفصل المسجَّع، فشغلني الاقتباس منه عن الجواب عنه، ولقد عمد السيد إلى كل سجعة منتخبة في زاوية ملقاة في ناحية، فألجمها بلجام، وقادها بزمام".

على أن من الواضح أن الخوارزمي كان يميل إلى السجعة القصيرة، وهي التي تقع في جملتين قصيرتين، لينتقل بعدها إلى سجعة أخرى، ولا شك أن هذا اللون من السجع لا يحتاج إلى كثير من الاحتشاد والاستعداد، وأنه يحقق للقارئ فرصة الانتقال بين أنغام عذبة تبعث على الحركة ولنقرأ هذه الرسالة التي كتب بها إلى أحد تلاميذه[3]:

"وصل يا ولدي كتابك القصير لجدا، المختصر جداً، وفهمته، ذكرت أنك مشتاق إلى اللقاء، وستبطئ في ذلك القدر والقضاء، والمسافة بيننا صغيرة البقعة ضيقة الرقعة، إذا ذرعت بذراع الهوى، ومسحت بيد الذكرى، وهي بعيدة إذا سمت بيد التسلي، ونظر إليها بعين التغافل والتناسي، والبعيد قريب إذا التقى العزم والتوفيق، كما أن

---

(1) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان/ 76.

(2) الرسائل/ 34.

(3) الرسائل/ 145-146.

القريب بعيد إذا التقى التفريط والتعويق، فلا تتعلق بأذناب العلل، لو صح منك الهوى أرشدت للحيل.

وقد يخرج الخوارزمي عن هذه القاعدة، فيكرر سجعاته في جمل متعددة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى رغبته في المبالغة التي تدفعه إلى التثنية نحو قوله[1]:

لو رأيتك امتطيت السماكين وانتعلت الفرقدين، وملكت الخافقين، واستعبدت الثقلين، وتناولت الشمس والقمر بيدين، ووطئت الفلك برجلين ما بلغت ما أريد وكنت استزيد وأستعيد.

ولم تقتصر عناية الخوارزمي بالسجع في أواخر الكلمات ولكنه كان يذهب أحياناً إلى الموازنة بين الجمل فيوفق بين ألفاظها وأوزانها، فكأن كل كلمة في الجملة تقابل غيرها في الجملة الأخرى، فالفعل يقابله فعل وحرف الجر يقابله حرف جر، والفاعل يقابله فاعل، وحروف الكلمات متساوية متناسقة، والحركات متشابهة أو متقاربة فمن ذلك قوله في وصف الصاحب[2]:

حتى إذا علم الله صدق نيته، ومضاء عزيمته، ورآه لا يريد إلا رضاه، ولا يسلك إلا طريق هداه، جمع عليه القلوب المتعادية، وألف له الاهواء المتباينة، فدخل الجميع دين الله أفواجاً، وتقاطروا على استجابة الدعوة فرادى وأزواجاً، فلم يبق في نواحي سلطانه أحد من النواصب، إلا وقد غاصت عليه الرحمة وخلصت له الدعوة، فهو متوجه بالحلم قد نبغ أو متوجه في العلم قد بلغ.

ومع أن الطابع العام لسجع الخوارزمي لا يخرجه عن المألوف، ولا يدفع بقارئه إلى النفور لوضوح معانيه وبساطة أفكاره، وسهولة ألفاظه، فإنه لم يسلم من المبالغة التي تقتضيها طبيعة الرسالة، فقد كتب إلى أحدهم رسالة وصفها بأنها مزحة خفيفة،

---

(1) الرسائل/ 206.

(2) الرسائل/ 178.

وإن كانت ثقيلة عليه، وظريفة وإن كانت مخيفة لديه ومحببة إلى سامعها وإن كانت بغيضة عليه "فقال[1]:

"فلان قد أبطأ علي، فليت شعري، هل الريح قلعته أم الأرض ابتلعته أم الأفعى نهشته، أم السباع استغوته أم الشياطين استهوته، أم أصابته بائقة، أم أحرقته صاعقة أم رفسته الجمال، أم اغتاله الجُمال، انتكس على ظهر جمل أم تدحرج من رأس جبل، أم وقع في بير، أم انهار عليه شفير... الخ".

ومن الواضح أن هذا النمط من السجع متقصد متعمد تحس فيه أثر الصنعة على غير ما جرى عليه الخوارزمي.

المحسنات البديعية

لم يقتصر اهتمام الخوارزمي بالسجع وحده، فقد اهتم بالمحسنات البديعية التي تزين النص وتجمله، وتلبسه من الوشي قشيباً، وتهبه من الجمال رونقاً وطلاوة، ليفصح عن القدرة المبدعة في الإتيان بكل ما هو طريف.

وقد انصب اهتمام الخوارزمي على الطباق أكثر من غيره من المحسنات، حتى لا تكاد تخلو منه مقطوعة من رسائله ولعل مرد ذلك يعود إلى رغبته في إبراز معانيه وإظهارها قوية الدلالة، شديدة التأثير، ففضيلة الكرم تستمد عناصر قوتها من خساسة البخل والشح، وفضيلة الشجاعة والمروءة تستمد عظمتها من ضعة الجبن والذلة والخضوع.

ولنأخذ هذه القطعة من رسائله، ونرى كيف أن الطباق ساعد على إبراز المعاني التي أرادها، رغم أنه سار فيه على غير مقتضى العادة:[2]

"... وأنا أكسب الثراء لأتخذ به الأصدقاء، والصديق هو العقدة التي لا يحلها

(1) الرسائل/ 88.

(2) انظر الرسائل/ 68.

الدهر، والذخيرة التي لا يفسدها الخير والشر، والكنز الذي لا ينقص منه الغنى والفقر، وسائر الأعلاق تفقد من حيث توجد، وتحل من حيث تعقد، ويدب إليها الفناء كما يتفق لها البقاء، ويتسلط عليها الأعداء، كما يحسد عليها الأصدقاء وتمسها النار فتحرقها، ويصيبها الماء فيغرقها، فالذهب والفضة حجران يغنيان إن حركا، ويفسدان إن تركا، والضياع والعقار جمادات وموات، لا ترحل مع صاحبها إن رحل ولا تنزل بنزوله إن نزل، يتحكم فيهما الحدثان، ويعمل عمله الزمان، فإذا حاربته الأيام سقم، وإذا سالمته هرم.

ولعل شغفه بالمقابلات المعنوية هو الذي حدا به إلى استخدام الطباق لأنها تستدعي أول ما تستدعيه تقابلاً بين الألفاظ واختلافاً في الدلالة مثال على ذلك قوله[1]:

أعلم أن كفران النعمة، لو أحله الشرع لحرّمه الطبع، ولو جاز عن طريق الملة والديانة لحظر عن طريق المروءة والصيانة، فإن للمحسن من الله عيناً كالئة لا تنام وأن وراءه من واقية الإحسان ركناً منيعاً لا يرام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حظ الجناس في رسائل الخوارزمي هو أقل بكثير من الطباق، وأن أغلب رسائله تخلو من الجناس، سواء الجناس التام الذي تتشابه فيه حروف الكلمة وحركاتها أو الجناس الناقص. ويعود السبب إلى أن الخوارزمي لم يكن مغالياً في الاهتمام بالمحسنات. وأنه أخذ منها بطرف ولم يبلغ فيها مبلغ المتأخرين الذين صارت الصنعة همهم الأول والأخير، فأخذوا يتأنقون في اختيار الكلمات المتماثلة في حروفها وحركاتها، لما أحسوه من وقع موسيقي، ولما حسبوه براعة وتفنناً.

ومن أمثلة ما جاء في رسائله قوله[2]:

---

(1) الرسائل/ 5.

(2) الرسائل/ 53.

"سألت فلاناً عن جسم سيدي في صحته وعلته، وفي ضعفه وقوته فعرفني ما سرّني، فلا زال صحيح الخلق، كما هو صحيح الخلق وقوي الجسم كما هو قوي الدين والعلم".

ومن ذلك قوله[1]:

"ما تأخر جواب كتاب شيخي جهلاً بحقه اللازم الواجب ولا إنكاراً لأفضاله المتراكم المتراكب".

التضمين والاستشهاد بالشعر:

عمد الخوارزمي إلى تضمين رسائله بأبيات من الشعر يختارها لقوة دلالتها، ومتانة تركيبها، وحلاوة نغمتها، فيوشح بها رسائله فكأنما هي حلية تضاف إلى سائر الحلى التي دأب على تجميل نصوصه النثرية بها.

ولقد أجاد الخوارزمي في اختيار الأبيات الشعرية التي ترفد معانيه، وتسندها، وكان له ما أراد من جمال الصنعة، فعبر عن رهافة ذوقه، وقدرته على الاستفادة من الشعر الذي شغف بحفظه، وقد جنح الخوارزمي إلى الاستشهاد بشعر الأقدمين، ولم يستشهد إلا قليلاً بأشعار المحدثين، وهو أمر يتسق مع ما ذهبنا إليه في تحديد اتجاهه الشعري.

ولم يكن للخوارزمي منحى واحد في الاستشهاد، فتارة يستهل بها رسائله، ولا تلبث أن تجد رسائل أخرى ختمت بالشعر، ولكن أغلب استشهاداته وتضميناته تأتي في عرض الكلام.

وقد يستشهد الخوارزمي ببيت واحد أو بيتين، وقد يستشهد بشطر بيت، وقد يستشهد ببعض المقطعات، ولكن الغالب فيها هو البيت أو البيتان.

(1) الرسائل/ 21.

ونستطيع أن نقرر حقيقة إكثار الخوارزمي من الاستشهاد بالشعر إلى درجة المبالغة أحياناً، فقد استشهد بالشعر سبع مرات في رسالة واحدة. وساق مجموعة من الأبيات استدلالاً على فكرة واحدة كما جاء في رسالته إلى أبي محمد العلوي: حيث يقول:[1]

"وتعرفت فيه من خبر سلامته أدامها الله له، ولي به، ما أوجب صيام أيام دهري، وقيام ليالي عمري، على أن تكون الأيام في طول يوم يزيد بن الطثرية، والليالي في وزن النابغة الذبياني أردت بقول ابن الطثرية.

"ويوم كظلِّ الرمحِ قصَّر طوله"

ويقول النابغة:

وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكِبِ

لا بل على شريطة أن تكون الشمس كشمس ذي الرّمة التميمي، ونجم الليل كنجم العباس بن الأحنف، أردت بقول ذي الرّمة.

والشّمسُ حيرى لها في الجوِّ تدويمُ

ويقول العباس بن الأحنف الحنفي:

والنجم في جوِّ السماءِ كأنّه أعمى تحيّر ما لديهِ قائدُ

لا بل على شريطة أن تكون صفة الليل كما قال خالد الكاتب:

وليلُ المحبِّ بلا آخِرِ

وصفة النهار كما قال الآخر:

ويومٌ كأنَّ المصطلينَ بحَرِّهِ وإن لم يكن جَمْر قعودٌ على جمرِ

(1) الرسائل/ 125.

ونظير ذلك ما جاء في رسالته إلى رئيس بهراة[1]، فقد استشهد بخمسة أبيات من الشعر ليصل إلى نتيجة مفادها أن دفن البنات من المكرمات.

وظاهرة الاستشهاد بالشعر تفوق ظاهرة التضمين في رسائله، فهو في حالة الاستشهاد يذكر اسم الشاعر[2]، وقد يومىء إلى عصره[3]، كأن يقول: "وأنشدت قول الأول، أو قال الأول، أما التضمين فيكون بالانتقال المباشر من النثر إلى الشعر، ويكون له حينها ميزة المثل والحكمة، فلا يذكر اسم الشاعر، فكأنه يريد أن يعطي للبيت صفة المثل الذي لا ينسب.

ولا شك أن للتضمين من قوة الدلالة ما لا يصل إليه الاستشهاد، وكان لحذق الخوارزمي، وسخاء حافظته، ومتانة لغته ما ساعد على استقرار هذا الضرب في كتاباته النثرية، فكأنما هي من صلب ما يكتب، وركن أساسي من البناء الفني للرسالة.

فمن جميل تضميناته ما جاء في رسالته إلى أبي إسحاق الحاجب حيث يقول[4]:

"فلا غضاضة عليك في امتداد يد الدهر إليك:

فإن أميرَ المؤمنينَ وفعلَهُ　　　لكالدَّهرِ لا عارٌ بما فَعلَ الدَّهرُ

ومن ذلك قوله[5]:

وليت شعري ما الذي منعه من صلة لا تضره وتنفعني وعن تواضع لا يضعه ويرفعني

ولربما بَخِلَ الجوادُ وما بهِ　　　بُخلٌ ولكن سوءُ حظِّ الطالبِ

(1) الرسائل/ 20-21.

(2) انظر الرسائل/ 28، 29، 70 على سبيل المثال.

(3) انظر الرسائل/ 21، 43، 48.

(4) الرسائل/ 8.

(5) الرسائل/ 22.

وقد أفاد الخوارزمي أيما إفادة من محفوظه من الشعر فعمد إلى حله، والإفادة من معانيه في رسائله. وهو لا يجد حرجاً من الإتيان بالأبيات التي أخذ منها معانيه وتلك ظاهرة لا تقتصر على الشعر وحده، ولكنها تمتد إلى كافة النصوص النثرية الأخرى، فلو قرأنا هذه المقطوعة من رسائله لوجدناها تتضمن معاني الأبيات التي تلتها بعينها[1]:

أنت- أيدكَ الله- أغنى أهل خوارزم، يوم تصير أفقرهم وأكبرهم ساعة تظن أحدهم، وهو الوزير يوم يعزل، والمصون ساعة يبتذل، والكبير بنفسه، وإن انفرد عن غيره، المستأنس بفضله، وإن استوحش من دهره.

إن الأميرَ هو الذي ... يُضحي أميراً يومَ عزلِه

إن زالَ سلطانُ الولايةِ ... كانَ في سلطانِ فَضلِه

ومثل ذلك قوله[2]:

وحق الدهر أن يكف، فقد بالغ في العقاب، وتناهى في العتاب، وحق لصروفه أن تتصرف، فقد أشفت وشفت واكتفت وكفت، وزادت على ما كان في الإمكان وأوفت، وحق لها أن تخاطبها بقول ابن المعتز:

يا محنةَ الدَّهرِ كُفّي ... إن لم تكُفّي فخِفّي

قد آنَ أنْ ترحمينا ... من طولِ هذا التَّشفّي

وقد ينظم الخوارزمي على غرار بيت استشهد به، فيأخذ نسق البيت، وتداخل معانيه، لكي يتمم الأفكار التي أتى بها:

فمن ذلك قوله[3]:

---

(1) الرسائل/ 29.

(2) الرسائل/ 28.

(3) الرسائل/ 70.

"وتأبى صروف الدهر أن تأتيني الإمزدوجة في قران، وذلك أني صمت عن النظر إلى طلعة سيدي، شهري رجب وشعبان، وصمت عن الطعام والشراب شهر رمضان. قال الخليع الشامي:

سُكران: سكر هَوىً وسُكْر مُدامةٍ فمتى يفيق فتىً به سُكرانِ

وأنا أقول:

صومانِ صوم نوىً وصومُ عبادةٍ فمتى يعيشُ فتىً له صومانِ

وقد يستشهد الخوارزمي بأبيات من الشعر لينقدها أو يعارضها، ويبين خطل الرأي فيها، كما فعل[1] حين تصدى لقول المتنبي من قصيدته في رثاء أخت سيف الدولة:

يعلمنَ حينَ تُحيَّى حسنَ مبسِمها وليسَ يعلمُ إلا اللهُ بالشَّنَبِ

وقد أشرنا إلى ذلك في السابق، أو كما جاء في رسالته إلى أبي القاسم الداوودي حيث يقول[2]:

"ما زلت أيد الله الفقيه أورد على قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

يا أهلَ بابلَ ما نفستُ عليكُمُ من عيشِكم إلا ثلاثَ خِصالِ

ماءَ الفراتِ، وطيبَ ظلٍ باردٍ وسماعَ محسنتينِ لابنِ هلالِ

فأقول: هلا حسد أهل العراق على المتصرفين أو الرافدين... وما الذي خالف به إلى أن حسدهم على ظل هو مشترك بين سائر البلدان، وعلى قينتين كسائر القيان، بكل زمان، وفي كل زمان. حتى حدثت نفسي بمناقضته، وحملت خاطري ولساني على معارضته...".

---

(1) الرسائل/ 84.

(2) الرسائل/ 48- 49.

وخلاصة القول أن الخوارزمي وجد في الشعر مادة ثرة تعينه على رفد معانيه وأغراضه، كما وجد فيها حلية يرصع بها رسائله، ويدل بها على قوة حافظته، وأصالة معرفته.

تضمين الرسائل بالأمثال والحكم

عني الخوارزمي بالأمثال عناية شديدة، فكثر ورودها في رسائله حتى لا تكاد تخلو منها رسالة من رسائله، ولا ريب أن عنايته بتزيين النص، وتزويقه هي التي دفعته إلى هذا الأسلوب. فمن المعروف أن الأمثال والحكم تمتاز بجودة سبكها، وأحكام صنعتها، ومتانة تركيبها وتركيز معانيها، فإذا ما أدخلت في نص أدبي زادته رواء وجمالاً، وأضفت على معانيه قوة المثل والحكمة وأضافت إليه خلاصة تجارب الماضين.

وقد انتشرت هذه الظاهرة بين كتاب الرسائل في القرن الرابع، وحفلت بها رسائل كبار الكتاب، كالصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذاني. وغيرهما[1]، وقد فاق الخوارزمي هؤلاء في استخدام الأمثال إذ أنه لا يكتفي بمثل واحد في الموضع الواحد، ولكنه يحشد طائفة من الأمثال والحكم والأشعار، وكأنه يريد أن يبين مقدرته على حفظها، واهتمامه بها فمن ذلك قوله[2]:

... والحمد لله الذي جعل الحاجب يضرب في المحاسن بالقدح المعلى، ويسمو فيها إلى الشرف الأعلى، ولم يجعل فيه موضعاً للولا، ولا مجالاً لإ لا، فإن الاستثناء إذا عرض في الكلام نضب ماؤه، وكدر نقاءه وصفاءه، ولذلك قالوا ما أملح الظبي لولا خنس أنفه، وما أحسن البدر لولا كلف لونه، وما أطيب الخمر لولا الخُمَّار، وما أشرف الجود لولا الاقتدار، وما أحمد مغبة الصبر لولا فناء العمر، وما أطيب الدنيا لو دامت واستقامت.

---

(1) انظر: النثر الفني في القرن الرابع 1/ 128.

(2) الرسائل/ 40.

ما أعلم الناس أن الجود مكسبة   للمجد لكنه يأتي على النشب

ولعل أبلغ دليل على مغالاته في استخدام الأمثال ومباهاته بكثرة الحفظ ما جاء في رسالته إلى أبي الحسن البديهي، فقد نعته بما زاد على مائة نعت هي في أصلها أمثال عربية معروفة، تنفر منها النفس وتجفوها الألسن، ولكنه أراد أن يمرغ وجه البديهي في الوحل فأتى بها إمعاناً في التنكيل، واستدلالاً على خبث منبته، وسوء طالعه. فها هو يخاطبه بقوله[1]:

يا بغلة أبي دلامة، وحمار طياب، وطيلسان حرب، وضرطة وهب يا قدح اللبلاب في كف المريض، يا نظرة الذل إلى البغيض يا كنيف السجن في الصيف، يا شرب الخمر على الحشف، يا وجه المستخرج يوم السبت، يا إفطار الصائم على الخبز البحت، يا جشاء مع أكل فجيلة، وفساء من أكل قنّبيطة، يا وكف البيت الشتوي في كانون، وعلى الكانون يا فراش الجرب المبطون، يا ليل الغربة ووقت الإفلاس والغربة، يا خجل الضرطة، وجواب الغلطة، ودهشة المصبور يا أقذر من ذباب على جعر رطب، يا أذل من قراد في است كلب.

ومن الواضح أن الخوارزمي قد تأثر بأسلوب الأمثال، وما فيها من قوة إيحائية وما فيها من تجربة ثرة تنقل إلى الأجيال فعمد إلى تقليدها من حيث صياغتها وعمق تجربتها، فكان له من ذلك حصيلة وافرة من الأقوال التي تجري مجرى المثل والحكمة، تمتد جذورها إلى الأقوال العربية المأثورة ويستند في جانب منها إلى تجربته الذاتية، وظروف عصره ومجتمعه.

ويبدو أن هذه الظاهرة قد لفتت نظر معاصريه كالثعالبي الذي خص الخوارزمي بفقره في ترجمته استخرج فيها ما يجري مجرى المثل من رسائله فقال[2] وهذه كلمات

---

(1) انظر الرسائل/ 199- 201.

(2) انظر اليتيمة 4/ 194- 198.

تجري مجرى الأمثال أخرجتها من رسائله" وقد فعل مثل ذلك في كتابه "سحر البلاغة وسر البراعة"[1].

ويبدو أن الثعالبي لم يميز كثيراً بين ما هو للخوارزمي وبين ما هو لغيره فقد نسب إليه القول التالي:

"إنما النساء لحم على وضم، وصيد على غير حرم، إلا أن يلاحظن بعين غيور، ونفس يقظ حذور. "وهو حديث لعمر بن الخطاب[2] وهناك أقوال كثيرة أخرى ليست للخوارزمي.

ومع ذلك فإن في أقواله تلك ما يدل على عمق تجربته ودقة استيعابه للمعاني، والقدرة على تركيزها. وإليك بطائفة من هذه الكلمات[3]:

"الشكر على قدر الإحسان، والسلع بإزاء الأثمان، الأذكار حيث التناسي والتقاضي حيث التغاضي، النفس مائلة إلى أشكالها، والطير واقعة على أمثالها الأيام مرآة الرجال، والأطوار معيار النقص فيهم والكمال، العشرة مجاملة لا معاملة والمجاملة لا تسع الاستقصاء والكشف، ولا تحتمل الحساب والصرف، الكريم يعز من حيث يهون، والرمح يشتد بأسه حين يلين، ...شتان بين من اقتنص وحشيا بحبالته ومن اقتنص إنسياً بمقالته، من أراد أن يصطاد قلوب الرجال نثر لها حب الإحسان والجمال، ونصب لها شرك الفضل والأفضال، في كتمان الداء عدم الدواء، وفي عدم الدواء عدم الشفاء".

وطبيعي أن تنعكس هذه الظاهرة في رسائله، حتى ليخيل إليك أنك لا تقرأ

---

(1) انظر صفحة 191 – 195.

(2) لسان العرب– مادة (وضم).

(3) اليتيمة 194، 198.

رسالة أدبية، وإنما حكمة بالغة، من رجل خبر الحياة وجرّبها، لكل عبارة فيها وقع خاص، تدفعك إلى التفكير فيها، وأخذ العبرة منها، ولنقرأ هذه القطعة[1]:

"الرجال حصون يبينها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البر والبحر، ويحمدها الجفاء والكبر، وأنه لا مال إلا بالرجال، ولا صلح إلا بعد قتال، ولا حياة إلا في ناحية الخوف، ولا درهم إلا في غمد سيف، والجبان مقتول بالخوف قبل أن يقتل بالسيف، والشجاع حي، وإن خانه العصر، وحاضر وأن غيبه القبر، ومن حاكم خصمه إلى السيف فقد رفعه إلى حاكم لا يرتشي، ولا يفتري فيما يقتضي، ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته كل الطلب".

الاقتباس من القرآن الكريم

كانت ثقافة الخوارزمي ثقافة إسلامية عربية، وكان من الطبيعي أن تظهر آثارها في رسائله، وقد ظهرت بالفعل، ومن يقرأ رسائله يحس مقدار تأثره بالقرآن الكريم في لغته ومعانيه، فقد دأب الخوارزمي على اقتباس آيات من القرآن الكريم لما فيها من قوة إيحائية تسمو بمعانيه، وتحفظ لها جمال الإيقاع، وعذوبة النغمة.

وكان الخوارزمي موفقاً في اختيار الآيات التي تناسب غرضه حتى لتحس أن النص لا يستقيم إلا بها، فمن جميل تضميناته ما جاء في إحدى رسائله حين أتى، بطائفة من الآيات المتفرقة ملتئمة في نص واحد جميل أخاذ. حيث يقول[2]:

"ودفعنا إلى قتل الإمام بعد الإمام، والرضا بعد الرضا، ولا مرية عندنا في صحة إمامته "وكان وعد الله مفعولاً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، ولتعلمن نبأه بعد حين".

ألا ترى أن الخوارزمي كان شديد التوفيق في اختيار هذه الآيات، وهي من سور

---

(1) اليتيمة 4/ 199.

(2) الرسائل/ 131.

متعددة، فالثانية من سورة الأحزاب[1]، والثالثة من التكاثر[2]، والرابعة من الشعراء[3]، والخامسة من سورة (ص)[4]، أما الآية الأولى، فلعله لم ينتبه إلى ما فيها من تصحيف، أو أنه غيّر فيها عن عمد، وهو أمر مألوف في رسائله ذلك أنه كثيراً ما يأخذ معنى الآية من غير أن يؤثر في حسن الأداء، وجمال التعبير مثال ذلك قوله في وصف الشعراء "وما ظنك بقوم يتبعهم الغاوون، وفي كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون".

فقد استبدل لفظة قوم بلفظة الشعراء، وحذف كلمات أخرى من قوله تعالى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

ولعل من غير المناسب أن نرمي الخوارزمي بالتهاون وقلة الاحتراس لإيراده آية غيرت بعض ألفاظها، خاصة أنه من المعروفين بالحفظ، وربما كان التبديل والتغيير عن قصد، فقد جاء في إحدى رسائله:

"أم عمل عمل لوط، فأرسلت عليه حجارة من طين منضود مسومة عند ربك، وما هو من الظالمين ببعيد".

فقد أبدل كلمة (سجيل) بكلمة (طين)، وهما بنفس المعنى[5].

وقد تكررت في رسائله ظاهرة الاستشهاد بآيات متعددة من سور مختلفة. من ذلك قوله[6]:

---

(1) آية/ 33.

(2) آية/ 4.

(3) آية/ 227.

(4) آية/ 88.

(5) انظر آية 82، 83 من سورة (هود).

(6) الرسائل/ 3.

"وأراد الله أن يرفع حكمتك، ويقوم من قنبور حديثك "فينظر كيف تعملون" "والله يعلم ما تبدون وما تكتمون"[1].

وقد يعمد الخوارزمي إلى التقديم والتأخير في ترتيب الآيات من السورة الواحدة كما جاء في قوله[2]:

"هذا كلام لو أنه جرى به بنانه، ونطق به لسانه لقلت: تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هداً، ولقد جئتم شيئاً أداً".

فأخر قول الله "ولقد جئتم شيئاً اداً"[3] وموضعها قبل الآية التي سبقتها ولعل مرد ذلك يعود إلى تحقيق الانسجام في المعنى العام، ومع ذلك، فقد بدت الآية الأخيرة محشورة لغير ما داع.

وللخوارزمي ميل خاص لاستخدام معاني الآيات، والإيماء إليها بالإتيان ببعض ألفاظها فمن ذلك قوله في التعريض بالبديهي[4]:

"وأن الشمس إنما جعلت مبصرة، والقمر إنما جعل آية ممحوّة، لأن الشمس تواضعت لك بالتأنيث والقمر قد نازعك التذكير".

ولا يخفى على القارئ ما لهذا الأسلوب من جمال وما فيه من براعة وحسن تعليل. ومن الرمز والإيماء إلى مضمون الآية القرآنية ما جاء في الرسالة ذاتها حيث يقول[5]:

"يا من هو دليل على أن الله جواد حيث أطعم مثله ورزقه" وقد قال الله تعالى في كتابه:

---

(1) الأعراف/ 129.

(2) النور/ 29.

(3) الرسائل/ 195.

(4) انظر الآيتين 89، 90 من سورة مريم.

(5) الرسائل/ 201.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾[1].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا ﴾[2]

وواضح أن ما رمى إليه الخوارزمي بمعنى الدابة هو غير المعنى الذي جاء بـه في القرآن، وأنه إنما قصد المعنى الضيق لكلمة دابة سخرية وازدراء.

وهكذا يتضح لنا أن الخوارزمي قد أفـاد مـن القـرآن الكـريم إفـادة كـبيرة، في أسلوبه ومعانيه، وأنه كان ذا قدرة على التصرف فيما يقتبسه لخدمة فنه.

المبالغة:

المبالغة سمة بارزة في أسلوب الخـوارزمي، تطفـح بهـا رسـائله. ولعـل الطـابع الشخصي الذي تميزت به أغراض الخوارزمي في هذه الرسائل من الأمور التي ساعدت على ظهور هذه النزعة، فالمديح والهجاء والتهنئـة والتعزيـة مـن الموضـوعات المشـبعة بالعاطفة. والعاطفة تدفع الإنسان حين يريد أن يعبر عنها إلى شيء من الغلو والمبالغة، لأنها لا تكون محكومة بقوة العقل وسلطانه، ولأن ما تتميز به من شدة الاندفاع وقـوة التأثير يحد من جموع السيطرة العقلية التي تميل إلى الاتزان.

هذا بالإضافة إلى ما كان عليه ذوق عصره الذي بدا يميل إلى المبالغة والاغراب، فصار ذلك سمة من سمات نثر كتاب العصر وأدبائه.

وكان على الخوارزمي أن يجاري هؤلاء في ذوقهم الذي ساد في دواويـن الملـوك والأمراء والولاة، ذلك أن ارتباطه بهذه الدواوين قد أملى عليه أن يشارك أصحابها في شؤون حياتهم، مدفوعاً إلى ذلك بعامل المصلحة والطماح، وعامل الخوف والرهبة من العقاب، إذ أنه لا يستطيع التنصل من الكتابة إليهم في سرائهم وضرائهم، ولـو أجـاز

---

(1) هود/ 6.

(2) العنكبوت/ 60.

لنفسه مثل ذلك، فإنه لن يكون في أمنةٍ من العقاب، لما يمكن أن يحسبوه نكران جميل وقلة وفاء، أو انحرافاً إلى صف الخصوم والأعداء.

وكان من الطبيعي أن يخاطب هؤلاء القوم بما يليق بمقامهم، وما هم عليه من رفعة مكانة وسمو منزلة، وما كان بوسعه أن يتجاهل شغفهم بمظاهر الكبر وتعلقهم بكلمات المديح والإطراء ونعتهم بالقيم الاجتماعية السامية، لما يضفيه عليهم من مهابة، ولما يدخله في نفوس العامة والأعداء من رهبة وخوف.

إنهم يريدون من كل شاهق قمته، ومن كل فضيلة غايتها إذا أعطوا أفاضوا، وإن حرموا أهانوا، أفراحهم أفراح كل الشعب وإن ظلموا، وأتراحهم أتراح كل الشعب وإن طغوا وتجبروا، ولنقرأ ما كتبه الخوارزمي عن الصاحب ابن عباد، إذ وصفه بالكرم والجود، والبلاغة والفصاحة وهي خصال له معروفه، إلا أنه بالغ في تقدير تلك الخصال مبالغة مفرطة كادت تودي بالمعنى إلى شيء من الخيال.

يقول[1] "وقد رحل السيد إلى حضرة رجل هو للكرام أنشأ نفساً وللفضل أمثل شخصاً، إذا ناظره العربي صار أعجمياً وإذا ناظره الأعجمي صار عربياً، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره، وفارق فخره، فهو رفيق الجود وخليله، وزميل الكرم ونزيله".

ثم يصف كلام الصاحب فيقول[2]:

"وهذا ما يسمعونه من كلام الوزير الذي لو سمعته الوحش لأنست، ولو خوطبت به الخرس لنطقت أو استدعيت به الطير لنزلت".

وشبيه بذلك قوله[3]: "فاتصلت من ولي نعمتك برجل لو اتصل به الأدبار لتقدم

---

(1) الرسائل/ 104.

(2) الرسائل/ 105.

(3) الرسائل/ 3.

الإقبال، ولو خدمه النقص لفضل الكمال، ولو تعرف إليه الجماد لنطق بجده ولو استجار به أمس الدابر لرجع بسعده".

وقد كانت مصالحه الشخصية تدفعه أحياناً إلى أن يبالغ في مدائحه للولاة والخلفاء، أو في اظهار التظلم والشكوى من عمال الخراج وغيرهم.

وقد دفعته عاطفته الدينية والمذهبية إلى المبالغة في وصف ما حل بطائفته من نكبات ومصائب خلال التاريخ الإسلامي، وقد قاده ذلك للرد على خصومهم رداً قاسياً مليئاً بالسخرية، مغالياً في ذلك مغالاة شديدة. وقد بينا ذلك في الحديث عن مذهبه الديني ومعتقداته السياسية.

أما أساليبه في المبالغة فكثيرة متنوعة: فقد يعمد إلى تكرار الصورة أو الإلحاح على الفكرة وعرضها بطرق متعددة لكي يرسخها في ذهن القارئ أو يأتي بطائفة من التشبيهات البعيدة أو المقلوبة أو غير المألوفة وسنتحدث عن ذلك في الكلام عن السخرية.

وثمة أسلوب آخر من أساليب المبالغة استخدمه الخوارزمي كثيراً في رسائله، وهذا الأسلوب يعتمد التثنية فمن ذلك قوله[1]:

"لو أني أنصفت لشكرت بلسانين، وأحببت بقلبين، وكتبت بيدي بقلمين، وواليت أيامه ودولته بنفسين، كما أنه يحسن إلي من جهتين، ويبشرني من جانبين ويهدي إلي الهدية ذات الطرفين".

وقوله في تعزية كثير بن أحمد عن ابنه له[2]:

"ولا بد لمن يشارك رئيسه في أيام الرخاء والمواهب من أن يشاركه في أيام الخصوم والمصائب، ليكون قد خدمه من النوبتين، وتصرف معه في الحالتين، وأثبت اسمه في جريدة الشركاء المساهمين مرتين".

---

(1) الرسائل/ 143.

(2) الرسائل/ 60 للاستزادة انظر مثلاً 90، 92، 103، 105، 125.

السخرية

سبق أن تناولنا بالبحث علاقة الخوارزمي بعصره، وبينا مقدار برمه بكثير من العادات والتقاليد، وأنه قد ضاق ذرعاً بعمال الخراج الذين كانوا يستخدمون كل الوسائل في تحصيل الأموال واستخراجها من أصحابها بحق وغير حق. وقد بينا أنه كان داعية تغيير اجتماعي لما لهذا الجانب من صلة بمعتقداته المذهبية والسياسية.

ولما لم يكن بإمكانه أن يغير من الواقع شيئاً، إذ لم يكن صاحب سلطة أو نفوذ. فقد أخذ على نفسه توجيه النقد إلى كلّ ما لا يتفق مع تطلعاته ومصالحه، ووجد في السخرية أسلوباً مؤثراً يعبر به عما في نفسه، ويدفع السامع أو القارئ إلى مشاركته في الرأي وتبني فكرته، فهو يلجأ إلى تضخيم الصورة وتكبيرها، ويقرنها بطائفة من الصور الأخرى المنفرة، وقد يعمد إلى قلب الصور زيادة في السخرية، وهو في كل ذلك حريص على إثارة الضحك من هذه الصورة المنفرة الشوهاء، غايته من ذلك التأثير في مشاعر الآخرين والسيطرة على عواطفهم وأحاسيسهم، وتوجيه انفعالاتهم باتجاه الحدث أو الشخص الذي يريد أن يسخر منه.

وقد وفق الخوارزمي في كل ذلك بالرغم من مبالغاته المفرطة في بعض الأحيان.

والخوارزمي يبالغ في تجسيم الحدث وتشنيعه، ويقرنه بطائفة من الصور المقلوبة أو البعيدة المؤثرة لإثارة مشاعر السخط والتقزز والنفور.

فقد جعل للمظالم أبواباً، وللدنانير والدراهم ضرعاً وجسم الحقد والعداوة وشدة السطوة حين قرنها بعداوة القط والفأر وعداوة المسلمين للكفار الذين لا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة في دين الله.

ولم يكتف الخوارزمي بتجسيم الحديث بل أنه ربط النتائج بأخلاق ذلك الرجل، فكأنما النقص في الأموال والأمن والعدالة مقترن بنقص في أخلاقه فالدراهم في أيامه أقل من الهدف في كلامه، والأمن في أعماله أعز من السداد في أفعاله.

لقد أراد الخوارزمي أن يزري بهذا الرجل فعلته لأنه كان يرى فيه وجهاً من

وجوه الاستعباد والذل التي قاسى منها المجتمع في عصره، ولم يجد غير السخرية وسيلة لذلك. على أن خير ما يمثل أسلوب الخوارزمي الساخر رسالته التي كتب بها إلى أبي الحسن البديهي[1]، وهو أسلوب يقترب كثيراً من أسلوب الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير التي سخر فيها من كاتب بغدادي اسمه أحمد بن عبد الوهاب فقد سخّر كلٌّ منهما معرفته وثقافته في إظهار جهل صاحبه وقلة حوله وطوله.

فزعم الخوارزمي للبديهي عيوباً وبالغ في وضعها بأسلوب مليء بالسخرية والتبكيت، وكأنه يريد أن يظهر مقدرته، ويباهي بعلمه في الوقت الذي يرميه بالغفلة والجهل، فتارة ينعته بخصال عظيمة مستمدة من التاريخ، فيقذف بها في وجهه لكي تستحيل لفرط ما فيها من مبالغة سخرية لاذعة، فهو ينسب له العلم بكل شيء والإحاطة بعلوم الأولين والآخرين، والقدرة على الإتيان بالمعجزات والخوارق، ويعيد إليه الفضل في كل أمر عظيم، وهي أمور لا تجتمع لامرئ أنى كان شأنه.

وتارة يظهره مخالفاً ومنكراً لكل ما آمنت به البشرية من عقائد، وما توصلت إليه من علوم ومعارف، بما في ذلك الأمور البديهية، حتى ليكاد يقترب في هذا الجانب من أسلوب الهجاء.

فمن الأولى قوله[2]: "قد اتفق الناس على ضياع النسخة الأولى من كتاب العين فأمله علينا، وأجمعوا على ذهاب قراءة أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود فأخرجهما إلينا، وتخالف الناس في المهدي، وشكّوا في السفياني، وفي الأصفر القحطاني فعرِّفنا متى يخرجون، فإني أعلم أنهم إليك يختلفون. وفي أمرك ونهيك مترددون وبمشورتك يغيبون ويحضرون. والكيمياء عرفت أنه أنفقت فيه الأموال، وتعب له الرجال، ثم لم يحصل لهم منه إلا أماني مسوَّفة، ومواعيد مزخرفة، فما عليك لو علمتناه، وأغنيت

(1) الرسائل/ 191- 209.

(2) الرسائل/ 202.

الفقراء، وزدت الأغنياء، وأرحت الناس من الضرب في البلاد ومن الكد والاجتهاد، ومن أن يخدم الفقير غنياً، ويتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، والزيج الأكبر قد انقطع وانقرض أهله، وهو من مفاخر الروم علينا، ومن محاسنهم دوننا، فاعمل في إصلاحه، ولا تدع النصارى يفضلون المسلمين في إبداعه. ومسجد دمشق فهو حسنة يباهي بها أهل المغرب أهل المشرق، فابن لنا مثله، ولا تثبت علينا فضله، فإنما هي ساعة من هندستك، وجزء تستعمله من أجزاء حكمتك، وقد زدت عليه، وبنيت ضعفه. وآل أبي طالب قد علمت أنهم مسلوبون حقهم، ومغصوبون إرثهم فتقدم إلى غلامك الدهر بأن يرفع رايتهم ويرد إليهم ولايتهُم، والفلك زعموا أنه خرف فاردد شبابه واعد عليه من الشبيبة ثيابه".

وهكذا يستمر في طلب الإتيان بالخوارق ويدعي له العلم بالأمور، وكأنه يريد أن يقول: أيها الجاهل إن لك أمراً غير هذا، وإن مدحي لك ذم، وإن ما ادعيته لك إنما هو عبث بك وانتقاص لشأنك.

وقد كشف الخوارزمي عن ذلك بقوله[1]:

"والفصول التي قصرتها على مداجتك، ولينت فيها من القول لك فإنما هي عوذة عوذت بها هذه الرسالة، وطلسم حسن صنت بفتحه هذه المقالة فعوذت أحسن الأشياء بأقبح الأشياء، وسترت بنقصان المدح كمال الهجاء، على أني قد غالطت أسماع الناس وأبصارهم وسحرت بهذا البيان خواطرهم وأفكارهم. فهم يحسبون أني أجدت، وإنما الصدق أجاد".

أما الأسلوب الآخر الذي لجأ إليه الخوارزمي، والذي يظهر البديهي منكراً لكل حقيقة فقد تجلى في نحو قوله[2]:

---

(1) الرسائل/ 199.

(2) الرسائل/ 193.

"ولو استبدعوا صنعة الخليل العروض أخذت تزعم أنه ما أحدث أمراً، ولا افترع بكراً، ولو استحسنوا وضع كليلة ودمنة وصفت أن أمثالها غثة، وأن حكمها رثة ولو فضل التوحيد أفردت به النصارى، ولو عيب الثنوية برأت من عيوبهم ماني، ولو غنيت بألحان ابن شريح ومعبد قضيت عليهما بأنهما من بابة التوبة والعبادة. ومن شريطة النسك والزهادة ولو مدحت العافية أسهبت في ذمها، كما لو فضلت السعادة أكثرت في شتمها... ولو عاينت العرب رميتهم بضيق البيان واللغة وقلة العارضة والبديهة، ولو قرأت سيرة عمر رضي الله عنه زدت فيها سنّ المتعة ولو عثرت بحديث يزيد بن معاوية عددت من فضائله يوم كربلاء والحرة، ولو قرئ بين يديك القرآن عارضته بنوادر أبي العبر وبكلام يجب الغلط، ولو لحظت السماء قلت ما اسوأ ما دحيت، ولو درست أيام الفرس هجوتهم بقلة السياسة، وضعف التهدي للعمارة ولو خوفت بيوم القيامة ذكرت أنه يوم قصير صغير وأن الخطب فيه يسير حقير، ولو فوتحت في حديث العنقاء حلفت أنها باضت وفرخت في بيتك ودرجت في وكرك وأنك طالما سقيتها وأطعمتها، وطالما أسرجتها والجمتها".

وقد يخرج الخوارزمي من طوره، فتتعالى في نفسه سورة الغضب، ويخلط السخرية بالهجاء فإذا به ينسب إليه كل الأفعال القبيحة المستهجنة، ويعمه بكل معايب البشرية، ولكنه لا يسف ولا تنبو كلماته وألفاظه يقول في مخاطبة البديهي[1]:

"وليس محنتي فيك بأعظم من محنة الحق الذي لم تزل تعبث به حتى لو تجسم نفساً لسعيت في ذمها، أو تمثل داراً لجهدت في هدمها، فكأنك لم تخلق إلا لتطمس عين النور، وتقلب أعيان الأمور، فتجعل الضوء ظلمة، وتعكس البدعة سنة... حتى كأن سوفطا استخلفك على جحْد ما يدرك عياناً، ويعرف إيقاناً، فأنت وارثه في الباطل، وناصر جهله على كل عاقل، وحتى كأن الله أنزل عليك قرآن ضلالة وبعث إليك

(1) الرسائل/ 192.

رسول جهالة، وقال لك خالف الإجماع وأنت على السنة، وعاد الصواب وأنت في الجنة، وأوحش الأحرار وأنت أصل الحرية، وباين الناس، ومنك منبع الإنسانية، وناقض الحكماء وأنت الحكيم.

إن المبالغة عنصر من عناصر أسلوب السخرية، وقد تجلى واضحاً من خلال ما أوردناه من نصوص، وهو إلى ذلك يميل إلى قلب الصور وتنويعها، وتسليط الضوء على بعض جوانبها وهو لا يدع للقارئ فرصة التأمل فهو ينقله من معنى إلى آخر، ومن صورة إلى أخرى، لأنه لا يريد أن يشعر القارئ بالملل والفتور، ولا أن يترك له فرصة التأمل. ولا شك أن تجسيد المعاني العقلية وتحريكها وتحويلها إلى معان حسية أبرز سمات أسلوب السخرية فالقبح والمحال والسداد والعكس، والجهل والعي أمور عقلية ولكنه استطاع أن يبعث فيها حركة لكي يعبث بخصمه، ويضحك القارئ منه.

وينتقل الخوارزمي إلى أسلوب آخر في السخرية، هو أسلوب الهجاء المباشر، فيخاطبه بنعوت منفرة وصور مقززة، بحيث لا يكاد يترك فرصة لتأمل هذه الصور والنعوت، فكأنما هي سيل متدفق يدفع بعضه بعضاً وكأنما الخوارزمي في ذلك واحد من العامة تحركت فيه نوازع الشر والانتقام، فيكيل من السباب والشتائم ما طاب له ولا يدع مجالاً لسماع رد الخصم، ومن هنا فإننا نلمح اقتراباً من أسلوب التعبير الشعبي، غير أن الخوارزمي سرعان ما يحس بضرورة الارتفاع إلى مستوى آخر فيأخذ بتركيب الصورة الساخرة، ويستمد من ثقافته الواسعة أسباب السمو والارتقاء فتلمس حينها أثر الجانب العقلي، والربط الموضوعي والتجانس الذهني بحيث يصل إلى صيغة متطورة من المبالغة التي كان يجنح إليها.

فمن ذلك قوله[1]: يا غداة الفراق، وكتاب الطلاق يا موت الحبيب وطلعة الرقيب... يا كنيف السجن في الصيف يا شرب الخمر على الحشف... يا جشاء من أكل فجليه، وفساء من أكل قنبيطية.

---

(1) الرسائل/ 199.

ومن الصور المركبة في هذا الباب قوله[1]:

يا أثقل من منادمة طفيلي على الندماء، مقترح في الغداء والعشاء مجمش للساقي، قاطع على المغني، يواثب ويزني.. يا ليلة المسافر في كانون الآخر على أكتاف بائس، تحت مطر وبرد قارس.

يتضح من كل ما سبق أن الخوارزمي قد استطاع أن يرقى بالسخرية إلى مكانة عالية وأنه استوعب كثيراً من خصائصها الفنية، وأنه قد وعى ما للمبالغة وقلب الصور، والروح الشعبية من تأثير في عواطف الناس ومشاعرهم وإثارة السخر من الخصوم.

كما أدرك الخوارزمي أن السخرية تقوم على ضرب من مغالطة الأسماع والأبصار[2] ويعني ذلك أن للتصوير أهمية بالغة لأن الأسماع والأبصار تعتمد الحس، وفي الصورة تجسيم للأحاسيس والمشاعر.

ومن هنا فقد كان الخوارزمي موفقاً في اختيار مقام السخرية حيث يرتبط عنده هذا المقام بالمغالطة أو ما اصطلح عليه "بالتناقض"[3] من نحو ادعاء الجاهل بالعلم كما بينًا في النصوص السابقة، أو كما جاء في رسالته إلى ابن مسكويه وقد تزوجت أمه وهي من الأمور التي ينظر إليها بشيء من السخرية.

فقد كتب إليه[4]:

العاقل أعزك الله تعالى لا يرى المحنة إذا تخطت دينه محنة، ولا يرى النعمة إذا تعلقت بذنب خطيئة نعمة، ولا يريد الشرف إلا بالتقوى، ولا يرى الضعة إلا ما وضع

---

(1) الرسائل/ 200.

(2) الرسائل/ 199.

(3) انظر الفكاهة في الأدب/ لأحمد الحوفي/ 51.

(4) الرسائل/ 173.

من رتبته في الدار الأخرى. وبلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى، فحمدت الله تعالى الذي رزقك والداً لا يلزمك حق أبوته، ووعدك أخاً لا يحملك حمل أخوته.

لغة الرسائل:

يستخدم الخوارزمي في رسائله لغة سهلة ميسورة يحس القارئ فيها بجمال الأداء وعذوبة الكلمة، ولم نجد في رسائله ما يشير إلى اهتمامه بغريب الألفاظ والتعبيرات فجاءت لغته صافية معبرة عن معانيه، مفصحة عن مراميه لا تجد فيها ثقلاً، أو خروجاً على قواعد اللغة وأساليبها الفصيحة.

ويبدو أن معرفته باللغة، واهتمامه بها ما استطاعا أن يبعداه عن الأسلوب الأدبي في التعبير، وأن تأثره بمصادر ثقافته الأدبية ممثلة بالقرآن الكريم والشعر والأمثال كان قوياً بحيث جنبه حذلقة اللغويين، وشغفهم بالغريب والشارد.

ورغم أن لغة الخوارزمي كانت على جانب كبير من البساطة واليسر، هذه البساطة التي تقربها من أذهان العامة والخاصة، فقد اتسمت بالفصاحة، ووضوح الدلالة رغم اختلاف طبقات المخاطبين، واختلاف أغراض الرسائل.

على أن الخوارزمي لم يستطع تجنب استخدام الألفاظ الأعجمية التي دخلت ميدان الحياة السياسية والاجتماعية مثل "رستاق، مهرجان، أسفيد باجي، درياق، سده، دست، تخت، صنجة وسنجة".

ولم تخل رسائله من ألفاظ غريبة، وإن كانت قليلة جداً نحو "قيد، الطرفة السمامة، تمندلت، مطروف، قطوف، طبق، مكبه".

وقد تكرر استخدامه لطائفة من الألفاظ التي لو أمعنا النظر فيها لوجدناها ذات دلالة تعبيرية على ظروف حياته السياسية والاجتماعية "فالنعمة والنقمة، والخاصة والعامة، والإقبال والأدبار، والرغبة والرهبة، والتبذل والامتهان والكرم والسعد، والعقوبة والمثوبة" هي حصيلة اتصاله بحياة الملوك والأمراء ورجال الدولة.

وعلاقته بأرباب الخراج أدخلت ألفاظ: الكفيل، والضمين، والمستخرج والخراج، والمصادر، المغبون، في رسائله.

وكان لعلاقاته الاجتماعية بأبناء عصره أثر في تردد العديد من الألفاظ كالعتب والعتبي، والمكاشفة والمجاملة والفراق والخلاف.

أما ثقافته الدينية، والتزامه المذهبي، فما كانت أقل تأثيراً من غيرها فما أن تقرأ رسائله حتى يطالعك العديد من الألفاظ الإسلامية كالنافلة والفريضة والسنة والبدعة، والنفاق، والإجماع، ومصطلحات مذهبي الشيعة والاعتزال وغيرهما كالعترة، والشيعة، والوصي، وسيد الأوصياء، وأمير المؤمنين، والنواصب، الضالين والعدل والتوحيد، وقد أسلمه دفاعه عن مذهبه إلى التطرق للمذاهب الأخرى تناول فيها هذا الجانب من الحياة الاجتماعية والفكرية، فمن هذه المصطلحات[1] الروافض والجبرية والقدرية والواقفية والمالكية والبكرية، ودخلت في رسائله العديد من النعوت التي كانت تلك الفرق تصم بها غيرها، كالرعونة والشك، واللجاج، والوقف والتخالف والمكابرة والنصب والكسب والجحد، والتشبيه.

وقد مكنته ثقافته الواسعة من استيعاب ألفاظ ومصطلحات تستخدم في الطب والكيمياء، كالسوداء والصفراء، الممرض، المعالج، والبلغم، والأكحل، وطبقات الرطوبة، وموازين البرودة.

أما تركيب الجملة، فإن الخوارزمي لم يكن ميالاً إلى التعقيد والأغراب في حبكها وصياغتها، ولكنه عمد إلى تبسيطها وتزيينها وكان ذلك سبباً في الميل إلى الجمل القصيرة المسجوعة ولم نجده يخرج على المألوف من قواعد العربية في نحوها وصرفها.

(1) انظر رسالته إلى شيعة نيسابور/ 139.

الخاتمة

شهد الأدب في القرن الرابع الهجري تطوراً كبيراً فقد تشعبت فنونـه، ونشـطت حركة التأليف، وسمت الكتابة.

وبرز في النثر طائفة من الكتاب والأدباء كابن العميد والصاحب بن عباد وأبـي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، وحمل هؤلاء مشعل تطوير أساليب وإغـراض الفنون النثرية.

ولعل أبرز ما يميز هذا الاتجاه النثري الجديد هـو الاهتمـام بالصـناعة اللفظيـة، والعناية بالسجع والمحسنات البديعية، والتي أخذها المتأخرون ويـالغوا في اسـتخدامها، حتى أصبحت عبئاً ثقـيلاً علـى النثـر، وصـارت سمـة مـن سمـات عصـور الظلمـة والانحطاط.

وليس لنا أن ننحى باللائمة على كتاب القرن الرابع، ذلك أنهم كتبوا وأجادوا، واجتهدوا وطوروا، وكانوا في ذلك قادة لحركة تطوير أساء المتأخرون توجيهها.

وقد تناولت هذه الدراسة بالبحث شخصية أبي بكر الخوارزمي (323-383هـ) وهو واحد من كبار الناثرين في القرن الرابع وقد وصفه تلميذه الثعالبي بأنه كان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها كمـا كان عالماً باللغة والأنساب.

وقد اشتهر الخوارزمي بكتابة الرسائل الأخوانية، وهو نمط من الكتابـة الفنيـة، احتل مكانة مرموقة في أدب ذلك العصر.

ورسائل أبي بكر تمثل خير تمثيل فن الرسائل الأخوانية في القرن الرابع الهجري، وتعبر عن أهم سماته وخصائصه الفنية، فقد عني بالسجع والمحسنات البديعيـة، وأكثـر من الاستشهاد بالشعر والحكم والأمثال، والاقتباس من القـرآن الكـريم، كمـا اتسـم أسلوبه بميل إلى المبالغة يصل أحياناً حد الأفراط.

وبالرغم من عنايته بالاستعارات والكنايات، والتشبيهات الطريفة، فقد تميزت لغته بالبساطة والسهولة، والابتعاد عن التعقيد اللفظي أو المعنوي، ولعل هذا هو السر في شيوع رسائله وتداولها.

ومن هنا يتبين أن نثر الخوارزمي يمثل مرحلة وسطى في النثر العربي بين نثر الترسل الذي يميل إلى الاستطراد ممثلاً بنثر الجاحظ، وبين نثر التصنع والزخارف اللفظية، وهو النثر الذي شاع في عصور الأدب المتأخرة، والذي ظهرت بوادره في نثر بديع الزمان الهمذاني.

ولعلنا نستطيع أن نعد- في هذا المجال- المناظرة التي دارت بين البديع والخوارزمي مظهراً من مظاهر الصراع بين المدرستين (الوسطية والمتأخرة) وبداية لرجحان كفة الأخيرة.

لكن الخوارزمي المجدد في حركة النثر العربي لم يكن كذلك في الشعر، فقد أعجب بمدرسة أبي تمام والمتنبي، وحاول الاقتداء بها، بيد أن موهبته لم تسعفه في الارتقاء في مدرجتهما.

وقد عزّ عليه انحراف شعراء عصره عن القديم، وميلهم إلى كل ما هو جديد، ونعى عليهم ذلك في مقدمة كتابه "الأمثال المولدة" غير أننا نلمح تأثر الخوارزمي بشعر المولدين في أغراضهم وأساليبهم فقد أوردنا له بعض المقطعات في الهزل والدعابة، كما حوت بعض مقطعاته شيئاً من السخف في غرض الهجاء، إلا أن ذلك كان قليلاً جداً بالإضافة إلى ما وصل إلينا من شعره.

ولعل السبب في اتجاهه إلى القديم يعود إلى ثقافته الأدبية التي استوعبت الشعر القديم حفظاً ورواية.

والخوارزمي شاعر متكسب في شعره، وهو لا يختلف في هذا الجانب عن غيره من شعراء الدواوين الذين سخروا الشعر لخدمة أغراضهم ومآربهم.

ولا ريب أن فقدان ديوانه جعل من الحكم على شعره أمراً غير مقطوع فيه.

ذلك أن أغلب ما وصل إلينا من شعره مقطعات من قصائد لا نعرف مقدار الضائع منها، ولا نعرف مقدار المفقود من شعره.

وقد قمت بجمع ما تبقى من شعره متناثراً في المظان المختلفة وحققته وألحقته بالرسالة تيسيراً للباحثين.

وما يجدر ذكره أن بروكلمان قد وهم حين ذكر في كتابه "تاريخ الأدب العربي" أن للخوارزمي ديواناً مخطوطاً في مكتبة جامعة كامبرج البريطانية، كماوهم أن للخوارزمي ديواناً مطبوعاً في القاهرة وقد بينت ذلك في مكانه من البحث.

ويعد الخوارزمي من أوائل شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، وقد حداه إلى ذلك إعجابه بشعر المتنبي. وقد ترك شرحه أثراً في طائفة ممن جاء بعده، فعد بذلك رأس مدرسة في شروح ديوان أبي الطيب.

وقد استطعت- في هذا المجال- أن أعثر على جزء كبير من مخطوط شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي بكر الخوارزمي وأفردت فقرة لدراسته في الكلام على مؤلفاته.

وتجدر الإشارة هنا أن مؤلفات الخوارزمي لم تحظ بعناية كافية ذلك أن عدداً مؤلفاته ما زال مخطوطاً، ومنها كتابة "الأمثال المولدة" الذي جمع فيه الأمثال التي استحدثها مولدو عصره، وشرح ديوان أبي الطيب المتنبي الذي اشرنا إليه، وأن قسماً منها قد فقد أثره. ومن ذلك كتابه "المناقب".

وقد أثبت أن طائفة مما نسب إليه من مؤلفات ليست من تأليفه. وهي كتاب "مفيد العلوم ومبيد الهموم، وكتاب "المكارم والمفاخر"، وكتاب "رسم المعمور من البلاد" وقد بينت ذلك في الكلام على مؤلفاته.

ومن هنا تتضح أهمية دراسة آثار الرجل وأدبه ولعلي قد وفقت في ذلك.

ملحق
شعر الخوارزمي
جمعٌ وتحقيق

قال الخوارزمي

(1)

1- ألا مـن بلّـغ الأسـتاذ أنّـي — أنـا الصّمصـامُ أغمـدهُ الحيـاءُ
2- الجـدبُ والسّباخُ لـديكَ مرعـى — ونظمـأُ والسّـرابُ لـديكَ مـاءُ
3- يُطرّقنـا الزّمـانُ وكـلُّ يـومٍ — لنـا خُطَـبُ حواشـيها البكـاءُ
4- وكنـت وعـدتنا نظـراً فأبطـا — وقـد تتبلّـغ الخيـلَ البطـاءُ
5- فـإن عـزّ القضـاءُ لـديكَ يومـاً — فموجـودٌ لـدينا الإقتضـاءُ
6- ويرضـى بالرجـاءِ سـوايَ قـومٌ — ومـا عنـدي لحكمِكـم ارتضـاءُ
7- فـإنّ أخـا الرجـاءُ علـى يقـينٍ — مـن البلـوى وفي القـرح امـتراءُ
8- وشـرُّ المُـرتجين أخـو مِطـالٍ — يُعمّـر في جوانبـه الرّجـاءُ
9- إذا أضـحى فموعـدُهُ مسـاءٌ — وإن أمسـى فموعـدُه ضُـحاءُ
10- وهـذا العَتـبُ واسـطةٌ ولكـنْ — لهـا طوقـانِ مـدحٌ أو هجـاءُ
11- وبـين الـنّجْحِ والتّعويـقِ حـدٌ — وقنطـرةٌ يقـالُ لهـا السّـخاءُ
12- فلا تشكو الزّمـانَ فلـيسَ يشـكو — مُسـيءٌ نفسَـهُ أنـت القضـاءُ
13- ترفّـقْ بـالأميرِ فكـلُّ شَـيءٍ — تُنـالُ بـه المنـافعُ كيميـاءُ
14- أطـالَ اللهُ أعمـارَ المعـالي — وذلـك أنْ يطـول لـك البقـاءُ[1]

---

(1) محاضرات الأدباء: (وذلك بأن).

15- ولا زالــتْ تمــدُّ إليــك كــفٌّ   بضـــاعتُها ثنـــاءُ أو دُعـــاءُ

16- وإن رضي الزمـان بمثـل روحـي   فـــداء عنـــك فهـــي لـــك الفـــداء

(1 – 16) نثر النظم/ 40 – (9) محاضرات الأدباء
2/ 559 – (4، 5، 16) محاضرات الأدباء 2/ 407)

(2)

وله (من الوافر)

1- وكم نكئٍ وكم نهجو الليـالي   ولـــيس بخصـــمنا إلا القضـــاءُ

محاضرات الأدباء 4/ 393

(3)

وله (من الوافر)

1- ولـــي والله إخـــوان كـــثيرٌ   نصـــيبي مـــن فعـــالِهُمُ ســـواءُ

2- ولكنّـــي رأيتـــك مـــن أنـــاسٍ   إذا لم يُحسِـــنوا فلقـــد أســـاءوا

يتيمة الدهر 4/ 234

(4)

1- وله من رسالة إلى أبي نصر الميكالي

2- مـا لقينـا مـن أحمـد بـن علـيٍّ   تـــرك النـــاس كلـــهم فقهـــاء

رسائل الخوارزمي / 121

(5)

وله من قصيدة في هجاء طاهر بن شار (من الوافر)

1- وقـالَ أنـا المليـكُ فقلـت حقـاً بقلـب الـلام نونـاً في الهجـاءِ

2- ولَمْ أرَ مـن أداةِ الملـكِ شـيئاً لـديكَ سـوى احتمالِـك للّـواءِ

ومنها:

3- أحـينَ قلعـتُ نـابيْ كـل أفعـى وحـادت أسـد بيشـة عـن فنـائي[1]

4- وقـال النـاس إذ سمعـوا كلامـي ألم تكـن الكواكـبُ في السـماءِ

5- يُخـوّفني الكسـادَ علـى متـاعي وهـل يُخشـى فسـادُ الكيميـاء

(1 – 5) يتيمة الدهر 4/ 207 – (1، 2) الكناية والتعريض/ 35

(6)

وله في نديم حمامي (من مجزوء الرمل)

1- قـل لمـن يـنكحُ بـالعين جـواري الأصـدقاءِ

2- والـذي يعتقـد الملـك لـه قبـل الثـراءِ

3- أنـت والله نشـيط الأيْـر كسـلانُ الوفـاءِ

4- ليـت قلـبي قُـدَّ مـن أيـرك في بـاب الـذكاء

5- أمهـل السـاقي ولا تخجلـه بـين النـدماء

---

(1) بيشة: اسم قرية في واد كثير الأهل من بلاد اليمن– (معجم البلدان).

6- أنـــا بالســـاقي كفيـــلٌ لـــك مـــن بعـــد العَشـــاءِ

7- فـــإذا مـــا انصـــرف النـــاس فَجـــدُ لـــي بـــالأداءِ

8- لـــك أيـــرٌ جـــاهلي مـــن أيـــور الســـفهاءِ

9- يـــا كـــثير المـــاء أقرضـــنا ولـــو جمّـــة مـــاءِ

10- أنـــت مـــن أيـــرك هـــذا في عنـــاءٍ وبـــلاء

11- أعظـــم الله لـــك الأجـــر علـــى هـــذا العنـــاءِ

(1 – 11) يتيمة الدهر 4/ 232

قافية الألف

(7)

وله من قصيدة يرثي بها مؤيد الدولة. ويعزى ويهنئ فخر الدولة (الطويل)

ألم تـرَ أن المـوت قـد فضـح الـدنيا | وقـال لِمـن يسـعى لهـا أنـتمُ الحمقـى

يقولـــون عالَجنـــا فصـــحّ عليلنـــا | وما أعتلّ من يبقى وما صحّ مـن يفنـى

إذا النـــاس ظنُّـــوا أنهـــم في ســـلامةٍ | فأبـدانُهم صـحَّت، وأنفسُـهم مَرضـى

ومنها:

وقـولا لفخـر الدولـةِ الملـكِ الـذّي | تسـير العُلـى في طُـرْق همّتـه حَسـرى

رُزئـت أخـاً لـو خيِّـر المجـد في أخٍ | من الناسِ طُرّاً مـا عـداه ولا اسـتثنى[1]

وقـد جـاءت الـدنيا إليـك كمـا تـرى | طفيليَّـة قـد جاوبـت قبـل أن تـدعى

صَبتْ بك عِشقاً وهي معشوقة الورى | فقد أصبحت قيساً، وعهدِي بها ليلى[2]

ولمـــا رأت خُطابهـــا تـــركتهم | ولم تـرض إلا زوجهـا الأول الأولى[3]

ولم تتســـاهل في الكفـــيّ ولم تقـــل | رضـــيت إذا لم تكـــن إبـــلٌ معـــزى

علـى أنهـا كانـت جفتـك تـدللاً | فخليتها حتّـى أتـت تطلُـبُ الرُّجعـى[4]

(5 – 11) اليتيمة 4/ 227 – 228 (1 – 10) تاريخ العتبي 1/ 131 – 132

---

(1) طرا: اليتيمة: طهراً.

(2) ليلى: تاريخ العتبي: لبنى.

(3) تركتهم: تاريخ العتبي: فركتهم.

(4) تدللا: تاريخ العتبي تذللا.

(8)

وقال يمدح الصاحب بن عباد من قصيدة (من الكامل)

ولقــد عهــدت العلــم أكســد مــن ... بهتــانِ فرعــونٍ لــدى موســى

فأقــام قاعــدَ سُــوقه رَجِــلٌ ... مَيْــتُ الرجــاءِ ببابــه يحيــا

فــالعلم أصــبح في الــورى عَلَمــاً ... والشّــعر أمســى يســكن الشّــعرى

اليتيمة 4/ 225

(9)

وله (من الطويل)

1- ســريعة مــوتِ العاشــقينَ كأنّمــا ... يغار عليها من هــواهم أبــو يحيــى[1]

ثمار القلوب/ 246

(10)

وله من قصيدة مرثية (من الطويل):

1- أعــوِّذه مــن نفحــة الــريح خيفــةً ... عليــه ورجْــلُ المــوتِ تطلبُــهُ عَجلــى

2- وأدعــو لــه بــالعُمْرِ في كــل مشــهدٍ ... ويضحكُ منّي في الكمــين أبــو يحيــى

ثمار القلوب/ 246

---

(1) أبو يحيى: كناية عن قابض الأرواح.

قافية الباء

(11)

ومن أخرى في مدح الصاحب بن عباد (من الطويل)

1- أخـو كلمـات مـا جلاهـا لسـانُهُ على أحـدٍ إلا غـدا وهـو خاطِـبُ

2- متى يَروها أهل الصـناعةِ يُنشِـدوا (عجائب حتى لـيس فيهـا عجائـبُ)[1]

اليتيمة 4/ 214

(12)

ومن أخرى في مدحه (من الطويل)

1- ويشربُ لكـن في إنـاءٍ مـن الثَّـرى رحيقـاً خوابيهـا الطُّـلا والمناكـبُ

2- ويسـمع لكـنّ الغنـاءَ مـدائحٌ ويكنـزُ لكـن الكنـوز مناقِـبُ

3- لـو أن حبيبـاً كـان لاقـاهُ لم يقُـلْ (وأكثـر آمـال النفـوس الكـواذبُ)[2]

اليتيمة 4/ 218

(1) المصراع لأبي تمام وصدره (على أنها الأيام قد صرن كلها).

(2) حبيب هنا هو أبو تمام.

(13)

وله (من الطويل)

1- وقالوا أفِقْ من سكرةِ اللَّهو   فقد لاح صبح في دجاكَ عجيبُ

2- فقلت لهم: كُفّوا الملامَ وأقصروا   فإن الكرى عند الصباحِ يطيبُ

ديوان المعاني 2/ 156

(14)

وله من قصيدة في مدح شمسِ المعالي قابوس بن وشمكير (من الطويل)

1- شُموسٌ لهن الخِدرُ والبدر مغربٌ   فطالِعهُا بالبَيْنِ والهَجرُ ضاربُ

2- ولكنما شمسُ المَعالي خلافُها   مشارِقُهُ ليستْ لَهُنَّ مغارِبُ

3- فما لَقّبوهُ الشَّمسَ الا وقد رَوَوا   (بأنَّكَ شمسٌ والملوكُ كواكِبُ) (1)

4- أقولُ لزُوارِ الأميرِ تُرجَّلُوا   فمن زارَهُ من راجلٍ فهو راكبُ

5- وإن زارهُ الفُرسانُ كنتُ كَفيلَهُمْ   بأنْ يَرجِعُوا والخيلُ فيهم جَنائِبُ

6- إذا رَجعوا عن بابِهِ فنشيدُهم   (وإنْ سكتوا أثنتْ عليه الحَقائبُ) (2)

7- إلا أبْلِغا عنّي الأميَر رسالةً   تَدُلُّ على أنّي على الدّهرِ عاتِبُ

8- إلى كَم يَحِلُّ المَرءُ مثلُكَ بلدةً   بها مِنبرٌ فيها لغِيركَ خاطِبُ

---

(1) المصراع للنابغة الزيباني:

فانك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ

رووا: تاريخ العتبي: رأوا

(2) المصراع من بيت لنُصيب بن رباح

فعاجوا واثنوا بالذي أنت   ولو سكتوا أثنت عليه الحقائبُ

9- لقد هانَ مَن أمسى ببلدةِ غيرِهِ (وقد ذلَّ من بالتْ عليه الثّعالبُ)

10- عليكَ بهذا السَّيفِ فاقض دُيونهُ فللسَّيفِ دَينُ عندَ كفِّكَ واجبُ

11- ولا تقعُدَنْ تُغضِي الجُفُونَ عن القَذى وفي الأرضِ مركوبٌ ورمحٌ وصاحِبُ

12- غريُمكَ هذا الدّهر فالزَمْهُ يغترمْ فلَنْ يوقظَ الغُرّامَ الا المُطالِبُ

13- وأنتَ ابنُ عمٍّ السّيف بلْ أنت عَمُّه وكيف تخافُ الأقربينَ الاقاربُ

14- أليسَ أبوكم وَشْمكِير وجَدُّه زيارٌ وَمَردا وِيجُ عم مناسب

15- تحَّركْ بِنا إمّا لواءٌ ومنِبرٌ وإمّا حُسامٌ كالعقيقةِ قاضِبُ

(1 – 9) اليتيمة 4/ 221 (1-5، 7، 8، 10-15) تاريخ العتبي 1/ 407

(15-أ)

ومن صاحبية لما ورد مكتوب من جهة تاش[1] (من الطويل)

فإن ردّني دهري عليك طريدةً فلا غروَ أن يسترجع القوسَ حاجبُ

هو الوكرُ طرنا منه والرّيشُ وافدٌ وعدنا إليه الآن والرّيش ذاهبُ

جزى الله عني أهل سامان ما أتوا وفي الله للثأر المضيَّع طالبُ

هُمُ زوجوني الهمَّ بعد طلاقه وذلك عرسٌ للمآتم جالبُ

هم أعطشوا زرعي فشمتُ سحائباً غرائب لَمّا أخلفتني القرائب

فألحوا لزرعي بالحصاد وأنضبوا مياهاً لها أيدي سواهم مذانبُ

أتحصد أيديكم ويزرعُ غيرُكُم فأنتم جراد والملوكُ سحائب[2]

---

(1) تاش: هو حسام الدين أبو العباس أحد قادة جيوش السامانيين المعروفين في عصره.

(2) أخذه من قول ابن عبيد (أبوك لنا غيث نعيش بظله وأنت جراد لست تُبقي ولا تذر).

إذا طمع السلطان فيما كسبته ... بشعري فالسلطان بالشعر كاسبُ

فأنتم مدحتم آل بويةَ لا أنا ... وأمدح من لفظ اللسان حقائبُ

1 – 9 اليتيمة 4/ 234 – 235

(15- ب)

وله أيضاً

ما كنتُ أحسَبُ أنّ عمراً يَضربُ ... فيخصّ زيدٌ بالملام ويُضربُ

التمثيل والمحاضرة/ 162

(16)

وله (من الكامل)

1- ومُحجّبٍ بحجابِ عزٍّ شامِخٍ ... وشُعاعُ نورِ جبينِهِ لا يُحجبُ

2- حاولتُهُ فرأيتُ بدراً طالعاً ... والبدرُ يَبعدُ بالشعاع ويقربُ

3- إنْ ينأَ شخصي عن مجالِسِ عزِّهِ ... فالنّفسُ في ألطافِهِ تتقلّبُ

4- وإذا تقاربت النفوسُ وإن نأتْ ... أشخاصُها فهو الجوادُ الأقربُ

(1–4) أعيان الشيعة 45/ 261

(17)

وله في هجاء الخلفاء العباسيين في عصره (من البسيط)

1- مالِي رأيتُ بني العباس قد فَتَحُوا ... من الكُنى ومن الأبواب ألقابا

2- ولقّبوا رجلاً لو عاش أوّلُهم ... ما كان يرضى به للحُشّ بوابا[1]

---

(1) الحش: جماعة النخل. والحش: البستان، والحش: المتوضأ سمي به لأنهم يذهبون لقضاء الحاجة إلى البساتين.

3- قُـلْ للـدراهم في كفَّـيْ خليفتنـا هـذا فـأنفق في الأقـوام ألقابـا

اليتيمة 4/ 230، سيرة جلال الدين منكبرتي/ 182

(18)

وله (من الرجز)

1- المُلْـكِ عنـدي مُتعـةِ الشَّـبابِ والعَـزْلُ عِنـدي فُرقـة الأحبـابِ

2- والفقـرُ عنـدي عـدمُ الشَّـراب والشـيب عنـدي كَـذِب الخضـابِ

3- والقُـبحُ عنـدي عـدُم الآداب والعـرسُ عنـدي ليلـة الكِتـاب

4- والـروض عنـدي مُلـحُ الأعـراب والـبغض عنـدي كثـرةُ الإعـراب

5- والسـيف عنـدي قلـمُ الكتَّـابِ والـنجح عنـدي سـرعة الإيـاب

6- والطـرد عنـدي كلحـةُ البـوَّابَ والـذلُ عنـدي وقفـة الحُجَّـاب

7- والقحـط عنـدي قلـة الأصـحابِ والشـؤمُ عنـدي كثـرةُ العتَّـابِ

8- والعـيُّ عنـدي هـذرُ الخطـابَ والعـزّ عنـدي طاعـة الصـوابَ

9- والإلُّ عنـدي خلّـة القِحـاب والغـولُ عنـدي طلعـة الكـذَّاب

10- والصفحُ عنـدي أبلـغ العقـابِ واللُّـومُ عنـدي سَـفَهَ الشَّـراب

11- والأمـس عنـدي أسرع الهُـرَّاب والمـال عنـدي أسـرع الهُـراب

12- والغـدّ عنـدي الحَـقُ للطـلاب والفخـر عنـدي أفخـر الثيـاب

13- والسـجنُ عنـدي مَنـزل الـتُرَّاب والهـول عنـدي موقـف الحسـاب

اليتيمة 4/ 241، (4- الشطر الثاني)/ أسرار البلاغة/ 66

(19)

وله في الند (من الوافر)

1- وطيبٍ لا يُخِلُّ بكُلِّ طيبٍ يُحيِّينا بأنفاس الحبيب[1]

2- يظلُّ الذيل يستره ولكنْ تنم عليه أزرارُ الجُيوب[2]

3- إذا ما شمَّ أنفٌ حنَّ قلبٌ كأن الأنف جاسوس القلوب[3]

(1-3) اليتيمة 4/ 239 نثر النظم/ 141 (1، 2)
ثمار القلوب/ 664، (1- 3) محاضرات الأدباء 4/ 375

(20)

وله من قصيدة في مدح أبي نصر الميكالي (من الكامل)

1- تلك الديارُ فريسةُ الأحقابِ صنعت بعيني صُنع ساكنها بي[4]

2- وإلى الأمير ابن الأمير تواهقت رزحى الركاب برازحي الرُّكّابِ

3- لبسوا الدجى لبس الغُراب لريشه وغدوا لحاجتهم غدوّ غرابِ

4- والفجر يطرف والظلام كأنه فضلاتُ عُتْبٍ في خِلال عِتابِ

---

(1) في محاضرات الأدباء.

(بخور مثل أنفاس الحبيب وطيب قد أخل بكل طيب)

لا يخل: ثمار القلوب (لا يحل).

(2) أزرار الجيوب: محاضرات الأدباء أنفاس الجنوب.

(3) الصدر في اليتيمة (متى يشممه أنف حنَّ قلب)، حن: ثمار القلوب: جن.

(4) يذكر شارح العتبي: أنه تخلص إلى البيت الذي بعده بعد سبع وعشرين قافية.

5- طلبـوا امـرءاً أفعالُـهِ محسـوبةٌ ونوالُـه فُوضـى بغـير حسـابِ

6- غـدت المـدائحُ وهـي أسمـاءٌ لـه ولغـيره، أصـبحن كالألقـابِ

7- والمكَرمـات كـثيرةُ الخُطّـاب إلا أنهـا تـأبى علـى الخُطّـابِ

8- متبسِّـمُ الحجّـاب مكتئـب العِـدى مُثـري النَّـديم، مجـازفُ الحُسّـابِ

9- شِـيمٌ أرقّ مـن الهـوى والـذُّ مـن خطـأ العـدو، رَدَدْتـه بصـوابِ

10- وعـزائمٌ لـو كُـنَّ يومـاً أسـهُماً لنفـذنَ في الأيـام غـير نـوابِ

11- مائيـةُ الحركـاتِ إلاّ أنّهـا ناريّـة الأقـدام والألبـابِ

12- يَخطـرُن بـين سياسـة ورئاسـةٍ ويـتهن بـين مثوبـة وعقـابِ

13- قد أصبحت ألفاظُـهُ صـور النُّهـى وقوالـبَ الأسمـاع والألبـابِ

14- وإذا حلَلْـتَ لـه جنابـاً واحـداً حَـلَّ المؤمِّـلُ منـك ألـف جنـابِ

تاريخ العتبي 3/ 39-41

(21)

وله (من السريع)

1- يا أيها الخاطب مدحي وهل يُورد مـن غـير رشـاءٍ قليبْ

2- شـيئانِ لم يجتمعا لامـرئٍ حـبُّ الـدّنانير وحـبُّ الحبيـب

اليتيمة 4/ 234

(22)

وله (من الطويل)

1- سأقضـي قضـاءً في المـروءة عـادلاً يسـير بـه في حكمـةِ الشـعر والأدب

2- ألا خيرُ سُمار الملوكِ ذوو النهى وخير نُدامى الكأس أربعة تُحسب

برد الأكباد في الإعداد / 134

(23)

وله (من المتقارب)

1- فنذل الرّجال كنذل النّبات لا للثمار ولا للحطبْ

المنتحل/ 136

(24)

وله في فقيه (من الخفيف)

مُجبِّر صيّر ابنه ناصبياً مجبراً مَثلةُ وتلك عجيبةْ

ليس يرضى أن يدخل النار فردا ساعة الحشر أو يقودَ حبيبةْ

اليتيمة 4/ 231

(25)

وله في رجلٍ جليت ابنته على الختن، وهي منه حبلى لأشهر (المنسرح)

1- يا جالي البنتِ بعدما ثُقبت تبرزُ القدرُ بعدما قُلبتْ

2- هذا كما قد يُقال في مثلٍ (جُصِّصَتِ الدّارُ بعدما خربت)

اليتيمة 4/ 233

(26)

وله في الشمس (من مجزؤ الرجز)

1- أما ترى الشمسَ بدتْ كأنها تُرسُ ذهبْ

2- كأنّهـــا قـــد رُكّبـــت	للنـــاظرين مـــن لهـــبْ

3- النّـــور بـــادٍ عنـــدنا	كمـــا الظـــلامُ مُنتهـــبْ

4- أشـــكرُ عنهـــا مَلِكـــاً	أحســـنَ فيمـــا قـــد وهـــبْ

من غاب عنه الطرب/ 262

(27)

ومن أرجوزة

1- مـــا أثقـلَ الـدّهرَ علـى مـن ركِبَـه	حـــدثني عنـــهُ لســـانُ التجربـــة[1]

2- لا تشـــكر الـــدهر لخـــيرٍ ســـبَّبه	فإنـــه لم يتعمـــد بالهبـــة[2]

3- وإنمـــا أخطـــأ فيـــك مذهبـــه	كالسـيل إذ يسـقي مكانـاً خرَّبـه[3]

4- والســـمّ يستشـــفي بـــه مـــن شـــربه	مـــا أهـــون الشـــوكة قبـــلَ الرُّطبـــة

5- وأســـهلَ الكـــدّ علـــى مـــن أكســـبه

(1-5) يتيمة الدهر 4/ 240 – (1 – 3) المتنحل/ 148 (1- 4)

(1-4) التمثيل والمحاضرة/ 124، تحفة الوزراء/ 107، (1-3) شرح نهج البلاغة

---

(1) في يتيمة الدهر: جاء صدر البيت عجزاً لبيت آخر (والسّم يشفي به مـن شـربه) والعجـز صـدراً لقوله (ما أهون الشوكة قبل الرطبة) ركبه: المتنحل: (نكبة).

(2) تشكر: المتنحل (يشكر) تحفة الوزراء (يحمد). سببه: تحفة الوزراء (وهبة).

(3) خرَّبه: شرح نهج البلاغة: أخربه.

قافية الجيم

(28)

وله من قصيدة (من الكامل)

1- ولقـد ذكرتـك والنجـوم كأنّهـا ... درّ علـى أرضٍ مـن الفـيروزجِ[1]

2- يلمعن من خَلَلِ السحاب كأنّها ... شَـرَرٌ تطـاير مـن دُخـان العـرفجِ

3- والأفق أحدث من خواطرِ كاسبٍ ... بالشـعر يسـتجدي اللئـامَ ويرتجـي

4- فمزجت دمعـي بالـدماءِ ولم أكـن ... صِـرف الهـوى والعهـدِ إن لم أمـزجِ

(1-4) اليتيمة 4/ 211، (1-3) الوافي بالوفيات 3/ 194

(1-3) عيون التواريخ 12/ 244 ب

(29)

وله من قصيدة (من الكامل)

1- حسَـدَ السـماك سميّـه لمـا بـدا ... في سـرجه شـخصُ الهُمـامِ الأبلـجِ[2]

2- وغدا فأضحى لاحقاً ضـدّ اسمـه ... وأراك أعـوجٍ وهـو عـين الأعـوجِ

3- فلـو أن شـاعر بُحـترٍ في عصـره ... مـا قـال في فـرسٍ ولا في أعـوجِ[3]

4- (خفّـت مواقـعُ وطئـه فلـو انـه ... يجـري برملـة عـالجٍ لم يَـرْهجِ[4]

اليتيمة 4/ 2013

---

(1) درّ: عيون التواريخ (درر).

(2) السماك: فرس منسوب لعضد الدولة ويقصد بالهمامِ الأبلج عضد الدولة

(3) شاعر بحتر: أي البحتري.

(4) رملة عالج: عالج: رمال بين فيد والقربان ينزلها بنو بحتر من طـيء، وهـي متصـلة بالثعلبيـة مـن طريق مكة لا ماء بها، الرهج: الغبار، وأرهج الغبار: أثاره.

(30)

وله (من الرجز)

1- يرفـــع نقعـــاً كـــدُخان العـــرفجِ مثـــل نـــدفِ الكرســـف المـــنفّجِ[1]

محاضرات الأدباء 4/ 641

(31)

وقال من قصيدة في مدح عضد الدولة (من الكامل)

1- ختمت بكَ العجمُ الملوكَ وراجعـتْ بـكَ تـاجَ مُلكِهـمُ القـديمِ المَـنْهجِ

2- لم يفقـــدوا بـــك أردشـــيرَ وإنمـــا فقـــدوا نقيصـــة دينِـــهِ المستســـمجِ

اليتيمة 4/ 224

(1) العرفج: نبت طيب الرائحة، سريع الاشتعال، الكرسف: القطن، المنفج: المثار.

قافية الحاء

(32)

وله في أبي الطيب البيهقي (من المتقارب)

1- فسـا الشـيخ سـهواً وفي كفـه شـرابٌ فلمنـاهُ لومـاً قبيحـا

2- فقال (لـي) الـدخلُ والخـرجُ لـي فأدخلـتُ راحـاً، وأخرجـتُ ريحـا

اليتيمة 4/ 232، نهاية الأرب 4/ 75

قافية الدال

(33)

ومن قصيدة في هجاء بني شار (من الوافر)

1- الا أبلــغ بــني شــار كلامــي ومـــن لم يلقَهـــمْ فهـــو السَّـــعيدُ

2- عــلام ابتعــتم فَرســاً عتيقــاً ولـــيس لـــديكمُ علـــفٌ عتيـــدُ

3- وفــيم حبسْــتُمُ في البيــت بــازاً يحـــيص الطـــيرُ عنـــه أو يحيـــدُ

4- فـــلا قرَّبتمـــوه فَعلتمـــوه ولا خلّيـــتمُ عنـــه يصـــيد[1]

اليتمية 4/ 206

(34)

1- بـــأبي مـــن عينُـــه أبـــداً في عـــداتٍ وهْـــي لا تُعِـــدُ

محاضرات الأدباء 3/ 298

(35)

1- لـيسَ علـى القلـب للعـذول يُـد ولا ليــومي مــن الفــراق غــدُ

2- كـل فـؤادِ مـن الهـوى عَـرضٌ وكــل يــوم مــع النــوى أمــدُ

3- يـا أيهـا الطـالبون بـي رشـداً متـى التقـى الحـبُّ قبـلُ والرشـدُ

4- ولـي فـواد مـذ صـرت أفقـده لم أنتفــع بعــده بمــا أجــدُ

5- ولـي حبيـب لـو كنـت أنصـفه وجـدتُ فيـه أضـعاف مـا أجـدُ

(1) فعلتموه: في الأصل (فعّلتموه) وبه لا يستقيم الوزن والمعنى.

6- شـــهدت للقلـــب حـــين عُلقّـــه بأنـــــه للوجـــــوه منتقـــــد

اليتمية 4/ 211-212

(36)

وله من قصيدة في مدح عضد الدولة (من الوافر)

1- ولمّـــا أكثـــرَ الحُسَّـــادُ فِيـــهِ وقـــالُوا قـــد تغضَّـــنَتِ الخُـــدُودُ

2- أجـــابَ الفَضْـــلُ عنْـــهُ حاسِـــديهِ (لأمـــر مـــا يُســـوَّدُ مـــنْ يَسُـــود)[1]

3- بـــوِدِّي لـــو رأى كَتَفَيْـــهِ يومـــاً ومـــنْ قـــدْ عـــاشَ تَحتَهُمـــا لبيـــدُ[2]

4- ولـــو أنَّ الوليـــدَ رآهُ يَوْمـــاً غـــدا ورجـــاؤُهُ غـــضٌّ وليـــدُ

5- وحَـــلَّ عُـــرى الزِّمـــاع ولم يُـــردِّد (أشـــرِّقُ أم أغـــرِّبُ يـــا ســـعيدُ)[3]

اليتيمة 4/ 212-213.

(37)

وله من قصيدة رثى بها أبا سعيد الشبيبي، وكان وادّاً له عاتباً عليه:

(من الوافر)

1- أيـــدري السَّـــيفُ أيَّ فتـــىً يُبيـــدُ وأيَّـــةَ غايـــةٍ أضْـــحى يُريـــدُ

2- لقـــد صَـــادَتْ يـــدُ الأيـــامِ طيْـــراً تَضـــيقُ بـــه حِبالـــةُ مـــن يَصـــيدُ

3- وأصـــبحَ في الصَّـــعيدِ أبـــو سَـــعيدٍ ألا إنَّ الصَّـــعيدَ بـــهِ ســـعيدُ

4- وقـــد كانـــتْ تَضـــيقُ الأرضُ عنـــه فلـــمْ وَسِـــعتْ لجُثَّـــه اللّحـــودُ؟

(1) (لا مرما): البيت لبلعام بن قيس الكناني.

(2) لأن لبيداً يقول: ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلفٍ كجلد الأجرب.

(3) الزماع: المضاء في الأمر، والعزم عليه.

5- بلـى مـسَّ الثَّـرى قلبـاً رحيبـاً	فأعـدى التُّـرب فاتَّسـعَ الصَّـعيدُ
6- فـلا أدري أأضْـحَكُ أم أبكِّـي	وتُهْـدمُني المَنيَّـةَ أو تَشـيدُ
7- صـديقٌ قَـدْ فَقَـدْناهُ قـديمٌ	وثكْـلٌ قـد وجَـدناهُ جَديـدُ
8- مُصابٌ وهـوَ عنـدَ النَّاسِ نُعْمى	ونحْـسٌ وهْـو عِنْـد النَّـاس عيـدُ
9- تهنِّـيني الأنَـامُ بـه ولكـنْ	تُعَـزِّيني المَواثِـقُ والعُهُـودُ
10- وسيْفٌ قَـد ضُـرِبتُ بـهِ مِـراراً	فمـنْ ضَـرباتِهِ لـي بـي شُـهودُ
11- فلمَّـا أن تَفلَّـلَ ظَلْـتُ أبكـي	وعنـدي منـه بعـدُ دمٌ جسـيدُ
12- ومن عجبِ الليـالي أنَّ خصـمي	يَبيـد وأن حزنـي لا يبيـدُ
13- وأن النصـف مـن عـيني جمـودٌ	وإن النصـف مـن قلـبي جليـدُ
14- إذا سـفحت عليـه دمـوعُ عـيني	نهاهـا الهجـر منـه والصـدودُ
15- وآثـارٌ لـه عنـدي قبـاحٌ	يحمِّـش بينهـا الـرأس الحديـدُ
16- فنصـفٌ مـن مـدامعها سـخينٌ	ونصـفٌ مـن مـدامعها بـرودُ
17- فمـن هـذا رأى في النـاس مثلـي	أريـد مـن المُنـى مـا لا أريـدُ
18- ومـن نكـد المنيـةِ فقـد حـرٍّ	تخـالف فيـه إخـواني الشـهودُ
19- فـذا هنَّـا وقـال مضـى عـدوٌ	وذا عـزَّى وقـال مضـى وديـدُ
20- رأيـت العقـل ينفـع وهْـو قَصدٌ	ويلقـي في المهالـك إذ يزيـدُ
21- كمثـل الـدرع إن خفَّـت أجنَّـت	وإنْ ثقلـت فحاملـها جهيـدُ
22- ومثـل المـاء يـروي منـه قصـدٌ	ويقتـل منـه بـالغرق المزيـدُ
23- شـهدت بـأنَّ دهـراً عشـتُ فيـه	ومـتُّ مقيَّـداً فـرداً مبيـدُ
24- وقـالوا البحـر جـزرٌ ثـم مـدٌّ	فمالـك قـد جـزرتِ ولا تعـودُ
25- بكيـت عليـك بـالعين الـتي لم	تـزل مـن سـوءِ فعلـكَ بـي تجـودُ

26- فقــد أبكيــتني حيّــاً وميْتــاً فقــل لــي أيُّ فِعْلَيْـك الرشــيدُ

27- فهــا أنــا ذا المهنــأ والمعــزّى وهــا أنــا ذا المبــاغض والــودودُ

28- وها أنا ذا المصـاب بـك المعافى وهــا أنـا ذا الشـقيُّ بـك السـعيدُ

29- لقــد غــادرتني في كــلّ حــالٍ أذمُّ الـــدهر فيـــك وأســـتزيدُ

30- فــلا يــومٌ تمــوت بــه مجيــدٌ ولا يــومٌ تعــيش بــه حميــدُ

31- ومـا أصـبحت إلا مثـل ضـرسٍ تأكّــل فهــو موجــودٌ فقيــدُ

32- ففــي تركــي لـــه داءٌ دويٌّ وفي قلعـــي لـــه ألمٌ شـــديدُ

33- فـلا تبعَــد إقامــة رسـم حــقٍ وأنّــك أنــت للشــيء البعيــدُ

34- وإنــك أنــت للَسـيفُ الحديـدُ وإنــك أنــت للعلــم الســديدُ

35- وإنــك أنــت للــدنيا جميعــاً ولكـــن لـــيس للـــدنيا خلــودُ

اليتيمة 4/ 228-229

(38)

وله (من الكامل)

1- لا تصـحبِ الكسـلانَ في حاجاتـه كــم صــالحٍ بفســاد آخــر يفسـدُ

2- عـدوى البليـد إلى الجليـد سـريعةٌ والجمـرُ يوضـع في الرمـاد فيخمـدُ

اليتيمة 4/ 240، التمثيل والمحاضرة 124
بهجة المجالس 1/ 703-704،التذكرة السعدية / 410.

(39)

وله من أخرى من (المنسرح)

1- لا تغـــترر بـــالحليم تغضبــهُ فربمــا أحــرقَ الثّــرى البَــردُ

اليتيمة 4/ 241

(40)

وله في عائد بن علي لما ضربته السموم فهلك (من الخفيف)

1- عائــد قــد دعــا بــه المعبــود وجميــع الــورى إليــه يعــودُ

2- أهلكته السـموم في أرض مكـران ولله في الريـــــاح جنـــــودُ

اليتيمة 4/ 230

(41)

وله في أبي سعيد بن ملَّه (من السريع)

1- أرى لـك افعـالاً تنـاقض أمرُهـا على أنها في القُبح والعـار واحـدُ

2- نبيذك ذا حلْو، ووجهُـكَ حـامضٌ ومـاؤك ذا سـخنٌ ووجهـك بـاردُ

اليتيمة 4/ 231

(42)

وله في طاهر السجزي (من الوافر)

1- ألا يـا سـائلي بـأبي حسـين وفي التَّجريـب علـمٌ مسـتفادُ

2- هـو ابـن سميِّـه والطـاءُ عـينٌ وشـبهُ كنيِّـه والسـينُ صـادُ[1]

اليتيمة 4/ 232

(43)

وله في الاعتذار عن الزيارة (من الكامل)

1- إن كنـتُ في تـرك الزيـارة تاركـاً حظِّـي، فـإني في الـدُّعاءِ لجاهـد

---

(1) والطاء عين: أراد هو ابن عاهر، والسين صاد أراد هو أبو حصين، وهي كنية الثعلب.

2- ولربما تـرك الزيـارةَ مُشـفِقٌ　　وأتى على غلّـي الضـمير الحاسـدُ

محاضرات الأدباء 3/ 34، بهجة المجالس 1: 262

وورد البيتان في عيون الأخبار 3/ 46 من غير نسبة

(44)

وله (من الوافر)

1- وكنـت إذا نهـدت لغـزو قـوم　　وأوجبـت السِّياسـةُ أن يبيـدوا

2- تـبرأتِ الحيـاة إليـكَ مـنهم　　وجـاء إليـك يعتـذر الحديـدُ

3- وطُلِّقـتِ الجمـاجمُ كـل قِحـفٍ　　وأنكـر صُـحبةَ العُنُـقِ الوريـدُ

شرح الواحدي 2/ 545، شرح العكبري 1/ 78.

(45)

وله (من الوافر)

1- ومـاء مثـل هجـركَ مسـتعارٌ　　لـه مـن حـر أحشـائي وقـودُ

2- وردنـاه، وقـد سـبقَتْ إليـه　　وفُـودُ الركـب للشـعرى وُفـود

شرح سقط الزند / 1326

(46)

وله (من الوافر)

1- تغـايرت الـبلاد علـى يديـه　　وزاحمـت الجـروُم بـه الصـرود[1]

شرح سقط الزند 1/ 158، شرح الواحدي / 231

---

(1) الجروم: جمع جرم (بالفتح) هي الأرض الشديدة الحر، الصرد: مكان من الجبال وهو أبردها، تغايرت: غارت كل واحدة منها على صاحبها، الصرود: الواحدي (الصدور) وهو تصحيف.

(47)

وله (من الوافر)

لغـــير مُحُبِّـــكُ الـــرأيُ السَّـــديدُ　　وغـــير فُـــؤاده القلـــبُ الجليـــدُ

وفي الشـــويين منـــــه مســـــتهامٌ　　هـــواك علـــى لواحظـــه قيـــودُ

رمـــى بعزائـــه عـــن قـــوس وجـــدٍ　　ويـــاعَ فـــؤادَه فـــيمن يَزيـــدُ

رسائل ومقامات بديع الزمان الهمذاني/ مخطوط في مكتبة بايزيد

(48)

وله (من الوافر)

تعـــاورت الشـــفاه اللُّـــم عنهـــا　　ونافســت الشـفاه بهـا الخـدودا[1]

محاضرات الأدباء 1/ 303

(49)

وله في ذم أحدهم: (من الطويل)

1- وصلتك بالسلطان حتى إذا اعتلى　　مكانك واستمكنْتَ لم تملك الحقـدا

2- كمقتـــدح نـــاراً بزنـــدٍ لحاجـــة　　فلما تلظـت نـاره أحـرق الزنـدا[2]

محاضرات الأدباء 3/ 16، شرح المضنون به على غير أهله / 122.

---

(1) اللُّم: جمع لمياء.

(2) أحرق الزندا: شرح المضنون به (أحرقت زنداً).

(50)

وقال في القثاء (من الرجز)

1- يــا رب قثــاء بــرود المــورد ... درّ الحشــا زمــرّد المجــردِ[1]

2- شَـختِ الـرؤوس أصـورِ المقلّـد ... مثـل ذُنـابيْ ريـش ديـكٍ أعقـد[2]

3- قد التوى فوق الثرى الرطب الندى ... كمــا تلــوى أســودٌ بأســودِ[3]

4- ذي زغــبٍ وفيــه لــينُ الأجــرد ... كالخـد بـين الملتحـي والأمـردِ

5- كأنــه في اللــون والتــأودِ ... صــوالجٌ رُكّــبَن مــن زُبرجــد

6- يكــاد للّــين وللتعقــد ... تجنيـه ألحـاظُ الفتـى قبـل اليـدِ[4]

7- لمــا حصــدناه قريــب المحصــدِ ... هشـاً وجـدنا منـه مـا لم يوجـدِ

8- مــاء كطعــمِ السُّــكر الطّبَــرزد ... وذوبَ شـهدٍ سـائلاً في جَمـدِ

(1-6، وصدر الثامن) محاضرات الأدباء 4/ 585

(1-8) نهاية الأرب: 11/ 39-40

(51)

وله في الملح: (من العديد)

1- فهــو بقــلٌ وروضــةٌ وجوارشــنٌ ... وأدمٌ وزاد حامــــــلُ زادِ

محاضرات الأدباء 2/ 618

---

(1) برود المورد: نهاية الأرب (قريب المورد).

(2) المصدر في نهاية الأرب (شخت الرؤوس أصور المقلد)، أصور: محاضرات: الصور.

(3) كما تلوى: نهاية الأرب (كما يلوذ).

(4) التعقد: نهاية الأرب: التقصد.

(52)

وله (من الوافر)

1- فلم تضحي على الإسلام سيفاً   وأنت كما علمتَ من العمودِ

2- وتزهدُ في الصلاة وفي ذويها   ولكن لستَ تزهد في السجودِ

الكناية والتعريض / 35

(53)

ومن أخرى (من الوافر)

1- متى ما زرتهم أوصيت أهلي   وصية عائد بالجرم بادي

2- بتجديد الصنادق للهدايا   وتوسيع المرابط للجياد

3- وإن ودعتهم أنشدت فيهم   (سقى عهد الحمى سَبَل العهاد)[1]

اليتيمة 4/ 221

(54)

وله في علويٍّ ناصبي (من الوافر)

1- شريفٌ فعله فعل وضيعٌ   دنيءُ النفس عند ذوي الجدودِ

2- عوارٌ في شريعتنا وفتحٌ   علينا للنصَارى واليهودِ

3- كأنَّ الله لم يخلقه إلا   لتنعطف القلوبُ على يزيدِ

(1-3) اليتيمة 4/ 230-231، عيون التواريخ 12/ 225أ

---

(1) المصراع لأبي تمام.

(55)

وله (من الطويل)

1- أعد الورى للبرد جنداً من الصلا ... ولاقيته من بينهم بجنود[1]

2- ثلاث من النيران: نار مدامة ... ونار صبابات، ونار وقود

برد الأكباد في الأعداد / 23، 21 و124 ثمار القلوب / 585

(56)

وله (من الوافر)

1- فديتك ما بعثت الكوب الا ... لفأل فيه متبدأ معادُ

2- إذا صحّفْتَ كوباً فهو كون ... فكن كونا يدوم بلا فساد

نثر النظم / 101

(57)

وله (من الطويل)

1- وكنتُ امرءاً من جند إبليس فارتقى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

2- فلو مات قبلي كنت أحسن بعده ... طرائق فسق ليسَ يحسنها بعدي

التفسير الكبير 18/ 117

---

(1) الصلا: اسم للوقود، وهي النار، برد الأكباد: الطلا.

(58)

وله في رثاء الخليل بن أحمد[1] القاضي السجزي (من الطويل)

(1) ولما رأينا الناس حيرى لهدّةٍ   بدت بأساس الدين بعد تأطُّد

(2) أفضنا دموعاً بالدماء مشوبةً   وقلنا لقد مات الخليل بن أحمد

(59)

وله (من الوافر)

1- غَدَونا شطَّ نهر الهند منْدٍ   سُكارى آخذي بالدَّستبند[2]

2- وراحٌ قهوةٌ صَفْراءَ صَرفٌ   شمولٌ قرقَفٌ من جَهنبنْدِ

3- وساق شبه دينار أتانا   يديرُ الكأس فينا كالدُّرنْد

4- فلّما دبَّ سكرُ الليلِ فينا   وأصبحنا بحال خرْدَمَنْدِ[3]

5- متى تدنو لقُبلته تلكّا   ويُلقي نفسهُ كالدُّردَ منْدِ[4]

6- وهذا شِعْرُ مزّاحٍ ظريفٍ   يُحاكي أنّه جُند بن جُندِ

مادة هند مند: معجم البلدان 1/ 393 تاج العروس 9/ 351

---

(1) هو الخليل بن أحمد بن محمد الخليل بن موسى السجزي، توفي بسمرقند، وهو قاض بها سنة 378هـ.

(2) الدستبند: نوع من الرقص الجماعي، شبيه بالدبكة.

(3) خردمند: عاقل، فهيم، مدرك.

(4) الدّ ردمند: المريض، المتألم.

(60)

وله (من الطويل)

1- خليلـيَّ عهْـدي باللّيـالي صـوافيا فمـا بالُهـا أبـدلن جيمـاً بصـادها

2- ولا تحسـبا عيشـي علـيَّ فـإنني أؤرِّخُ يـومَ المـوت يـومَ افتقادهـا

3- ولسـتُ أُحـبُّ الضّـوءَ إلا لوجههـا ولا البـدرَ إلا طالعـا في بلادهـا

4- ولـو أنـني أنصـفتها ورعيتهـا لسـارَ فـؤادي في طريـق فؤادهـا

5- خليلـيَّ هـل أبصـرتُما مثـل أدمعـي نفِـدَت وحـقّ الله قبـل نفادهـا[1]

(1، 5) اليتيمة 4/ 210، (1-5) خاص الخاص/ 192

(5) الإعجاز والإيجاز / 198

---

(1) نفدن: خاص الخاص (نفذت).

قافية الراء

(61)

ومن قصيدة (من الطويل)

1- وكم ليلةٍ لا أعلم الدهر طيبها ... مخافةَ أن يقتصَّ مني لها الدَّهرُ

2- سهادٌ ولكن دونه كلُّ رقدةٍ ... وليلٌ ولكنْ دونَ إشراقِه الفَجْرُ

3- وسكرُ الهوى لو كان يحكيهِ لذةً ... من الخمر سكرٌ لم يكن حرِّم السُّكر

4- ولما أدارت مُقلةً جاهليةً ... هلاكُ امرئ في ضمنِ ثوبي لها نذرُ

5- ومالتْ كأنْ قد سُقِّيتْ خمر خدِّها ... وكيف يُميلُ الخَمرُ من ريقَهُ الخَمرُ

6- حسدتُ عليها ناظري إذ تحلُّهُ ... كما تحسُدُ الأفلاكُ نَعْلَ فناخِسْرو

(1-6) اليتيمة 4/ 21

(62)

ومن عضديه (من الطويل)

1- وكم عُصبةٍ قرحى عَصوكَ فأصبحوا ... بهم يومُهم خمرٌ وفي غدِهم أمرُ

2- وصارخةٍ للزوج كان غناؤها ... (لها كنيةٌ عمرٌ وليس لها عمرو)[1]

3- فصيَّرتها ثكلى وأصبح قولُها ... (كذا فليجلُّ الخَطبُ، وليفدحِ

اليتيمة 4/ 219-220

---

(1) العجز لأبي صخر الهذلي، أبى القلب إلا حبّها عامرية ... لها كنية عمر، وليس لها عمر

(2) مطلع قصيدة لأبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي، وعجزه: فما لعين لم يفِضْ ماؤها عذر

(63)

ومن عضديه أخرى (من الطويل)

1- غريبٌ على الأيام وُجدانُ مثلِهِ ... وأغربُ منهُ بعدَ رؤيتهِ الفقرُ

2- فلا حُرٌّ إلاّ وهو عبْد لجُودهِ ... ولا عبْد إلاّ وهْو في عدلِهِ حُرٌّ

3- عَجِبتُ لهُ لم يلبَسِ الكِبرَ حُلَّةً ... وفينا لأنْ جِزنا على بابهِ كِبْرُ[1]

(1-3) اليتيمة 4/ 22، (1) محاضرات الأدباء 1/ 259

(64)

وله من قصيدة في رثاء أبي الفتح بن العميد (من الكامل)

1- يا دهرُ إنّكَ بالرِّجالِ بَصيرُ ... فلطالما تجتاحُهمْ وتُبيرُ

2- يا دهرُ غيري قد خدعت بباطلٍ ... وابنُ العميدِ مُغيَّبٌ مَقبورٌ

3- الآن نادتنا التَّجاربُ طلّقُوا ... دُنياكُم إنَّ السّرورَ غُرورُ

4- يا دهرُ ظلَّ لمخلبيكَ فريسةً ... رجلٌ لعَمري لو علمتَ كبيرُ

5- رجلٌ لو أنّ الكُفرَ يحسنُ بعدَه ... هُجَي القضاءُ، وأُنّب المقدورُ

6- أشكو إليك النّفسَ وهي كئيبةٌ ... وأذمُّ فيكَ الدّهرَ وهو غزيرُ

7- واقولُ للعينِ الغزيرِ بكاؤها ... خطبٌ لعَمري لو عميتِ يَسيرُ

8- قدْمِتُ بعدكَ ميتةً مستورةً ... قد ساقها لي موتُك المَستورُ

9- ودُفنتُ في قبرِ الهُمومِ وضمَّني ... كفنانِ: ضيقُ الصّدرِ والتفكيرِ

---

(1) لان: محاضرات الأدباء (إذا).

10- ضحكتْ إليكَ الحورُ ضِحكك كلّما		وافـاكَ ضـيفٌ أو أتـاكَ فقـيرُ

11- وضفت عليك ذيولُ رحمة ربّنا		واللهُ بـرٌّ بـالجوادِ غفـورُ

12- وسَقى ضريحَكَ مُستهلٌّ عمرُهُ		شهرٌ، وعمرُ النّبتِ منه شهورُ

13- جودٌ ككفّكَ أو كعيني أو دمٌ		أجراهُ سيفُك في العِدى مَشهورُ

14- أهوى القيامةَ لا لشيءٍ غير أن		ألقاكَ فيها والأنامُ حضُورُ

15- وأحبُّ فيكَ الموتَ علماً أنني		بعدَ المماتِ إلى اللقاءِ نصيرُ

1-15 اليتيمة 4/ 227، (1، 2) 3/ 192

(65)

وله من أخرى (من الكامل)

1- وأراكَ تشكو الشّيبَ تظلمُهُ		والشيبُ زرعٌ بزرُهُ العُمْرُ

2- كالخمرِ يجلُبُها الخُمارُ وقد		يُهجى الخُمارُ، ويُمدح الخمرُ

اليتيمة 4/ 235

(66)

وله من أخرى (من الطويل)

1- وإنّي لأرجو الشّيبُ ثمّ أخافُهُ		كما يُرتجى شربُ الدّواءِ ويُحذَرُ

2- هوَ الضّيفُ أن يَسبقْ فعيشٌ مكدّرٌ		عليَّ وإن يُسبَقْ فموتٌ مقدرُ

اليتمية 4/ 241

(67)

وله في كيزان الفقاع: (من المتقارب)

1- وضيّقةِ الفَم دَحْداحةٌ		عليها قميصٌ ندىً أخضرُ

2- تثـــورُ إذا كشـــفوا رأسَـــها   وإنْ قبّلـــوا فمَهـــا تُهـــدُرُ[1]

(1) محاضرات الأدباء 2/ 714، (1، 2) المصدر السابق، 4/ 379.

(68)

وله (من البسيط)

1- لـهُ مناقـبُ لا تُحصـى مَحاسـنُها   ويَحسَبُ الأكثـرانِ: الرمْـلُ والشَّـجَرُ

2- مـا سـارَ موكبُـهُ إلاّ ويَخدِمُـهُ   في ظلـه الأسـنيان: الفـتحَ والظفـرُ

3- دامـت يقبّلـها يـد الملـوك كمـا   يقبّـل الأكرمـان: الـركن والحجـرُ

تحفة الناصرية/ ورقة 76

(69)

وقال في وصف الريباس[2] (من الطويل)

1- ولعبـةِ عـاجٍ في قمـيصٍ مُـورّدٍ   أسـافِلهُ خضـرٌ وأزراره حُمـرُ

2- كـأنّ يـديها والأنامـلُ خُضّـبتْ   وشُدَّتْ على أطرافها خِرَقٌ خُضـرُ

نهاية الارب 11/ 64

(70)

ومن صاحبيةٍ (من الطويل)

1- تـأخرَ عـن كُـتبي الجَـوابُ وإنّمـا   تـأخرَ بـردُ المـاءِ عـن كَبـدٍ حَـرّى

2- فـلا تفسُـدَنْ عشـرينَ ألفـاً وهبْتهـا   بعشرينَ حرفاً من كلامكَ تُسـتَمرى

اليتيمة 4/ 225

---

(1) هذا البيت منسوب خطأ لأبي طالب المأموني في محاضرات الأدباء 2/ 714.

(2) الريباس (هو نبات ينبت في الثلج، له قوة حماض الأترج والحصرم).

(71)

وله (من الطويل)

1- عليكَ بإظهارِ التجلُّدِ للعِدى ولا تُظهِرَنْ مِنكَ الذّبولَ فتُحقَرا[1]

2- ألستَ ترى الرَّيحانَ يُشتمّ ناضراً ويُطرحُ في الميضا إذا ما تغيّرا[2]

(1-2) اليتيمة 4/ 240، خاص الخاص / 192، الإعجاز والإيجاز/ 200، التمثيل والمحاضرة/ 124، عيون التواريخ 12/ 225أ، نهاية الأرب 3/ 114، تمام المتون/ 65.

(72)

ومن قصيدة في الشكوى (من الكامل)

1- ولقد بَلوتُ الأصدقاءَ فلمْ أرَ فيهمُ أوفى من الوَفْرِ

2- وكذاكَ لم أرَ في العدا أحداً أنكى لمن عادى من الفَقرِ

3- ذهبَ الغِنى وورِثتُ عادتَهُ فأنا الغنيُّ وغيريَ المُثري

4- وتجمّعتْ فيَّ اثنتانِ ولمْ يتجمّعا في سالفِ الدّهرِ

5- لا يبرَحُ المقصوصُ موضعَهُ ولقد قُصصتُ فطِرتُ عن وكريَ

اليتيمة 4/ 236

(73)

وله من قصيدة (من مجزوء الكامل)

1- لا يصغُرُ الرجلُ الكبيرُ بعِشْرةِ الرّجلِ الصّغيرِ

---

(1) فتحقرا: الإعجاز والإيجاز (فتمشيا)، الذبول: نهاية الأرب (الدّنو).

(2) في عيون التواريخ (ويطرح في الميضاة أنى تغيرا)، يشتم: تمام المتون (يشمم وقد نسب البيتان إلى أبي الفتح البستي في التذكرة السعدية (411) وذكر المحقق أنه لم يعثر عليهما في ديوانه أو في اليتيمة.

2- بل يكبُرُ الرّجلُ الصّغيرُ بخدمةِ الرّجلِ الكبيرِ

3- ويُركّبُ التّبرُ النّفيسُ على الدّنيءِ من السُّيورِ

4- ماذا يضرُّ البدرَ قربُ النّجمِ منهُ المُستنيرِ

5- بل ما يضرُّ السّيلَ مجراهُ على الأرضِ الحَدورِ

6- بل ما عسى صِغَرُ السّفينِ يغُضُّ من عظمِ البُحورِ

7- قد زادني شرفاً ولم يُنقِصْهُ من شرفٍ حضوري

8- كالنّارِ ليس بناقصٍ منها اقتباسُ المُستعيرِ

9- تُلقى الفتى سَهْلَ الشّريعة للجليسِ وللعَشيرِ

10- أوما رأيتَ البحرَ يغرقُ منه[1] بالخَطبِ اليسيرِ

11- والناسُ مثلُ الجسمِ يعتمد القبيلُ على الدّبيرِ

12- يتحاملُ العضوُ الخطيرُ بقوة العضو الحقيرِ

13- كتحاملِ الرّمحِ الطّويلِ بزُجّهِ ذاك القصيرِ

(74)

وله في أمير الأمراء/ أبي الحسين بن سيجور

1- إنّ الألى خلفَ الخدورِ هُم في الضّمائرِ والصّدورْ

2- وقعَ الغبارُ عليهمُ فغدا يتيهُ على العَبيرْ

3- لمّا مشَيْنَ على الثّرى تاهَ التّرابُ على الأثيرِ[2]

4- فغدوتُ من حالِ الأميرِ ورحتُ في حالِ الحَسيرِ

---

(1) يغرق: لعلها يغرف

(2) تاريخ العتبي (تاه المصار على المصير).

5- يـــا ســـائلي مـــن في الهـــوادِ ج والبراقـــــعِ والسّـــــتورِ

6- فيهـــا الرّضـــاعُ مـــن المَنيـــة والفِطـــامِ مـــن السّـــرورِ

7- وكـــذاكَ مـــن عَشِـــقَ النّجـــومَ ورامَ صـــــيداً للبُـــــدورِ

8- وأعـــرتُهنّ القلـــبَ لـــوْرِدٌ المُعـــارُ علـــى المُعـــيرِ

9- وســـألتُ مَـــنْ زوجُ المَنـــابرِ حـــينَ تُخطَـــبُ والسّـــريرِ

10- فهـــوَ الأمـــيرُ ابـــنُ الأمـــيرِ ابـــنِ الأمـــيرِ ابـــنِ الأمـــيرِ

11- المُشـــتري المَـــدحَ القليـــلَ بمالِـــهِ الجَـــمِّ الغفـــيرِ

12- مَـــن ســـيفُهُ كســـرُ الجـــبيرَ وســـيفُهُ جـــبرُ الكَســـيرِ

13- والنـــاظمُ المَعنـــى الطويـــلِ بلفظِـــهِ النَـــزْرِ اليَســـيرِ[1]

14- يَرمـــي أعاديـــهِ بســـهمِ مِـــن ســـعادتِهِ طَريـــرِ

15- حتّـــى لـــو افترشـــوا الحريـــر لشـــاكَهمْ مـــسُّ الحريـــر

16- وسِـــهامُهُ نُـــوَبُ الخُطـــوبِ وقوســـه عضـــبُ الـــدّهور

17- ورماحُـــهُ حَشْـــوُ العـــدى وعداتُـــهُ حشـــوُ القبـــورِ

18- اســـتغفرُ الـــرّحمنَ بـــل حشـــوُ الخَوامـــعِ والنســـورِ[2]

19- ويصـــومُ صـــارمُهُ فيُفطِـــرُ بالجَمـــاجمِ والنّحـــورِ

20- وإذا أتـــاهُ ســـائلاً ربُّ الشُـــويهة والـــبَعيرِ

21- أيصـــرتَهُ بفنائِـــهِ ربُّ الخَورنـــقِ والسّـــديرِ

---

(1) اليسير: العتي/ القصير.

(2) الخوامع: الضباع، والخامعة الضبع لأنها تخمع إذا مشت.

22- أحمـــدُ بـــنُ محمّـــدٍ هـــذا الثِّمـــادُ مـــن البُحـــورِ[1]

23- لـــو كانـــت الـــدُّنيا تُـــدورُ علـــى الحقـــائقِ في الأمـــور

24- ماصِـــحَّ مـــدحُ محمّـــدٍ إلاّ مـــن القَمـــرِ المُـــنيرِ

1-24 تاريخ العتبي، 1/ 155- 157، (1-24) نسمة السحر 2: 319، (1) ريحانة الألباء / 38

(75)

وله (من الطويل)

1- تمنيتُ خـلاتٍ علـى الـدّهرِ أربعـا ولم أرَ مسـؤولاً أشـحَّ مـنَ الـدَّهرِ

2- جِماعاً بلا ضعفٍ، وشرباً بلا سُكرٍ وعُمـراً بـلا شـيبٍ، وبـذلاً بـلا فَقـرِ

اليتيمة 4/ 240

(76)

ومن قصيدة في أبي القاسم المزني لمّا قبض عليه (من الكامل)

1- وثـبَ الصّـغيرُ علـى الكـبيرِ وقـد يُطفـي الـترابُ حـرارةَ الجَمـرِ

2- لا تعْجَـبنَّ فـربَّ سـاقيةٍ قـد كـدَّرت طرفـاً مـن البَحْـرِ

3- هـذا الحُسـامُ يفلّـهُ هَجـرٌ وبـه قِـوامُ النَّهـي والأمـرِ

4- غصـبتْ جُذيـةَ نفسَـهُ امـرأةٌ فاصـطيدَ ذاك الحُـرُّ بـالحُرِّ

5- هيهـاتَ هـذا الـدهرُ الأمُ مِـنْ أن لا يَسُـرُّ العَبـدُ بـالحُرُّ

اليتيمة 4/ 236-237

---

(1) الثماد: جمع ثمد، وثمد: الماء القليل.

(77)

وله (من الهزج)

1- فتـــىً مختصـــرُ المـــأكول والمَشـــروبِ والعِطـــرِ

2- نقـــيُّ الخُبـــزِ والقَصـــعةِ والمِنـــديلِ والقِـــدْرِ

3- قليـــلُ النّمـــل والـــذّبانِ والجِـــرذان والهِـــرِّ

الكناية والتعريض/ 36

(78)

وله (من السريع)

1- قـدْ لَقِـيَ الأحبـابُ منـهُ الّـذي لم يلـقَ زيـدُ النّحـوِ مـن عَمـرو

التمثيل والمحاضرة/ 162

(79)

وله وقد طلبت جارية له بعشرة آلاف درهم: (من السريع)

1- يـا طالبـاً روحـي ليبتاعَهـا أنـتَ رسـولُ الغَـمِّ والحَسـره

2- غـدوتَ بالبَـدرةِ فـارجِعْ بهَـا لسـتُ أبيـعُ البـدرَ بالبـدره

اليتيمة 4/ 237

(80)

وله من قصيدة (من الهزج)

1- أيـــا مَـــن قُربُـــهُ خِـــبرَهْ ويـــا مـــن بعـــدُهُ عِـــبرَه

2- ويا مَن وصلُهُ يومٌ ويا من هجره فَتره

3- ويا من وصلُهُ أعلى من الشّمأل في البَصره

4- ويا من نظرةٌ مِنهُ تساوي مائتي بدرهْ

5- ويا من قد حَكى خداهُ قلبي فيهما جمرة

6- ويا من طرفُ من أبصرَ بَدراً بعده يكرهْ

7- ويا من عينُهُ جيشٌ كثيفٌ لأبي مُرَّه[1]

8- ويا من نخرَ الشيطانُ في مولِدِه نخرَهْ

9- وقال اليوم ألقيتُ بني آدم في الحفُره

10- ويا من أنذرتْ عيناه عيني مائتي مرَّه

11- أيا عين ارجعي ما كلُّ وقتٍ تُسلمُ الجره

12- ويا أحسن من يسر يلقَّى صاحبُ العسره

13- ويا أعذب في الأنفس من صفحٍ على قدره

14- ويا من لست أرضى قط بالبحر له قطره

15- ولا أرضى له البدر على إشراقه غُرَّه

16- ولا أرضى له الأرض على فسحتها حجره

17- ولا أرضى له بلقيس يجلوها على العذره

18- ولا أرضى برزق الإنس والجن له سفره

19- ولا أرضى من القلب له عشق بني عذره

20- ولا أرضى له السعد غلاما والمنى سخره

---

(1) أبو مرة: كنية إبليس.

21- ولا أرضـــى لـــه الرمـــل نضـــارا والحصـــى نقـــره

22- ولا أرضـــى لـــه إلا بنفســـي آمَـــــــــةً حُـــــــــره

23- قـــد اســـتخرجت مـــن عـــينيَّ عينـــــا في الهـــوى ثـــرَّه

24- فلـــو فجرتهـــا فجـــرت منهـــــا اثـــنتي عشـــره

25- وقـــد أصـــجعتني فـــوق فـــــراش الهـــمّ والحســـره

26- وقـــد علمـــتني كيـــف يمـــوت المـــرؤ مـــن نظـــره

اليتيمة 4/ 237-238

(81)

وقال في وصف لجأة (من المديد)

1- بنـتُ قفـرٍ بـدتْ لَنـا مـن بعيـدٍ مثلَ ما قـد طـوى البُخـاريُّ سِفرَهْ[1]

2- رأسُـــها رأسُ حيَّـــة وقَراهـــا ظَهْـرُ تُـرْسٍ، وجلـدُها جِلـدُ صَخْرة

3- مثـل فهْـر العطَّـار دُقَّ بـه العِطْـر فحلَّــت طرائِــقُ الطِّيــب ظَهْــره

4- أوكمـا قـد قَلَّبـتَ جَفنـةَ شُـرب نقشُـــوها بحُمـــرة وبصـــفْرة

5- يقْطَـعُ الخَـوفُ رأسَـها فـإذا مـا أمِنَـــه فرأسُـــها مُسْـــتَقِرَّة

(1-5)

(1، 2، 3، 5) نهاية الإرب 10/ 317 الوافي بالوفيات 3/ 194

(1، 2، 4، 5) عيون التواريخ 12/ 225أ (1-5) مباهج الفكر ومناهج العبر ج2 قسم الحيوان ورقة 352.

---

(1) بنت قفر: الوافي بالوفيات (بنت فقر). سفره: الوافي بالوفيات. سفره.

(82)

وله في هجاء أبي بكر النحوي البستي (من مجزوّ الرجز)

نحـــــــوِيّكُم في حُمقِــــــه مَعْرِفَــــــــةٌ لا نكِـــــــرَه

ذُو لحيـــــــةٍ مبْســــــوطةٍ وفطنـــــــــةٍ مُختَصـــــــرة

اليتيمية4/ 338

قافية السين

(83)

وله في مدح الصاحب بن عباد (من الطويل)

1- وفي الدَّستِ شخصٌ ودَّت الأنجمُ الّتي ... تُقابلُهُ لو أنّهنَّ مجالسُ

2- فلا تعجبوا أنْ يحْملَ الدَّستُ عسْكراً ... فما كلُّ أمرٍ تقتضيه المقايسُ

3- وإنْ يسعِ الدَّستُ اللّطيفُ لعالمٍ ... فقد وسعتْ اسمُ الإلهِ قَراطسُ

4- أمينٌ إذا ما النّاسُ مالوا لغيرهِ ... (ومحترسٌ من مثلهِ وهو حَارسُ)[1]

ومنها

5- وكنتُ امرأ لا أنشدُ الدّهرَ خالياً ... سوى بيت ضرٍّ نجمُهُ الدّهرَ ناحسُ

6- (أقلّي علّيَ اللّوم يا أمَّ مالكٍ ... وذمّي زماناً سادَ فيه الفلاقسُ)[2]

7- فأصبحَ إنشادي لبيت إذا جَرى ... فَفيه نديمٌ مُمتِعٌ ومُؤانسُ

8- (ودارِ ندامى عطّلوها وأدلجُوا ... بها أثرٌ منهُم جَديدٌ ودارسُ)[3]

اليتيمة 4/ 218-219

(84)

وله في الصاحب بن عباد وقد اعتل (من الطويل)

1- نعوْا ليَ نفسَ، المجدِ ساعةَ أخبرُوا ... بما يَشْتكي من سُقمِه ويُمارسُ

2- فهلاً فداهُ منه منْ ليسَ مثلَهُ ... ومن ربْعُهُ في ساحة الجود دارسُ

---

(1) المصراع لعبد الله بن همام.

(2) البيت لعبد الله بن همام.

(3) البيت لأبي نواس.

3- جزى اللهُ عنّي الدَّهرَ شرّاً، فإنه يُضايُقني في واحدٍ ويُنافسُ
اليتيمة 4/ 222.

(85)

وله (من البسيط)

1- يا مَنْ يُحاولُ صرفَ الراح يشربُها فلا يَلُفُّ لما يَهْواهُ قِرْطاسا[1]

2- الكأسُ والكيسُ لمْ يُقضَ امتلاؤُهما ففرِّغ الكيس حتّى تُملأَ الكاسا

(1-2) اليتيمة 4/ 239، الإعجاز والإيجاز 200، الوافي بالوفيات 3/ 194، عيون التواريخ 12/ 234 ب، نسمة السحر 2/ 318.

(86)

وله في اللحام[2]، وقد تحكّكَ به حدثا (من السريع)

1- رأيتُ للّحام في حَلْقِه للشّعرِ تطبيقاً وتجنيسا

2- نُخوةُ فِرعونَ ولكنَّهُ جانسَ في حَمْل العَصا موسى

3- قَرينُهُ إبليسُ لكنَّه خالفَ في السَّجْدةِ إبليسا

اليتيمة 4/ 102، ثمار القلوب / 81، الكناية والتعريض/ 34.

(87)

وله في مزّين (من المنسرح)

1- إنَّ أبا القاسم المزِّين قدْ أصبحَ رأساً في حَلْقِه الرُّوسا

---

(1) لا يلف: الوافي بالوفيات، ونسمة السحر: (لا يفك).

(2) اللحام: أبو الحسن علي بن الحسن اللحام الحراني ترجمته في اليتيمة 4/ 102، وقد ورد (اللجام) في الكناية والتعريض وهو تصحيف.

2- لـو لم تُقَـعْ شَـعْرتي علـى فَخـذِي ... مـا كـانَ وقْـعُ الحديـد مَحْسوسـا[1]

3- مشـــارطٌ أصـــبحت شَـــرائِطُه ... للـبر موسـى أخـذنَ مِـنْ مُوسـى

(1-2) احسن ما سمعت/ 126، (1-3) المتشابه للخفاجي/ 31.

(88)

وله من قصيدة (من المتقارب)

1- عليـكَ رقيـبٌ شَـديدُ اللِّحـاظِ ... متـى لم يحـط علمـه يَحْـدسِ[2]

2- أنَـمُّ مِـن المِسْـكِ بالعاشِـقين ... وألحَـظُ عيْنـاً مـن النَّـرجِسِ

اليتيمة 4/ 212، خاص الخاص / 42

(89)

وله (من الوافـر)

1- ولَمّـا أن غَرسـتُ إليـكَ ودِّي ... فلـم يُثمـر لـدَيكَ زَكـيُّ غَرسـي[3]

2- أردتُ ملالـةً، وأردت هجـراً ... فصـنتك عنهُمـا فَهجـرتُ نفسـي[4]

3- لأنَّ الـذَّنبَ ذنـبي حـينَ أهـدي ... إلى مـنْ لا يُريـدِ الأنـس أنسـي

بغية الوعاة/ 51 الحصون المنيعة 7/ 186

---

(1) حذفَ محقق أحسن ما سمعت كلمة (شعرتي) لأنه عدَّ ذكرها خروجاً على الذوق.

(2) شديد اللحاظ: اليتيمة (ثقيل اللحاظ) ليتناسب مع ما ورد في البيت الثاني.

(3) زكي: الحصون (ذكي).

(4) الحصون (ازدت ملامة، وازدت هجرا... فهجوت نفسي).

قافية الضاد

(90)

ومن قصيدة (من الخفيف)

1- قُلتُ للعَيْنِ حينَ شَامَتْ جمالاً ... في وُجوه كَواذبِ الإيماضِ[1]

2- لا تغرَّنْكِ هذِهِ الأوجهُ الغُرُّ ... فيا ربَّ حيَّةٍ في رِياضِ[2]

(1-2) اليتيمة 4/ 200، خاص الخاص / 191، الإعجاز والإيجاز/ 199 التمثيل والمحاضرة/ 378 (1) زهر الآداب/ 271.

(91)

ومن أخرى (من الخفيف)

1- خَضَبتني الأيامُ لون بياضٍ ... وخضابُ الأيامِ ليسَ بناضِ

2- وتخطَّتني المَنونُ إلى شَعري ... فأضحى مُكَفَّناً ببياضِ

3- (ولعمري إنِّي لَغيرُ لبيبٍ ... في قتالِ الأيَامِ بالمِقراضِ)

اليتيمة 4/ 235

---

(1) وجوه: خاص الخاص، الإعجاز والإيجاز (بروق).

(2) الغرّ: الإعجاز والإيجاز (الغرر).

(92)

وله أيضاً (من الخفيف)

1- وإذا مُـــدَّةُ الشَّـــقيِّ تناهَـــتْ جــاءَهُ مــن شَــقائِهِ مَتقاضـــي[1]

التمثيل والمحاضرة/ 124، نهاية الأرب 3/ 114

(93)

ومما أورده بديع الزمان الهمذاني على لسان الخوارزمي في المناظرة (من الكامل)

1- يـا قاضـياً مـا مِثْلَـهُ مِـنْ قـاضِ أنـا بالَّـذي تقْضـي علينـا راضِ

2- فلقــدْ لبســتُ ضــفيَّة ملموحــةً مــن نسـجِ ذاكَ البـارقِ الفَضْـفاضِ

3- لا تغضــبنَّ إذا نظمــتُ تنفسُّــاً إنَّ الغضــا في مثــل ذاك تغاضــي

4- فَلقــد بُليــتُ بشــاعرٍ مُتقــادرٍ ولقـد بُليـتُ بنـابِ ذئـبٍ غَـاضِ[2]

5- ولقد قرضْتَ الشِّعرَ فاسمعْ واستمعْ لنشــيد شــعرٍ طائعــاً وقــراضِ

6- فلأغلـــبنَّ بديهـــةً بيـــديهتي ولأرمـــينَّ ســـوادَه ببيـــاضِ

(1-6) رسائل بديع الزمان الهمذاني/ 57، (1، 4) معجم الأدباء 1/ 104

---

(1) متقاضي: التمثيل والمحاضرة (متقاض).

(2) متقادر: معجم الأدباء (متهتك)، ولقد بليت: معجم الأدباء (لا بل بليت).

قافية العين

(94)

ومن قصيدة في رثاء أبي الفتح بن العميد (من الطويل)

1- أسـرَّكَ أنَّ الـدَّهرَ يَجْني لما جنى ولم يَكُ في الأحبـارِ والنُّصب يـدَّعي

2- فيـا عَجبي مـن ناصـبيٍّ وفَرحـهِ وأعجـبُ منـهُ الحُـزنُ في المتشـيِّعِ

3- وأعجبُ من هذين إظهارُكَ الأسى لمن غـاب عـن دار الأسى والتَّوجُّعِ

4- ألم تـرَ أنَّ الله قـالَ: تمتَّعـوا قلـيلاً ولم يبـقَ قليـلُ التَّمتُّـعِ

اليتيمة 4/ 227

(95)

ومن أخرى (من مجزوء الكامل)

1- لاحـتْ لـوجهي أنجُـمٌ للشَّـيبِ عُـدْنَ بـه طَوالـعْ

2- أودعـتُ مِـنهُنَّ الصِّـبا مـنْ لا يـرى ردَّ الودائِـعْ

3- فقَصصْـتُهنَّ وإنَّمـا دَهْـري بمقراضِـي أُخـادِعْ

4- وإذا عـدوُّكَ كـان بعضُـك في الخُطـوبِ فمـن تُقـارِعْ

اليتيمة 4/ 235

(96)

وله من أخرى في هجاء ابن شار (من مخلع البسيط)

1- لله في كــــلِّ مـــا قَضـــاهُ لطـــائفٌ تحتهـــا بَـــدائعْ

2- سُـبحان مَـنْ يُطْعِـمُ ابـنَ شـارٍ وَيتْـرِكَ الكلـبَ وهـوَ جـائعْ

اليتيمة 4/ 207

(97)

وله مخاطباً بديع الزمان الهمذاني: (من مجزؤ الرمل)

1- يـا بـديع القَـوْلِ حاشَـا لـكَ مـن هَجْـوِ بَـديعْ

2- وبحسْـنِ القَـوْلِ عـوَّدْ تُـكَ مـن سـوءِ الصَّـنيعْ

3- لا يَعِـبْ بَعضـك بعْضـاً كُـنْ مليحـاً في الجَميـع

معجم الأدباء 1/ 113

(98)

وله في أبي سهل البستي الكاتب (من السريع)

1- مـاتَ أبـو سَـهْلٍ فواحسـرتا إنْ لم يَكُـن قـد مـات مـذ جُمُعـهْ

2- مـا حزنـي إلا لأن لم يمـت بموتـه مـن أهلـه تسـعهْ

3- مُصـيبةٌ لا غَفَـر اللهُ لـي إن أنـا أذريـتُ لـه دَمعُـهْ

اليتيمة 4/ 230

قافية الفاء

(99)

وله (من البسيط)

1- هــل تَنشَـطُونَ لتنورِّيــةٍ خُنِقَــتْ ... مِــنْ أوَّلِ اللَّيــل حتَّــى قَلبُهــا يجِـفُ

2- كأنَّها وهْيَ فَـوقَ الجام قَـدْ فَرِقـتْ ... في دفنهــا، قَمَــرٌ بالشَّـمس مُلتَحِـفُ

3- أو درهــمٌ فوقَــهُ الــدِّينارُ منطبــقٌ ... أو لوحُ عاجٍ على الزِّرياب مُكتَنَفُ[1]

محاضرات الأدباء 2/ 614

(100)

وقال (من الطويل)

1- وهذا الهوى عيشُ المُحـبِّ إذا صـفا ... ولكنْ إذا لم يصـفُ كـانَ لـه حَتفـا

محاضرات الأدباء 3/ 47

(101)

وله في دار الصاحب بن عباد: (من مجزوء الوافر)

1- بنيــــتَ الــــدَّارَ عاليــــةً ... كمِثْـــل بنائِـــكَ الشَّـــرفَا

2- فــــلا زالــــتْ رؤوسُ عِــــداكَ ... في حيطانهـــــا شُـــــرَفا

اليتيمة 3/ 218، خاص الخاص / 191، الإعجاز والإيجاز / 200، المنتحل/ 40، تحفة الناصرية/ ورقة 194.

---

(1) الزرياب: الذهب: وقد وردت (الرزياب) وهو تصحيف.

(102)

ولهُ في باقة ريحان (من الرجز)

1- وضـــغْث رَيحــانٍ إذا مــا وَصَــفه ... واصِــفُهُ قيــلَ لــهُ: زِدْ في الصِّــفه[1]

2- دقَّقَـــهُ صـــانعُهُ ولطَّفَـــهْ ... كأنَّـــهُ وشـــمٌ يـــد مُطرَّفـــه[2]

3- أو خـــطٌ ورَّاقٍ أدقَّ أحرُفَـــه ... أو زَغبـــاتُ طـــائرٍ مُصـــفَّفه[3]

4- أو حُلَّـــةٍ بخُضـــرة مُفوَّفـــة[4]

اليتيمة 4/ 239-240، نهاية الأرب 11/ 255، مباهج العبر 447 (ب).

---

(1) وضغث ريحان: في نهاية الأرب، ومباهج العبر: وصفت ريحانا.

(2) مطَّرفه: مباهج العبر (مظرفه).

(3) مصففه: مباهج العبر: (محففه).

(4) بخضرة: نهاية الأرب ومباهج العبر (محضرة).

قافية القاف

(103)

ومن قصيدة نسبها بديع الزمان إليه في المناظرة التي جرت بينهما (من الكامل)

1- وإذا ابتــدهتُ بديهــةً يــا ســيّدي ... فــأراكَ عنــدَ بــديهتي تتفلّـــقُ،[1]

2- وإذا قرضــتُ الشّــعرَ في مَيْدانــه ... لا شــكَّ أنّــكَ يــا أخــي تتشــقَّقُ

3- إنّــي إذا قُلــتُ البديهــةَ قُلتُهــا ... عَجِـلاً وطبعُـكَ عِنْـد طبعـي يَفْـرقُ،[2]

4- مــالي أراكَ، ولسـتَ مثلـي عنـدها ... مُتموهــــاً بالتُّرهـــات تمخـــرقُ

5- إنـي أُجيـزُ علـى البَديهـة مثـلَ مـا ... ثُريانـــه، وإذا نطقْـــتُ أُصـــدَّقُ

6- لـو كنـتَ مـن صـخرٍ أصـمٌّ لهالَـهُ ... منِّــي البَديهـــةَ، واغتــدَى يَتَفلَّــقُ

7- أو كنـتُ ليثـاً في البديهـة خـادراً ... لرُئيــتَ يــا مســكينُ مــني تَفْــرُقُ

8- وبديهـــةٍ قـــد قُلتُهـــا مُتنفسّـــاً ... فِعْـلَ الـذي قَـد قُلـت يـا ذا الأخـرقُ

1-8 رسائل بديع الزمان الهمذاني / 27، (1، 4) معجم الأدباء1/ 102

(104)

وله (من الطويل)

1- يَقُلُّ غدا جيش النّوى عسْكَر اللّقا ... فرأيــكَ في ســح الـدُّموعِ مُوفَّقــا

2- وخـذ حجَّتي في تَـرْك جـنيَ سـالماً ... وقلـبي ومـن حقّيهمـا أن يُشَـقَّقا[3]

(1) وإذا: معجم الأدباء (فاذا).

(2) عندها: معجم الأدباء (في الورى).

(3) جنيَ: مصارع العشاق (جسمي) مشققا: مصارع العشاق ونشوار المحاضرة (يحرّقا).

3- يدي ضعُفتْ عن أنْ تُمـزِّق جيْبهـا ... ومـا كـان قلـبي نـاظراً فيمزِّقـا[1]

4- ولّمـا رأيـتُ الإلـف يعـزم للنَّـوى ... عزمتُ على الأجفـانِ أن تَترقْرقـا[2]

(1-3) اليتيمة 4/ 210، (1-4) نشوار المحاضر / 158.

(1-4) مصارع العشاق/ 90 (1-4) الأنساب المتفقة / 96.

(105)

وله (من الطويل)

1- رميتُ بكَ الأعداءَ عن قَـوْسِ غُنْيَـةٍ ... وأصـبح حُـبُّ النـاس منّـي مُطلَّقـاً

2- وصغَّرت عندي الخَلْقَ حتَّى حسبْتني ... علـى كـلٍّ مـن خاطبتـهُ متصـدِّقا

3- وكنتُ متى أنقـلْ إلى أهْـلِ مَجْلـسٍ ... ثنا مجْلسٍ مـنْ فيـك قُمْـتُ مصـدَّقا

4- وكنــتُ متـى مـا أروعتْـكَ قصـيدة ... غدوتُ بها أصـفى نشـيدا وأحـذقا

5- وكنتُ إذا استفتحتُ باسْمِكَ سـفرةً ... تطــاير عنّــي نحْسُــها وتفرَّقَــا

6- وكنتُ متى أذكركَ والكأسُ في يـدي ... صَفَت وغدا الدَّاذيُّ فيهـا مُعتَّقـا[3]

7- وكنتُ متى أحسُد غنياً علـى الغِنـى ... ذكرتُك سِـرّاً واسـتَطلتُ لـك البقـا

تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون / 253

(106)

وله في الضفدع (من الرجز)

1- أرّقَـــني والـــدِّيك لّمـــا ينطِـــقِ ... صـوتُ غريـق نِصْـفُهُ لم يَغْـرَقِ[4]

---

(1) تمزق/ مصارع العشاق (تحرق) ناظراً/ مصارع العشاق (حاضراً).

(2) ورد هذا البيت بعد البيت الأول في مصارع العشاق.

(3) الداذي: نبت له حب مثل الشعير يتخذ منه شراب مسكر.

(4) في مباهج العبر: (والليل في سربال وجن مطبق).

2- وجـاحظ العـينِ، ولمّـا يُخْنَـقِ بلحـظِ مَخْنـوقٍ، ولفـظِ أشْـرقِ

محاضرات الأدباء 4/ 689

(107)

وله مخاطباً بديع الزمان الهمذاني: (من الرجز)

1- إنَّـكَ إنْ كلَّفـتني مـا لمْ أطِـقْ سـاءَكَ مـا سَرَّكَ مِنّـي مِـنْ خُلُـق

معجم الأدباء 1/ 109

(108)

(وقال في ذم أحدهم) (من المنسرح)

1- كـأنَّ رُغفانـه إذا وُضِـعَتْ عُشُـورُ نَقْـطٍ كـتين مـن ورق

محاضرات الأدباء 2/ 262

(109)

وله (من المتقارب)

1- تغرَّبـت أسـأل مـن عـنَّ لـي من الناس، هل مِن صـديقٍ صـدُوق

2- فقـالوا عزيـزانِ لا يُوجـدان صـديقٌ صـدوقٌ، وبَـيضُ الأنـوق

ثمار القلوب 495

(110)

وله وقد دخل إلى صديق فبخره وسقاه (من الكامل)

1- بُخـرت ثـم سُـقيت في دار امرئ تضـحي القلـوب طوالبـا لوفاقـه

2- فكانّمـا سُـقِّيتُ مـن ألفاظـه وكانّمـا بُخِّـرتُ مـن أخلاقـه

اليتيمة 4/ 238

(111)

وله (من المجتث)

1- لا تيأســـنْ مـــن حبيـــبٍ إذا تـــــوعَّر خُلقـــــه

2- فكلمـــا صُـــلبَ الخبـــز كـــان ســـهلا مذْقُـــه

اليتيمة 4/ 240

قافية الكاف

(112)

ومن أخرى (من الطويل)

1- عَذيري من تِلْك الوجوه التي غَدَتْ مَناظرهـــا للنَّـــاظرين معاركـــا

2- عَذيري من تلْكَ الجُسُوم التي غدت سبائكَ تُغْني النَّـاس فيهـا السَّبائكا

اليتيمة 4/ 210

(113)

وقال: (ومن مجزؤ الكامل)

1- زُفَّـــتْ إليـــكَ صـــديقةٌ لفتـــىً فصـــرت لـــه شـــريكا

2- فعليـــكَ كـــلُّ مؤونـــةٍ وعلـــى شـــريكك أن ينيكـــا

محاضرات الأدباء 3/ 237

(114)

وله (من السريع)

1- أصـــبحت الـــدُّنيا لنـــا عِـــبره والحمـــدُ لله علـــى ذلكـــا

2- قـــد أجمـــعَ النَّـــاس علـــى ذمِّهـــا ومـــا أرى فـــيهم لهـــا تارِكـــا

التمثيل والمحاضرة / 251

قافية اللام

(115)

وقال من قصيدة (من الوافر)

1- وشمسٍ ما بدت إلاّ أرتنا   بأنَّ الشمس مطلعُها فُصولُ

2- تزيدُ على السِّنين سناً وحُسْناً   كما رقَّت على العِتْقِ الشَّمُول[1]

اليتيمة 4/ 209، خاص الخاص / 190، الإعجاز والإيجاز / 198

(116)

وله من قصيدة في مدح عميد الدولة (من الوافر)

1- بحمدك لا بحمدِ النَّاسِ أضحى   وكيلي ليس يكفيه وكيلُ

2- وكانو كلّما كالوا وزنَّا   فصرنا كلّما وزنوا نكيلُ

3- وزدتُ من العيال وذاك أنّي   كتبتُ على لقائكَ من أعول

4- وعشتُ وناقصٌ رزقي فأضحى   (مفاعلتُن مفاعلتُن فَعولُ[2])

5- وكنتُ أبيعُ من سقطِ القوافي   وأحجرُ ما تضمنت الحمولُ

6- وأكتمُ من أبايعُ دِقَّ بِزِّي   ففاضَ عليه نائلكَ الجزيلُ

(1-6) اليتيمة 4/ 223 (1-4) خاص الخاص/ 190 (1-4) الإعجاز والإيجاز/ 199

---

(1) سنا: اليتيمة (ضيا)، الإعجاز والإيجاز (ضنا).

(2) خاص الخاص (مفاعيلن، مفاعيلن فعول).

(117)

وله (من الوافر)

1- ومــا الثّقفــي إن جَــادَتْ كِســاهُ ... وراعـــكَ شَخْصُـــه إلا خيـــالُ

(118)

وله (من الوافر)

1- خُــذي ثــأرَ الكَســادِ مــن اللّيــالي ... لكـــلّ صـــناعةٍ يومـــاً بـــديلُ

محاضرات الأدباء 2/ 384

(119)

وله (من الوافر)

1- كمســـترقٌ اللّحـــاظ إلى عَـــروس ... وعنـــدَ ســـواه تضـــطَرِبُ الحُجُـــولُ

محاضرات الأدباء 4/ 370

(120)

ولــه

1- السَّـــيفُ يمضـــي وبـــه انفـــلالُ ... والحُـــرُّ يُعطـــي وبـــه إقـــلالُ

التمثيل والمحاضرة/ 292، الكناية التعريض / 11

(121)

ومن أخرى (من الخفيف)

1- قـــدْ عصـــاني دمعـــي وخلّـــي ... فخِلتُ الخلَّ دمعاً، وخلتُ دَمعي خَلاً

2- وأحاطَـــتْ بـــيَ الخُصُـــومُ فجفْنـــاً ... مُســـتهلاً، وصـــاحِياً مســـتَقِلاً

3- وفـؤاداً لـو ظَـنَّ إبليس أنَّ النَّـار   في حـــرِّه لصـــامَ وصـــلَّى

اليتيمة 4/ 211

(122)

ومن قصيدة في مدح الصاحب بن عباد (من الطويل)

1- وجـدْنا ابـنَ عبَّـادٍ يُـؤدي فرائِضـاً   مـن المَجْـدِ ظَنَّتهـا اللِّئـامُ النَّـوافِلا

2- جديرٌ بـأن يغشـى الكريهـةَ مُنشـداً   (أُقاتِـلُ حتَّـى لا أرى لـي مُقـاتِلا) [1]

اليتيمة 4/ 219

(123)

وأنشد أبو بكر قصيدة لنفسه في دار الصـاحب بـن عبـاد عـارض بهـا قصـيدة الرستمي في الوزن والقافية (من الطويل)

1- أكُـلُّ بنـاءٍ أنـت بانيـه مُعجِـبٌ   بَنيـتَ المعـالي أم بنيـتَ المنـازِلا

2- فـلا الإنـسُ تـبني مـثلَهُنَّ معالِمـاً   ولا الجِـنُّ تـبني مثلـهُنَّ معـاقِلا

3- كنـائِسُ أضـحتْ للغمـام عمائمـاً   علّـواً وأمسـت في الظـلامِ قنـادلا

4- رحابٌ كأنْ قـد شـاكلت صَدْو رُبهـا   وبيضٌ كـأنْ قـد نازعتـه الشَّـمائِلا [2]

5- وبهـوٌ تبـاهي الأرضُ منـه سماءهـا   بأوسَـعَ منهـا آخـراً وأوائـلا

6- وصحنٌ يسير الطَّـرفُ فيـه ولم يكـنْ   ليقطَعَـهُ بالسَّـيرِ إلاَّ مـراحلا [3]

7- تلـوحُ نُقـوشُ الجِـصِّ في جُدرانِـه   كمـا زيَّـن الوَشْـمُ الـدَّقيق الأنـاملا

---

(1) المصراع لزيد الخيل

(2) جاء ترتيبه في تحفة الناصرية بعد البيت الخامس.

(3) مراحل: تحفة الناصرية (مراجلا).

8- ومـــاءٌ إذا أبصـــرت منـــه صـــفاءَهُ حسبتَ نجومَ اللّيل ذابتْ سـوائِلا[1]

9- رأيتَ سُيوفاً قـد سُـلِلْنَ على الثّـرى وصارت لها أيدي الرِّيـاح صـياقلا[2]

10- وروضٌ كعـيشِ السَّـائليكَ نضـارةً ووجهُـك بِشـراً حـينَ تلحـظُ آمّـلا

11- أصـائِلُهُ للنُّـور أضـحت هـواجِرا هـواجِره للطِّيـب أضـحت فصـائِلا

12- هي الدّار أمستْ مطرَح العِلم فاغتدى لهـا ناهِـلُ الآمـال ريّـان نـاهِلا

13- إذا مـا انتحاهـا الرَّكْـبُ لم يتطلّبـوا إليهـا دلـيلاً غـيرَ مـا كـان قـافِلا

14- وأنـتَ أمـرؤ أعطيـتَ مـا لـوْ سـألتهُ إلهكَ قـالَ النـاسُ أسـرفْتَ سـائِلا[3]

15- وإنـــي وإلزاميـــكَ بالشّـــعر بعـــدما تعلّمتُـه منـكَ النّـدى والفواضِـلا[4]

16- كملـــزِمِ ربُّ الـــدّار أجـــرةَ دارِهِ ومثْلـك أعطَـى مـن طـريقين نـائلا

(1-16) اليتيمة 3/ 217-218، (14-16) اليتيمة 4/ 224، (1، 3-12) تحفة الناصرية ورقة 193.

(124)

ومن سقطاته المنكرة قوله للصاحب من قصيدة (من الخفيف)

1- ومهيـبٍ كأنّمـا أذنـبَ النـاسُ إليـه فهُـــــــم مغشّـــــــونَ ذُلا

2- وظريـــفٍ كـــأنَّ في كـــلِّ فِعْـــلٍ مـــن أفاعيلِـــهِ عـــرائِسُ تُجلـــى

اليتيمة 4/ 224

(1) ذابت: تحفة الناصرية (فيه).

(2) صياقلا: تحفة الناصرية (صواقلا).

(3) أعطيتَ: في ج 4 (أعطيْتَ).

(4) الندى اليتيمة ج4 (الذرى).

(125)

وله (من الكامل)

1- لا تُفـرطنْ في حـدَّة أعملتَهـا ... فيكـلُّ ذاكَ الحدُّ منـكَ وتفْشـلا

2- أوَ مـا تـرى الصَّمامَ والسِّكينَ إن ... زادا علـى حـدٌ الصَّـقال تفلَّـلا

اليتيمة 4/ 241

(126)

وله (من الطويل)

1- إذا أعـوزَ الفقَّـاعُ لمَّـا طلبتـهُ ... هجـوتُ عتيقـاً والـدُّلامَ ونعـثلا

تحفة الوزراء/ 107/ 108، عيون التواريخ 12/ 225 أ

(127)

ومن قصيدة في الهجاء (الكامل)

1- زَمَـنُ المُـروءة عَهْـدُهُ بفتـوَّةٍ ... عهـدي بـترك الشُّـربِ في شـوَّالِ

2- غضـبانُ يُنشِـدُ حـين يُبصِـرُ سـائلاً ... (كُفِّـي دُعـاءَك إنـني لـكِ قـال)

3- ولـه مواعـدُ قـد حكَـتْ في طُولهـا ... (آلـت أمـورُ الشِّـرك شـرَّ مـآل) [1]

اليتيمة 4/ 221

(128)

ومن أخرى (من الكامل)

1- بَسـمتْ فأبـدت جيـدها فتكشَّـفت ... عـن نَظْـمِ دُرٍّ تحـتَ نظـم لآلـي

---

(1) البيت ابتداء قصيدة لأبي تمام في المزنيين.

2- وأرتــك خــدّيها ولاحَ عليهمــا صــدغان ذو خـال وآخـرُ خـالي[1]

3- فكــأنّ ذا ذالٌ خلــتْ مــن نُقطــةٍ وكــــأنّ ذا دالٌ ونُقطــــة ذال

اليتيمة 4/ 210، (2، 3) أنوار الربيع 5/ 108-109.

(129)

ومن أخرى في أبي الحسين المزني (من الكامل)

1- كَلِــمٌ هــي الأمثــالُ إلاّ أنهــا في النّاس قـد أضحت بـلا أمثالِ

2- فــإذا لُقــينَ فــإنّهنَ عــوالي وإذا شُــممنَ فــإنّهنّ غَــوالي

(130)

ومن ميكالية (من الوافر)

1- فَـديتُ مـا بـدالي قصـدُ حـرٍّ ســواكَ مــن الــورى إلاّ بــدالي

2- وإنّــك مِــنهُم وكــذاكَ أيضــاً مــن المــاءِ الفرائِــدُ اللآلــي

3- وتسكنُ دارهـمُ، وكـذلك سُكْنى الزُّمــرُّدِ والحجــارة في الجبــالِ

اليتيمة 1/ 146، 4/ 225، الصبح المنبي/ 279.

(131)

وله في أبي سعيد رجاء، أبي القاسم العباس ابني الوليد (من الوافر)

1- ولمّــا أن رأيــتُ ابــنيْ وليــدٍ وبينهمــا اخــتلافٌ في الفِعــالِ

2- وهبــتُ قبــيحَ ذا لجميــلِ هــذا وأســلفتُ العواقــبَ واللّيــالي[2]

---

(1) وأرتك خديها: أنوار الربيع (وأراك خديه).

(2) والليالي شرح مقامات الحريري (للبالي).

3- إذا اليدُ أحسنتْ منها يمينٌ فسوَّغنا لها ذَنبَ الشِّمالِ

اليتيمة 4/ 233، نثر النظم/ 116، شرح مقامات الحريري/ 72.

(132)

وله في الاعتذار (من الوافر)

1- وما بي فيكَ من زُهدٍ ولكنْ أُخفِّفُ عنكَ أعباءَ الملالِ

محاضرات الأدباء 3/ 34

(133)

وله في هجاء أحدهم: (من الوافر)

1- أبا نصرٍ رُويدكَ من حجابٍ فلستَ بذلك الرَّجلِ الجليلِ(1)

2- ولا تبْخلْ بهذا الوجْهِ عنَّا فليسَ بذلكَ الوجْهِ الجميلِ(2)

3- وللأشعارِ قَومٌ لستَ منهم ولكنِّي هجوتُك في السَّبيلِ

(1-3) اليتيمة 4/ 236، (1، 2) نثر النظم / 122، (1-2) محاضرات الأدباء 1/ 207

(134)

وله (من الوافر)

1- خَبَتْ نارُ العُلى بعدَ اشتعالِ وصاحَ الخيرُ حيَّ على الزَّوالِ

2- عدمنَا الجُودَ إلاَّ في الأماني وإلاَّ في الصَّحائِفِ والأمالي

3- فياليتَ الدَّفاترَ كنَّ قوساً فأثرى القَوْمُ من كَرمِ الفِعالِ

---

(1) نصر: محاضرات الأدباء (عمرو).

(2) بهذا: نثر النظم (بذاك).

4- ولـو أنّـي جُعلـتُ أمـيرَ جـيْشٍ لمـا حاربـتُ إلا بالسُّـؤالِ
5- لأن النـاس ينهزمـون منـه وقـد ثبتـوا لأطـراف العـوالي

نثر النظم / 73

(135)

وقال في وصف قنفذ (من الكامل)

1- ومـدجَّجٍ وسـلاحِهُ مـن نفْسِـهِ شـاكي الـدَّوابِرِ أعـزلِ الإقبـالِ
2- يُمسـي ويُصـبحُ لم يُفـارق بيتَـهُ فتطـيشُ عنـه أسـهُم الأهـوالِ
3- عينـاهُ مثـل النُّقطـتين وخَطْمُـه يحكـي ثُـدَيَّ رضـاعة الأطفـالِ
4- وكـأنَّ أقلامـاً غُـرزنَ بظَهْـرِهِ مـسَّ المِـدادُ رؤوسـها بـبلالِ
5- تتهـاربُ الحيّـاتُ حـينَ يريْنَـهُ هربَ اللُّصـوص رأتْ سـوادَ الـوَالي
6- وكأنَّـهُ الخنزيـرُ إلا جلـدُه وصـياحُه، وتقـاربُ الأوصـالِ

نهاية الأرب 10/ 165-166

(136)

وله: (من الوافر)

1- وبعـضُ النَّـاس يعلُـو وهـوَ سُفْلٌ وبعـضُ النَّـاس يَسـفُل وهـو عـالي
2- وبعـضُ النَّـاسِ يَمْلـكُ وهـو عبـدٌ وبعـضُ النـاس يُعـزَل وهـو والـي

أعيان الشيعة 45/ 261

(137)

ومن قصيدة في الصاحب (من الطويل)

1- ومنْ نصـرَ التَّوحيـدَ والعـدلَ فِعْلُـه وأيقـظَ نُـوَّامِ المعـالي شمائلـه

2- ومـنْ تـركَ الأخيـار يُنشِـدُ أهلَـهُ (أجلْ أيها الرَّبع الذي خفَّ آهله) [1]

اليتيمة 4/ 214

(138)

ومن أخرى في مدح الصاحب (من الطويل)

1- كتبـتُ ابـنَ عبـادٍ إليـكَ وحـالتي كحـالِ صـدٍ طمَّـتْ عليـهِ مناهلُـه

2- ومـا تركـت كفَّـاك فيَّ خصاصـةً ولكنَّ شـوقاً قـد غلـتْ بـي مراجِلـهْ

3- أبيـتُ إذا أجريـتُ ذِكـركَ مُنْشِـداً (كأنَّـك تُعطيـه الَّـذي أنـت سـائِلُه)

اليتيمة 4/ 116

(139)

ومن أخرى في مدحه: (من الطويل)

1- وأبـيضَ وضَّـاحِ الجَـبينِ كأنّمـا مُحيَّـاه قـد درَّت عليـهِ شمائِلُـهْ [2]

2- يُقبِّـلُ رجليـه رجـالٌ أَقلُّهُـم تُقبِّـلُ في الدسـت الرفيـعِ أنامِلُـه [3]

ومنها

3- اقبّل أشعاري إذا اسمُـكَ حَشْـوهُا وأشـتمُ ملبُوسـي لأنَّـك باذِلُـه [4]

---

(1) المصراع لأبي تمام، وهو صدر بيت عجزه (لقد أدركت فيك النوى ما تحاوله).

(2) درت: تحفة النارية (ذرت).

(3) أقلهم، محاضرات الأدباء (أقلهّم) تقبل، يقبل.

(4) باذله (الإعجاز والإيجاز (بادله).

4- وأخطِـرُ في حافـاتِ دارٍ ملأتُهـا طرائفَ باقي العَيْشِ منها وحاصِلهْ[1]

(1-4) اليتيمة 4/ 224، (2، 3) خاص الخاص/ 191، الإعجاز والإيجاز / 200، (1) محاضرات الأدباء 1/ 302، (1، 2) تحفة الناصرية / 74

(140)

وله من قصيدة (من الطويل)

1- عـذيري مـن عـينِ الزَّمـان فإنَّهـا إذا استحْسَنَتْ مُستحْسِناً قلَّ طائِلُه

2- ومـا أنـتَ إلا البيـتُ غُـنْمٌ دخولُـه كـثيرٌ عواديـه، بعيـدٌ مراحِلـه

اليتيمة 4/ 239

(141)

ومن قصيدة يمدح فيها أبا نصر أحمد بن علي الميكالي (من الكامل)

1- زفَّ المنـامُ إلـيَّ طيـفَ خيالِـهِ لـو أنَّ طيفـاً كـانَ مـن إبدالِـه[2]

2- لـو أنَّ هـذا الـدهرَ يشـكُرُ لم يـدَعْ شُـكرَ الأمـيرِ وقـد غـدا مـن آلـهِ

3- لا ينـزفُ الإلحـاحُ نائِلَـه ولا سُـؤْلُ امـرئٍ ينْهـاه عـن أسْآله

4- والخُلْـقُ عنْـدَ سُـؤالِهِ والجُـودُ مـن عُذَّالِـه والمـوتُ مـنْ صِـيالِهِ

5- وفِعالُـهُ كمقالِـهِ، وشَـمالُهُ كيمينِـهِ، ويمينُـهُ كشِـمَالِه

6- تتجمَّـعُ الأمـوالُ في آمالـهِ فيُفـرِّقُ الأمـوالَ في أمَّالِـهِ

7- لا علـمَ إلا عـزُّه في عـزِّه لا حُـرَّ إلا حالُـهُ مـن حالِـهِ

---

(1) حاصله: الإعجاز والإيجاز (حامله).

(2) يذكر شارح العتبي أن الشاعر تخلص إلى البيت الذي يليه بعد خمسة عشر قافية.

8- ولهُ عُلومٌ لو قُسِمْنَ على الـوَرى ... مـا زادَ عاقِلُـهُ علـى جُهّالِـهِ

9- وخلائـقٌ لـو أنهـنَّ كواكـبٌ ... أضحى السُّها في الضَّوء مثلَ هلالِهِ

10- وفُصولُ قولٍ هنَّ أعـذَبُ مسـمَعاً ... مـن راحـةِ المشـغولِ مـن أشـغالِهِ

11- سمْحُ البديهة لـيسَ يُمسِـكُ لفظـه ... فكأنَّمـا ألفاظُـهُ مـن مالـه

12- وكأنمـا عزمائُـهُ وسُـيوفُه ... مـن حـدِّهنَّ خُلِقْـنَ مـن إقبالـه

13- متبسِّـمٌ في الخَطْـبِ تَحسـبُ أنـه ... مـن حُسـنِهِ متلـثِّمٌ بفعالـهِ

14- هـبْني وفيـتُ بحمـدِهِ عـن فضـلِه ... مـن ذا يفـي بالشُّـكرِ عـن أفضـالِهِ

تاريخ العتبي 2/ 27-39

(142)

وله: (من المجتث)

1- يـا شـادناً مِـتُ قبلـه ... قـد صـار في الحُسْـنِ قِبلـه

2- أمـنن علـيَّ بقبلـة.

أنوار الربيع 1: 189

(143)

وله (من الوافر)

1- بآمـل مولـدي وبنـو جريـر ... فـأخوالي ويحكـي المـرء خالـه

2- فهـا أنـا رافضـي عـن تـراث ... وغـيري رافضـيٌّ عـن كلالـة

معجم البلدان: 1/ 57 مادة (آمل) الكنى والألقاب 1/ 22

روضات الجنات 7/ 293، عيون التواريخ 12/ 225 أ

قافية الميم

(144)

وله من قصيدة (من مجزؤ الرمل)

1- قلــت لمــا رمــدت عينــاك　　والــــدمع سِــــجامُ

2- إنمــا عوقبــت عــن عــينيٌ　　فــــاعلم يــــا غــــلامُ

3- لا أصــيبت هــذه العــين　　بعــــيني والسَّــــلامُ

اليتيمة 4/ 212

(145)

وله من أخرى (من الكامل)

1- ومتى شتمت الدهر تشتم صابراً　　تبكي ويضحك ذلك المشتوم

اليتيمة 4/ 234

(146)

ومن أخرى (من المجتث)

1- ولــي قمــيص رقيــق　　تقــــدُّه الأوهــــامُ

2- وجُبَّــةٌ لا تســاوي　　تصــــحيفها والسَّــــلامُ

نثر النظم/ 69، الوافي بالوفيات / 3/ 194

(147)

ومن قصيدة كتب بها من أرجان إلى الصاحب، وصف فيها الحمى (من الوافر)

ولــو أبصــرتَ في أرجــان نفســي | عليهـــا مـــن أبـــي يحيـــى ذمـــامُ
ولـــي مـــن أم ملـــدَم كـــلَّ يـــوم | ضـــجيعٌ لا يلـــذُّ لـــه مَنـــام
مُقْبلـــة ولـــيس لهـــا ثنايـــاً | معانِقـــة ولـــيس لهـــا التـــزامُ
كـــأن لهـــا ضـــرائر مـــن غـــذائي | فيغضـــبها شـــرابي والطعـــامُ
إذا ما صافحت صفحات وجهي | غـــدا ألفـــا وأمســـى وهـــو لامُ
إذا لرأيـــتَ عبـــدك والمنايـــا | تصـــيح بـــه تنبّـــهْ كـــم تنـــامُ
ومـــا أســـتبكاك مـــن بعـــدي أســـيرٌ | يـــرض عظامـــه الحـــق العُظـــام[1]
ولا ترجيـــع ثكلـــى خلـــف نعـــش | (أمحمـــول علـــى الـــنّعش الهمـــام)؟[2]
ولا ترديـــد صـــبٍّ، وهـــو بـــاك | (ســـقيت الغيـــث أيتهـــا الخيـــام)
ولـــولا فقـــد وجهـــك لم أعـــبّس | علـــى ضـــيف يقـــال لـــه الحُمـــامُ
فمـــا في العـــيش، لـــولا أنـــت طيـــبٌ | ولا في المـــوت، لـــولا أنـــت، ذامُ
وكُنـــت ذخـــرتُ أفكـــاري لوقـــت | فكـــان الوقـــت وقتـــك والســـلام[3]
وكنـــتُ أطالـــب الـــدنيا بحـــرّ | فأنـــت الحـــر وانقطـــع الكـــلام[4]
ولمـــا ســـرت عنـــك رأيـــت نفســـي | وبـــين القلـــب والرّجْـــل اختصـــام

---

(1) الحق: الموت، العظام: الكبير.

(2) الشطر للنابغة الذبياني.

(3) أفكاري: شرح المضنون (آمالي).

(4) فأنت: شرح المضنون، فكنت.

فـذاك يقـول منـك السـير عنـه | وتلـك تقـول منـك الاغـترام[1]
وسـاءلني بعلمـك مـن أراه | وقـالوا (مـا وراءك يـا عصـام)
فقلـت: زكـاة مـا يحويـه علـمٌ | لمـن لغلامـه مثلـي غُـلام

(1-7) يتيمة الدهر 4/ 217 – 218 (2، 3، 4، 5) نهاية الأرب 2/ 262 (12، 13) شرح المضنون به على غير أهله/ 222 (6، 7) محاضرات الأدباء 3/ 68

(148)

وله (من الوافر)

1- تـولى العـيش، وانقطـع النظـام | وعـاش اللـؤم إذ عـاش اللئـامُ
2- وخلَّفـني الزمـانُ علـى أنـاسٍ | إذا حكُـوا الكـلابَ، فهـم كـرامُ
3- يكـاد الـدهر يشـتمني صـراحاً | لـو أن الـدهر كـان لـه كـلامُ
4- فلـولا أن أنـازع حُكـم ربّـي | لقلـت فَـديُت مـوتي والسـلامُ

نثر النظم/ 72 – 73

(149)

وله من قصيدة في مدح الصاحب بن عباد (من الطويل)

1- تُعاصـيهم أسـيافنا وفكأنمـا | يـرين بريئـاً مـن سـفكن لـه دمـا
2- كأنَّ ضُباها ساعة الروعُ عُلّمت | (ولـن تسـتطيع الحِلْـم حتـى تحلُّمـا)[2]

اليتيمة 4/ 219

---

(1) الاغترام: محاضرات (الاعتزام).

(2) المصراع: لحاتم الطائي.

(150)

ومن قصيدة في أبي نصر بن العميد (من الطويل)

1. لئن كنت أضحي من عطاياك شاعراً ... لقد صرت أمسي من جنابك مُفْحما

2. أبيت إذا أجريت ذكرك منشداً ... (وأن أعتبِ الأيام فيه فربّما)

3. وما لي من الأصوات مقترح سوى ... (أعالج وجداً في الضمير مكتّما)[1]

اليتيمة 4/ 220

(151)

ومن قصيدة في مؤيد الدولة، ذكر فيها افتتاحه قلعة من أبكار القلاع واستنزاله صاحبها المسمى (كوشيار) منها (من الطويل)

1- ويكسرِ تحامتها البعولُ مخافة ... فقد تُركتْ من كثرة المهر أيّما

2- ممنَّعة لم يغلطِ الدهرُ باسمها ... ولم يرها في النوم إلا توهما

3- تَزِلُّ عقاب الجو عن شُرفاتها ... وتبغي إليها الريح مرقى وسلما!

4- ويسمعُ في الأفلاك صيحةَ ديكها ... فتحسب ديكَ العرش صاح ترنُّما

5- عجوزٌ، تُرى في صحة الجسم كاعباً ... ولو أرخت، كانت من الدهر أقدما!

6- تواري أساسا بالتخوم مؤزرا ... وتبرز رأسا بالنجوم معمَّما

7- تنازعها الأرضُ السماءَ وتدعي ... لديها بها حقًّا لها متهضَّما

8- وتحسبها زهر الكواكب كوكبا ... هوى خلف شيطان رجيم، فخيما

ومنها:

9- وكنت سماءً والعجاجُ سحائباً ... وخيلُك أبراجاً وجيشك أنجماً

---

(1) المصراع للبحتري.

10- وأنزلــت منهــا كوشــيار وإنمــا   تقنَّصــت مــن فــوق المجــرة ضــيغما

11- عرفتـك صيَّاد الأسـودِ ولم أكـن   عرفتُـك صـياد الأسـود مـن السَّـما

12- خــدمتكم يــا آل بويــةَ مــدَّة   غــدا بينهــا فــرخ الوســائل قشــعما

(9- 12) اليتيمة 4/ 225، (1-8) نهاية الأرب 1/ 405

(152)

وله من أخرى (من الطويل)

1. هلّـم الخطـا بـدَر الدُّجنَّـة وارفقـا   بعينيكما، فالضوء قد يُورث العمـى

2. ولا تعجبـا أن يملـك العبـدُ ربَّـه   فإن الدُّمى استعبدن من نحت الدمى

(1-2) اليتيمة 4/ 211 (1) التمثيل والمحاضرة/ 124

(153)

وله في تلميذ عاق (من الكامل)

1- هـذا أبـو بكـرٍ صـقلتُ حسـامه   فغــدا بــه صــلتاً علــيَّ وأقــدما

2- أمســى يجهِّلُــني بمــا علَّمتُــه   ويريش من ريشي لرميي أسـهما

3- يا منبضاً قوساً بكفـي أُحكمـت   ومســدداً رمحــاً بكفِّــي قُوِّمــا

4- أرقيـتَ بـي في سـلَّم حتـى إذا   نلتَ الذي تهـوى كسـرتَ السـلَّما

اليتيمة 4/ 235 - 236

(154)

ومن أخرى في نكبة المزني (من الكامل)

1- ولقد بكيت عليـك حتـى قـد بـدا   دمعــي يحــاكي لفظـكَ المنظومــا

2- ولقد حزنتُ عليكَ حتى قد حَكى   قلبي فؤاد حسودك المحموما

اليتيمة 4/ 236

(155)

وله (من الطويل)

1- رأيتكُ إن أيسرتُ خيَّمتَ عندنا   مقيماً وإن أعسرتُ زرت لماما[1]

2- فما أنتَ إلا البدرُ إن قلَّ ضوءه   أغبُّ وإن زاد الضياء أقاما[2]

اليتيمة 4/ 239، التمثيل والمحاضرة/ 232، أسرار البلاغة/ 124 فصل المقال في شرح كتاب الأمثال/ 221، الوافي بالوفيات 3/ 193، عيون التواريخ 12/ 224 ب، روضات الجنات 7/ 298.

(156)

وله من قصيدة (من الطويل)

1- هو ابن الرئيس والعميد كليهما   وفوقهما قدراً وإن كان منهما

2- وقد يوقد الزندان ناراً لقابسٍ   فيضحي من الزندين أعلى وأعظما

محاضرات الأدباء 1/ 334

---

(1) إن أيسرت اليتيمة (أن الشرب). رأيتك: فصل المقال: (أراك).

(2) زاد (التمثيل والمحاضرة (دام).

(157)

وله في هجاء الصاحب بن عباد (من البسيط)

1- لا تمدحنَّ ابن عبادٍ، وإن هطلت كفّاه بالجود سحّاً يُخجِل الدِّيَما[1]

2- فإنهما خطراتٌ من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما

غرر الخصائص 1/ 36، نزهة الألباء (/ 239، الوافي بالوفيات 3/ 192 وفيات الأعيان 4/ 402، عيون التواريخ 12/ 224أ أنوار الربيع 2/ 160

(158)

وقال في وصف الزعفران (من البسيط)

1- أما ترى الزعفران الغض تحسبه جمراً بدا في رماد الفحم مُضطَرِما

2- كأنه بين أطرافٍ تحففُّ به طرائقُ الدَّم في خدين قد لُطِما

3- دم عياناً، ومسك نشر رائحةٍ في طيبه، وكذاك المِسكُ صار دما

نهاية الأرب 11/ 246، مباهج العبر: 501/أ

(159)

وله (من الكامل)

1- ومن عجبٍ تهديدهم بجموعهم وودَّ لو أزدادوا ليزداد مغنما

2- إذا حدّث الجاسوسُ عنهم بكثرةٍ تحكَّم في حق البشير فحكَّما

التذكرة السعدية / 245

---

(1) تمدحن: غرر الخصائص، الوافي بالوفيات، وفيات الأعيان، عيون التواريخ (تحمدن). وإن هطلت (غرر الخصائص: (ولو مطرت)

سحاً يخجل: غرر الخصائص، وعيون التواريخ (حتى أخجل).

(160)

ومن قصيدة كتب بها إلى الأمير أبي نصر الميكالي بعد أن طال سجنه، لدى الحسين بن طاهر (وهي من الطويل)

1- كتابي أبا نصر إليك وحالتي ... كحال فريس في مخالب ضَيْغمِ

2- أرقُّ من الشكوى وأدجى من النوى ... وأضعف من قلب المحبِّ المتيمِ

3- غدوت أخا جوعٍ ولست بصائمٍ ... ورحتُ أخا عُريٍ ولستُ بمحرمِ

4- وقعت بفخ الخوف في يد طاهرٍ ... وقوع سليك في حبائل خثعمِ[1]

5- وما كنت في تركيك إلا كتاركٍ ... يقيناً وراضٍ بعده بالتوهمِ[2]

6- وقاطن أرض الشرك يطلب توبةً ... ويخرج من أرض الحطيم وزمزم

7- وذي علّة يأتي عليلاً ليشتفي ... بها وهو جارٌ للمسيح ابن مريمِ[3]

8- وراوي كلام مقتفٍ إثر باقلٍ ... ويترك قساً خائباً وابن أهتمِ[4]

9- جنابٌ تجنبناه ليس بمجدبٍ ... وبحرٌ تخطيناه ليس بمرزمِ

10- وماءٍ زلالٍ قد تركنا وروده ... زلالاً ويعنناه بشربة علقمِ

11- لبستُ ثياب الصبر حتى تمزقت ... جوانبها بين الجوى والتندمِ

12- أظل إذا عاتبتُ نفسيَ مُنشدا ... (فهلا تلا حاميم قبل التقدم)

13- وأنشد في ذكري لدارك باكياً ... (ألا أنعم صباحاً أيها الربع وأسلمِ)

---

(1) يقصد سليك بن السلكة السعدي حين أسره أنس بن مالك الخثعمي.

(2) يقيناً: ثمار القلوب، وأحسن ما سمعت (طهورا).

(3) يأتي طبيباً ليشتفي به: اليتيمة (يأتي عليلاً ليشتفي بها) ولا يصح به المعنى.

(4) مقتف: ثمار القلوب (يقتفي)، قسا خائباً. قسا جانيا (ثمار القلوب).

14- ولم أر قبلـي مـن يحـارب بختـه ويشـكو إلى البؤسـى افتقـاد التـنعمِ

15- ولا أحـد يحـوي مفـاتيح جنّـة ويقـرع بالتطفيـل بـاب جهـنّمِ

16- وقـد كـان رأسـاً للتـدابير بلعـم وقـد صـرت في الـدنيا خليفـة بلعـم[1]

17- وقد عاش بعد الخلـد في الأرض آدم فـإن شـئت فأعـذرني فـإني ابـن آدمِ

18- فيـا ليـتني أمسـيت دهـري راقـداً فـإني متـى أرقـد بـذكرك أحلـمِ

19- مكانـك مـن قلـبي عليـك مـوفّرٌ متـى مـا يَرمْـهُ ذكـر غَيْـرِك يحتمـي

20- لغيرك درديّ الوصال وثيب المقـال وممـزوج المـودة فـاعلمِ

21- وأنت الذي صوّرت لي صورة المنى وأركبـتني ظهـر الزمـان المـذممِ

22- وصيّرت عندي أسْعد الـدهر أبؤسـاً وكـذّبت عنـدي قـول كـلّ مـنجّمِ

23- وصغّرت قدر النـاس عنـدي وطالما لحظـت صـغيراً عـن حمـاليق معظِـمِ

(1-23) يتيمة الدهر 4/ 205 (5، 7، 8) ثمار القلوب/ 60

(7) التمثيل والمحاضرة/ 21 (5، 7) أحسن ما سمعت/ 26

(161)

وله ومن (الكامل)

1- يقارب ما بين الجفـون كأنمـا يلاحـظُ مـن شـقٍّ علـى حـرفِ درهـم

محاضرات الأدباء 3/ 298

---

(1) يعني بلعم بن باعوراء الذي نزلت فيه الآية (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا، فانسلخ منها)، لأنه كفر بالله بعد تعليمه الاسم الأعظم، وجحد نعمة الله سبحانه وتعالى.

(162)

وله من قصيدة (من الطويل)

لعمـرك لـولا آل بويـةَ في الـورى ... لكـانَ نهـاري مثـل ليـل المتـيَّمِ

وصمت من الدنيا وأفطرتُ بـالمنى ... ولم يـكُ إلا بالحـديث تـأدمي

وأنشـدت في داري وفيمـا أرى بهـا ... (أمِـنْ أمٌّ في دمنـةٍ لم تكلَّـمِ)

اليتيمة / 4/ 214

(163)

وله من (الطويل)

1- إذا فاتـه تحصـيل ظـبيٍ مقنـعٍ ... فهمَّتـه تحصـيلُ ظـبي معمَّـمِ

2- يصيد كـلا الظبيين هـذا وهـذه ... حنيـف ولكـن فعلُـه فعـل مجـرم

محاضرات الأدباء 3/ 244

(164)

ومن أخرى في عضد الدولة (من البسيط)

1- أضـحت ثيـابٍ فناخسـرو مـزوَّرة ... علـى هزبـرٍ وإنسـانٍ وصمصـامِ

2- القائـلِ القـول عـيٌّ السـامعونَ بـه ... فميَّلـوا بـين أوهـام وأفهـام

3- والفاعـل الفعلـة الغـراء لامعـة ... أوضـاحُها بـين أقـلام وأعـلام

4- والتارك الترك والخذلانُ يُنشـدهم ... (يـا بـؤس للجهـل ضـراراً لأقـوام

ومنها:

5- أغنيـتني عـن أنـاسٍ كـان بُغضـهم ... عذري ومكثي فيـه بعـض إجرامـي

6- المبغضين ليوم الفطر جُهدَهُم لأنهم قطَعوه غير صُوَّام

7- قوم إذا مر ضيف دحرجوا حجراً وسمّوا اليوم يوم العيد أورام

8- قد قدموا نفراً قبلي فأنشدهم فضلي ونقصُ الألى لاقوا بإكرام

9- (قدّمت قبلي رجالاً لم يكن لهم في الحق أن يلجوا الأبواب قدّامي)

اليتيمة 4/ 216

(165)

وله من أخرى في هجاء قادة جيوش السامانيين (من الطويل)

1- لو أنك قد أبصرت تاشاً وفائقاً على ظهر بختٍ أدبرِ الظهر رازمِ

2- وقد كتب الإدبار في جبهتيهما بإنشاء مقمور وتحرير نادم

3- (فلا تأمننَّ الدهر حُراً ظلمتَهُ فإن نِمْتَ فاعلم أنه غيرُ نائم)

اليتيمة 4/ 216

(166)

ومن أخرى (من الطويل)

1- وقائع لو مرّت بسمع ابن غالب لما قال ما بين المصلّى وراقم[1]

2- أتتني ورحلي بالمدينةِ وقعة لآل تميم أقعدت كلَّ قائم

3- سل الله واسأل آل بوية إنّهم بحارالمعالي لا بحارُ الدراهم

---

(1) إبن غالب: هو الفرزدق. والبيت الثاني قاله حين سمع- وهو بالمدينة قتل وكيع بن أبي الأسود لقتيبة بن مسلم.

4- تحــبّهم البلــدان فهــي نواشــز   علــى كــلّ زوج بعــدهم أو محــارم

5- إذا رامهــا أعــداؤهم تــركتهم   فلــم يلقهــم إلا بــرمحٍ وصــارم

6- ممالِكُ قد نـادت عليهم حـروبهم   بطــول القنــا يُحفظْــنَ لا بالتمــائم

اليتيمة 4/ 217

(167)

ومن أخرى في مدح الصاحب بن عباد (من الكامل)

1- يـا مـن يـدرّسُ خاليـاً حُجابَـه   ســهل الحجــاب مــؤدّب الخــدامِ

2- كم تطرد الدنيا وترجع بعد مـا   قــد طلّقــت تطليقــة الإســلام[1]

3- فكأنّهــا شــيعيّة قميّــة   وكــأنّ ســيدنا الــوزير إمــامي

4- ويقول للخطّاب غيرك (ليس ذا   وقــتُ الزيــارة فــارجعي بســلام[2])

اليتيمة 4/ 219

(168)

ومن قصيدة في الأمير أبي نصر الميكالي (من الطويل)

1- نجــرُّ ذيــول الفخــر حتــى كأنّنــا   لعزتنــا في آل ميكــال نتنمــي

2- هــم شــحمة الــدنيا فـإن نتعــدّهم   إلى غيرهم نحصل على الفرث والدمِ

3- سقى الله ذاك الروض جوداً كجـودهم   وصــيّر آجــال العــداة إلــيهمِ

---

(1) المصراع لابن هرمة.

(2) من بيت جرير

(طرقتــك صــائدة القلــوب ولــيس ذا   وقــت الزيــارة فــارجعي بســلام).

4- وأبقـى أبـا نصـر ليربـي علـيهمُ   سـنين كمـا أربـى بـنين علـيهمِ
5- وعـاش إلى أن يـترك النـاس مَدحـه   ومـن ذا الـذي يرجـو إيـاب المثلّمِ
6- هـو الحـر لا يحبـو بثـوب مطّـرزٍ   غسـيل ولا يـدعو بكـيس مختّمِ
7- ولا يعـدم الـراؤون منـه ثلاثـةً   عطـاءً وعـذراً وانبسـاطاً لـديهمِ
8- ويعذب إن يُنصف كما عَذُبت نُعمْ   ويثقـل إن يَظْلـم كمـا ثقلـت لمِ
9- صـفوح عـن الجهـال ينشـد فعلـه   (ويشـتم بالأفعـال لا بـالتكلمِ)

اليتيمة 4/ 220

(169)

وله في أبي الطيب البيهقي: (من السريع)

1- يبكـي مـن المـوت أبـو طيـب   دمـع لعمـري غـير مرحـومِ[1]
2- ويشـتكي مـا يشـتهي غَيْـرهُ   شـكاية الخـير مـن الشـومِ
3- سـاكتنا الشـيخ أبـو طيـب   والصـمْت أحيانـاً مـن اللـومِ

(1-3) اليتيمة 4/ 231 (1، 2) خاص الخاص/ 192

(170)

وله في وصف الخمرة من قصيدة (من الطويل)

1- وصـفراء كالـدينار بنـتُ ثلاثـة   شمـالٍ وأنهـارٍ ودهـرٍ مجـرَّمِ[2]
2- مسّـرة محـزون وعـذر معربـد   وكـبر مجوسـي وفتنـة مسـلمِ[3]

---

(1) الموت: خاص الخاص: الملك
(2) مجرم: شرح مقامات الحريري (محرّم).
(3) كبر: شرح المقامات: (كنز).

3- ممــات لأحيــاء حيــاةٌ لميّـــتٍ وعُـــدْم لمـــن أثـــرى ثـــراءٌ لمعـــدمِ
4- يـــدور بهـــا ظـــبي تـــدور عيوننـــاً على عينه من شرط يحيى بـن أكـثم[1]
5- ينزّهنـــا مـــن ثغـــره ومُدامـــه وخدّيـــه في شمـــس وبـــدر وأنجـــم
6- نهضـــت إليهـــا والظـــلام كأنّـــه معـــاش فقـــير أو فـــؤاد معلـــم

(1-6) اليتيمة 4/ 238 (4) الكناية والتعريض / 19
(4، 5) محاضرات الأدباء 2/ 704 (1،2، 4، 5) شرح مقامات الحريري 2/ 29

(171)

ومن قصيدة عارض بها قصيدة لأبي الفرج الوأواء: (من مجزوّ الكامل)

قـــم يـــا غـــلام إلى المـــدام قـــم داونـــي منهـــا بجـــام

يقول:

1- لمـــا بـــدت روح الضـــياء تـــدب في جســـد الظـــلامِ
2- وغـــدت نجـــوم الليـــل وهْـــي تفـــرُّ مـــن حـــدق الأنـــامِ
3- والـــديكُ يتلـــو دائمـــاً هجْـــوَ النيّـــامِ علـــى القيـــامِ
4- ناقضـــت مـــا قـــال المـــؤذّ ن بالفعـــال وبـــالكلام
5- هـــو قـــال حـــيَّ علـــى الصـــلا ة وقلـــت حـــي علـــى المـــدام

ومنها:

6- لمـــا رأيـــت الهـــم يطـــرق مـــن أتـــاه بـــلا ســـلام
7- ضـــيف يـــزور فلـــيس يـــأ كـــل غـــير لحمـــي أو عظـــامي

---

(1) ظبي: الكناية والتعريض (ساق) تدور: شرح المقامات (يريد).

8- والـدهر قـد حمـل السـلا ح علـى الكـرام عـن اللئـام

9- داويتـه بـالراح إن الـرا ح تريـاق الكـرام

(1- 9) اليتيمة 1/ 296 - 297

(172)

وله في النيروز من (البسيط)

يـا أيهـا الملـك المـوفي بهمتـه على هُمـوم ملـوكِ الأرض والهمـمِ

إسعد بطلعـة ذا الـنيروز واحـظ بـه فلـن يقُـيم علـى خُلـق ولم يقـمِ

يـومٌ مـن الـدهر شـيخٌ في شـبيبته ومسـتجدٌ ومـا يـأتي مـن القـدمِ

قـد كـان كسـرى إذا وافـاه حكّمـه في عقلـه، وهـو فيـه شـرٌ مـا حكـمِ

شـيخ ألم بـه شـيخٌ فصـافحه بالكـاس والطـاس والأوتـار والـنغمِ

يـومٌ جديـدٌ ومُلْـكٌ بعـدُ مقتبـلٌ والصـحو بينهمـا ضَـربٌ مـن اللّمـمِ

نثر النظم/ 142

(173)

وله من قصيدة في مدح عضد الدولة (من البسيط)

1- متـى أشـقّ رواق الملـك تلحظـني عـين امـرئٍ بغيـوب المجـد عـلاّمِ

2- متـى أرى قمـر الـديوان مطّلعـاً في سـطو بهـرام، بـل في مُلـك بهـرامِ

3- متـى أقبـل فرشـاً لا يُقبلُـه عـافٍ فيفـرق بـين التُّـرب والسـام؟

4- مـالي أبيـت بشـيرازٍ وأصـبح في داري فـدت يقظـتي نـومي وأحلامـي

5- ما يطلـبُ الحلـم مـن قلـبي يقلّبـه عندي من السُّـقم مـا يكفيـه أسـقامي

6- أصبحت أشكر ليلاً أشـتكي غـده الله عـونيَ والأيـامُ غرّامـي

7- والأرضُ تعلم أني سوف أمسحها حتى أرى مـن يـرى بالليـل أوهـامي
اليتيمة 4/ 223

(174)

وله في مدح آل بويه (من الطويل)

1- ألا حركـا لـي أبرويـزَ بـن هرمـزٍ وقـولا لـه: قُـمْ، تلـق أعجوبـة قُـمِ
2- تطلَّـعْ إلى الـدنيا لـتعلم أن مـا ملكـتَ مـن الـدنيا بمقـدار درهـمِ
3- لعمـرُك لـولا آل بويـة لم يكـن نهـاريَ إلاَّ مثـل ليـل المتـيَّمِ[1]
4- وصُمت عن الدنيا وأفطرتُ بـالمنى ولم يـكُ إلا بالحـديث تـأدُّمي
5- وأنشدت في داري، وفيما أرى بها (أمـن أم أوفـى دمنـة لم تكلَّـم)
6- وهـم جعلـوني بـين عبـدٍ وقينـة ودار ودينـار وثـوبٍ ودرهـم[2]
7- وهم تركوا الأيام تعجـب أن رأت سـلوِّي ولا أرقـى السـماءَ بسُـلَّمٌ
8- وهم حالفوني أبطـأوا في صـلاتهم فصنت عن الإبطاء شـعري فـيهم[3]

(3، 4، 5) اليتيمة 4/ 214
(1 – 3)، (6– 8) اليتيمة 4/ 223 – 224، (3، 6، 8) خاص الخاص/ 191، الإيجار والإعجاز/ 199، (1، 2) محاضرات الأدباء 1/ 159

(1) في خاص الخاص (لكان نهاري مثل ليل العتيم) وكذلك في الإعجاز والإيجاز.
(2) في خاص الخاص (هم جعلوني رب عبد).
(3) في خـاص الخـاص (وهـم خـالفوني وأوطـأوا) وفي الإعجـاز والإيجـاز (وهـم غمرونـي دائمـاً بصلاتهم).

(175)

وله من قصيدة (من الوافر)

1- فإن أسكن ببلدة إبن شهرٍ فإن البدر ينزُل في الظَّلامِ

2- أصغَّرها وإنْ عظُمتْ ولكن لهـا أهلونَ ليسوا بالعظام

3- وفرسانٌ ولكن في الحشايا وأجواد ولكن بالكلامِ

4- صغارٌ بالمطالب والسجايا وإن كانوا كباراً بالعظامِ

اليتيمة 4/ 232 – 233

(176)

وله في الغزل والتشبيب (من الطويل)

1- أغركِ يومَ البَيْن مني تبسمي فشيعت سهماً من فؤادي بأسهمِ

2- رويدكِ عهدُ القلب بالصبر بعدكم وحقُّكِ عهدُ النار بالبرد فافهمي

3- عذيري من ضحكٍ غدا سبب البكا ومن جنَّة قد أوقعت في جهنمِ

4- زعمتِ بأني قد سلوتُ وهذه أراجيف من في عزمه قَتلُ مُسلمِ

5- على ذا فدومي أجرمي وتجرمي وبكّي وأبكي، واظلمي وتظلمي

6- كأنك لا تروين بيتاً لشاعر سوى بيت (من لا يظلم الناس يظلم)[1]

7- تعلمتِ فعل الدهر ثم سبقته فأنساني التلميذ فعل المعلّمِ

8- أديري لحاظ القلب فيَّ لتنظري إلى مُفلس من صبره عنك معدمِ

---

(1) كأنك: اليتيمة (لأنكَ)، ويشير في البيت إلى قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم، ومن لا يظلم الناس يُظلَمِ

ولا ترسلي هـذي اللـواحظ كلـها فواحـدة تكفيـك قتـل المتـيَّم

(1-9) شرح المضنون به على غير أهله / 265 – 269

(3، 6) اليتيمة 4/ 210 (3) شرح الواحدي 2/ 760

(177)

ومن قصيدة يمدح بها شمس المعالي قابوس بن وشمكير أمير طبرستان فجرجان (من البسيط)

1- قامـت تُـودعني بـالأدمع السـجم والصـمتُ بـين يـدٍ منهـا وبـين فـمِ

2- ألبَـيْن أخرسـها، والـبَيْنُ أنطقهـا وهـذه حالـة في النـاس كُلّـهمِ

3- قـد طالمـا انهزمـت عنـا الجيـوش فـلا تحاربينـا بجـيش الـورد والعـنمِ

4- وقـد خلعـت لجـام الاتبـاع فـلا تُلقـى سـوالفنا في ذمـة اللجـمِ

5- لم يبق في الأرض لي شيء أهاب له فهل أهابُ انكسار الجفن ذي السَّقمِ

6- أستغفر الله من قولي: غلطتُ بلى أهـاب شمـس المعـالي أمـة الأُمـم

7- كأن لحظكِ من سيف الأمير ومن حكم القضاء ومن عزمي ومن كلمي

8- غضـي جفونـك رحمـة لـدمي فإن سفرت، فقد حاولتِ سفك دمي

9- وإن دعـاك أبـو يحيـى لنصـرته علـيٌّ يومـاً فأبـدي الثغـر وابتسـمي

10- قال الأمير لأخلاق الكرام قفي بحيـث أنـت فمـا زادت علـى نُعـمْ

11- وقـال للعلـم والآداب لا تـردا إلا علـيٌّ فمـا فاهـا بـلا ولَـمِ[1]

12- القائـل القـول لوفَـاهُ الزمـان بـه صـارت لياليـه أيامـاً علـىُ ظلَـم

---

(1) لا تردا: نسمة السحر (لا تردي)، بلا ولم، نسمة السحر (بلم ولم).

13- والفاعل الفعلة الغرّاء لو مزجت		بالنار لم تكن النيران من فَحم[1]

14- لا تحَفلنْ بنضوب المال في يده		فقد تجفُّ ضروع الوابل السجمِ

15- قد يجزر البحر بعد المدِّ نعرفه		وينزلُ الجدب وكرَ الأجدل القَطمِ

16- ولا يغرنْكَ أن الدَّهر حاربه		قد يولع السيف يوم الروع بالبُهمِ

17- الآن إذ غدت الدنيا تجُشّمه		وقابلته صباحاً أوجه النعمِ

18- ترنو إليه فتخفي شخص منقبض		لراحتيه وتغضي طرف محتشمِ

19- إذا دعت نحوه ساقاً نهت قدماً		والعمر يذهب بين الساق والقدمِ

20- حيرى تقربها حالٌ وتبعدها		كذا يكون رجوع الآبق السَّدمِ

(1 – 20) تاريخ العتبي 1/ 404 – 407

(1 –8، 11– 17) نسمة السحر 2/ 320

(178)

وله من قصيدة في مدح عضد الدولة (من البسيط):

1- وغاظ مدحك أقواماً وفي يدهم		لو طاوعوا الجود تقديمي وإحجامي

2- وما ضعنتُ على نهرٍ فأغضبه		لكن ذكرتُ عُبابَ الزاخر الطّامي

3- أكلُّ فاضِل أقوام شهدتَ له		يغتاظ من ذكره مفضوَلُ أقوامِ

اليتيمة 4/ 224

(179)

وقال من قصيدة رثى بها ركن الدولة أبا علي (من المتقارب)

1- ألست ترى السيف كيف انثلم		وركن الخلافة كيف انهدمْ

---

(1) فحم: تاريخ العتبي (حمم).

2- طوى الحسن بن بويه الرّدى | أيدري الرّدى أيّ جيش هزمْ
3- طويل القناة، قصير العدات | ذميم العُداةِ، حميد الشيم
4- فصيحُ اللسان بديع البنان | رفيع السِّنان سريع القلم[1]
5- يكيل الرجال بأقدارها | ويرعى البيوتات رعي الحَرمْ
6- جوادٌ عليهم بخيلٌ بهم | إذا ساءَ خصّ وإن سرّ عمْ
7- فيا دهر سحقاً ولا تحتشم | فقد ذهب الرَّجل المحتشمْ
8- وخطّ الفناء على قبره | بخطّ السبلا وبنان السقمْ
9- إذا تمّ أمر دنا نقصه | توقع زوالاً إذا قيل تمّ
10- إذا كانَ يبكي الورى بالدموع | وتبكي بهنّ فأين القيمْ
11- وقد ساءني عطلُ الدهر منك | وقد كنت حلياً عليه انتظمْ
12- فما يستحق الزمان اللئيم | مقامك فيه وأنت الكرم

(1 – 12) اليتيمة 4: 226 (4) محاضرات الأدباء 1/ 305

(180)

وله (ولعله من القصيدة السابقة) (من المتقارب له)

1- أعزيكم أم أعزي الندى | فما هو دونكم في الألم

محاضرات الأدباء 4: 526

---

(1) في محاضرات الأدباء (سريع اللسان سريع البنان سريع البنان، سريع القلم).

(181)

وله في أبي سعيد بن ملّه (من السريع)

1- أبـو سـعيد زُحـلٌ للكـرام ومنسـفٌ ينسـف عمـر الأنـام[1]

2- لم أره إلاّ خشـيت الـرّدى وقلـت يـا روح عليـك السـلام[2]

3- يبقى ويفنى النـاس في شؤمه قوموا انظروا كيف بخوت اللئام[3]

4- ثـم تـراه سـالماً آمنـاً يـا ملـك المـوت إلى كـم تنـام

(1-4) اليتيمة 4/ 231

(1 -4) شرح مقامات الحريري 4/ 223

(2 - 4) طراز المجالس/ 134 *

(182)

وله في النيروز أيضاً (من الرجز)

1- قد جاءك النيروز ضيفاً فهجم يـوم فـتيٌّ وهـو شـيخٌ في القـدم

2- هرّمـه الـدهر ولم يقبـل هـرم إذا رآه عسـكر الـبرد انهـزمْ

3- هزيمـة البخـل إذا فـوك إبتسـم مقلتـه الكـأس وأذنـاه الـنغمْ

4- فهـوَ لا هـذين أعمـى أو أصـم فـأنزل علـى أحكامـه فقـد حكـمْ

5- أن يأتي الليـل وفي العقـل ثلـم واعلـم بـأن الـرّاح يومـاً لم يُسـمْ

---

(1) زحل: شرح مقامات الحريري (راحل).

(2) روحي: اليتيمة (روح)

(3) بخوت: شرح مقامات الحريري (نجاة) وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت مع الشطر الأول من البيت الرابع بيتاً واحداً في التمثيل والمحاضرة/ 124 هكذا

(ثـم تـراه آمنـاً سـالماً قومـوا انظـروا كيـف بخـوت اللئـام)

* منسوبة فيه (للخارزمي) وأظنه تصحيفاً

6- ترياقــه إلا وهــذا العقــل ســم

نثر النظم/ 143- 144

(183)

وقال من قصيدة يمدح بها الصاحب بن عباد (ويقال أنه خلع عليه كل ملابسه وكذلك فعل الحاضرون من (مجزؤ الرجز)

يـــدٌ تراهـــا أبـــداً فـــوقَ يـــدٍ وتحـــت فَـــمْ

مـــا خُلقـــت بنانهـــا إلا لســـيفٍ أو قلـــمْ

غرر الخصائص 1/ 36

(184)

وله في مدح أحمد بن شبيب (أبو سعيد) قائد جيش السامانيين (من مجزوء الرمل)

1- مرحبـاً بـالقمر الطـا لــع في جــنح الظــلام

2- مرحبـاً بالأســد الــور د وبـــالجيش اللُّهـــام

3- مرحبـاً بــابن شــبيب وأياديـــه الجســـام

4- مرحبـاً بالرجــل الأو حــد مــن بــين الأنــام

5- مرحبـاً بالكاتــب الجــز ل وبـــالحبر الهمـــام

6- قـــد نجونـــا منـــك يـــا بـــينُ فـــودِّع بســـلام

الرسائل/ 187

قافية النون

(185)

وورد بخارى. وصحب أبا علي البلعمي. فلم يحمد صحبته. وفارقه وهجاه بقوله: (من الخفيف)

1- إن ذا البلعميُّ والعينُ غينٌ ... وهو عارٌ على الزمان وشَيْنُ

2- إن يكن جاهلاً يخفِّي حُنينٍ ... فهو الخُفُّ والزمانُ حنينُ

اليتيمة 4/ 204

(186)

ومن شعره في النسيب والغزل (من الكامل)

1- مضت الشبيبةُ والحبيبةُ فالتقى ... دمعان في الأجفان يزدحمانِ

2- ما أنصفتني الحادثات رمينني ... بمودِّعين وليس لي قلبانِ

اليتيمة 4/ 210، خاص الخاص/ 191، الإعجاز والإيجاز/ 198

(187)

وقال في مدح الصاحب بن عباد (من الطويل)

1- وما خلقت كفاك إلا لأربعٍ ... عوائد لم يخْلَقْ لهنَّ يدانِ

2- لتقبيل أفواهٍ وتنويل نائلٍ ... وتقليبِ هنديٍ، وأخذِ عِنانِ[1]

غرز الخصائص 1/ 36، عيون التواريخ 12/ 225!

---

(1) البيت في عيون التواريخ (لتقبيل أفواه، وتبذير نائل، وتغليب هندي وجر عنان) لتقبيل: في غرر الخصائص (لشكرك).

(188)

وقال في غلام (من البسيط)

1- مؤنث الـدّل إلا أنـه ذكـرٌ   لمسـلم وابـن هـاني فيـه شـرطان

محاضرات الأدباء 3/ 244

(189)

وقال (من الوافر)

1- له ثـوبٌ، ومـا في الثوب شـيءٌ   وجسـم لا يسـاعده لِسـان

2- أقـول لـه إذا مـا جـاء أهـلاً   تقـدّم أيهـا الطيلسـان

طراز المجالس/ 113

(190)

وله من قصيدة يرثي فيها أبا الحسن المحتسبي (من البسيط)

1- وصـاحبٍ لـي لـو حلّـت رزيتـه   بـالطير مـا هتفـت يومـاً علـى فنن

2- عاشـرته عشـرةً لـو أنّهـا وقعـت   بين الضّحى والدّجى سارا على سنن

3- حتـى إذا نلـتُ سؤلي مـن مواهبـه   وصـادني بشـباك الوصـل والمـنن

4- ثكِلتـه بعـد مـا سـارت محاسـنهُ   في العظم واللّحم سيْر الماء في الغُصُن

5- يـا دهـر أثكلـتني حتـى أبـا الحسـن   لقـد أمنـتَ عليـه غـير مـؤتمن

6- وصـنت سـهمكَ منّـي يـوم قَتلِكـه   في مقتـل القلـب لا في مقتـل البـدن

7- جمعت ضدّين من خـرقٍ ومـن أدبٍ   بطشَ الجهـول ومكـر العاقـل الفطـن

8- قد كنت أعجب لم أخرت من أجلي فـالآن أدري لمـاذا كنـت تـذخرني

9- ولم يكن في الـورى ذا منظرٍ حسـنٍ في مخـبرٍ حسـنٍ إلاّ أبـو حسـنِ

اليتيمة 4/ 229 – 230

(191)

ومن أخرى في أبي الحسين المزني حين نكب (من الكامل)

1- قتـلَ المـواجرَ والعجائـبَ جمّـة شـيخُ المشـايخ بـل فتـى الفتيـان

2- لا تعجبوا من صيد صَعْو بازياً إن الأسـودَ تصـاد بالخرفـان

3- قـد غرّقـت أمـلاكَ حمـير فـأرةٌ وبعوضـةٌ قتلـت بـني كنعـان

3) اليتيمة 4/ 236 (1، 2) ثمار القلوب / 412 (1، 2) نسمة السحر 2/ 319

(192)

وله (من الخفيف)

1- عُزِلَ الورْدُ عن أنوف النُّدامى وأتتنـا ولايـة الرَّيحـان

2- فـاقض حـق الريحـان بـالراح فالريحـان والـراح في الـورى أخـوان

3- وأندب الـورد وابكـه بـدموعٍ مـن دمـوع الأقـداح لا الأجفـان

اليتيمة 4/ 239

(193)

وله (من البسيط)

1- لِمْ لا أجانس دهري في تقلبه ... لِمْ لا أبادل إنساناً بإنسان

2- لِمْ لا أحاكي حبيباً في مقالته ... ما اليوم أول توديعي ولا الثاني

3- لِمْ لا أقارض ما قد قاله حَسَنٌ ... وصلاً بوصلٍ، وهجراناً بهجران

تمام المتون/ 311

(194)

وله: (من الكامل)

1- صومان صوم نوى وصوم عبادةٍ ... فمتى يعيش فتىً له صومان

الرسائل/ 70

(195)

وله (من الكامل)

1- وعلى الخيول فوارس إحجامهم ... إقْدامُ غيرهم من الفُرسانِ

2- قومٌ إذا خرج المبارزُ نحوهم ... من أهلهِ تبعوه بالأكفان

التذكرة السعدية/ 224

(196)

وله: (مجارياً بيتاً لعبد الله بن المعتز) (من البسيط)

1- قولا لمولاي في الدنيا وفي الدين ... الحمد لله حتى أنت تجفوني

الرسائل/ 56

(197)

ومن قصيدة له (من البسيط)

1- مقابــلٌ بـــين أقـــوامٍ والويــــةٍ ... مـــردّد بـــين إيـــوان وديــــوان

2- إذا أتـــى داره الأضـــياف أنشـــدهم ... (وأخـــوتي أســـوة عنـــدي وإخـــواني)

3- يـــا ترجمـــان الليـــالي عـــن معاذرهـــا ... وحجـــة الـــزمن البـــاقي علـــى الفـــاني

4- يا أبحث الناس عن شعرٍ وعن كرمٍ ... يـــا مُـــورثَ الطبـــع إحســـاناً بإحســـان

5- يـــا تـــاركي منشـــداً مـــن ظـــلّ يحسُـــدني ... (ليس الوقوف على الأطلال من شاني)[1]

6- طلقـــت بعـــدك مـــدح النـــاس كلّهـــم ... فـــإن أراجـــع فـــإنّي محصـــن زانـــي

7- وكيـــف أمـــدحهم والمـــدح يفضـــحهم ... إن المســـبِّبَ للجـــاني هـــو الجـــاني

8- قـــوم تـــراهم غضـــاباً حـــين تنشـــدهم ... لكنـــه يشـــتهي مـــدحاً بمجّـــان[2]

9- ورابـــني غـــيظهم في هجـــو غيرهـــم ... وإنّمـــا الشـــعر معصـــوب بعثمـــان

10- مـــا كـــلّ غانيـــة هنـــدٌ كمـــا زعمـــوا ... وربّمـــا سُـــبّ كشـــحانٌ بكشـــحان

11- فســـوف يأتيـــك منّـــي كـــلُّ شـــاردةٍ ... لهـــا مـــن الحســـن والإحســـان نســـجان

12- يقـــول مـــن قرعـــت يومـــاً مســـامعه ... قـــد عـــنّ حســـان في تقـــريظ غســـان

13- الوشـــي مـــن أصـــبهانٍ كـــان مجتلبـــاً ... فـــاليوم يُهـــدى إليهـــا مـــن خراســـان

14- قـــد قلـــت إذ قيـــل إسماعيـــل ممتـــدح ... لـــه مـــن النـــاس بخـــت غـــير وســـنان

15- النـــاس أكـــيسُ مـــن أن يمـــدحوا رجـــلاً ... حتـــى يـــروا عنـــده آثـــار إحســـان

اليتيمة 4/ 215

---

(1) المصراع لعبد الله بن عمار الرقي.

(2) أوله: عثمان يعلم أن المدح ذو ثمن.

(198)

وله (من مجزوّ الرجز)

1- ســقاني الوجــه الحسَــنْ كأســـاً فخلّيـــت الرَّســـن

2- وصـــار عنـــدي حســناً قَتـــلُ الحســـين والحســـن

اليتيمة 4/ 239

(199)

وله (من مجزوّ الكامل)

1- علـــقٌ غـــدا بياعُـــه مبتاعـــــه لهوانِـــــه

2- كـــالفرخ لم يخطـــب فصـــار أبـــوه مـــن أختانـــه

التمثيل والمحاضرة/ 264

(200)

وله (من الوافر)

1- أبــو زيــد فتــىً حــرٌّ ولكــن لنــا في أمــر ذاك الحــر ظِنَّــه

2- أراه يشتري الغلمــانَ ســوداً عفاريتـــاً فيـــوهمني بأنـــه

اليتيمة 4/ 233

(201)

وله في هجاء رجل زعم أن أباه نصر بن أحمد الخبز أرزي. ولم يكن كذلك (من المنسرح)

1- يقول نصّـر أبـي، فقلـت لهـم عنـــدي بهـــذا شـــهادةٌ حســـنه

2- نعــم ولكــن أمــه حملــت مــن بعــد مــا مــات شــيخه بســنة

اليتيمة 2/ 367

قافية الهاء

(202)

وله من أرجوزة (من الرجز)

1- وقينـــةٍ أحســـن مـــن لقياهـــا   تُملـــي كتـــاب الحُســـن مُقلتاهـــا

2- ونقطـــةٍ وشـــكلةٍ خـــدّاها   إذا اجتلاهـــا اللحـــظ أنشـــدناها

(واهـــاً لريـــا ثـــم واهـــاً واهـــاً)[1]

3- ومنهـــا في وصـــف الناقـــة

4- بجســـرة قائـــدها براهـــا   في الســـير بـــل ســـائقها رجلاهـــا

5- قـــد كتـــب العتـــق علـــى ذفراهـــا   أيّ قلـــوص راكـــب تراهـــا

اليتيمة 4/ 213

(203)

وله من أخرى في مدح عضدالدولة (من الرجز)

1- يـــا عضـــد الدولـــة مـــن يمناهـــا   يـــا مهجـــة قالـــت لهـــا أعلاهـــا

2- من أسخط الدرهمَ أرضـى الله   ومـــن أذلَّ المـــال صـــان الجاهـــا[2]

1-2 اليتيمة 4/ 233

(2) التمثيل والمحاضرة/ 124، (2) أعيان الشيعة 45/ 216

---

(1) المصراع لأبي النجم العجلي.

(2) أذل: اليتيمة، التمثيل والمحاضرة/ أزال.

(204)

وله (من البسيط)

1- والشأنُ في ظنك الجميل بها   وطالما أوجعت كتفيَّ رجلاها

2- وانظر إلى كعبها تبصر به ندباً   من طول ما خدش الكعبين قرطاها

الكناية والتعريض/ 11

(205)

وله في أبي علي بن سيمجور، وقد استعمل بهراة (من الوافر)

1- تهنأ بالأمير هراة أن قد   علا عن أن يهنأ عن هراها

2- وكيف تهنأ الدنيا جميعاً   بناحيةٍ من الدنيا احتواها

تاريخ العتبي 1/ 127

قافية الياء

(206)

وله (من الهزج)

1- فـإن سـرك حرمـان بـه تصـبح مقليـاً[1]

2- فكـن ذا أدب جـزلٍ وكـن مـع ذاك نحويـا

غرر الخصائص 1/ 98

(207)

وله في فائق (أحد قادة جيوش السامانيين) وقد قصد الأمير أبا علي بن سيمجور لمحاربته (من الرجز)

1- قد خطبَ الصَّفعُ قفا الخصيِّ فمرحباً بالخاطب الكفيِّ

2- ورحل البازُ إلى الكُركيِّ فأبشروا بلحمِه الطَّريِّ

اليتيمة 4/ 233

(208)

وله: (من الخفيف):

1- ربَّ ليلٍ كطلعةِ الناصبي ذي نجومٍ كحُجةِ الشّيعي

ثمار القلوب/ 174

---

(1) في الأصل (إن سرك).

(209)

وله:

1- قد يبصر الخفيُّ في الجلي   كالغيث يلقى وهو في الحي

التمثيل والمحاضرة/ 273

(210)

وله في أبي سعد دوست بن ملة الهروي (من الوافر)

1- أبو سعد له ثوب مليح   ولكن حشو ذات الثوب خرية[1]

2- فإن جاوزت كسوته إليه   فليس وراء عبادان قريه

الكناية والتعريض/ 41 محاضرات الأدباء 4/ 369

(211)

وله في هجاء الصاحب بن عباد (من السريع)

1- صاحبنا أحواله عالية   لكنما غُرفته خالية

2- وإن عرفت السر من دائه   لم تسأل الله سوى العافية

اليتيمة 3/ 282

(212)

وله في أبي طاهر الكرماني الكاتب (من البسيط)

والله ما فارقتْ كفّي قفاه   ولم ينسج أبو قلمون في نواحيه

ثمار القلوب/ 247

---

(1) مليح: محاضرات الأدباء: نفيس، والشطر الثاني فيه (ولكن تحت ذاك الثوب عُريه).

(213)

ما نسب له ولغيره

ومما نسب إليه (من البسيط)[1]

وليس حيٌّ من الأحياء يعرفُه ... من ذي يمانٍ ولا بكرٍ ولا مُضرِ

الا وهم شركاءٌ في دمَائهمُ ... كما شارك أسارٌ على جُزرِ

(214)

ومما نسب إليه قوله[2] (من الوافر)

1- كتبتُ على وجوههم سطوراً ... غرائب حُبرهّن دّم هتولُ[3]

2- يترجمها الأعادي للأعادي ... ويقرؤها على الحي القتيل[4]

3- فمالك غير جمجمة رسولٌ ... ومالك غير صاحبها رسيل[5]

4- فصادرهم على الأرواح خَرقُ ... إذا ابتاعوا الحياة فلا يقيلوا

(1- 4) محاضرات الأدباء 3/ 159- 161 (1- 3) غرر الخصائص/ 216 وانظر أعلام النساء 3/ 199.

---

(1)

(2) استشهد الخوارزمي بهذين البيتين في رسالته إلى شيعة نيسابور/ 131 ولم ينسبها لنفسه أو لغيره.

(3) كتبت على: غرر الخصائص (كتبنا في وجوههم)، هتول، المغرر (همول).

(4) يترجمها: الغرر فترجمها.

(5) رسول: الغرر (كتاب) وهو تصحيف (كتاب)، رسيل: الغرر (رسول).

(215)

ومما نسب إليه[1] (من الكامل)

وإذا طلبت إلى كريم حاجةً ... فلقاؤه يكفيك والتسليمُ

وإذا رآك مسلماً عرف الذي ... حملته، فكأنه ملزومُ

شرح الواحدي 2/ 689، الوساطة بين المتنبي وخصومه/ 376

شرح البرقوقي 1/ 325

---

(1) استشهد الخوارزمي بهذين البيتين في شرح قول أبي الطيب:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتي بيان عندها وخطابُ

ونسبهما إلى أبي تمام. انظر شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للخوارزمي 110- أ ويبدو أن المتأخرين قد وهموا في نسبتها إلى الخوارزمي. ولم أجدهما في ديوان ابي تمام.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أ- المطبوعات:

* القرآن الكريم.

* أبو الطيب المتني- دراسة في التاريخ الأدبي- لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني- الطبعة الأولى مطبعة وزارة الثقافة دمشق 1975.

* أحسن ما سمعت: لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابورى (ت429). شرح وتصحيح محمد صادق عنبر، الطبعة الثانية، المطبعة المحمودية التجارية، القاهرة.

* أحكام صنعة الكلام: لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الأشبيلي الأندلسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة بيروت 1966م.

* أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين للصاحب بن عباد، وابن العميد) لأبي حيان علي بن محمد التوحيدي (400 هـ)، تحقيق محمد تاويت الطبخي. مطبوعات المجمع العلمي بدمشق المطبعة الهاشمية/ 1965.

* الأدب في ظل بني بويه الدكتور محمود غناوي الزهيري، مطبعة الأمانة/ القاهرة 1949.

* إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء وطبقات الأدباء لياقوت الحموي (626هـ). اعتنى بنسخة وتحقيقه د. س مرجليوث. الطبعة الثانية، مطبعة هندية بالموسكي بمصر 1923.

* أسرار البلاغة: لعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ)، تحقيق هـ. ريتر- استانبول- مطبعة وزارة المعارف 1954.

* الإصابة في تمييز الصحابة لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 252 هـ)، اوفسيت مكتبة المثنى ببغداد (عن الطبعة الأولى مطبعة السعادة، القاهرة 1328هـ).

* الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي شرحه وطبعه اسكندر آصاف، الطبعة الأولى، المطبعة العمومية 1897.

* الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (ت684)هـ، نشر وتحقيق سامي الدهان دمشق 1375هـ- 1956م.

* أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحاله، دمشق المطبعة الهاشمية 1379هـ- 1959م.

* أعيان الشيعة: محسن الأمين، الطبعة الرابعة، مطبعة الانصاف بيروت 1960.

* الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني (ت 356هـ)، الطبعة الثانية، بيروت، دار الثقافة 1957

* اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، من أجل التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية أدور فنديك، تصحيح محمد علي الببلاوى القاهرة 1897م.

* الأمثال العربية القديمة (مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد)، تأليف المستشرق الألماني رودلف زلهايم، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة 1391هـ- 1971م.

* إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (646)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى- مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1369هـ- 1950م.

* الانساب: لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني

(ت 562هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف الإسلامية 1385هـ- 1966م.

* الانساب المتفقة لأبي الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني (ت507هـ)، طبعة بريل 1865.

* أنوار الربيع في أنواع البديع لعلي صدر الدين بن معصوم المدني (ت 1120هـ)، تحقيق شاكر هادي شكر مطبعة النعمان- النجف- 1388هـ- 1968.

* البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255 هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام هارون- القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1367هـ- 1948.

* بديع الزمان، رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، الدكتور مصطفى الشكعة، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1959

* بديعيات الزمان بحث تاريخي تحليلي في مقامات الهمذاني- فكتور إلك. المطبعة الكاثولوكية، بيروت/ 1960

* برد الأكباد في الأعداد لأبي منصور الثعالبي ضمن مجموعة كتاب (خمس رسائل)، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، النجف.

* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي (ت 911هـ) الطبعة الأولى مطبعة دار السعادة بجوار مصر، 1326.

* بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: لمحمود شكري الألوسي البغدادي عني بشرحه وتصحيحه محمد بهجة الأثري، الطبعة الثالثة مطابع دار الكتاب العربي بمصر 1342هـ.

* بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي (ت 463هـ)، تحقيق محمد مرسي الخولي ومراجعة الدكتور عبد القادر القط الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار الجيل للطباعة- مصر.

* تاج التراجم في طبقات الحنفية للشيخ أبي العدل زين الدين قاسم ابن قاطلوبغا (ت 879هـ)، مطبعة العاني بغداد 1962م.

* تاج العروس من جواهر القاموس (شرح القاموس) لمحب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضي الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، (ت 1205هـ)، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، مصر 1306 منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.

* تاريخ الأدب العربي: لكارل بروكلمان نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر 1968.

* تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي لحسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة الاعتماد، مصر.

* تاريخ بغداد أو مدينة السلام لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463) مكتبة الخانجي- القاهرة- 1931.

* تاريخ العتبي لأبي نصر محمد بن عبد الجبار العتبي (ت 433هـ)، طبع على هامش شرح المنيني المسمى (الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي للشيخ المنيني)، مطبعة جمعية المعارف- مصر.

* تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: لحسن الصدر (ت 1312)، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة.

* تتمة اليتيمة لأبي منصور الثعالبي عني بنشره عباس إقبال طهران مطبعة فردين 1353هـ.

* تحفة الناصرية في الفنون الأدبية، أبو القاسم الرشتي الأصفهاني، طهران 1278.

* التذكرة السعدية في الأشعار العربية لمحمد عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي (من رجال القرن الثامن الهجري) تحقيق عبد الله الجبوري، مطابع النعمان- النجف 1972م- 1391هـ.

* تراجم الأعيان من أبناء الزمان لأبي الضياء حسن بن محمد البوريني (ت1024هـ) تحقيق صلاح الدين المنجد- المجمع العلمي- دمشق 1959.

* التفسير الكبير للإمام فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت606هـ) الطبعة الأولى- المطبعة البهية المصرية 1357هـ 1938م.

* تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب لكمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد المعروف بأبن الفوطي الشيباني (ت 723هـ)، تحقيق مصطفى جواد المطبعة الهاشمية، دمشق 1962.

* تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون لخليل بن أيبك الصفدي (797- ؟) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي مطبعة المدني، مصر 1389هـ- 1969م.

* التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو القاهرة- دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي 1381هـ- 1961.

* الثعالبي ناقداً وأديباً: محمود عبد الله الجادر الطبعة الأولى دار الرسالة للطباعة- بغداد 1976م.

* ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور الثعالبي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار نهضة مصر للطبع والنشر مطبعة المدني- القاهرة 1384هـ- 1965.

* جمع الجواهر في الملح والنوادر لأبي اسحق إبراهيم بن علي الحصري القيراوني وهو الذي طبع باسم (ذيل زهر الآداب) تحقيق علي محمد البجاوي الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي 1372هـ- 1959م.

* الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية لمحيي الدين أبي محمد عبد القادر ابن أبي الوفاء القرشي (ت775هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر أباد 1332هـ.

* حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح لأحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري اليمني الشرواني (ت 1253هـ)، المطبعة اليمنية، مصر 1320.

* خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي قدم لـه حسـن الأمـين منشـورات دار مكتبـة الحياة، بيروت 1966.

* خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لمحمد أمين بن فضل الله المحبي الدمشقي (ت1061هـ)، المطبعة الوهبية- القاهرة.

* دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة، مراجعة وزارة المعارف العمومية، مصر، 1933.

* دائرة معارف البستاني، لبطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت 1882م.

* ديوان أبي الطيب المتـنبي بشـرح أبـي البقـاء العكـبرى المسـمى (بالتبيـان في شـرح الديوان) طبعه وصححه مصطفى السقًا وإبراهيم الأبيـاري، وعبـد الحفـيظ شـلبي الطبعة الثانية، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر 1956.

* ديوان أبي الطيب المتنبي وفي أثنـاء متنـه شـرح العلامـة الواحـدي تـأليف فريـدرخ ديتريصي، طبع في مدينة برلين 1891م.

* ديوان البحتري الوليد بن عبيد بن يحيى الطـائي (ت284هــ) تحقيـق حسـن كامـل الصيرفي، القاهرة دار المعارف 1964م.

* ديوان بديع الزمان الهمذاني- مطبعة الموسوعات بمصر 1903م.

* ديوان الخنساء تماضر بنت عمرو. الطبعة الخامسة، بيروت دار الأندلس 1968.

* ديوان الصاحب بن عباد: تحقيـق محمـد حسـين آل ياسـين. الطبعـة الأولى. مطبعـة المعارف ببغداد 1965.

* ديوان علي بن الجهم تحقيق خليل مرد م بيروت- لجنة التراث العربي.

* ديوان عنترة بن شداد تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي- بيروت المكتب الإسلامي.

* ديوان قيس بن الخطيم عن ابن السكيت وغيره حققه وعلق عليه ناصر الدين الأسد، القاهرة- دار العروبة 1962.

* ديوان كشاجم تحقيق خيرية محفوظ بغداد، مطبعة دار الجمهورية 1970.

* ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، مكتبة القدس القاهرة 1352هـ.

* رسائل أبي بكر الخوارزمي، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، 1297هـ.

* رسائل بديع الزمان الهمذاني (طبع على هامش خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي)، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر.

* رسائل الثعالبي أو نثر النظم وحل العقد لأبي منصور الثعالبي قدم له على الخاقاني- مكتبة دار البيان في بغداد ودار صعب في بيروت.

* روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات لمحمد باقر الموسوي الميرزا الخوانساري الاصبهاني (ت 1313) مكتبة إسماعيليان 1390هـ.

* ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا، لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت1069هـ. تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. الطبعة الأولى 1386هـ- 1967م.

* زهر الآداب وثمر الألباب: لأبي اسحق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت 453هـ) تحقيق محمد علي البجاوي الطبعة الأولى دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركاه 1372هـ- 1953م.

* سحر البلاغة وسر البراعة لأبي منصور الثعالبي وقف على طبعه أحمد عبيد، الطبعة الأولى، مطبعة الترقي بدمشق 1250هـ.

* سمط اللآلي في شرح آمالي القالي لأبي عبد الله الاوني البكري الأندلسي

(ت 487 هـ) تحقيق عبد العزيز الميمني القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر 354هـ- 1936م.

* سيرة جلال الدين منكبرتي لمحمد بن أحمد النسوى (ت 628هـ) نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي- دار الفكر العربي مطبعة الاعتماد، مصر 1953.

* شذرات الذهب في اخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت 1089هـ) مكتبة القدسي بجوار الأزهر/ مصر 1350هـ.

* شرح درة الغواص في أوهام الخواص لأحمد شهاب الدين الخفاجي، الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب، قسطنطينية 1299هـ.

* شرح ديوان المتنبي، لعبد الرحمن البرقوقي الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت 1938.

* شرح المضنون به على غير أهله، لعبيد الله بن عبد الكافي، مكتبة دار البيان، بغداد، دار صعب، بيروت.

* شرح مقامات الحريري البصري لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي (ت 620 هـ)، اشرف على نشره وتصحيحه، محمد عبد المنعم الخفاجي، المطبعة المنيرية بالأزهر، القاهرة 1953م.

* شرح نهج البلاغة لأبن أبي حديد (ت 655 هـ) تحقيق الشيخ حسن تميم بإشراف لجنة إحياء الذخائر دار مكتبة الحياة بيروت 1963.

* شرح المنيني المسمى (الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي للشيخ المنيني أحمد بن علي بن صالح الطرابلسي (ت 1172هـ) مطبعة جمعية المعارف، مصر.

* شروح سقط الزند (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب 1364هـ- 1945م، الناشر، الدار القومية للطباعة والنشر بإشراف الدكتور طه حسين وتحقيق الأساتذة

مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد.

* صبح الأعشى في صناعة الانشاء، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ)، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مطابع كوستا توماس وشركاه القاهرة .
* الصبح المنبي عن حيثية المتنبيء ليوسف البديعي الدمشقي (ت 1073 هـ)، تحقيق مصطفى السقا، ومحمد شتا، وعبده زيادة عبده، مطبعة دار المعارف، 1963.
* طراز المجالس لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت 1069هـ) المطبعة الوهبية المصرية- مصر 1284هـ.
* عدد من بلغاء إيران في لغة العرب ونخب من آثارهم. دكتور أحمد قاسم تويركاني طهران 1336هـ.
* العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ليوهان فك نقله إلى العربية وحققه عبد الحليم النجار، القاهرة، مكتبة الخانجي 1370 هـ- 1951م.
* عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 271هـ) القاهرة- دار الكتب المصرية 1348هـ- 1930 أم.
* غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة لأبي اسحق برهان الدين بن يحي بن علي الكتبي المعروف بالوطواط (ت 718هـ)، القاهرة المطبعة الأدبية 1318.
* فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري (ت 487هـ) حققه وقدم له د. عبد المجيد عابدين والدكتور إحسان عباس الطبعة الأولى 1958م.
* فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي مطبعة الاستقامة بالقاهرة، 1378هـ- 1959م.

* الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها للدكتور أحمد محمد الحوفي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة 1961م.

* الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير (ت 360 هـ) دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1386 هـ- 1967م.

* كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون (ت808 هـ) الطبعة الثانية دار الكتاب، بيروت 1961.

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد كاتب جلبي (ت 1067هـ)، طبعة وأونست، المكتبة الإسلامية، والمكتبة الجعفرية، المطبعة الإسلامية طهران، 1387هـ- 1947م.

* كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان لإبراهيم الأحدب الطرابلسي (ت 1891م) المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

* الكناية والتعريض لأبي منصور الثعالبي، قدم له علي الخاقاني، مكتبة دار البيان، بغداد، دار صعب، بيروت.

* لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، (ت هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر/ بيروت 1956م، 1375هـ.

* اللباب في تهذيب الأنساب، لعز الدين ابن الأثير الجزري (ت 360 هـ) مكتبة المثنى، بغداد.

* المتشابه لأبي منصور الثعالبي تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، نشر في مجلة كلية الآداب التي تصدرها كلية الآداب جامعة بغداد، العدد العاشر سنة 1967م.

* مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني

(ت 518هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية، مطبعة السعادة بمصر 1379هـ- 1959م.

* محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي القاسم حسين بن محمد بن الراغب الأصبهاني (ت 502هـ) منشورات، دار مكتبة الحياة، بيروت 1961م.

* المخلاة لبهاء الدين محمد بن الحسين العاملي (ت 953هـ) القاهرة مكتبة مصطفى البابي الحلبي- 1975م.

* مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، لأبي محمد عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني المكي (ت 768هـ)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية 1290هـ- 1970م.

* مصارع العشاق: لأبي محمد جعفر بن أحمد أحمد السراج (ت 500 هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، وأحمد مرسي شالي. القاهرة مكتبة الأنجلو 1956م.

* مصفى المقال في مصنفي علم الرجال، أغا بزرك محمد محسن الطهراني، عني بتصحيحه ونشره ابن المؤلف أحمد نزوى، الطبعة الأولى، إيران 1378هـ- 1959م.

* مطالع البدور في منازل السرور. لعلاء الدين بن عبد الله الغزولي (ت 815 هـ)، القاهرة مطبعة إدارة الوطن، 1299هـ.

* معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين منهم قديماً وحديثاً (تتمة كتاب الفهرست للشيخ أبي جعفر الطوسي لرشيد الدين أبن جعفر محمد بن علي بن شهر أشوب السروى (ت 588هـ) عني بنشره عباس إقبال طهران، مطبعة فردين 1353هـ.

* معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية) لعمر رضا كحاله، مطبعة الترقي، دمشق 1957- 1961.

* معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي دار صادر للطباعة والنشر دار بيروت للطباعة والنشر، 1374هـ، 1955م.

* معجم الشعراء: لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت 384 هـ) مكتبة القدسي- القاهرة.

* معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس، مطبعة سركيس- القاهرة 1928.

* مفيد العلوم ومبيد الهموم المنسوب (لجمال الدين أبي بكر الخوارزمي)، طبعة دمشق، دار التقدم 1906)، وطبعة القاهرة، المطبعة الشرقية، 1909م.

* المقابسات: لأبي حيان التوحيدي تحقيق وشرح حسن السندوبي الطبعة الأولى، المطبعة الرحمانية بمصر/ 1929م.

* مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني (ت 356 هـ) شرح وتحقيق أحمد صقر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية 1949.

* المكارم والمفاخر المنسوب لأبي بكر الخوارزمي نشر عزت العطار القاهرة، 1354هـ.

* المناقب للحافظ أبي المؤيد الموفق بن أحمد بن محمد البكري المكي الحنفي المعروف بأخطب خوارزم (ت 568هـ)، قدم له محمد رضا الموسى الخرسان، منشورات المطبعة الحيدرية ومكتبتها في النجف 1965.

* المنتحل لأبي منصور الثعالبي تحقيق أحمد أبو علي المطبعة التجارية- الإسكندرية 1901م.

* المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء لأبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني الثقفي (ت 482هـ) مكتبة دار البيان، بغداد، دار صعب، بيروت.

* من غاب عنه المطرب، لأبي منصور الثعالبي، ضمن مجموعة التحفة البهية الرسالة الثامنة عشرة، مطبعة الجوائب القسطنيطينية 1302هـ

* النثر الفني في القرن الرابع: الدكتور زكي مبارك الطبعة الثانية المكتبة التجارية- القاهرة 1975م.

* نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد

الأنباري (ت 577هـ)، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، الطبعة الثانية- مكتبة الأندلس، بغداد، 1970م.
* نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس: لعباس بن علي بن نور الدين الحسيني الموسوي المكي (ت 1180هـ) قدم له محمد مهدي الخرسان، منشورات المطبعة الحيدرية النجف (1387).
* نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة لأبي علي المحسن بن علي التنوخي (ت384) تحقيق عبود الشالجي مطابع، دار صادر، بيروت 1973م.
* نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت73هـ) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا توماس وشركاه، القاهرة.
* هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادي، مطبعة وكالة المعارف استانبول، أعادت طبعه بالاوفست مكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي بطهران، الطبعة الثالثة 1378هـ- 1947م.
* الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي باعتناء هلموت ريتر، الطبعة الثانية فيسر بادن فرانز ستاينر 1962.
* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين بن أحمد بن أبي بكر ابن خلكان (ت 681) تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الثقافة، بيروت.
* الوساطة بين المتني وخصومه، لأبي الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني (ت 390هـ) تحقيق أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية 1951م.
* يتيمة الدهر في محاسن، أهل العصر لأبي منصور الثعالبي تحقيق محي الدين عبد الصمد، القاهرة مكتبة الحسين التجارية والمكتبة التجارية الكبرى 1956.

ب- المخطوطات والرسائل الجامعية

* الأدب في أقليم خوارزم- هند حسين موسى/ رسالة ماجستير/ جامعة بغداد 1973.
* الأمثال المولده، لأبي بكر الخوارزمي، مخطوطة في مكتبة فيض الله استانبول ضمن مجموع تحت رقم 2133.
* تحفة الوزراء/ المنسوب لأبي منصور الثعالبي، مصور عن نسخة بخط يوسف بن محمد الوكيل الميلوى كتبت عام 1112.
* الحصون المنيعة في طبقات الشيعة، للعاملي، مخطوط في مكتبة آل كاشف الغطاء في النجف.
* ديوان ابن نباته السعدى، عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس 1974م.
* رسائل الخوارزمي: نسخة مصورة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد، عن مخطوطة في مكتبة مدرسة الحاج حسين بك في الموصل.
* شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لأبي بكر الخوارزمي مخطوط في مكتبة Chester Beitty، تحت رقم 5179 – VLL.
* عيون التواريخ: لمحمد بن شاكر الكتبي (ت 764 هـ)، مصورة موجودة في مكتبة الحكيم العامة في النجف (عن نسخة المكتبة الظاهرية).
* مباهج الفكر ومناهج العبر، لبرهان لابن إبراهيم بن شرف الدين يحيى الوراق، مصورة موجودة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد عن مخطوطة جامع فاتح والجامع الجديد المرقمة (918، 1010، 4116).
* مناظرة بديع الزمان لأبي بكر الخوارزمي، مخطوط في مكتبة عاطف أفندي باستانبول.
* نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر، ليوسف بن محمد الصنعاني مصورة في مكتبة الحكيم العامة في النجف

ABSTRACT

Abu – Bakr AL- Khawarzmi – His Life and Works

This is a dissertation on Abu-Bakr Al-Khawarazmi, one of the famous writers of the 4th Century A.H. 10th Century A.D. Who in addition to prose writings, was able to add a poetic talent worthy of consideration,

Al-Khawarazmi was known for his interest in language, proverbs genealogy and histories of ancients Battles. He compiled a book of proverbs containing those devised in his age. He should not be forgotten since he was among the early scholars who showed a special interest commentary that left its traces on later commentatos on Al-mutanabbi

The dissertation contains an introduction and four chapters. The first chapter is a biography with details on his social and literary connections. The second chapter deals with the character of Al-Khawarazmi especially his social, political and religious belifs. Here is also a discussion of his cultural sources and works, some of which were found to be not his own, while some others were found to be his. The third chapter is a study of Al- Khawarazmi poetry, showing its technical qualities and sources of influence. The forth chapter is a study of al – khawarazmi's unique position in prose, especially his epistles which show certain characteristics of style. The Appendix is an edited collection of Al- Khawarazmi poetry, thus providing the only reference to that poetry since the Diwan cannot be traced. The conclusion is a resume of the main findings in the study.

أبو بكر الخوارزمي
حياته وأدبه

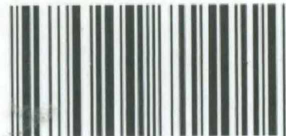


محمود صالح الضمور



دار دجلة
ناشرون وموزعون

عمّان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: 96264647550+ خلوي: 962795265767+
ص ب: 712773 عمان 11171 الأردن
E-mail: dardjlah@yahoo.com
www.dardjlah.com


9789957715014